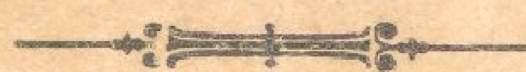
تاريخ أوربا الحديثة
وآثار حضارتها

الجزء الأول

تأليف

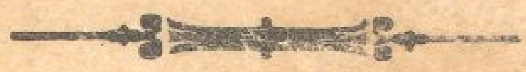
عمر الاسكندرى و سليم حسن

الموظفين بوزارة المعارف العمومية

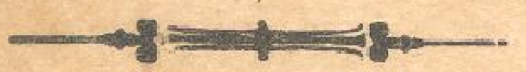


وبه فصلان فى تاريخ انجلترة

(صحيفة ١٣٧ - ١٥٢ و ٢٤٤ - ٢٦٤) بقلم الميجر سَقِدْج



قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها الثانوية و بمدرسة دار العلوم



« الطبعة الثالثة »



مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م

Hafez Hassan

Shawer.

1924

حافظ محمد شاورى

تاريخ أوربا الحديثة
وآثار حضارتها

الجزء الأول

تأليف

عمر الاسكندرى و سليم حسن
الموظفين بوزارة المعارف العمومية



وبه فصلان فى تاريخ انجلترة

(صحيفة ١٣٧ - ١٥٢ و ٢٤٤ - ٢٦٤) بقلم الميجر سَفِدْج



قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها الثانوية
و بمدرسة دار العلوم



« الطبعة الثالثة »



مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر
١٣٤١ هـ — ١٩٢٣ م



لويس الرابع عشر

[ص ١٨٩]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب المشرق والمغرب ، والصلاة والسلام على من تمجّد التاريخُ بهجرته الى يَثْرِب ، وعلى آله وصحبهِ الذين اتخذوا سنّته خير مَرْجع و مَنصِب . وبعدُ فمما لا يقبل الرد ، ولا يتسع لنقد ، أن حضارة أوربا الحديثة ، مع ما قد يؤخذ عليها ، حَرِية بأن تسمى أكبر حضارة شاهدها التاريخ بين سكان كوكب الأرض منذ انبعث فيهم روح الحياة . وان هذه الحضارة ليست كحضارة الأمم البائدة محدودة التأثير الا في موطنها وبيئة أهلها ؛ وانما هي حضارة ظهرت آثارها في مشارق الأرض ومغاربها ، وان اختلفت شكولها باختلاف الأُمم التي مسّتها نفحاتها

من أجل ذلك لم يكن أنفع للمصري — الذي ضربت هذه الحضارة في بلاده بسهم — بعد أن ألمّ بتاريخ أُمته وملته ، من أن يتعرّف تاريخ نشأة الحضارة الأوربية وأخبار الأمم والرجال الذين شيدوا صروحها وعبّدوا طريقها . فألّفنا في ذلك كتابنا « تاريخ أُوربا الحديثة وآثار حضارتها » ، وأصدرنا منهُ الجزء الأول هذا محتويًا من ذلك على الأخبار السابقة للثورة الفرنسية التي كان لها في تاريخ العالم أثر أيَّما أثر

ولما كان بعض ما شمل هذا الجزء هو أخبار الأمم الأوربية في طور تكونها ، كان لابد من سرْد كثير من الحروب والفتن الأهلية والدينية — على ما قد تستدعيه من سأم القارئ الملول — اذ كانت وسيلة لتفهُّم الحوادث التي تليها ، والوقوف على آثار الحضارة نفسها . على أن هذا الجزء ، فضلاً عن افاضته في النهضة الأوربية والاستكشاف الجغرافي ، لم يقصّر في قصّ وقائع الاستعمار الأوربي الذي يُعدّ من أجلى المظاهر لحقيقة هذه الحضارة

وليذكر القارئ أن من خصائص تاريخ أوربا الحديث شدة ارتباط حوادثه

وتداخل بعضها فى بعض ، بحيث أن أخبار بعض الملوك كشارل الخامس ترد فى تاريخ « الامبراطورية » (ألمانيا) وفى ايطاليا وفى اسبانيا . لذلك نوصى الطالب المَعنيّ بوعى كل ما فى هذا الجزء أن يقرأه أكثر من مرة ، ليحفظ منـهُ فى ذهنه صورة دقيقة صحيحة

وقد وُضع هذا الكتاب ليكون مطابقًا لمقرر التاريخ فى السنة الدراسية الثالثة من التعليم الثانوى ولمقرر بعض سنى مدرسة المعلمين الناصرية ؛ الاّ أنهُ مع ذلك صيغ فى قالب يحبّبه الى غير الطلبة من القراء

أما المصادر التى استقينا منها أخبار هذا الجزء فأهمها :

« التاريخ الحديث – مجموعة كمبردج » (المجلدات ١ – ٨) . « التاريخ الأوربى – مجموعة رِفنجتُن » (المجلدات ٣ – ٦) . « ستة عصور من التاريخ الأوربى – مجموعة مِثون » (المجلدات ٣ – ٥) . « اتساع نطاق أوربا » تأليف المستر إدْجَر المفتش بوزارة المعارف العمومية (فى ثلاثة مجلدات) . « تاريخ أوربا الوسيط والحديث » تأليف مَيَر . « أوربا الحديثة – للطلبة » تأليف لُدج . « لويس الرابع عشر وعصره » تأليف جابور . « تاريخ أوربا » للاستاذ جرانت . « تاريخ الأمة الانجليزية » تأليف جرِين (النسخة المختصرة) ؛ وغير ذلك من الكتب الشهيرة المعتمدة

حرر بالقاهرة في ٥ ذى الحجة سنة ١٣٣٥ — ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٧

الباب الأوّل

النهضة والاصلاح الدينى فى أوربا

تمهيد

اقسام التاريخ

جرت عادة المؤرخين فى قَصّهم أحوال الأمم والشعوب المتقاربة الصفات والمواطن أن يقسّموا تاريخهم أقساماً ثلاثة ، مختلفةً باختلاف الأحوال والأطوار التى مرّت بهذه الأمم فى سبيل حياتها السياسية والمدنية : وهى التاريخ القديم والوسيط والحديث. ويجعلون لكلّ مبدأ يصطلحون عليه ويحدّدونه (مجمعين أو مختلفين) بحادثة عظيمة نشأت منها أو تلتها سلسلةٌ من الحوادث والأحوال المتشابهة الآثار والنتائج فى حضارة الأمم؛ لأنّ الحادثة وحدها فى يومها أو عامها هى كل أسباب انقلاب تاريخ هذه الامم

وبمثل ذلك قسم مؤرخو أوربا تاريخ بلادهم ثلاثة أقسام :

(١) التاريخ القديم – ويبتدئ بتكوّن الجماعات والإمارات المعلومة الأحوال

(٢) التاريخ الوسيط – ويبتدئ بسقوط «رومية» على يد برابرة الشمال سنة ٤٧٦

مميزات التاريخ الحديث

(٣) التاريخ الحديث – ويبتدئ بفتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ عند بعضهم ، وبكشف أمريكا سنة ١٤٩٢ عند آخرين ، اذ كان لكلتا الحادثتين أثر بيّن فى تنويع حضارة الجنس البشرى وحركته الفكرية ومطامعه السياسية ومبادئه الاجتماعية وانظمته الحُكمية : الى ما هو مألوف فى جملته لدينا معاشر الأحياء وشاغلٌ لعقولنا بحثاً وتناولاً بنفس الوسائل والطرق التى كان ينتهجها الأسلاف الذين عاشوا فى هذه العصور الحديثة

ونبدأ الآن بتاريخ عصور أوربا الحديثة فنقول :

الفصل الأول

النهضة الأوربية

نهوض أوربا الحديثة ابتدأت أوربا فى أواخر القرون الوسطى تدخل فى طور نهوض عظيم كانت نتيجته تأسيس مدنية الغرب الحاضرة وتكوين الدول الأوربية الحديثة بما نعرفه الآن من نظامها : فأمّحى من الأحوال الأوربية الاجتماعية والسياسية والصناعية والتجارية ما عُرف فى القرون الوسطى . فكان هـذا الطور بمثابة جسر موصل تاريخ القرون الوسطى بالتاريخ الحديث

مبدأ النهضة وقد سَمّى المؤرخون زمن هذ النهوض « عصر النهضة الأوربية » * . ولوقوع الانقلاب فيه مدرجاً اختلفوا فى وضع مبدأ له . فمنهم من ذهب الى أنهُ ابتدأ فى القرن الثالث عشر، (وهو الأرجح) وبعضهم رأى أنهُ ابتدأ فى القرن الرابع عشر، غير أن ما لا شك فيهِ أن تلك النهضة قد درجت فى سبيل التقدم فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وعاشت نامية فتيّة حتى أدركت القرن السادس عشر، فانكشفت منها مآرب أخرى لاصلاح بعض الأمم ما اعتقدتهُ مختلاً من الدين المسيحى وما شابهُ من البدع والخرافات

دلائل الانتقال الى العصر الجديد ومع ما كان فى هذه النهضة من الانكباب على درس علوم الأقدمين ومعارفهم والولوع بالزيادة عليها ، حدثت فى عصرها تغييرات جمة كانت من أعظم ما يمتاز بهِ التاريخ الحديث عن تاريخ القرون الوسطى . وأهم هذه التغييرات :

---

* ويسميه الاوربيون بلفظ (Renaissance) ومعناه الحقيق « الاحياء » ، وقد يظن ان المقصود من ذلك (احياء العلوم والمعارف القديمة) من اغريقية ورومانية (Revival of Learning) مع ان هذا ليس الا عاملا من عوامل عديدة فعالة ساعدت على انتشار هذه النهضة العامة ، وانما المقصود من الاحياء استيقاظ الدول الاوربية من سباتها العميق الذى غشيها في القرون الوسطى وعاق الفكر الاوربى عن البحث ، ولذلك اطلقنا لفظ (عصر النهضة الاوربية) مريدين هذا العصر

قيام الأمم بذاتها

١ – أخذت الأمم الأوربية تشعر بأنها قائمة بذواتها وتنزع عن أعناقها نيرين ثقيلين : نفوذ البابا وسلطان إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ؛ فان الأمم الأوربية الحديثة كفرنسا وانجلترا واسبانيا كانت أثناء القرون الوسطى فى حال نشوء وتكوّن ولم تصر أمماً مستقلة متميزاً بعضها عن بعض الاّ بعد انقضاء ذلك العهد، حين نبذت الفكرة الداعية فى العصور المظلمـة الى جعل جميع الأصقاع المسيحية دولةً واحدة يسيطر عليها حاكمان : البابا والأمبراطور ؛ على ان هذه الفكرة لم تتجاوز حد النظر المحض ولم يطاوع مشيئتها فى العمل بها زمن من الازمان ؛ يدلك على عدم اجتماع الألفة لتنفيذ هـذه الفكرة ما وقع بين المسيحيين فى الحروب الصليبية من تفرّق الكلمة والتنازع الذى جرّ عليهم الفشل وخيبة الأمانى فى تلك الحروب

محو النظام الاقطاعى

٢ – القضاء على النظام الإقطاعى المشبه نظاماً زراعياً حربياً ؛ وهو أن الملك يقطع أمير ناحية قطيعةً (منحة فى الأرض) يستغلها نظير خدمة عسكرية يؤديها له عند الحاجة . والأمير يقطع لعمّاله أجزاء من تلك الأرض لاستغلالها بجميع الشروط التى قيّده الملك بها ؛ فكان من نتائج هذا النظام الاهتمام بالشؤون الحربية والزراعية والانصراف عما سواها واهمال الصناعة ، فلما اندرست معالم هذا النظام فى أواخر القرون المتوسطة نالت الصناعة نصيباً من العناية بها حتى صارت من أجلّ ينابيع الثروة لأوربا فى زماننا

ويلحق بهذا النظام « نظام الفروسية » . وهو انتماء الفرسان الى هيئات أو طوائف حربية دينية جعلت أهم أغراضها الذود عن الدين وحماية الضعيف والمظلوم واحترام النساء ، ولم يراع فى الانتساب اليها جنسية الأعضاء الذين تتألف منهم كل طائفة . فكان بين الفارس الجرمانى والفرنسى من الإخاء والمودة مالم يكن بين الفارس الجرمانى ومواطنيه من الفلاحين

(٤) ظهور الفرد

٣ – ظهور الفرد فى الجمع . فأصبح أصلهُ بعد أن كان مكوّناً من جماعات وطوائف ليس للرجل الواحد شأن الا بهـا . ولهذا عدم المرء منفرِداً مجالاً يظهر فيه نشاطه

ومواهبه ، ولم توجد اذ ذاك طريقة لنهوض أى فرد عالى الهمة الاّ بالاندماج فى سلك الكنيسة التى كوّنت اكبر طائفة فى هذا العهد

البارود ٤ – استخدام البارود الذى نشأ عنه الانقلاب العظيم فى الفنون الحربية وفى نظام جماعة الناس لارتباطها فى القرون الوسطى بالأمور الحربية

الاختراع والاستكشاف ٥ – حدوث الاختراع والاهتداء لعدة آلآت نافعة مثل بيت الابرة (البوصلة) والأسطُرْلاب اللذين كان لهما الفضل الأكبر فى توسيع نطاق الملاحة وتسهيل سبل الاستكشاف الجغرافى العظيم الذى كان له اكبر أثر فى الأحوال التجارية والسياسية

انتشار العلم ٦ – انتشار العلم وظهور روح البحث والتنقيب ونبذ الخرافات والقيود التى حجبت الأفكار فى القرون الوسطى . فقد كان الجهل فيها فاشياً ، واحتكر القساوسة والرهبان القليل من المعارف القديمة التى لم تندثر . على ان هؤلاء كانوا يكرهون الحرية فى البحث والتنقيب ويرمون أهلها بالخروج عن الدين*

الامور التى ساعدت على انتشار النهضة وقد ساعد على ظهور هذه النهضة ونموها وانتشارها فى أنحاء أوربا أمور كثيرة : بعضها مؤثرات خارجة ، وبعضها ضروب من الانقلاب أو الاصلاح حتى أن تعتبر أجزاء من النهضة العامة

ويُلخّص أهم هذه الأمور فيما يلى : –

١ – الحروب الصليبية

اختلاط الغربيين بالشرقيين ان اختلاط الغربيين بالشرقيين نحو قرنين من الزمان أدّى الى اقتباسهم شيئاً

* وفى مقدمة المفكرين الذين نبذوا هذه القيود « كوبرنيق » الالمانى (١٤٧٣-١٥٤٣) الذى وصل ببحثه الفلكى الى ان الارض تدور حول الشمس وان الشمس هى المحور الذى تدور حوله مجموعة الكواكب التى منها الارض . وكان رأى بطليموس هو السائد قبل ذلك ، ومعناه ان الارض هى المركز لجميع الكون . واتى بعد كوبرنيق « غاليلو » الرياضى الايطالى الشهير (١٥٦٤ – ١٦٤٢) وهو أول اوربى استعمل المناظير فى رصد الكواكب ، فأيد رأى كوبرنيق واظهر مكشوفات علمية جديدة ، ولما رأت الكنيسة ان آراءه مخالفة لتعليمها أمرت بالقبض عليه وحاكمته فاضطر الى نقض ما كتب (غاليلو)

كثيراً من الحضارة الشرقية ولاسيما الفنون والصناعات والعلوم الرياضية . وقد نقلوا معهم كثيراً من الكتب العربية الأصل والمترجمة عن الاغريقية ، فأعجبوا بها أيما إعجاب ، وولّدت فيهم شغفاً عظيماً بالاطلاع على معارف الأقدمين من الإغريق والرومان والاغتراف من مناهلها . وكان في مقدمة ذلك القصصُ والأساطير المخصوصُ بها أعاظمُ الرجال والحوادث، مثل « حصار تِرْوادَة » وأنباء سليمان الحكيم والإسكندر الأكبر . ونما هذا الميل فيهم بالتدريج حتى أخذوا ينكبُّون على درس الآداب والفلسفة والعلوم القديمة ، وان اختلاطهم بالعرب وقيامهم بالأسفار الطويلة الى الأنحاء النائية علّمهم شيئاً كثيراً عن سطح الأرض واتساعها والممالك التى تشتمل عليها ، بعد ان كانت معرفتهم بعلم وصف الأرض (الجغرافيا) لا تتجاوز الخرافات . فولّد ذلك فيهم حب الاستطلاع والاستكشاف . وقد نقل الصليبيون من المشرق اليهم كثيراً من العلوم ولاسيما الطب والعلوم الرياضية ، كما نقلوا عدة صناعات نفيسة مثل صناعة الحرير والسكر والورق وطريقة استخدام الريح فى تحريك الطواحين الهوائية التى اخترعت فى آسيا الصغرى وأنشئت أول طاحون منها بأوربا عام ١١٠٥ فى مقاطعة « نُرْمَنْدِيَة »

اسفار الصليبيين

٢ — ابتداء ظهور أدبيات فى اللغات الأوربية على اختلافها

ارتقاء اللغات الحديثة

دُوّنت المصنَّفات الأوربية جميعها قبل عصر النهضة باللغة اللاتينية . فلما أنعش نفوسَ الأوربيين روحُ الحرية وتركوا الانقياد للقديم ظهر فيهم كُتّاب نابغون كتبوا الروايات والأغانى بلغات بلادهم ، مُدْخلين فيها من وسائل التحسين والاصلاح ما اقتبسوه من كتب الأقدمين ، فارتقت تلك اللغات وتمّ تكوينها وأصبحت صالحة لتدوين العلوم والمعارف ، وصار لذلك أكبر أثر فى ترقية معارف تلك الشعوب لأن اكثرهم لم يكونوا يعرفون اللغة اللاتينية التى كانت قبلُ وحدَها لغة العلم . فلما أُلّفت الكتب باللغات التى يفهمونها انفسح لهم مجال القراءة والاطلاع، فاستنارت أذهانهم واتسعت مداركهم

استعمالها فى التأليف

٣ — رقى الحياة الاجتماعية فى مدن ايطاليا العظيمة

رقى المدن الايطالية

كان بايطاليا فى القرون الوسطى عدة مدن تجارية عظيمة ، بعضهـا على هيئة جمهوريات صغيرة مستقلة ، مثل « البندقية » و « فلورنسة » و « جِنْوة » ، فساعدت الحرية فيها ووفرة المال وحب الاستطلاع الذى يصحب التجارة عادة على فك قيود الكنيسة والاهتمام بالشؤون الحيوية واكتساب ما يساعد على ترقيتها من العلوم والمعارف. فارتقت الحالات الاجتماعية والسياسية فيها قبل غيرها من الانحاء الأوربية وغدا المستوطن لها وهو منفرد بمجال للظهور والنبوغ فى العلوم أو الفنون ، كحال أثينا أثناء عظمة الأغريق . فصادفت النهضة الأوربية منبتاً خِصْباً فى تلك المدن التى عادت منهلاً عذباً تزاحمت على وروده جميع الممالك الأوربية

٤ — إحياء العلوم والمعارف الإغريقية والرومانية

احياء العلوم القديمة

يعتبر الأوربيون هذا أكبر البواعث لظهور النهضة الأوربية ، وانهُ المبدأ الحقيقى لها ؛ فلم تكن فائدته مقصورة على الاستفادة من علوم الأقدمين ، بل زاد على ذلك أنهُ بعث فى النفوس روح الحرية وحب التنقيب وفك القيود التى كبّلت أوربا فى القرون الوسطى . وسيأتى ذكر ذلك مفصلاً عند الكلام على النهضة فى ايطاليا

الطرق التى حدث منها

وقد حدث هذا الإحياء من ثلاث طرق عظيمة : —

ا — ظهور بعض أفراد فى المدن الإيطالية ممن شغفوا بدرس الآداب اللاتينية ثم الإغريقية وشَوّقوا القوم الى الإقبال عليها

ب — فضل العرب : فلا شك أن علوم العرب وآدابهم وفنونهم هى التى ربطت حضارة الاقدمين من الإغريق والرومان بالحضارة الحديثة . فللعرب الفضل (بالذات أو بالواسطة) فى إحياء العلوم والفلسفة بأوربا : أخذتها عنهم من المشرق أثناء الحروب الصليبية (وقد سبق الكلام فى ذلك) ، ومن المغرب من بلاد الأندلس

(والكلام فى بسط ذلك يضيق عند ذكره هذا الكتاب) . فقد كانت اسبانيا فى عهد العرب مهدا الحضارة ومهبط العلم ومقر الفنون والصناعات الراقية ، وبها من المدارس الجامعة ودور الكتب العظيمة ما لا يدخل تحت حصر ، وكان طلاب العلم يهرعون الى هذه المعاهد من جميع انحاء أوربا للنهل من حياضها فى كل علم وفن ، اذ كانت بلاد الاندلس وحدها هى القبلة التى يولون وجوههم شطرها لاطفاء ظمئهم ونقع غلتهم ، وقد كان لعلماء الاندلس القدح المعلى فى نشر الطب القديم بعد أن قبر فى أوربا قرونا طويلة ، وكشفوا فيه أموراً كثيرة أحدثوها وهذبوا مسائله وحسنوا فصوله . وفى مقدمة هؤلاء العلماء « أبو القاسم خلف » من اكبر جراحى القرن الحادى عشر (الميلادى) وله طرق فى الاعمال الجراحية تطابق الطرق الحديثة ، وبعده « ابن زُهر » صاحب المبتكرات الجمة فى الجراحة والطب ، ثم « ابن البيطار » صاحب اليد الطولى فى علم النبات ومؤلف كتاب « مفردات ابن البيطار » الذى لم يقصر بحثه فيه على ما وصل اليه علم الاغريق بالنبات بل ساح لاجله فى جميع أنحاء الشرق للوقوف على خواص الاعشاب والعقاقير الطبية وفوائدها . وأما العلوم الفلسفية فكان امامها « ابن رشد » المتوفى سنة ٥٩٥ هـ وهو أقدر من مهد السبيل لاتصال الفلسفة الحديثة بالفلسفة القديمة ، وبذلك اعترف الغربيون

فضل الاندلس فى العلوم

ولم يكن تأثير حضارة الاندلس العربية فى الشعر والموسيقى بأوربا بأقل من تأثيرها فى العلوم والفلسفة : فقد كان لرقى الشعر وكثرة انشائه وتداوله بين جميع الطبقات فى الاندلس من الامير الخطير الى الفلاح الحقير أكبر أثر فى تحبيبه الى الطلاب الاوربيين الذين وردوا هذه البلاد . فكان لاقوامهم من ذلك منوال نسجوا عليه فى انشاء الاناشيد والاغانى الاوربية

فى الشعر

وفى مقدمة الطلاب الذين وفدوا الى الاندلس البابا « سلفستر الثانى » فانه تغلب على التعصب الدينى وخرج من مدينة « أورياق » مسقط رأسه وجاور فى « اشبيلية » ثلاث سنوات ، ففتح بذلك لقومه باب العلم والمعارف ، فكثر ارتحالهم الى مدارس الاندلس وتخرجوا على مشايخها وعادوا لاوطانهم يلقون الدروس فى ساحات المدن الكبيرة ، فأدرك الناس فوائد العلم وقرّب الملوك والامراء منهم علماء المسلمين ، فكان الشريف الادريسى وصاف الارض (الجغرافى) مقربا عند « رجار الثانى » ملك « صقلية ونابلى » وكان أحفاد ابن رشد مقربين كذلك عند خلفاء رجار المذكور . وفى القرن الثالث عشر الميلادى ازدادت محبتهم للعلوم ففتحوا مدرسة لها وللطب فى مدينة « مون بليه » القريبة من مرسيليا وجاءوا لها بأساتذة العرب من الاندلس ، فنقلوا بذلك كثيراً من علومها وآدابها

الطلبة الاوربيون فى الاندلس

علماء المسلمين فى اوربا

هذا الى ما نقل بطريق ترجمة الكتب . فقد ترجم من مؤلفات علماء الاندلس وفلاسفتها المسلمين شيء كثير : نخص بالذكر منه كتاب « الكليات فى الطب » وكتاب « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » و « فلسفة أرسطو » . وهذه الكتب الثلاثة لابن رشد

ترجمة الكتب العربية

حـ – سقطت الدولة الرومانية الشرقية سنة ١٤٥٣ ميلادية باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية . وكانت تلك المدينة لا تزال حافلة بالعلماء المتضلعين فى العلوم والآداب الإغريقية القديمة ، ولكنهم كانوا قبل هذا الحين بنحو خمسين عاماً قد

هجرة علماء القسطنطينية

أحسوا بالخطر الذى يتهدد الدولة من تقدم الاتراك وعلموا أن مدينتهم لامحالة ساقطة فى أيدى هؤلاء المغيرين ، فأخذ الكثير من علماء القسطنطينية وأدبائها ينزحون الى المدن الايطالية العظيمة حيث يكونون بعيدين عن كل اضطهاد أو شر يخشونهُ من الاتراك ، فنقلوا معهم كثيراً من الكتب والمخطوطات الاغريقية النفيسة التى كانت لاتزال مجهولة فى أوربا . فرحب بهم أهل المدن الايطالية ونصبوهم أساتذة فى مدارسهم وجامعاتهم، فكان ذلك من أكبر العوامل الفعالة فى نمو النهضة فى ايطاليا، ومنها انتشرت علومهم فيما بعد الى باقى أنحاء أوربا

٥ — اختراع فن الطباعة بواسطة حروف متحركة

الطباعة القديمة

يظهر أن فن الطباعة معروف للانسان منذ أزمنة سحيقة ، ولكنهُ لم يكن بالطريقة المعهودة الان وهى استعمال حروف متحركة بعضها منفصل عن بعض يكوّن منها ما يراد طبعه ثم تُفكّ لتستخدم فى طبع غيره عند الحاجة ، بل كان الطبع بواسطة ألواح يحفر فيها شكل ما يُرادُ أن يُطبع فلا تصلح لطبع غيره . ولذلك كان أكثر استخدامها فى طبع الصور والمنقوشات . وكان فن الطبع بهذه الصفة معروفاً عند الصينيين من قديم الزمان ثم عند العرب ، ثم ظهر بأوربا فى أواخر القرون الوسطى . ولا نعلم الطريقة التى عرفه بها الأوربيون ولا العلاقة التى بين هذا الفن عندهم وبينه عند الصينيين . ولم يقصره الأوربيون حين تناولوه على استخدامه فى طبع الصور والمنقوشات ، بل أخذوا يحفرون جُملاً وعبارات تحت الصور لإيضاحها، ثم تدرجوا الى استخدامه فى طبع صفحات مكتوبة بأكملها ، ثم أداهم شغفهم بنشر العلم الى استخدامه فى طبع كتب برمتها . ولا يخفى ما فى ذلك من العناء الكبير وشدة غلاء ما يطبع من الكتب بهذه الطريقة. فساعدت المقادير أوربا وهى فى إبان نهضتها وشدة حاجتها الى نشر الكتب بين الناس بأن اهتدى المخترع العظيم « يوحنا جوتنبرج » من أهل مدينة « مينز » بألمانيا (١٤٥٤ - ١٤٩٤ م) الى اختراع طريقة الطبع

الطباعة عند الصينيين

جوتنبرج واختراع الطباعة الحديثة

بالحروف المتحركة ، وهذه الطريقة هى المتبعة الآن *. وكانت الحروف فى أول أمرها تُصنع حرفًا حرفًا بقطعها من الخشب أو المعدن . ولا شك أن هذا عمل متعب كثير النفقات . ثم أدخل « بطرس شُفَر » من أهل « مينز » أيضًا اصلاحًا كبيرًا فى صنع الحروف فشكّلها بطريق السبك

والمشهور أن أول كتاب طُبع بهذه الطريقة هو الإنجيل باللغة اللاتينية ، فطبع بمطبعة « جوتنبرج وفُوُسْت » بمدينة « مينز » بين سنتى ١٤٥٤ و ١٤٥٦ م . ومن ثم انتشر فن الطباعة انتشاراً عظيماً فى جميع أنحاء أوربا فسهل بذلك انتشار الكتب وعظم تداولها بين جميع الطبقات

*
* *

﴿ النهضة فى ايطاليا ﴾

فضل ايطاليا فى النهضة

تُعتبر ايطاليا صاحبة القِدْح المُعلّى فى النهضة الأوربية ، ولاسيما إحياء الآداب والفنون الجميلة . فهى التى قامت بأعبائهـا الأولى . ولم تقصر همتها على فتح السبيل لغيرها حتى يقوم سواها باتمام الذى بدأته، بل أخرجت كنوز كتب الآداب والفنون من خزائنها وطبّقت ما فيها من الأمور النافعة على أحوال العصور الحديثة وما يلائمها. ولم ترد الأمم الأخرى هذا المنهل إلّا بعد أن شفت منه إيطاليا غليلَها وأروت عِطاشَها. أجَلْ ان الروح الذى دبّ فى الأمم الأخرى من جراء هذه النهضة ظهر بنتائج أخرى كان لها أكبر أثر فى تاريخ العالم : فظهرت فى ألمانيا مثلاً فى شكل الإصلاح الدينى ، وظهرت فى اسبانيا والبرتقال فى الاستكشاف الجغرافى العظيم ؛ غير أن هذا لا يمنعنا الاعترافَ بان الفضل للمتقدم وأن إيطاليا قامت بأعباء النهضة زمناً طويلاً حتى ثبتت أقدامها فى أوربا وأخذ روح البحث والتنقيب يدب فى جميع أرجائها

مسهلات النهضة في ايطاليا

ولا غَرْوَ أن تكون ايطاليا صاحبة اليد الطُولى فى ذلك ؛ فقد كانت أحوالها

(*) يعزو بعض مؤرخى الهولنديين اختراع هذه الطريقة الى « كستر » أحد مواطنيهم ولكن لم يوجد من البراهين ما يثبت ذلك

الطبيعية والاجتماعية والسياسية وغيرها مساعداً على نمو عوامل النهضة وتقدمها تقدماً سريعاً يفوق كل تقدم فى أى جهة أخرى من أوربا ؛ فإن آثار مجدها القديم وعظم

١ - مجدها القديم

حظها من النصر الباهر وسيادتها على العالم أيام سطوة الدولة الرومانية لم تذهب كلها دفعة واحدة فى أثر غزو برابرة الشمال لها وافتراسهم اياها ، بل بقى فيها فضل من تلك القوة الماضية وبقية من ذلك المجد الغابر تجدد شعوراً فى الإيطاليين على الرغم من تدهورهم واضمحلالهم بأنهم هم أسلاف الرومان والوارثون الحقيقيون لعظمتهم .

٢ - ايطاليا مقر البابوية

وعزز هذا الشعورَ فيهم اشتمالُ ايطاليا على مقر البابوية صاحبة النفوذ الأعظم بأوربا فى القرون الوسطى

٣ - مركزها الجغرافى

هذا الى ان مركز ايطاليا الجغرافى كان بمكانة هامة ، وخاصةً فى عصر كان فيه البحر الأبيض المتوسط مركزاً لتجارة العالم ؛ فكانت التجارة والصناعة مصدرى ثروة للأصقاع الايطالية مثل « فلورنسة » و « البندقيـة » و « جنوة » . ولا شك ان الثروة تولد فى النفس حب العظمة والشعور بالقوة والرغبة فى الحرية ، وتهيئ للانسان

٤ - المدن الايطالية

أسباب الاشتغال بالعلم . وقد أوضحنا فى غير هذا المكان ما كان للمدن الايطالية من الأثر الجليل فى انتشار النهضة الأوربية

٥ - الاثار القديمة

وزد على ذلك امتلاء ايطاليا بالآثار الرومانية القديمة ؛ فانها ، فضلاً عن وجودها نماذج بين الايطاليين (نسجوا على منوالها فى إحياء فنون النحت والنقش والعمارة) ، كانت مثالاً حياً يذكرهم بمجدهم القديم

وربما يتسرب الى الذهن بعد كل ما ذكرنا ان وجود السلطة الدينية في قلب ايطاليا قد يكون داعيا الى التضييق على الحرية في الفكر والبحث ، فنقول مجيبين عن هذا الزعم ان ذلك لم يكن لان الالفة تفضى الى الاستخفاف ، فلم يأب الايطاليون وجود البابوية فى بلادهم ، بل رضوا بمقامها رضاء واسعا جعلهم يفتخرون بعظمة السلطة الدينية بينهم كما عظم السلطان الدنيوى فيهم فى الازمان السالفة . ورغبهم فى ذلك تدفق الاموال الطائلة الى بيت مال البابا وتمتعهم بوظائف

الكنيسة والنهضة

الكنيسة التى كانوا يجنون بسببها الاموال الجمة . وهم مع هذا لم تؤثر فيهم الخرافات التى كانت تذاع من رجال الدين فى الممالك والبلدان القاصية ، فلم يعودوا يعبئون بشىء من تهديد الكنيسة وأحكامها . على ان البابوات انفسهم قد اشتركوا كثيراً فى معاضدة تلك الحركة المباركة ، فكان

من اهم امانيهم ان تكون لهم حاشية تجمع العلماء وطلاب الادب ، وكانوا يطمحون فى ذلك الى منافسة امراء ايطاليا ، مثل اسرة « مديشى » فى فلورنسة ، وملوك نابلى . وكانوا يميلون الى تشييد قصورهم وكنائسهم على يد امهر مهندسى عصورهم، قاصدين بذلك تخليد ذكراهم . ومن الجديرين بالذكر منهم « نقولا الخامس » و« ليو العاشر » ، فقد كان لهما فضل كبير فى جمع الكتب والمخطوطات وتشجيع العلماء والادباء

احياء الآداب

نعود الآن الى ذكر ابتداء الحركة الأدبية واحياء الفنون الجميلة فى ايطاليا فنقول :



(دنتى)

أول من ظهرت فيهِ روح جديدة وخلع عن نفسه قيود الأزمان المظلمة هو « دَنتى » الكاتب الايطالى الشهير . وقد اعتُبر أول فرد وقف على باب النهضة ، لأنهُ لم يركن فى ظهوره الى الالتجاء لجماعة أو طائفة بل كان كل اعتماده على نفسه ؛ وكان يفخر بذلك على أبناء عصره ويقول انهُ أمة بنفسه . وأول بل أعظم عمل قام بهِ فى عالم الآداب كتابه الشهير المسمى « الكوميديا الدينية » : كتبهُ باللغة الايطالية فكساها صبغةً أدبية ، وترك أثراً خالداً فى نفوس مواطنيـه ، حتى أصبحت الآن محاكاةُ أسلوبهِ والعبارات التى استُعملت فى عصره من أهم ماتصبو اليهِ نفس الكاتب الطليانى . وهذا الميل أثّر فى اللغة الايطالية ، فعاق تقدمها فى الأزمان الأخيرة . ومع ما لدنتى من عظيم القدر فى أوربا فانهُ لم يؤثر أثراً قوياً فى تكوين النهضة ، لأنهُ وإن كان قد أعلى نفسه فوق أفق معاصريه بخلع قيود الأزمان السالفة ، ماثلهم فى كثير من الأفكار والآراء : يدلك على ذلك انهُ مال عن طيب خاطر الى فلسفة علماء القرون الوسطى وتعصبهم على أهل الأديان الأخرى ، وأخذ يشجع ويحبّذ نظرية الامبراطورية العامة فى كتابه « دى مُنَرْكيا » ، ولذلك يعتبره المؤرخون آخر شبح عظيم فى القرون الوسطى ، لا بشيراً لشروق العصر الجديد

دنتى

بترك

وجاء بعد دنتي «بِتْرَرْك» البادئ الحقيقي لنهضة إحياء الآداب القديمة . وكان لأسفاره أثر عظيم في جميع الأمم الأوربية فانه بفرط ميله الى آداب الأقدمين بعث هذا الروح في مواطنيه ، فانتشر بينهم انتشاراً تغلب على كل مقاومة حتى تسرب من ايطاليا الى غيرها من الممالك الأوربية



(بترك)

وهو أوّل من وجّه الانظار الى العناية بآثار الرومان والاغريق ؛ فكان القوم قبل عهده لا يعرفون قيمة هذه الأطلال البالية ولا ينتفعون بها الاّ في استخدام أنقاضها لاقامة مبانيهم ، كالذي فعله المصريون بآثار قدمائهم قبل ان تلاحظها عناية الحكومة وتمنحها مراعاتها

بوكشيو

ومن الذين بعث فيهم بترك حب الآداب القديمة « بوكَشيُو » الذى فاقهُ في نبوغه وذكائه . وأعظم عمل اكسبه الشهرة الفائقة كتابه «ديكِمرون » ، وهو يشمل عدة قصص أظهر فيها المؤلف احتقاره لخرافات القرون الوسطى وميله الى العيشة الخالية من روح تلك الازمان المظلمة ؛ وقد كان لهذا الكاتب أثر في كتابات « شوسَر» الشاعر الانجليزى ، ومنه انتقل ذلك الأثر الى مَنْ بعده مِن كتّاب الانجليز . ولم يقتصر بوكشيو على درس مؤلفات الرومان ؛ بل عمل على قراءة مؤلفات الاغريق اساتذتهم في الآداب والفلسفة ، فشرع لذلك في تعلم اللغة الاغريقية فلم يتوفق لاجادتها . ثم طلب الى استاذه أن ينقل الى اللاتينية مؤلفات «هوميرس» الاغريقي (الإلْيَاذة وأوديسّي) ، فكان ذلك أول ترجمة ظهرت لهما باللغة اللاتينية

عصر جمع الكتب

أتى على أثر هؤلاء جم غفير من جامعي الكتب كانوا يسيحون في كل بقاع أوربا وغيرها في طلب المنسوخات الخطّية القديمة

وليس فى الطاقة أن نقدر فى عصرنا الحاضر مقدار ولع هؤلاء القوم بجمع هذه الكتب ، اذ كان منهم من يأتى فى بعض الاحيان بما يعد فى غير هذا الباب اختلاسا محضا ، ولم يتركوا كنيسة أو ديراً الا بحثوا فيه عن مطالبهم ، وكثيراً كانوا يجدون المنسوخات مطروحة بين الامتعة الرثة والقاذورات ، ولولا همتهم لبادت البقية الباقية من نفائس الاقدمين . وكان من أعظم المشجعين لهؤلاء الابطال أسرة « مديشى » أمراء فلورنسة ، مثل « كوزيمو دى مديشى » و « لورنزو دى مديشى » ، ومن البابوات « نقولا الخامس » و « يوليوس الثانى » و « ليو العاشر » . وبفضل مباحثهم أنشئت دور كبيرة للكتب فى ايطاليا ، فقد أسست أسرة مديشى « المكتبة المديشية » بمدينة فلورنسة وزاد البابا نقولا الخامس ما يقرب من خمسة آلاف كتاب على المكتبة البابوية برومية



(بوكشيو)

ومما يذكر مناسبا لاسرة مديشى ومؤازرتها للعلم والعلماء أن اهتمام افرادها باحياء الآداب القديمة لم يلههم عن النهوض باللغة الايطالية الحديثة . وكادت هذه اللغة تندثر فى النصف الاول من القرن الخامس عشر لانصراف العلماء عنها الى اللغتين الاغريقية والرومانية ، فأدركت أسرة مديشى ذلك بمعاضدتها اياها ارضاء للشعب الذى يبتهج بهذه المساعدة . وقد وضع احد أمراء هذه الاسرة « لورنزو دى مديشى » المسمى « لورنزو الفاخر » مثالا حسنا للكتاب فأنشأ بنفسه اناشيد باللغة الايطالية كان القوم يلحنون فيها فى الاعياد والمواسم

عصر النقد

وانصرفت همم رجال احياء الآداب القديمة فى خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر عن جمع الكتب الى نقد ما بين أيديهم منها ؛ فانكبوا على قراءة ما عثروا عليه من كنوز الكتب وترجمتها ونقدها ، وأخذوا يطبقون ما فيها على زمانهم وينتفعون بها فى كل أحوالهم

وأعظم من رمى سهما صائبا فى هذا الغرض « لورنزو فلاّ » فى رومية ونابلى و « فسينو » و « بولتيانو » فى فلورنسة . وقد كان لابحاث هؤلاء النقاد اكبر أثر فى الفكر الاوربى ، فزال فى ذلك العصر معظم فلسفة القرون الوسطى المؤسسة على ترجمة مشوهة لكتابات ارسطاطاليس : نقلت محرفة عن اللغة العربية . فنبذ علماء النهضة هذه الترجمة ، واستعاضوا عنها كتاباته الاصلية ثم محيت بفضل مادب من البحث والتنقيب كل الخرافات والموهات التى كانت متسلطة على العقول فى تلك العصور . ومن ذلك أن « لورنزو فلا » نشر مقالا اثبت فيه ان ما كان يدعيه البابا

من حق الاستئثار بالسلطة الدنيوية زور وبهتان* . وقد غالى الايطاليون بنقد الكنيسة ورجال الدين والتشهير بتعاليمهم من غير أن يعملوا على اصلاحها ، حتى خشى على المسيحية من الضياع . وقد كان هذا من اكبر الاسباب التى حدت برجال الاصلاح الدينى فى المانيا الى القيام بمهمتهم

احياء الفنون الجميلة

ولم يكن فضل الايطاليين مقصوراً على القيام بالنهضة الادبية ، بل كان لهم أثر جليل فى احياء الفنون الجميلة والرقى بها الى درجة لم تفقهم فيها أمة بعدهم ، وخاصة فنى الرسم والنحت ، ولم يخرج عن دائرة الفنون الجميلة التى أحدث فيها الايطاليون انقلاباً سوى فن العمارة ، فانه لم يكن مندثراً تمام الاندثار فى القرون الوسطى، ولذلك لم يكن لايطاليا فيه امتياز كبير عن غيرها من الممالك

التصوير

والتصوير أول فن تناولته النهضة ، فانه مع إباحته فى الدين المسيحى كان له شأن كبير فى مقلدات الكنيسة ومعتقداتها وتمثيل أخبار المسيح والرسل والقديسين ، ووصف مناظر الحشر والجنّة والنار وغير ذلك : مما لا يتيسر تمثيله بالنحت والتماثيل

وقبل النهضة كاد فن التصوير يكون مقصوراً على الموضوعات الدينية ، ومقيداً بقواعد وروابط من الدين لا مندوحة للمصوّر عنها فى شكل الوجه والجسم ولونهما ووضعهما : مما كان يجعل الصور جافية عارية عن التزيينة حتى صار الفن لا يستحق أن يكون من عداد الفنون الجميلة. فلما ظهرت النهضة أحدثت فى هذا الفن ما أحدثته فى الآداب والفلسفة ، من فك قيود القرون الوسطى العقيمة ، وحب الابتكار والاختراع والرجوع الى الحرية الفطرية . وهذا الانقلاب لم يأت دفعةً واحدة ، فان رجال أول طور من أطوار النهضة اقتصروا فى اصلاحهم على خلع القيود الفنية وعملوا (مدفوعين بروح عصرهم) على توخى الموضوعات الدينيـة . ومن اعظم اساتذة هذا العصر « سيمبيُو » من مصورى فلورنسة التى هى مهد هذا الفن . ومما ساعد على اصلاح الرسم فى هذا الوقت اهتمام المصورين بدرس الرسم المنظور وعلم التشريح ؛ فظهر فى

(*) كان البابوات يدعون أن قسطنطين لما انتقل الى عاصمته الجديدة (القسطنطينية) خول البابا السلطة الدنيوية فى ايطاليا . وهذا التخويل هو المعروف فى التاريخ باسم منحة « قسطنطين » وهى التى أظهر « لورنزوفلا » بطلانها

التصوير لأول مرة جمال الوجه الانسانى وشكله ، وان كان بقى فى التصوير شىء من القيود القديمة فى تأليف الألوان

وبعد هذا التطور أخذ التنويع يظهر فى موضوعات الرسم بعد ان كانت مقصورة على الأمور الدينية ، وظهر فى هذا الفن فى القرن السادس عشر أساتذة عظام لم يرَ العالم مثلهم فى نبوغهم وفوقهم . وأشهرهم أربعة هم : « لوناردو دافنسى » (١٤٥٢ – ١٥١٩ م) ، وأعظم صورة رسمها « العَشاء الربانى الأخير » ، وهى على أحد جدران دير بمدينة ميلان ؛ و « رَفائيل » (١٤٨٣ – ١٥٢٠) ، ومن أعظم أعماله صُوَر العذراء العديدة التى تُعتبر من أنفس ما خلّفه مصوّرو تلك العصور ؛ و « ميخائيل انجِيلو » (١٤٧٥ – ١٥٦٤) ، ومن أجمل أعماله صورة « يوم القيامة » بمقصورة البابا بالفاتيكان برومية ؛ و « تِتْيان » (١٤٧٧ – ١٥٧٦) ، وهو من أعظم من نبغوا فى تصوير الأشخاص الأحياء ، وقد حفظ لنا برسومه (التى تكاد تنطق من فرط ابداعها ودقة صنعها) صور كثير من أعاظم معاصريه

النحت

أما فن النحت وان كانت نهضتهُ أتت متأخرة فقد كان لآثار قدماء الاغريق والرومان فيها تأثير أعظم من أثرها فى فن الرسم ؛ لأنه لم يبق من كبار مصورى الاغريق الاّ اسماؤهم ، أما أعمالهم فكانت قد درست ولم يمكن نقل صورة عن أصل حقيقى قديم . ولم تكن هذه الحال فى النحت ، فقد كان بين ظهرانى الايطاليين كثير من التماثيل الاغريقية والرومانية ، ذلك الى ما كان مدفونًا منها فى جوف الارض واستُخرج عقب ظهور النهضة ؛ ومن بين هذه التماثيل ما لا يمكن الاتيان بأبدع منها ، مما يمثّل الجمال ويحاكى الطبيعة بمظهرها الحقيقى ، ولذلك لم تمض الاّ فترة قصيرة حتى أقبل الناحتون على محاكاة هذه التماثيل وما شاكلها من الآثار ، فوصلوا بهذا الفن الى درجة لم تكن فى الحسبان . ومن أعظم الاساتذة فيه « لورِنزوجِبرتى » الذى نحت أبواب « البابِسترى » فى فلورنسة ، وهى التى قال عنها « ميخائيل انجيلو » : انها حرية أن تكون أبوابًا للجنة

ولأن الايطاليين أخذوا هذا الفن برمته عن الوثنيين من الاغريق والرومان جاروهم فى حريتهم فى تمثيل الأجسام البشرية بدون مراعاة للآداب الدينية وما يليق . ثم غلوا فى ذلك حتى قام رجال الاصلاح الدينى يعارضونهم فى القرن السادس عشر ، فكان هذا مبدأ اضمحلال ذلك الفن

العمارة

كان فن العمارة القديمة لم يندرس فى أوربا تمام الاندراس فى القرون الوسطى ، بل كان الكثير من مبانى تلك العصور يحاكى فيه المبانى القديمة . وظهر مع ذلك طراز جديد فى العمارة بشمالى أوربا وهو الطراز « القوطى » ؛ وقد كان له من المزايا وجمال المنظر ما عظم به اقبال جنوبى أوربا عليه . فحاكاه الايطاليون فى مبانيهم مع ادخال ما يناسب أحوالهم وجو بلادهم من التعديل ، مثل عدم تشييد السقف المحدَّبة الكثيرة الميل ، ومثل اقامة المبانى العظيمة الارتفاع مع صغر القاعدة

فلما ظهرت النهضة وانتشر معها روح الرجوع الى فنون الأقدمين أثرت فى فن العمارة بايطاليا بعض التأثير ، فعاد المهندسون الى استعمال الأقواس المستديرة والسقف المنبسطة . وأعظم بناء بايطاليا ظهر فيه تأثير النهضة هو كنيسة القديس بطرس بمدينة رومية : وضع تصميمها الأول « برامَنْت » وتم بناؤها بعد عهده مع شيء من التعديل

﴿ النهضة فى باقى أوربا ﴾

اضمحلال النهضة فى ايطاليا

بقيت ايطاليا مدة طويلة صاحبة السيادة فى جميع الفنون والآداب فى جميع الانحاء الأوربية حتى استولى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة على رومية عام ١٥٢٧ ، فاضمحلت بعده الفنون والآداب فيها ، بعد ان كانت تزهو بها وتضارع عصر اغسطس فى رومية ، وعصر بركليس فى أثينا . فلم يكن ثمة مأوى لدرس الفنون والآداب القديمة غير سهل « لَمْبَرْدِيَة » ؛ ثم ما لبثت ان أخذت فى الاضمحلال فيه أيضاً ، اذ ابتدأت الكنيسة تناوئ النهضة الدينية التى كانت قائمة على قدم وساق فى شمالى أوربا ، فناقضت فى طريقها جميعَ المشتغلين بالعلوم والفنون التى هى فى الحقيقة العامل الاكبر فى قيام

هذا الاصلاح الديني. وسكن بذلك تيار النهضة فى ايطاليا، وخاصةً بعد ان أُبرمت اسبانيا معاهدة مع البابا عام ١٥٣٠ لتهدئة الأحوال الايطالية .

تأثير النهضة الايطالية فى اوربا

على ان النهضة كانت قبل أن تنقضى فى ايطاليا قد سرى تأثيرها الى سائر ممالك أوربا الغربية ؛ ولكنها عند ما ظهرت فى هذه الممالك كانت ايطاليا قد أتمت جمع الآداب والعلوم القديمة وترتيبها وفحصها ونقدها ، ولم يبق الاَّ نشر نتائجها فى باقى أنحاء أوربا ؛ ولذلك ظهرت بعدُ لها فى تلك الممالك نتائج عملية ذات شأن عظيم ، اختلفت مظاهره بحسب أحوال كل أمة واستعدادها . والآن نذكر شيئًا عن سير النهضة فى كل مملكة من هذه الممالك على انفرادها فنقول : —

١ — النهضة فى ألمانيا

الطلبة الالمان فى ايطاليا

أخذ بعض طلاب العلم فى غضون القرن الخامس عشر ينزحون الى أمهات المدن الايطالية حيث كانت معاهد العلم غاصة بالطلاب والعلماء . ومن أوائل من انتجع الى ايطاليا من الطلبة الالمان « يوحنا ملَر » ، وهو أول من طبق روح النهضة على درس العلوم الكونية . أقام هذا العالم العظيم هنالك عدة سنوات يشتغل بدرس اللغة اللاتينية والاغريقية، ثم نقل الى اللاتينية مؤلفات بطليموس الجغرافى وبعض رسائل علمية أخرى ، ثم أسس مرصداً فى « نورنبرج » ، وقام باصلاح بعض الاشياء فى علم الفلك العملى ، ووضع مبادىء فى التقويمات البحرية التى ساعدت مستكشفى البرتقال والاسبان على الملاحة فى بحار كانت لما تطرق بعد . وممن لهم فضل كبير فى هذا المضمار أيضاً « رودلف اجْريكولا » (١٤٤٣ — ١٤٨٥) : سمع محاضرات « تيودور غازا » فى اللغة الاغريقية فى « فرارا » وبعد عودته اختير استاذاً فى هذه اللغة فى جامعة « هيدلبرج » ، فكان يحاضر بها فى الاداب الاغريقية والرومانية

ملر

رودلف اجريكولا

وكان عدواً لعلماء القرون الوسطى وتعليماتهم ، وله يرجع كل الفضل فى جعل الاداب القديمة ركناً من أركان التربية الالمانية . ويظهر فضله جلياً اذا علمنا انه هو وأمثاله منذ عودتهم من ايطاليا لم يجدوا فى بلادهم ذلك الاستعداد الذى كان فى ايطاليا فى فجر النهضة ، فقد كانت دراسة اللغة اللاتينية فى المانيا اذ ذاك مملة ونادرة ، واللغة الاغريقية تكاد تكون معدومة ، وكان الاساتذة يقتصرون فيهما على بعض كتيبات قديمة يعلمونها الطلبة بطرق عقيمة، وكان علماء القرون الوسطى والرهبان الاميون على السواء يحاربون النهضة الجديدة . على ان النهضة بالرغم من ذلك كان لها أنصار وأعوان ذوو بأس وسطوة : نخص بالذكر منهم الامبراطور نفسه (مكسمليان) فى ألمانيا « ويواقيم » أمير « براندنبرج » و «ألبرت» أسقف « مينز » و «فردريك» أمير « سكسونيا » . وكان فى المانيا فى ذلك الحين سبع عشرة جامعة ، فلاقت النهضة فى بعضها قبولاً،

صعوبة نشر النهضة فى المانيا

بعض انصار النهضة

الجامعات الالمانية

كجامعات فينا وهيدلبرج وإِرفرت، ولاقت فى بعضها الآخر مناوأة، مثل جامعة «كلونيا» وغيرها . ولم تعدم المانيا فى ذلك العصر وجود جماعات من كبار العلماء فى أمهات المدن مثل كيال واستراسبرج وبعض مجتمعات علمية أخذت تخصص نفسها لدرس الآداب

ومع هذا كله لم تُظهر الروح العامة فى المانيا فى أول الامر ميلا لدراسة العلوم واحيائها . وأول حادث عظيم وجه أفكار الامة واستمال عواطفها الى النهضة يرجع الى تاريخ حياة رجل عظيم

ركلن

يدعى «يوحنا رُكلن» (١٤٥٥ — ١٥٢٢) . درس ركلن الاغريقية فى «باريس» و «بال»، ثم سمع فى ايطاليا على «ارجيروبوليس» الذى شاهد فيه علامات النجابة ونباهة المستقبل وأول أعماله انه نشر بعض مؤلفات منقولة من الاغريقية الى اللاتينية وبعض رسائل فى اللغة

اللغة العبرية والنهضة

الاغريقية كانت تدرس فى مدارس المانيا . الا أنه بعد عام ١٤٩٢ شغف بدرس اللغة العبرية لانها المفتاح الوحيد لدرس التوراة . وقد اجتهد فى احياء درس هذه اللغة، فوضع لها نحواً ومعجماً . وقد كان من نتائج تشجيعه لاحيائها انه دخل فى دور مشاحات كان فيها الفصل فى مستقبل النهضة فى المانيا وتعيين وجهتها، اذ قام فريق يحرم درس هذه اللغة الا فى التوراة، فعارض «ركلن» هذه الفكرة وبعد جدال طويل انتصر هو على أعداء النهضة . ومن ذلك الحين قوى ميل الناس الى درس هذه اللغة وكذا الاغريقية، (ولكنهم كانوا أميل الى ما اختص منها بالمباحث الدينية ونشر التوراة) مما كان ممهداً للاصلاح الدينى الذى أفضت اليه النهضة فى المانيا

الاداب القديمة والتربية الالمانية

فى القرن السادس عشر . وزد على هذا ان درس الاداب القديمة كان سائراً سيراً متواصلا ولم يمض زمن حتى رسخت أقدامها فى التربية الالمانية . وكان ممن يشار اليهم بالبنان فى هذا المضمار

ملنكتون

«ملِنكتون» (١٤٩٧ — ١٥٦٠)، وان كان صيته الذائع فى المناقشات الدينية فى اخريات أيامه غطى على خدمته للنهضة الادبية فى أوائل أيامه . وكفاه فخراً انه وضع كثيراً من الكتب تسهيلا لدرس الاداب القديمة : مما جعل تلك الاداب أساساً للتربية الالمانية . ولكن هنالك فرقاً

خصائص النهضة الالمانية

بين النهضة الايطالية والالمانية . اذ لم يظهر فى النهضة الالمانية ما يشبه الشعور الطليانى فى ميله وغرامه باداب الاقدمين وبجمال الاساليب الادبية عندهم، ولم تؤثر فيها الروح الوثنية من جهة عدم الاكتراث بالدين والاداب اللائقة . نعم أشربت المانيا نشاطاً وحرية فى أحياء العلوم القديمة غير أنه لم يؤثر فيها غير ذلك من مؤثرات النهضة، بل حافظت على ما كان لها من الصفات والطباع التيتونية التى لا تعبأ بالشىء الا من جهة فوائده العملية وتنبذ ما سواها من الزخارف الوهمية . وقد تمثل ذلك فى القوم فى جميع مظاهر النهضة عندهم حتى فى الفنون الجميلة، فمثلا ترى ان ميخائيل انجيلو ورفائيل أثرت فيهما الفنون القديمة كل التأثير، مع أن «دورر» و «هُلبين» المعاصرين لهما فى المانيا، مع اظهارهما براعة جديدة فى الفنون الجميلة الالمانية، حافظا على النماذج القوطية

٣ — النهضة فى فرنسا

سهولة ظهور النهضة فى فرنسا

ظهرت آثار النهضة الايطالية فى فرنسا بسهولة ، ولا غرو فان كلتا المملكتين لاتينية الاصل وقد غزا الفرنسيون ايطاليا واخترقوها قبل أن تصير حركة الاصلاح الدينى عاملا عظيماً لازعاج أوربا . هذا الى أن العنصر السائد فى فرنسا كان العنصر اللاتينى ، فكان من السهل على أبنائها أن يميلوا كل الميل الى درس الاداب الرومانية والاغريقية . وقد نالت تلك الاداب جانباً عظيماً من الاهتمام الحق بفرنسا ، فقد كانت جامعة باريس التى هى من أكبر المعاهد العلمية فى أوربا يؤتى اليها بكل المباحث العلمية الجديدة ، على انها كانت تشجع على ايجاد الصلات بينها وبين كل معهد علمى فى غيرها من البلدان

جامعة باريس

ابتداء النهضة

وكان ابتداء النهضة حين غزا شارل الثامن مملكة نابلى عام ١٤٩٤ ، وذلك وقت أن بلغت النهضة فى ايطاليا أعظم شأو لها . فبدأت بذلك العلاقات بين هاتين المملكتين ، وبقيت قوية متصلة الى أن انقرضت ملوك اسرة « فلوا » من فرنسا بموت هنرى الثالث سنة ١٥٨٩ .

تأثيرها فى فرنسا

وقد وجدت بالقصر الملكى الفرنسى عندئذ مسحة من الاخلاق والعادات الايطالية ، وأثرت الآداب الايطالية فى الآداب والفنون الفرنسية . ولهذا انفسحت الطريق للعلوم والآداب القديمة فى فرنسا من ابتداء القرن السادس عشر . على ان اللغة الاغريقية كانت تدرس فى فرنسا قبيل ذلك الوقت ، اذ جعل « جريجورى تيفرناس » الايطالى أستاذاً لها فى جامعة باريس عام ١٤٥٨ ، ولكن يظهر أنه لم يكن لها فى ذلك الوقت شأن يذكر ، بل كان جل الالتفات موجهاً الى علوم القرون الوسطى . ثم حاضر العالم الشهير « يوحنا اسكارِس » فى هذه اللغة أيام شارل الثامن ولويس الثانى عشر (١٤٩٨ — ١٥١٥) وفى حكم فرنسيس الاول (١٥١٥ — ١٥٤٧) الذى كلفه مباشرة تأسيس مكتبة له فى مدينة « فنتنبلو » . وممن اشتهروا فى العصر الاول للنهضة الفرنسية « جيروم أليندر » الايطالى الذى صار فيما بعد من أشد أعداء الاصلاح الدينى : حضر هذا العالم الى باريس عام ١٥٠٨ ، وحاضر باللغات الاغريقية واللاتينية والعبرية ، وهو يعتبر أول عالم بث روحا جديدة فى درس علم اللغات فى فرنسا

جيروم أليندر

طبع الكتب القديمة

وقبل حلول هذا العالم بأرض فرنسا كانت نهضة نشر الكتب الاغريقية قد ظهرت فى باريس، ثم خطت فيها خطوات واسعة ، فتفوق فى ذلك المحترفون بالطباعة من الفرنسيين. وأول مطبعة أنشئت بباريس لنشر الكتب الاغريقية أسسها «جورمو» وظهر بعض مطبوعاتها سنة ١٥٠٧. ثم أخذت بعد ذلك تظهر المطبوعات النفيسة من تأليف عظماء اليونان الاقدمين، مثل بلوتارخ وسفوقليس ودايونيسيوس وغيرهم ، وقد كان للاستاذ « اليندر » الاشراف على طبع بعض هذه الكتب . وقبل انتهاء النصف الاول من القرن السادس عشر أصبحت باريس مركزاً لنشر الكتب القديمة ، ومن هذا الوقت أخذت هذه الحركة تزداد فيها

جيوم بوده

وقد ظهر فى هذا الوقت العالم الفرنسى « جيوم بوده » فخراً لبلاده فى جميع أنحاء أوربا ، لانه كان أعظم علماء الاغريقية فى عصره فى جميع أوربا . وممن اشتهروا من علماء هذه اللغة

ادريان ترنبة — « أدريان ترنبة » ، وقد أسس فرنسيس الاول الكلية الملوكية سنة ١٥٣٠ تشجيعاً لدرس اللغات الاغريقية واللاتينية والعبرية فنصبه رئيساً لقسم دراسة اللغة الاغريقية فيها

دراسة القانون فى فرنسا — ومن الجدير بالذكر فى هـذا المقام ان علماء الفرنسيين أصابوا المرمى فى درس القوانين الرومانية ، فاستوعبوا مباحثها ودرسوا أصولها غير مكتفين بالتعويل على صنوف الشروح التى وقعت فى أيديهم ، وقد نبغ فى هذا العلم « جاك كوجاس » (١٥٢٢ — ١٥٩٠) الذى يعدّ أكبر مفسر للقانون الرومانى ، وقد نحا فى نقده نحواً جديداً

اسكاليجر وكازوبون — وقد ظهر فى القرن التالى لموت « ترنبة » فى فرنسا رجال كان لهم جليل الاعتبار فى قومهم ، نخص بالذكر منهم « يوسف اسكاليجر » و « كازوبون » . غير ان أمثال هؤلاء لا يقعون فى دائرة عصر النهضة . وانما ظهرت فى كتاباتهم المميزات التي ميزت علماء أوائل النهضة الفرنسية وهى الذكاء المتوقد والجرأة فى النقد وفصاحة التعبير

الفرق بين النهضة فى فرنسا وايطاليا — وقد وُجد فرق بين العقل الفرنسى والايطالى بالنسبة لعلوم الاقدمين وآدابهم . فان الثانى كان ينكب على الاداب القديمة قلباً وقالباً لتشبعه الشديد بالروح الادبية لتلك العصور ، فيخرجها للناس بحالتها الاصلية

أما الفرنسى فلم يكن كذلك ، بل كان يأخذ منها ما يروقه ويضيفه الى ما عنده ، ثم يبرزه للعالم فى صورة جديدة . ويشاهد ذلك أيضاً فى فن البناء وفن النحت

٤ — النهضة فى اسبانيا والبرتقال

ابتداء النهضة اريياس باربوزا — غرست بذور النهضة فى اسبانيا والبرتقال بيد بعض الطلبة الذين زاروا ايطاليا فى خلال القرن الخامس عشر . وكان أشهرهم فى اللغة الاغريقية « ارياس باربوزا » الذى أخذ عنه « بولتيانو » الايطالى . وقد حاضر فى اللغة الاغريقية بجامعة « سلمنكة » مدة عشرين سنة ، وهرعت اليه أثناءها الطلاب لغزارة علمه وسلامة ذوقه الشعرى . ولم ينفرد وحده بالشهرة فى هذا الفن ، بل

لبركسا — كان فيه لمعاصره « انطونيو لبْرَكسا » باع أطول من باعه . فبعد أن مكث هذا العالم بايطاليا عشر سنوات عاد الى اسبانيا سنة ١٤٧٣ وحاضر على التوالى بجامعات اشبيلية وسلمنكة والقلعة . ومع انه كان أقل من « باربوزا » دراية بالاغريقية كان أوسع منه اطلاعاً ولا سيما اطلاعه فى اللغة العبرية . وقد تخرج عليه بعض نابغى الطلبة الذين ساعدوا على نشر النهضة ، نخص بالذكر

جوزمان ريسند — منهم « جوزمان » الذى فاق أستاذه شهرة وعظمة ، ومنهم « ريسند » البرتقالى الذى كان له اليد الطولى فى نشر دارسة الاداب بمدينة لشبونة . ومن ذلك يظهر أن أوائل القرن السادس عشر كانت تؤذن بفلاح النهضة فى اسبانيا كما أفلحت فى باقى ممالك أوربا . وفى ذلك العهد تم على يدى الكردنال « اجزمنيس » مؤسس كلية القلعة نشر « العهد الجديد » باللغة الاغريقية فى سنة ١٥١٤ . فلاحت بهذا العمل بارقة تؤذن بحسن مستقبل اسبانيا فى النهضة الجديدة

قصر النهضة فى اسبانيا — ولكن هذه النهضة لم تسر فى طريقها طويلا ، فبعد ابرام معاهدة بولونيا سنة ١٥٣٠ بين شارل الخامس والبابا « كلمنت السابع » انقلبت السياسة الاسبانية الى مقاومة هذه النهضة والعمل

على اخمادها . لذلك لم يكن لها فى اسبانيا نصيب وافر ، لانها لم تتأصل فى الشعب الاسبانى منذ مبدئها ، بل كانت مقصورة على جماعات التفت حول علماء النهضة برعاية افراد ذوى سطوة يحمونهم من اضطهاد رجال الدين

وكان من أشد أعدائهم اليسوعيون الذين خدموا العلوم الادبية فى أنحاء أوربا فيما بعد أجلّ الخدمات . هذا الى أن محكمة التفتيش كانت سوطاً مروّعاً لكل من يخالف تعليمات الكنيسة . فلا غرابة أن تغيض نضارة اللغة الاغريقية فى هذه البلاد ، ومع كل هذا فقد أنجبت اسبانيا علماء فى اللاتينية

مظاهر النهضة الاسبانية

وقد ظهرت آثار هذه النهضة فى اسبانيا فى صور أخرى غير الاداب القديمة ، منها ظهور قصة « سِرْ فنتيز » وغيرها مما يعتبر أقرب النماذج الى الاداب الاوربية الحديثة . ومن نتائجها العظيمة الخالدة الاثر أنها بعثت روح الاستكشاف فى « فاسكودى جاما » و « كلب » وأمثالهما الذين قلبوا بكشفاتهم الجغرافية نظام العالم مما سيأتى ذكره مفصلاً فى فصل خاص

٥ — النهضة فى الأراضى المنخفضة

تأخر انتشار النهضة

لم تنتشر النهضة الحديثة فى الأراضى المنخفضة بسرعة ، لاشتغال أهلها بمحاربة اسبانيا لنيل استقلالهم السياسى والمحافظة على معتقداتهم الدينية فى عصر فليب الثانى ومع هذا لم تلبث بعد ما غرست بذورها فى هذه الاصقاع ان نمت وانتشرت بسرعة هائلة ، فأصبحت جامعة « ايدن » مركزاً كبيراً لطلاب النهضة

ارزم

وأعظم هؤلاء الطلبة واكبرهم مقاماً «إِرَزْم» ، ولبعد صيته وكثرة تجوّله فى الممالك الأوربية فى سبيل نشر العلم والاستفادة منه لم تحصر شهرته فى موطنه وحده ، بل كان ينتسب الى أوربا جميعها . وقد ظهر غيره ممن لهم آثار عظيمة فى الترجمة والتأليف نخص منهم « لبسيبوس » صاحب الباع الطويل فى الالمام بالمؤلفات اللاتينية فى التاريخ وبالآثار الرومانية



إِرَزْم

القديمة . ومن أعظم أعماله نشر تاريخ «تسيتوس». وقد امتازت النهضة فى الأراضى المنخفضة منذ مبدئها بترتيب ما جمعه الأولون من مصنفات الأقدمين وتنظيمه ونقده ، هذا على ما امتازت به من سلامة الذوق وجمال الأسلوب

٦ — النهضة فى انجلترة

تأخر ظهور النهضة

ظهرت مبادئ النهضة الحديثة فى انجلترة متأخرة عن باقى الممالك الاوربية . ولم تجد عند ظهورها صدراً رحباً كما لاقت فى فرنسا ، لكنها لم تصب بالكراهيـة الشديدة التى صادفتها فى ألمانيا فى بادئ أمرها . وأول من قام باعبائها بعض الطلبة الذين تلقوا العلم عن أساتذة ايطاليا ،

وليم سلنج

ونخص بالذكر منهم « وليم سلِنْج » . ولما حط « ارزم » رحله فى انجلترة سنة ١٤٩٩ وجد فيها نخبة من علماء الاغريقيـة من بينهم « وليم جروسين » الذى تعلم عن « بولتيان » فى

جروسين وللى

« فلورنسة » ، و « وليم لِلى » الذى درس الاغريقية فى رودس ثم فى رومية . ولم يكن فى انجلترة اذ ذاك كتب لدرس الاداب القديمة ولغاتها ، ولذلك كان الطالب الذى يريد أن يبرز فى لغة من هذه اللغات يضطر أن ينزح الى المعاهد الايطالية

اكسفورد وكمبردج

ويرجع الفضل فى نشر الاداب الاغريقية فى انجلترة الى جامعة اكسفورد

أما كمبردج فان تلك اللغة لم تدرس بها الا على يد ارزم بين عامى ١٥١٠ — ١٥١٣ . وممن أنجبت هذه الجامعة « رتشرد كروك » الذى نزح الى باريس ، وبعد ان حاضر فى اللغة الاغريقية فى كلونيا ولوفان وليبزج ودرزدن عاد الى بلاده عام ١٥١٨ وعين أستاذاً بها فى هذه اللغة

حنا شيك وروجر أسكم

وممن تفوقوا فيها أيضاً « حنا شيك » (١٥١٤ – ١٥٥٧) و « روجر أسْكَم » ويرجع الى الاول منهما الفضل الاكبر فى نشر اللغـة الاغريقية فى انجلترة . وقد وقع فى هذه الفترة جدال كبير بين علماء الانجليز فى نطق الاغريقية انتهى باتباع طريقة « ارزم » ثم نبذها ثم اتباعها ثانية بعد أن تبوأت « إلِزَبِث » (اليصابات) عرش انجلترة . ومن ذلك الحين أخذ أثر الاداب القديمة يظهر فى التربية الانجليزية بعـد أن سبقتها ايطاليا فى هذا المضمار بنحو ثمانين عاماً

أثر النهضة فى انجلترة

وأول مدرسة أسست وقصد بهـا درس الاداب القديمة هى مدرسة « القديس بولس » المؤسسة عام ١٥١٦

وقد أسس فى خلال القرن السادس عشر أيضاً مدارس أخرى على هذا النمط ، فظهر فى هذا القرن نفر من الاساتذة الاكفاء ، وان كان ما ظهر فيه بانجلترة من علماء الطبقة الاولى وما نشر فيه من الكتب التى تساعد على نشر اللغتين الاغريقية واللاتينية لم يكن شيئاً عظيماً بجانب

ما ظهر فى غيرها من الممالك الاوربية ، ولم تصبح انجلترة عاملاً قوياً في تنمية الاداب القديمة بأوربا الا فى القرن السابع عشر الذى كان بطله فى هذا المضمار « رتشرد بِنْتلى »

مميزات النهضة الانجليزية

ومن مميزات النهضة الانجليزية أن كثيراً من كتب الاقدمين كان ينشر بلغة البلاد ، مثل إلياذة هوميروس وبعض مصنفات فرجيل وبلوتارخ وغيرهما . ولا يخفى ما فى ذلك من المساعدة على بث روح النهضة بين طبقات الامة

ملتن وشكسبير

وأعظم رجل يمثل النهضة فى انجلترة بسعة الاطلاع فى الاغريقية واللاتينية مع التمسك بالروح الجديدة التى ظهرت فى الاداب الاوربية هو « مِلْتُن » الشاعر الانجليزى العظيم، وان لم يكن شعره يمثل عصر النهضة الانجليزية تمام التمثيل من جميع وجوهها . وانما يظهر ذلك جلياً فى الروايات التمثيلية التى ظهرت فى عصر الملكة اليصابات ، واقدر من كتب فيها « شكسبير » شيخ شعراء الانجليز

وقد كان لتأخر ظهور النهضة فى انجلترة أثر كبير فى تسهيل نجاحها ، فقد كان انتفاع كتاب الانجليز بما لديهم من آداب اللغات الأوربية الحديثة من اكبر العوامل التى نهضت بلغتهم بسرعة تكاد تعدم مثيلاً لها

الفصل الثانى

الاستكشاف الجغرافى

(والمستعمرات الأوربية الأولى)

١ — ﴿ فى البحار الشرقية ﴾

الاستكشاف والنهضة

من أعظم مظاهر النهضة الأوربية الاستكشاف الجغرافى الذى قامت به أوربا منذ أوائل القرن الخامس عشر وآل الى كشف الدنيا الجديدة عام ١٤٩٢ الذى يعتبره كثير من المؤرخين مبدأ للتاريخ الحديث لما كان لهذا الحادث من النتائج الخطيرة فى قلب نظام العالم

الاستكشاف عند الاقدمين

على أن تاريخ الاستكشاف قديم جداً يرجع عهده الى زمن الفينيقيين وقدماء الإغريق والقرطاجنيين ، الاَّ أن كشفاتهم لم تكن سلسلة حوادث متصلة بل كانت

تأتى عفواً أثناء سعيهم وراء التجارة . ذلك الى أن معرفتهم بوصف الأرض ولاسيما حجمها كانت ضئيلة مهوّشة ، فأدت الى زعمهم إمكان الوصول الى الشرق الأقصى بالسير غرباً من مضيق جبل طارق فى زمن أقل مما يستغرقه السفر بالطريق الشرقية. وقد أُحيي هذا الاعتقاد فى أوائل عهد الدولة الرومانية ، ثم هجرت أوربا هذه الفكرة بل كل تفكير فى الاستكشاف حتى القرن الثالث عشر ، اذ ظهرت روحه بمظهر جديد أساسهُ الإقدام وحب الاستطلاع

كشوف العرب

ولما كان العرب أثناء معظم رقدة أوربا يمرحون فى بحبوحة المدنية ونور العلم ، لم يألوا جهداً فى كشف ما يحيط ببلادهم شرقاً وغرباً ، طلباً للتجارة التى كانت من أعظم موارد ثروتهم . فكانت تجارتهم فى بحر القلزم وعلى شواطىء افريقية الشرقية الى جزيرة مدغشقر جنوباً ليس لهم فيها منافس ، وساروا شرقاً فى طلب التجارة حتى وصلوا الى شواطئ الشرق الأقصى وجزائره واحتلوا الكثير منها . أما فى الغرب فلم تأل دولهم فى المغرب جهداً فى كشف الجزائر «الخالدات» (كنارِيَة) وشواطىء افريقية الغربية ، وإن لم يقم دليل على أن سياحتهم الى هذه البلاد الأخيرة كانت من طريق البحر . ولا غرابة فى ذلك ، فان سيطرتهم على شمالى افريقية سهلت عليهم التجول بالقوافل فى الصحراء الكبرى والوصول بها الى البحر حيث «بلاد غانة» التى اشتهرت بوفرة ثروتها . وقد عرفوا هذه البلاد قبل عصر النهضة الأوربية بمدة طويلة : يدلنا على ذلك ظهورها فى مصوَّر جغرافى رسمه « الادريسى » أحد كبار جغرافيي العرب لملك صقلية عام ١١٥٠

معتقدات القرون الوسطى

أما أوربا فكانت فى القرون الوسطى لا تعلم عن البحار النائية الاَّ ما صوَّره لها الوهم والخرَف من الأخطار والمخاوف التى لا حقيقة لها . فكان القوم يزعمون أن تلك الأنحاء مقر الجن والوحوش الجهنمية : أرضها ظلمات بعضها فوق بعض ، وبحارها غاصّة بالدُوّامات والتيارات الغادرة ؛ وفى المحيط الأطلنطى باب جهنم تضىء منهُ النار فتكسو الشمس حُمرة قبل الغروب ؛ واذا أبحر الإنسان جنوباً وجد نطاقاً من نار (خط الاستواء) ليس الى اجتيازه من سبيل

ابتداء الاستكشاف الحديث

هكذا كانت معتقدات أوربا قبل أن يدبّ فيها روح الاقدام والاستطلاع الذى بعثته نهضة العصور الحديثة . وأول من فتح للأوربيين باب الاستكشاف المطّرد الأمير « هنرى » البرتقالى (١٣٩٤ - ١٤٦٠) أحد أبناء الملك يوحنا الأول الذى أجلى العرب من البرتقال وأكمل استقلال تلك المملكة

هنرى الملاح

وقد سُمّى هذا الأمير « هنرى الملاّح » لأنهُ عميد المشجعين على الملاحة بين الأوربيين، وأول حاضٍّ على التجويل فى البحار الذى أدّى الى كشف الطريق الى الهند حول افريقية بل الى كشف العالم الجديد . وقد نسب اليهِ بعض المؤرخين المعجبين بذكائه واقدامه أموراً لم تخطر له على بال : فقالوا إنهُ كان يرمى الى ترقية فن الملاحة فى ذاته ، وإنه كان يقصد ببعوثه البحرية كشف شواطئ افريقيــة تدريجًا ، حتى يتمّ الطواف حولها وتكتشف بذلك طريقًا بحرية الى الهند ، فتنافس البرتقالُ العربَ والبنادقة فى تجارة تلك البلاد الرائجة

أغراضه

حقًا قد تمّ كل ذلك بعد عهده على يد ملاحين عظام من البرتقال دوّن التاريخ اسماءهم ، ولكن كبار الباحثين فى العصور الأخيرة لم يقفوا على شىء مما يشير الى ذلك، مع كثرة المصادر التى بأيديهم المفعمةِ بأخبار تلك البعوث ومآرب هذا الأمير العظيم . وتدل الأنباء الصحيحة أن غرضه كان دينيًا قبل كل شىء، وهو العمل على إضعاف المسلمين بكل الوسائل التى فى استطاعته ، خصوصًا انه كان رئيسًا لطائفة دينية تدعى طائفة « فرسان يسوع المسيح »

بلاد غانة

فرأى من أسهل الوسائل المؤدية الى ذلك الاستيلاء على « بلاد غانَة » التى كانت باقية على الوثنية ، فينشر فيها الدين المسيحىُ قبل أن يُغرَس فيها الاسلام . وكان الجغرافيون يعتقدون اذ ذاك ان نهر السنغال المارّ بهذه الجهات ينبع من بحيرة قريبة من منابع النيل، ولذلك سموه النيل الغربى . ولما كان النيل الشرقى (النيل الحقيقى) يمرّ ببلاد الحبشة التى تدين بالنصرانية كان نشر الدين المسيحى فى بلاد غانة وسيلة الى اتصال مسيحيى أوربا بمسيحيى الشرق ، فيضيق بذلك الخناق على المسلمين ،

الغرض الديني

وينفسح المجال للأوربيين للمتاجرة مع شواطئ البحر الأحمر والهند والصين . وذلك آخر مظهر من مظاهر التعصب الديني المتأصّل في اسبانيا من عهد بعيد ، والذى حدا بمسيحيها الى اجلاء العرب من الأندلس جملةً

الغرض التجارى

ويرتبط بهذا المأرب مأرب آخر لايخرج كثيراً عن دائرته ، وهو انتزاع تجارة بلاد غانة من يد العرب ونقل الثروة الطائلة التى يجبونها من ذهبها ورقيقها الى أيدى البرتقال . ولما كان الوصول الى ذلك لا يتأتى من طريق البر لوجود أواسط افريقية بأسرها فى حوزة العرب عوّل « الأمير هنرى » على انجازه بطريق البحر ، ومن ثم ابتدأت بعوثه البحرية



هنرى الملاّح

وكان هنرى فى صباه قد لعب الدور الأعظم فى نزع « سِبْتَة » من يد العرب عام ١٤١٥ ، وهى مدينة على الشاطئ الافريقى أمام جبل طارق ، فنصّبهُ أبوه حاكماً عليهـــا ، والظاهر ان اقامته بها هى التى نبّهته الى تلك المطامع ، وولّدت فيهِ روح الاستكشاف والاستطلاع ، وفيها سمع من تجار العرب عن بلاد غانة التى صارت مطمح أفكاره . ولم يكن الأوربيون يعرفون حينئذٍ شيئًا من شواطئ افريقية جنوبى رأس «نَن» ، مع أنهُ قد عُثِر على مصور جغرافى يوجد الآن بين نفائس مدينة فلورنسة رسمه أحد الجنْويين عام ١٣٥١ أدرج فيهِ جزائر « بُرتوسَنْتو » و « مديرة » ؛ مما يدلّ على علم الجنويين بها قبل ذلك العهد ، وان ذلك تُرِكَ فى زوايا النسيان وصار كأن لم يكن

بعوث هنرى

شرع هنرى فى ارسال البعوث البحرية سنة بعـد أخرى لكشف الشاطئ الافريقى والوصول أخيراً الى بلاد غانة مأربه الأعظم . فكان نجاح ملاحيهِ بطيئًا جداً فى أول الأمر ؛ ولقد وُفّقوا بالمصادفة (عام ١٤١٨ — ٢٠) الى كشف جزائر « مديرة » و « بُرتوسنتو » ؛ فاحتلها البرتقال عام ١٤٢٥ ، ولكنهم لم يتقدموا تقدمًا

حثيثاً نحو غرضهم الاصلى . لاستيلاء الرعب عليهم من اهوال « بحر الظلمات » (المحيط الاطلنطى) وجنته ووحوشه . وأخيراً وصل ملاحو البرتقال الى ما وراء رأس « بوجادور » عام ١٤٣٤ ، فأخذت هذه الخرافات تتلاشى من ذلك الحين وصارت الكشفات على الشاطئ الافريقى يتلو بعضها بعضاً ؛ وكل بعث يخرج الى البحار يتجاوز الغاية التى وقف عندها سابقه ويكشف وراءها ما يسمح به سعوده ويصل اليه جده

الوصول الى بلاد غانة

فكُشف « الرأس الأبيض » (رأس بلَنكو)سنة ١٤٤١ ، ومصب نهر السنغال عام ١٤٤٦ ، والرأس الأخضر عام ١٤٤٧ ، فتم لهنرى بذلك الاهتداء الى بلاد غانة . وفى هذه الاثناء كان ملاحوه قد خبروا تلك الجهات ، وأخذوا يقتنصون فيها العبيد، فلما عادوا بهم الى البرتقال تاقت نفس الكثير من الناس الى الدخول فى مضمار هذه التجارة الطائلة الأرباح ، فكان هنرى لا يمنعهم ذلك ، حتى صارت شواطئ غانة غاصة بالسفن البرتقالية تطلب قنص الرقيق .

كدمستو

وبقى الرأس الاخضر أقصى ما كُشف جنوباً الى أن خرج « كَدَمُستو » البندقى فى رحلته الشهيرة عام ١٤٥٥ . اتفق هذا الرحالة مع الأمير هنرى على أن يمده الامير بالمال ، فيخرج فى رحلة تجارية يصل فيها جنوباً الى وراء ما كشفه البرتقال الى ذلك الحين ، وعند عودته تقسم الارباح بينهما مناصفةً . فخرج من « لشبونة » فى ٢١ مارس سنة ١٤٥٥ قاصداً جزيرة مديرة ، فبلغها فى ٢٧ منهُ بعد ان عرّج فى طريقهِ على « برُ توسنتو » . ومن ثم قصد جزائر كنارية ، وسار منهـا الى الرأس الأبيض . ثم بلغ مصب نهر السنغال ؛ فتتبع مجراه مجوّلاً فى الداخل، فمرّ بأقاليم لم

بلوغ السنغال

تكن قد كشفت من قبل ، حتى بلغ بلاد « بودومِل» احدى ممالك الزنج الكبيرة ، فاختلط بأهلها ووقف على كثير من أحوالهم وطباعهم . ثم عاد الى البحر وشرع فى الطواف حول الرأس الأخضر يقصد بلاد « غمبيا » ، وكان قد سمع بكثرة ذهبها . فأعجب فى طريقه بجمال تلك الشواطئ ايما اعجاب ، ولكنهُ لم يستطع أن يرسو

بسفنه ، لوعورة الشاطئ ولما رآه من توحش الأهالى ونفورهم منهُ . و بعد ان كابد مشاق الطواف حول الرأس رجع الى البرتقال ليتأهب لرحلة ثانية

رحلته الثانية

فخرج فى السنة الثالثة عن طريق كنارية والرأس الأبيض أيضاً ، وكشف أثناء رحلته جزائر الرأس الأخضر ، ولكنه لم يقف طويلاً لكشف أحوالها وسار حول الرأس الأخضر مرة ثانية الى أن بلغ بلاد « غمبيا » ، فارتاح لحالة أهلها وعلم منهم بوجود مملكة على بعد ٤٠ ميلاً من مصب نهر غمبيا تُعرف بارض « الملك بتِّى » ، فبلغها ومكث بها اسبوعين يتجر مع أهلها . ثم عاد الى الشاطئ واستأنف السير جنوباً حتى بلغ مصب نهر « ريوجراند » (ومعناه النهر الأعظم لعظم مصبه) ، فكان أقصى غاية وصل اليها المستكشفون فى عهد الأمير هنرى

بلوغ غمبيا

تأثير هنرى فى الملاحة

ولم يتم فى عصر هنرى شيء هام بعد رحلة « كدمستو » الاّ إتمام كشف جزائر الرأس الأخضر عام١٤٦٠، ومات هنرى فى ذلك العام، وقد أحدثت أعماله نهضة جديدة فى تجارة البحار ما لبثت الاّ قليلاً حتى دبت روحها فى غير البرتقال من الأمم الأوربية ، وبلغت المكشوفاتُ عند مماته خط ٨° شمالى خط الاستواء

الاستكشاف بعد موت هنرى

ولم تقف حركة الاستكشاف بعد موت هنرى الملاّح ، فان تجارة « غانة » كانت قد أصبحت من أكبر موارد الحكومة البرتقالية ، فسهرت الحكومة على تنشيطها غير مكترثة بما كان يأتيه التجار من الفظائع فى قنص الرقيق . وفى سنة ١٤٦٩ رخص « ألفنُس الخامس » ملك البرتقال لرجل يدعى « جُميز » فى مزاولة تلك التجارة مدة خمس سنوات بضريبة يدفعها للحكومة، بشرط ان يكشف كل عام جزءاً جديداً من الشاطئ لا يقل طوله عن مائة فرسخ . فتقدمت بذلك حركة الاستكشاف تقدماً عظيماً ، فاجتاز ملاحو « جميز » رأس « بَلْماس » وبلغوا « شاطئ العاج » ثم « شاطئ الذهب » الذى أقام فيه بعدئذ الملك يوحنا الثانى حصناً لحماية التجارة البرتقالية . ومات ألفنس الخامس عام ١٤٨١ بعد ان كشف البرتقال مملكتى « دَهومى » و « بنين » ، وجاوزوا نهر النيجر ، وعبروا خليج « بيَفْرا » ، وكشفوا جزيرة

جميز

الوصول الى النيجر

«فِرنَنْدوبو» وبلغوا رأس «سَنت كَتْرين» الواقع على خط ٢° جنوبي خط الاستواء

ومن ذلك الحين أخذت الكَشفات تتقدم نحو رأس الرجاء الصالح بسرعة عظيمة. فني سنة ١٤٨٤ وصل « ديجوكام » الى مصب الكنغو، وفى سنة ١٤٨٧ خرج «بَرتلوميُو دياز» فى رحلته المشهورة التى كشف فيها الرأس المذكور. والظاهر أن فكرة البحث عن طريق الى الهند حول افريقية كانت قد تولّدت، وحل حب الاستكشاف محل التعصب الدينى، بدليل ان الملك « يوحنا الثانى» لما أرسل دياز فى هذه الرحلة أمره أن يتبع شاطئ افريقية حتى يبلغ طرفها الجنوبى، فسار مع الشاطئ ودار حول الرأس، تدفعه الرياح الغربية من غير أن يعرف انه طرف افريقية الجنوبى، وبقى يتبع الشاطئ حتى بلغ « خليج مصل»، ومر بعده بخليج «ألْجُوا» الى أن وصل مصب نهر «السمك الأكبر» وعندئذٍ علم أن اتجاهه صار الى الشمال الشرقى لا الى الجنوب. فأيقن أن مهمتهُ قد أنجزت، فشرع فى الرجوع الى البرتقال متخذاً نفس الطريق التى أتى منها. وقد » لاقى فى الدوران حول الرأس أهوالاً عظيمة فسماه رأس الزوابع، ثم غُير الاسم فيما بعد الى « رأس الرجاء الصالح»، لأن كشفه كان مفتاح الرجاء للوصول الى الهند

دياز

بلوغ رأس الرجاء الصالح

والى هذا الحد وقف تيار الكشف البرتقالى فترة من الزمان. ولم يُعرف سبب ذلك باليقين، والظاهر أن البرتقال لم يدُر بخلدهم قبلُ ان افريقية تمتد جنوباً الى هذا المدى، وداخَلهم الشك فى فائدة هذه الطريق وسهولتها، وان أدت الى الهند

وفى هذه الفترة ظهر مشروع « خرستوف كُلُمب » الذى رأى إمكان الوصول الى الهند من الغرب بطريق أقصر من طريق افريقية. وبات الناس يرقبون نتيجة رحلته. وسنتكلم على ذلك بعد

تأثير مشروع كلمب

فلما ظهرت نتيجة رحلته عاد البرتقال الى مواصلة الكشف، وكان ذلك بعد بلوغ رأس الرجاء الصالح بعشر سنين، فقد خرج ملاحهم العظيم «فاسكو دى جاما» من لِشْبُونة» يوم ٨ يوليه سنة ١٤٩٧ فى رحلة الى الرأس يبغى الوصول الى الهند من هذه الطريق

فاسكو دى جاما

تُدار حول الرأس فى ٢٢ نوفمبر ، وبلغ خليج مصل فى ٢٥ منه ؛ وبعد أن استراح هناك أقلع ثانيةً فى ٨ ديسمبر فوصل مصب نهر السمك الاكبر (أقصى ماوصل اليه دياز من قبل) يوم ١٦ منه ، ومن ثم دخل مياهاً لم يطرقها أوربى من قبله ، فبلغ فى يوم عيد الميلاد (٢٥ ديسمبر) الثغر الذى يسمى الآن «ناتال» ، وقد أطلق عليه هذا الاسم المشتق فى الافرنجية من معنى الميلاد ، تذكاراً له . ثم قصد خليج « لورنْزومَرْكيز » ومنه سار فى عرض البحر حتى بلغ ثغر « مُوزنبيق » ، فرسا به فى اليوم الثانى من مارس سنة ١٤٩٨ ، فكان بذلك أول من وصل الشرق بالغرب من هذه الطريق

وصوله الى موزنبيق

وهناك شرع يسأل عن الطريق المؤدية الى الهند . وكان العرب قد نزلوا هذه الجهات منذ أزمان بعيدة واحتكروا فى أيديهم تجارتها وتجارة الهند حتى تجارة الهند الأقصى ، وكانوا ينقلون تلك المتاجر الشرقية النفيسة إما الى البحر الأحمر ومنه الى القاهرة ثم الاسكندرية ، وإما الى الخليج الفارسى ومنه الى اسكندرونة وحلب وبيروت ؛ ومن هذه الثغور جميعاً يتناولها تجار البندقية وجنوة فيوزّعونها فى أوربا . وكان ما يُدْفَعُ على هذه التجارة للمماليك مكوساً كبيرة عند دخولها الأراضي المصرية أو الشامية وعند خروجها منها . فخشى تجار العرب أن يهتدى الأوربيون الى طريق الهند فيتمكنوا من نقل تجارتها منها الى أوربا بطريق البحار فلا يدفعون عليها مكوساً فينافسون العرب فى ذلك أكبر منافسة . لذلك حنق العرب على فاسكودى جاما عند وصوله الى مزنبيق ، وأحجموا عن ارشاده *

دى جاما والعرب

فخرج من مزنبيق وسار شمالاً ازاء شاطئ افريقية الشرقى ، فكان كلما حلّ بثغر

* ربما استبعد ان يكون لتجار العرب المام بالشؤون الاوربيــة الى هذا الحد . والحقيقة ان بعض هؤلاء التجار لم يكونوا عربي المنشأ بل كانوا من عناصر تركية والبانية ويونانية وغيرها من عناصر أوربا الجنوبية ، اعتنقوا الاسلام وارتحلوا الى هذه الارجاء الشرقية طلباً للارباح الطائلة التى تعود من تجارة الهند ونحوها . ومن هؤلاء وصل الى علم العرب كثير من أخبار أوربا والبحر الابيض

وجدَه مسكونًا بالعرب، وهم يمتنعون عن ارشاده . وبعد ان أخفق فى سعيه فى مزنبيق و « كِلْوَة » و « مَنبسة » فاز فى « ملِنْدة »، حيث أخذ ما يحتاج اليه من الزاد، واصطحب أحد الهنود العالمين حق العلم بالطريق الى « قاليقوط » على شاطئ الهند الغربي ومركز التجارة الهندية. فبلغها جاما بهداية هذ الدليل فى ثلاثة وعشرين يومًا، وذلك في ٢٠ مايو (بعد خروجه من لشبونة بعشرة أشهر واثنى عشر يومًا)

وصوله الى الهند

ولم يرحّب بهِ فى بادئ الأمر سلطانُها الملقّب « زامُرِين » (سامِرى) ومعناه سيد البحار . وزاد فى تنفيره منهُ تجّار العرب فى تلك الجهات، اذ أفهموه أن البرتقاليين ليسوا الاّ لصوص بحر لا عمل لهم سوى النهب والسلب فيه ؛ فاعتقل جاما وبعض رجاله، وكاد يفتك بهم . ولكن جاما استعمل الملق والثبات، حتى أصلح ما بينهُ و بين الزامرين؛ وما زال به يتملقهُ ويشرح له غرضه حتى خدعه واستماله اليه ورغّبه فى تبادل التجارة مع البرتقال وعقد معهُ معاهدة تجارية كانت بعد ذلك سببًا فى زوال ملكه. ثم شحن جاما سفنه بالتوابل والأفاويه الثمينة والياقوت وغيره من الأحجار الكريمة، وأقلع الى بلاده (٢٩ اغسطس سنة ١٤٩٨)، فوصل سالمًا الى لشبونة فى شهر سبتمبر سنة ١٤٩٩

دى جاما والزامرين

وقد كان جاما برحلته هذه أول من فتح للبرتقال ولأوربا الحديثة بأسرها باب الاستعمار فى الشرق ؛ اذ لم يمضِ على رحلته اكثر من خمسة عشر عامًا حتى انتزع البرتقال تجارة الشرق من يد العرب واحتكروها لأنفسهم، وأسسوا لهم معاقل ومراكز تجارية فى معظم أنحاء تلك البحار الشرقية، حتى صاروا أصحاب السيادة فى هذه الجهات

تأثير رحلة دى جاما

وكان لتجارة العرب بالشرق وقتَ وصول جاما اليه مركزان عظيمان : أولهما «قاليقوط» مقر التجارة الصادرة الى أوربا، وثانيهما « ملقا » مقر تجارتهم مع الصين واليابان. وكان جاما أثناء رحلته قد تجسس أحوال العرب وعرف موضع ضعفهم وقلة حيلتهم فى الدفاع، اذا عمل البرتقال على قهرهم، خصوصًا ان سفنهم الصغيرة لم تكن

عمله على اضعاف تجارة العرب

شيئاً يُذكر بجانب السفن البرتقالية العظيمة المسلحة بالمدافع والرجال المدربين على الحرب. فلما عاد الى البرتقال هوّن على الملك أمر العرب (أعداء دينه) ، فأغراه باستئصال شأفتهم من المشرق وتكوين دولة برتقالية فيه عظيمة. فكان ما ظنّ ، ولم يمضِ الاّ قليل حتى تكوّنت تلك الدولة

مؤسسو دولة البرتقال بالمشرق

وأعظم المؤسسين لهـذه الدولة بعدهُ اربعة : « كَبرال » و « دى نوفا » و « ألميدا » و « ألبوكيرك » . وقد وضعوا جميعاً نصب أعينهم القضاء على العرب والتملّق لبعض أمراء الهند للاستعانة بهم على العرب وعلى بعضهم الآخر ممن ناوأهم العداء

كبرال

وقد كان «كَبرال» أول من خرج الى الهند بعد فاسكودى جاما : خرج اليها عام ١٥٠٠ فى اسطول كبير مزود بالمدافع والمعدات الحربية ، فلم يكد يبلغ قاليقوط حتى بدأ بمناوأة العرب وارهابهم ؛ فقبض على احدى سفنهم الكبيرة وأهداها الى الزامرين. فأخذ العرب بثأرهم بتهديم المعقل الذى أنشأه البرتقال على شاطئ الملابار وذبّحوا حاميته ، فجاوبهم كبرال بتدمير عشر من سفنهم الكبيرة فى مياه قاليقوط . ثم رأى ان الزامرين ما زال فى جانب العرب ، فسار الى « كُتْشين » وكان أميرها فى حرب مع الزامرين ، فوعده كبرال بأن يساعده فى ضم قاليقوط الى أملاكه ، والحقيقة انهُ كان يبغى الاستعانة بهِ فى استيلاء البرتقال عليها ؛ ولكنهُ لم يفطن الى ذلك وانضم الى جانب البرتقال . واستمال كبرال اليهِ أيضاً أمير «كنانور» ، ثم همّ بالعودة الى « لشبونة » وسفنه مثقلة بنفائس المتاجر الشرقية

دى نوفا

وفى هذه الأثناء خرج من لشبونة قائد آخر يدعى « دى نوفا » يقصد الهند ؛ فلما علم بمالأة أمير قاليقوط للعرب واتخاذِه خطة العداء للبرتقال لم يرس على بلاده وقصد « كنانور »، فعلم فيها بتأهب الزامرين لمهاجمته بأربعين سفينة ؛ فترك متاجرهُ بها وخفّ لمنازلة العدو فى مياهه. فهُزم الزامرين، ولكنهُ أخذ يتأهب جديداً، فدب الخوف فى قلوب البرتقال وخشوا أن يكون إقدامهم وعزمهم على بسط السيادة على تلك الأرجاء واحتكار تجارتها قد ألقى بهم الى مناوأة أمراء أشداء لا طاقة لهم بهم،

وكادوا يعدلون عن عزمهم وَجِلين . ولكن العزيمة التي حملتهم الى تلك البحار أبت الاّ أن يثبتوا ، فعقدوا الخناصر على أن يحملوا على أعدائهم حملة صادقة حتى يفوزوا بثأرهم . فخرج فاسكودى جاما فى رحلة ثانية الى الهند فى أسطول مكوّن من عشرين سفينة ، وتبعه قواد آخرون ؛ وعوّلوا على استئصال شأفة العرب من « قاليقوط » وتضييق الخناق على أميرها حتى يخضع للبرتقال ، فما زالوا به : يغلبونهُ متى التحموا بهِ فى موقعة منتظمة ، ويغلبهم متى سنحت له فرصة لأخذهم على غرة ، الى ان اشتبكوا معهُ فى موقعة فاصلة قُتل فيها الزامرين مدافعاً عن وطنهِ وانهزمت جيوشه .

مكافحة البرتقال للزامرين والمماليك

واتبع خلفه أيضاً خطة العداء للبرتقال ، واستصرخ بسلطان مصر لاخراجهم من بلاده ، فكتب السلطان الغورى للبابا يتوعده انهُ ان لم يخرج البرتقال من الهند خرّب هو الأماكن المقدسة ببيت المقدس . فلم يعبأ البرتقال بهذا التهديد ، ولم يزدهم الاّ عناداً . وعقدوا النية على استئصال شأفة العرب والمسلمين كافة من جميع البحار

الميدا

فخرج القائد البرتقالى « فرنسسكو الْميدا » لهذا الغرض . وكانت الخطة التى وضعها البرتقال لذلك أن ينزعوا أولاً « مَلَقا » من يد العرب الذين جعلوها مقر تجارتهم بعد أن اضطروا الى الارتحال عن قاليقوط وشاطئ الملَبار ، ثم ينزعوا شاطئ افريقية الشرقى من أيديهم ثانياً ، ثم يستولوا على « هُرْمُز » و « عدن » مفتاحى الخليج الفارسى والبحر الأحمر ثالثاً

خطأ الترك

هذه هى كانت خطة البرتقال ؛ ولو أتيح للمسلمين أن يتضافروا على احباطها لقُضى عليها وهى فى مهدها . ولكن الفشل كان دب بين المسلمين ؛ فأخذت مصر من ذلك الحين تشتغل بالاستعداد لملاقاة الترك الزاحفين عليها لغزوها ؛ وأخذ الترك العثمانيون يصرفون جُلّ همهم لفتح مصر وفارس وغيرها من الممالك الشرقية ، ولم يلتفتوا للقضاء على هذه الأمة البحرية الجديدة التى تنبئ قوتها بالخطر على سيادتهم فى البحار . ولم يغفل الترك عن الاتحاد مع البنادقة (منافسى البرتقال فى البحر)

فقط بل كانوا هم القاضين على قوتهم بحروبهم التى شنّوها عليهم واستيلائهم على كثير من أملاكهم

فكان اختلاف المسلمين وتفرق كلمتهم وغفلتهم عن اغراء بعض الدول البحرية الأوربية كما يفعل الأوربيون بهم من اكبر سعود البرتقال وأعظم مساعد لهم على انفاذ خطتهم . بدأ « ألميدا » بغزو شرقى افريقية ، فهجم على « كِلْوَة » ، وكانت مدينة عربية زاهرة آمنة مطمئنة ، فاستولى عليها بعد قتال عنيف فى الشوارع والطرقات وداخل المنازل وفوق سطوحها . وبعد أن شبع البرتقال سلباً ونهباً وذبحاً وتقتيلاً نقلوا الى الشاطئ كل نفيس فى المدينة من ذهب وفضة وعاج وحرير وأفاويه ، وأشعلوا النار فى المدينة ، وتركوها حفرة من الجحيم

تخريب كلوة

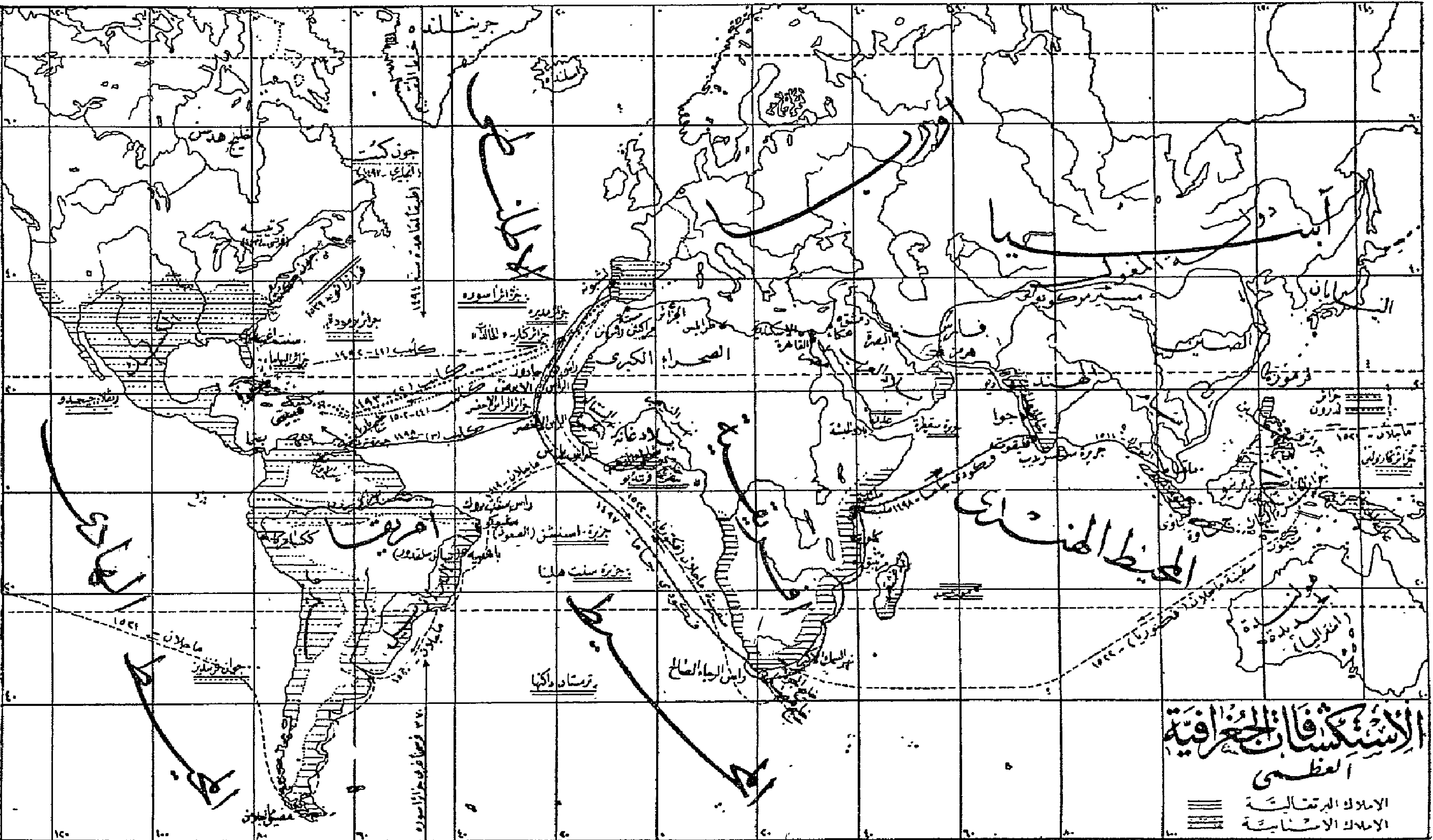
ثم سار « ألميدا » الى « مزنبيق » ؛ وهى مدينة عربية أيضاً ، ففعل فيها ما فعل بكلوة ، وبذلك تمت للبرتقال السيادة على شرقى افريقية . وفى هذه الأثناء كان المصريون قد شنّوا الغارة على البرتقال بعـد اتحادهم سرًّا مع البنادقة والزامرين ، فكانت الغلبة لهم فى أول الأمر ، ولكن ما لبثوا ان هزمهم البرتقال بقيادة «ألميدا» فى موقعة بحرية عظيمة بالقرب من جزيرة « دِيُو » أمام بمباى عام ١٥٠٩ ، فكان فى ذلك الفصل فى أمر التجارة الهندية ووقوعها جميعاً فى يد البرتقال . ثم استُدعى « ألميدا » الى البرتقال ، فمـات فى الطريق وهو يقاتل بعض قبائل الهوتنتوت فى جنوبى افريقية

تخريب مزنبيق

فعُهد بالقيادة الى « ألبُوكيرك » شيخ مستعمرى البرتقال واكبر متعصبيهم على العرب والمسلمين ؛ فبقى والياً على المستعمرات الشرقية ست سنين (من ١٥٠٩ الى ١٥١٥) وسّع فيها نطاق الأملاك البرتقالية بالشرق وبسط فيه سيادة البرتقال المطلقة ومن ذلك الحين وهنت مكانة المسلمين بالشرق ، وأخذت انتصارات « البوكيرك » تترى واحداً بعد آخر . ففى سنة ١٥١٠ استولى على « جُوا » التى جعلها البرتقال فيما بعد (عام ١٥٥٩) مقراً لدولتهم وتجارتهم بالمشرق ؛ وارتحل اليها كثير من جالية

ألبوكيرك

استيلاؤه على
١ — جوا



الاستكشافات الجغرافية العظمى
الاملاك البرتغالية
الاملاك الاسبانية
أوروبا
آسيا
افريقية
أمريكا
المحيط الهندي
الصحراء الكبرى
القاهرة
جزيرة سنت هيلانة
رأس الرجاء الصالح
ترستان داكونا
جرينلند
خليج هدسن
جون كبت

٢ — ملقا البرتقال حتى صارت أكبر مستعمرة برتقالية . وفى سنة ١٥١١ سار بسفنه الى ملقا ، فانتزعها من يد سلطانها « محمد » ، فصارت من ذلك الحين مركز حركات السفن البرتقالية التى ما زالت تطارد سفن العرب حتى أجلتها عن المحيط الهندى . عند ذلك

٣ — هرمز وجه البوكيرك همه لانفاذ ما بقى من خطة البرتقال ، وهو الاستيلاء على بلدى « هرمز » و « عدن » اللذين بهما تتم لهم السيادة على الخليج الفارسى والبحر الأحمر . فاستولى على « هرمز » بعد أن أغرق فى مياهها ٤٠٠ سفينة من سفن العدو ، فصارت بذلك السيادة للبرتقال على التجارة الواردة من الهند الى فارس والتجارة المارة بأرض الجزيرة الى حلب وبيروت . ثم شرع البوكيرك فى اعداد حملة كبيرة للاستيلاء بها على عدن آخر مطامعه ، فهلك قبل أن يتم مأربه ، وذلك فى جُوَا عام ١٥١٥ . ولم

موته يرضَ نزلاء البرتقال بالمدينة بنقل جثته الى « لشبونة » على الرغم من وصيته ، وأبوا الاّ أن تدفن فى جُوَا ، اعتقاداً منهم ان وجودها بينهم يحميهم غارات الأعداء

وحافظ خلفاء البوكيرك على توطيد ملك البرتقال بالمشرق وزيادة نفوذهم فيه ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على عدن . وبقيت دولة البرتقال بالمشرق ثابتة الأركان مدة خمسين عاماً من وفاة البوكيرك ، ثم أخذت تضمحل وورثها غيرهم من الأمم الأوربية

٢ — فى البحار الغربية

ولّدت الاستكشافات البرتقالية منذ ابتدائها روح الاستطلاع فى كثير من مفكرى أوربا ، فهبّ المستكشف الأعظم « خِرِستوف كُلُمْب » يريد الوصول الى الهند بالسير غرباً فى المحيط الاطلنطى ، فأدت رحلاته الى كشف قارة عظمى جديدة عُرفت فيما بعد « بأمريكا »

خرستوف كلمب وُلد « خرستوف كلمب » فى جنوة عام ١٤٤٦ ، وتوصل بجده واجتهاده الى قراءة آراء العلماء والفلاسفة عن شكل الأرض وابعادها . ثم أدّاه إقدامه وشغفه بالملاحة

الى الانتظام فى سلك البحارة الذين كانوا يخرجون فى البعوث البرتقاليـة لكشف شواطئ افريقية (عام ١٤٧٣) . فاكتسب بذلك خبرة عظمى فى الملاحة العملية

ولم تكن أوربا إذ ذاك تعرف شيئاً وراء البحار غربى جزائر «أسورة» التى كشفها البرتقال عام ١٤٣١ . نعم ان القوم قد وصل اليهم بالتواتر ان « أهل الشمال » (النروجيين) قـد كشفوا فى أوائل القرن الحادى عشر أرضاً جديدة فى أقصى الانحاء الغربية فى المحيط الأطلنطى أطلقوا عليها اسم « فِنلندة » (والمظنون الآن أنها بعض شواطئ انجلترة الجديدة بشمالى أمريكا) ؛ ولكن الطريق الى تلك الأرض كانت قد نسيت ؛ الى أن ظهرت النهضة الاستكشافية الجديدة على يد الأمير هنري الملاّح ، فهب البرتقال والانجليز يجولون فى البحار غربى جزائر « أسورة » ابتغاء العثور على تلك الأرض ، فلم يُجْد ذلك نفعاً . فلما شغل « كلب » بالنظر فى شؤون الملاحة طرح هذه الآمال المجدبة وقصر همه على كشف طريق غربية الى الهند . فرأى ان كروية الأرض تقضى ان ملازمة المسير غرباً فى البحار توصل الراحل الى البحار الشرقية والهنـد . وقد أصاب فى ذلك ، ولكنه أخطأ فى تقدير حجم الأرض ، وظن ان المسافة بين أوربا وشواطئ آسيا الشرقية لا تتجاوز ٣٠٠٠ ميل ، وانه يكفيه فى الخروج فى هذه الرحلة ثلاث سفن ومؤونة سنة واحدة . على أن ذلك لم يكن فى مقدور فقير مثل كلب ، فشرع يعرض عزمه على ملوك أوربا وأمرائها ابتغاء أن يمدوه بما يلزم هذا الأمر الخطير ؛ فبدأ بملك البرتقال الذى تدرب فى خدمته ، فقابله بالرفض ، لاعتقاده استحالة المأمول ، ولاشتغاله باستكشاف الشواطئ الافريقية ، ولعلمه أن الطريق الجديدة إن تم كشفها جرّت منافسة شديدة على الطريق الشرقية الى الهند التى أخذت تبرق منها الآمال للبرتقال فى احتكار التجارة الهندية . فكان فى ذلك الرفض ضياع لفرصة ثمينة للبرتقال كانوا لا محالة يصبحون بها ملاك الدنيا الجديدة . عند ذلك عرض كلب مشروعه على جمهوريتى جنوة والبندقيـة فكان نصيبه منهما ما لقى من البرتقال . فطرق باب انجلترة عام ١٤٨٥ ، فلم يجبـه ملكها

آراؤه الجغرافية

كلب يعرض مشروعه على : ١ — ملك البرتقال

٢ — جنوة والبندقية

هنرى السابع اجابة قاطعة ، وبقى الأمر تحت نظره أربع سنين . وفى أثناء ذلك

٣ — انجلترة كان كلمب قد فاتح فى عزمه « فردنند » و « إزَبلا » ملكى اسبانيا ، فلبيا طلبه قبيل اللحظة التى دعته فيها انجلترة الى المفاوضة فى مأربه ، فكان تباطؤ انجلترة فى الأمر

٤ — اسبانيا سبباً فى حرمانها من ذلك الإرث العظيم . ومن غريب المصادفات أن موافقة الاسبانيين على معاضدة كلمب وخروجه فى هذه الرحلة العظيمة صادف خروج «غِرْناطة» من يد المسلمين عام ١٤٩٢

الرحلة الاولى أبحر كلمب من ثغر « بالوس » فى اليوم الثالث من شهر أغسطس سنة ١٤٩٢ فمر بجزائر كنارية وكانت إذ ذاك آخر مدى وصل اليه الأوربيون فى الغرب ، فغادرها لستة أيام خلون من شهر سبتمبر ، وأرخى لسفنه العنان فى المسير غرباً فى مياه المحيط الاطلنطى الشاسعة الأرجاء ، معتمداً على إقدامه والمقادير فى نتيجة تلك الجرأة التى لم يسبق لها مثيل . فبقى كذلك ثلاثة أسابيع يمخر عباب البحر ، ولم يلح له شيء من اليابسة . فأخذ اليأس يدب فى نفوس ملاحيه ، وكادوا يثبون به ؛ ولكنه بقى ثابت الجنان رابط الجأش ، الى أن ظهرت له ثمرة مثابرته يوم ١٢ اكتوبر سنة ١٤٩٢ ، إذ رأى جزيرة صغيرة رسا عليها فى ذلك اليوم . تلك جزيرة « وطْلِنج » احدى جزر « البَهاما » التى تتألف منها جزائر الهند الغربية

فقرت عين كلمب وبحارته ، وظن انه وصل الى شواطئ آسيا الشرقية وكشف الطريق الغربية الى الهند . فنزل على الشاطئ ورفع فوق الجزيرة العلم الاسبانى . وبقى يُجَوِّل حول مجموع الجزائر



خرستوف كلمب

مدة ثلاثة أشهر، فكشف جزيرتى «كوبا» و«هَيِيتى». ثم أنشأ معقلاً فى هييتى، وجمع طائفة من نفائس تلك الجزر وعجائبها، وعاد الى اسبانيا وهو لا يعلم ان الجزائر التى كشفها ملحقات بقارة عظيمة واقعة بين اوربا وشرقى آسيا. فكانت مدة غيابه عن اسبانيا سبعة أشهر ونصفًا

الرحلات الاخرى

وقد كان لكشفه العظيم اكبر وقع فى اسبانيا؛ ولذلك خرج الى هذه الجهات فى ثلاث رحلات أخرى عام ١٤٩٣ و١٤٩٨ و١٥٠٢؛ ولكنها لم تزد على مكشوفاته السابقة كثيراً. ففى الرحلة الثانية زار هييتى، فوجد المعقل الذى أنشأه بها قد هُدم، ولم يقف على أثر للرجال الذين تركهم فيهِ، فأعاد فتح الجزيرة. وفى الرحلة الثالثة كشف جزيرة «ترِنِداد». وفى الرابعة بلغ القارة الجديدة نفسها اذ سار حذاء شواطئ امريكا الوسطى بالقرب من «بَنَما» ووصل جنوبًا الى مصب نهر الأُرِينوكو، ثم حدث بعض اضطراب فى جزر الهند الغربية. ووشى بكلمب أعداؤه الى الحكومة الاسبانية، فاستدعته سريعاً ووصل الى اسبانيا مكبلاً فى السلاسل والأغلال، فزُجّ به فى غياهب السجن وبقى فيه حتى لاقته منيته فى ٢٠ مايو سنة ١٥٠٦ وهو لا يعرف أنهُ قد كشف عالمًا جديداً. وهكذا كان جزاء ذلك الكاشف العظيم من دولة اسبانيا التى فتح لها باب تملُّك عالم جديد سوّدها على أوربا بما أُودعه من الذهب والفضة

موت كلب فى السجن

تأثير رحلات كلمب

ومع قلة اتساع ما كشفهُ خرستوف كلمب من العالم الجديد اذا قوبل بما كشفه فيهِ غيره من بعده، فاليهِ يرجع كل الفضل فى تعبيد طريق فسيح للكشفات الجغرافية سارت فيهِ بسرعة لم تكن تخطر بالبال؛ فانه أول من طوّح بنفسه فى البحار السحيقة المجهولة، بعد ان كان المستكشفون فى عهد هنرى الملاّح وخلفه يقتصرون على محاذاة الشواطئ؛ ووصول هؤلاء الى رأس الرجاء الصالح استغرق نحو قرن من الزمان، وأما كلمب فلم يمضِ على رحلتهِ الأولى اكثر من ٣٠ عامًا حتى تم للملاّحين الطواف حول الأرض بأسرها

رحلة بنزون

وواصلت اسبانيا الكشف بعد رحلات كلمب؛ فخرج «بِنْزُون» عام ١٤٩٩

لكشف الشواطئ الواقعة جنوبي نهر الأرينوكو، فرسا عند رأس «سنت أوغسطين» بمقاطعة برنمبوكو، ثم سار شمالاً فدار حول رأس «سن روك» وسار بحذاء الشاطئ، فمرّ بمصب الأمزون ثم الأرينوكو حتى بلغ خليج «باريا»، ومن ثم رجع الى اسبانيا آخذاً معه ثلاثين أسيراً من أهالي تلك الجهات ومقداراً من نباتها العجيب الأشكال، وفي ذلك عدة أنواع من الأخشاب المستعملة للصبغ، ولذلك أطلق على هذا الشاطئ اسم برازيل

خط التقسيم

ولما عاد «بنزون» الى اسبانيا وبيّن مكتشوفاته في مصور جغرافي وجد أن جزءاً عظيماً منها واقع شرقي الخط الفاصل بين الأملاك الاسبانية والبرتقالية في البحار. وأصل هذا الخط ان مصالح اسبانيا والبرتقال أخذت تتصادم في البحار بنموّ روح الاستكشاف البحري في كل منهما، فحكّمتا البابا بينهما، فقرّر تصور خط واصل بين القطبين على بعد ٣٧٠ فرسخاً غربي جزائر أسورة يكون كل ما يُكتشف شرقيه ملكاً للبرتقال وما يكشف غربيه يكون ملكاً لاسبانيا. فتقاعد بذلك الاسبانيون عن امتلاك البرازيل. وزاد تقاعدهم أن «كَبرال» أحد ملاحي البرتقاليين لما أراد الخروج الى الهند عام ١٤٩٩ لم يتابع الشاطئ الافريقي، بل أرخى لسفنه العنان داخل المحيط الاطلنطي، فاشتطّ في سبيله حتى صدمت سفنه شواطئ البرازيل جنوبي النقطة التي رسا فيها بنزون قبله بثلاثة أشهر. (فكأنهُ بذلك قد كشف العالم الجديد من غير علم بكشف الاسبانيين له). فلما علم ملك البرتقال بذلك أرسل بعثاً بحرياً عهد اليه بكشف تلك الشواطئ من البقعة التي بلغها كبرال الى ما وراءها جنوباً ما دامت الشواطئ واقعة في المنطقة المخصوص بها البرتقال. فوصل البعث في كشفه للشاطئ الى خط ٣٢° جنوبي خط الاستواء. ومن ذلك الحين صار البرتقاليون يعدّون البرازيل من أملاكهم

النزاع على البرازيل

القارة الجديدة

ومن هذا العهد اتضح لأوربا وجود قارة شاسعة بين أوربا وشواطئ آسيا الشرقية ومع كون الكاشف الحقيقي لها هو خرستوف كلمب أُطلق عليها اسم «أمريكا»

نسبة الى رجل لم يكن خير مستحق لهذا الشرف العظيم هو « امريقو فِسبوشى » وسبب هذه التسمية أن «امريقو» كان من الملاحين الذين خرجوا فى بعث «بنزون» لكشف الشواطئ الواقعة جنوبى نهر الارينوكو . فكتب رسالة وصف فيها رحلته الى تلك الجهات ، نشرها «وُلزمُلَر» عام ١٥٠٧، واقترح أن تسمى القارة الجديدة بامريكا نسبة الى مؤلف الرسالة، لما له من الفضل الكبير فى لفت نظر أوربا الى أن الأرض التى كشفت حديثاً لم تكن جزءاً من آسيا بل هى قارة عظيمة تكوّن عالماً جديداً امريقو فسبوشى

ومن أعظم من خالطتهم هذه الفكرة « ماجلاَّن » البرتقالى ؛ فانه لم يقتصر على تأييدها، بل قال انه ان كان المسير غرباً فى المحيط الاطلنطى يؤدى الى البحار الهندية فلا بدّ من الطواف غرباً حول القارة الجديدة أو العثور على ممر فيها مؤد الى المحيط الهندى . و « ماجلاَّن » هذا كان من ملاحى البرتقال الذين تدربوا فى رحلات «ألميدا » والبوكيرك ، فكسب بذلك خبرة عظيمة فى الملاحة . فلما لم يلق من ملك البرتقال ما هو جدير بهِ من حسن المعاملة عوّل على الانتظام فى خدمة اسبانيـا . فعرض رأيه فى الوصول الى البحار الهندية وجزر البهار على ملكها (الامبراطور شارل الخامس) عام ١٥١٧ . فراق شارل رأيه وأرسله عام ١٥١٩ فى خمس سفن صغيرة لتحقيق هذه الفكرة ماجلان

فسار ماجلاَّن فى المحيط الأطلنطى متجهاً نحو الجنوب الغربى على أمل العثور على ممر جنوبى أمريكا يخترقهُ الى البحار الشرقية . فعثر قرب طرف أمريكا الجنوبية على ممر سمى باسمه فيما بعد ، فمرَّ منه واذا به فى محيط مترامى الأطراف لا يُعرف له مدى . وقد راع ماجلاَّن هدو هذا المحيط الجديد وخلوه من زوابع المحيط الأطلنطى واضطرابه ، فسماه المحيط «الهادئ» ، ثم شرع يمخر عبابه بجرأة لم يسبق لها مثيل متجهاً نحو الشمال الغربى . فبقى كذلك نحو ثلاثة أشهر لم تقرّع عينه فيها برؤية اليابسة ، ولاقى فيها هو ورجاله من الأهوال ما لا يدخل تحت وصف : أنهكهم التعب ، وفشا فيهم المرض، خصوصاً لخلو طعامهم من الخضروات، ومات منهم خلق كثير. وأخيراً أسعفتهم مضيق ماجلان ماجلان فى المحيط الهادى

المقادير فعثروا في ٦ مارس سنة ١٥٢٠ على جزائر « لدّرون » ، فتزوّدوا منها بما يسد رمقهم ويقيهم غائلة الجوع والمرض ، ومن ثم ساروا حتى وصلوا يوم ١٦ مارس عام ١٥٢٠ الى الجزائر التى سميت فيما بعد بجزائر « فلّبين » نسبة الى فليب الثانى ملك اسبانيا بين عامى ١٥٥٦ و ١٥٩٨ . ومات ماجلاّن فى احدى هذه الجزر أثناء مكافحة مع سكان تلك الجهات

موته

اتمام رجاله الطواف حول الارض

وكانت احدى سفنه الخمس قد ضلّت منهُ قبل دخول مضيق ماجلاّن ، وأخرى تسلّلت من البعث فى المضيق نفسه وعادت الى البرتقال ، فشرعت ثلاث السفن الباقية فى اتمام الرحلة الى ملقا (جزر البهار) فعطلت منهـا واحدة فى الطريق ، وسار رجال ماجلان بالاثنتين الباقيتين حتى وصلوا الى بُرْنيُو : ثم الى « تيدور » احدى جزر البهار مأربهم الأصلى (نوفمبر سنة ١٥٢١) فاتجروا مع الأهالى، وبعد أن تزودوا بكميات وافرة من التوابل والأفاويه هموا بالرجوع الى اسبانيا . وعند ذلك ظهر أن احدى السفينتين لم تعد تصلح للقيام بهذه الرحلة الطويلة ، فخرجت بالسفينة الباقية (فكتوريا) وحدها متبعة الطريق العادية حول رأس الرجاء الصالح، وبلغت اشبيلية فى ٨ سبتمبر سنة ١٥٢٢ أى بعد خروج ماجلان من اسبانيا بثلاث سنين الاّ اثنى عشر يوماً . وكان من رجعوا فيها ثمانية عشر رجلاً من نيف ومائتى رجل خرجوا فى بعث ماجلان

تأثير الرحلة

بهذه الرحلة تمَّ الطواف حول الأرض لأول مرة ؛ وهى بلا شك تعتبر اكثر الرحلات التى خلدها التاريخ خطورة وإقداماً ، وتكاد رحلة خرستوف كلمب تتضاءل أمامها . وهى من الوجهة الجغرافية أهم بكثرة منها من الوجهة التجارية ، فيها ظهر للملأ جلياً وجود قارة عظيمة بين أوربا وآسيا يفصل بينها وبين الأخيرة محيط شاسع الأرجاء ، فبرهن على أن حجم الأرض أعظم بكثير مما كان يظن علماء القرون الوسطى حتى كامب نفسه . وكاد غير المكشوف بعدها من الدنيا لا يتجاوز دائرتى القطبين والأوقيانوسية

مقارنتها برحلة كلمب

ومن ذلك الحين أخذت انظار أوربا تتجه بجدّ الى خوض البحار الشاسعة وتكوين مستعمرات وراءها ، ولم يعد ذلك مقصوراً على اسبانيا والبرتقال ، بل لم يلبث أن تعداهما الى هولندة وفرنسا وانجلترة ، غير أن دخول هذه الدول الأخيرة فى ذلك المضمار لم يأت الاّ متأخراً. وكان ينتظر وقوع منافسة شديدة بين اسبانيا والبرتقال في ملك القارة الجديدة واستعمارها؛ ولكن البرتقال شُغِلوا باستعمارهم وتجارتهم فى الهند ، فصفا الجو زمنًا فى أمريكا للاسبانيين

الاسبانيون فى امريكا

بدأ الاسبانيون استعمارهم فى أمريكا بالاستيلاء على الجزائر الكبرى من جزائر الهند الغربية ، فجعلوا مقرهم جزيرة « كوبا » ومنها صاروا يرسلون البعثات لكشف شواطئ أمريكا الوسطى الى أن نقلوا مقرهم الى بنما ، فجعلوها مركزاً جديداً لبعوثهم الاستكشافيّة ، وضاعفوا الهمة فى ذلك، فما آن منتصف القرن السادس عشر الاَّ وقد استولوا على معظم أنحاء أمريكا الجنوبية . وكانوا فى كل ذلك لا يلقون من السكان مقاومة تذكر، بل كانوا يفرون أمامهم مذعورين، ظانين أنهم ليسوا من البشر وأنهم خلق آخر لا طاقة لهم بهِ

وكان الاسبانيون أينما حلُّوا فى جهة وجدوا سكانها فى حالة وحشية الاَّ فى مملكتين هما المكسيك وبيرو؛ فقد وجدوا فيهما شيئًا من الحضارة لم يخطر ببال وجوده فى تلك الجهات

فتح المكسيك

وأصل فتح المكسيك أن الاسبانيين بلغهم فى كوبا وجود مملكة فى أواسط البلاد التى يطلق عليها الآن اسم « المكسيك »، فيها من الذهب والفضة ما لا يدخل تحت حصر أو عدّ ، وكانت تحكمها قبيلة تُعرف بالأزانِقة ، عليها رئيس يسمى « مُنْتِزوما » فخرج لفتحها من كوبا عام ١٥١٩ حملة بقيادة « كُرْتيز » مؤلفة من نحو ٥٠٠ راجل و ١٦ فارساً ، فذعر المكسيك من مدافع الاسبانيين وخيولهم ، إذْ لم يكن الحصان من حيوان أمريكا . فقضى الاسبانيون نحو سنتين فى التغلب على ما أبداه هؤلاء السُذَّج من المقاومة حتى قبضوا على مَلِكهم وقتلوه ، فسقطت بذلك دولة « الأزانقة » وآلت بلادهم الى حكم الاسبانيين

حضارة المكسيك

ومن أهم معالم حضارة المكسيك انهم كانوا يشيدون المدن والمبانى العظيمة التى هالت الاسبانيين ضخامة بعضها ، وكانوا يعرفون القراءة والكتابة ، فكانت كتابتهم مكوّنة من صور تشبه كثيراً كتابة قدماء المصريين

أما « بيرو » فكانت أرقى من المكسيك حضارة ، فلم تقتصر مدنيتّهم على بناء المدن العظيمة الغاصة بالمعابد الفاخرة والقصور الشاهقة ، بل أنشأوا الطرق وشيدوا الجسور والقناطر وغير ذلك من وسائل العمران . وكان حكامها يلقبون « بالأنكا » ، وكانت حكومتهم استبدادية عادلة منتظمة .



منتزوما

(ملك المكسيك وقت أن فتحها الاسبان)

حضارة بيرو

سمع الأسبانيون بثروة « بيرو » وغنى « الأنكا » الذين قال المغالون فى وصفهم ان كل ما فى قصورهم كان من ذهب . فخرجت لغزوها من « بنما » عام ١٥٣١ حملة صغيرة مؤلفة من مائتى مقاتل أو يقلون، يقودهم رجل أمىّ قاسى القلب يسمى « بِزّارُو » . فرسا بالبلاد من غير أن يلقى مقاومة ، ثم سار الى مدينة « ككسامرْكا » حيث كان عظيم الأنكا معسكراً على اثر انتصاره على أخ له كان ينازعه الملك. فلما رأى الاسبانيون فخامة

فتح بيرو

المعسكر ، وكل ما فيه يتلألأ بالذهب والجواهر ، دهشت أبصارهم وباتوا يرقبون اللحظة التى ينقضّون فيها على هذه النفائس

فقصد بزّارو عظيم الأنكا زائراً ؛ فأحسن استقباله ، ثم كافأه بالزيارة فى معسكره ؛ فجاء على كرسى من الذهب محمولاً على الأعناق يحيط به نحو عشرة آلاف حارس . ففاجأه قس من الاسبانيين وتقدم يحمل صليباً وعرض عليه اعتناق النصرانية ونبذ

عبادة الشمس ، وأخبره أن البابا وهب بلاد « بيرو » لملك اسبانيا . فلم يَرُق كل ذلك فى عينه وعجب من هبة البابا شيئاً لا يملكه . وهنالك ثار القس فى وجهه ونادى بالاسبانيين : الانتقام الانتقام ! و بالبداهة كان كل ذلك متفقاً عليه من قبل ، ففتحت المدافع والبنادق الاسبانية أفواهها على أهل « بيرو » ، وأُخذ عظيم الأنكا أسيراً وهو ينظر الى رجاله تأكلهم النار من كل جانب

ثم عرض عظيم الأنكا أن يفدى نفسه بملء الحجرة التى سُجن فيها ذهباً . فقبل « بزّارو » منه ذلك ، وأرسل عظيم « الأنكا » أوامره بجمع ما فى القصور والمعابد من أوان وتحف ذهبية حتى ملئت بها الحجرة ، بما تقدر قيمته بنحو ٣،٠٠٠،٠٠٠ جنيه . وبعد أن استولى الاسبانيون على جميع هذه النفائس غدروا به فقتلوه (عام ١٥٣٣) ، فزال بذلك استقلال بيرو ، ودخلت فى غمار الأملاك الاسبانية



بزّارو

ولم يلاق الاسبانيون بعد فتح « بيرو » صعوبة تذكر فى غزو ما بقى من جنوبى أمريكا ، ولم يمضِ زمن طويل حتى فتحوا معظم بلادها . وكان رائدهم الأكبر فى كل ذلك طلب الذهب والفضة ، دون استعمار الأرض واستثمارها بالطرق التى تعود بالفائدة على الغالبين والمغلوبين معاً . وسنعود الى الكلام على حكمهم فى الدنيا الجديدة عند ذكر المنافسة الاستعمارية بين الدول الأُوربية الحديثة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

الفصل الثالث

الاصلاح الديني في أوربا

الاصلاح الديني والنهضة

بعد أن رسخت أقدام النهضة الحديثة في الممالك الأوربية المختلفة أخذ تأثيرها يظهر في أمم أوربا بشكول مختلفة بحسب استعداد كل أمة وميلها. فظهرت في ألمانيا بشكل ديني لم يلبث الا قليلاً حتى انتشر في شمالي أوربا بأجمعه وفي بعض الأصقاع الأوربية الأخرى. وكانت هذه الحركة في بادئ الأمر ثورة على البابوية، ثم أنتجت انقسام الأمم الأوربيـة الى قسمين متفاوتين بفصم عرا الروابط التي كانت تربطها جميعها بالكنيسة، ولما كان أهم أسباب الحركة راجعاً كما سيأتي الى نقائص ومخاز في الكنيسة نشأ عنها اصلاح خلقي ديني في ممالك أوربا، سُميت بالإصلاح الديني

أسباب الانقلاب

ويجدر بنا أولاً أن نتعرف الأسباب التي جعلت ممالك أوربا الشمالية غير مرتاحة الى سير الأحوال الدينية في الكنيسة حتى أفضى ذلك بها الى الانفصال عنها :

١ — النهضة

فمن الأسباب العظيمة النهضةُ العقلية التي قضت على عهد القرون الوسطى وابتدأت عصراً جديداً. وقد ذكرنا آنفاً أن من نتائج النهضة أنها بعثت روح النقد الذي كان معدوماً في القرون الوسطى؛ وسيظهر لنا جلياً فيما يأتي كيف ولّد هذا الروح العداوة بين رجال النهضة الحديثة وبين علماء القرون الوسطى؛ مما كان العامل الأكبر في احداث هذا الاصلاح

٢ — معايب الكنيسة

السبب الثاني وجود مخاز قبيحة ومعايب خسيسة في الكنيسة؛ فلم يكن للدين عند القسوس والرهبان أثر نفسي في كثير من الأحوال وانما كان مجرد مظاهر ليس للقلب والضمير منها نصيب. واعتقـد الكثير منهم ان الدين شيء لا رابطة بينهُ وبين الأخلاق والآداب. ولم تكن هذه الحال خافية على المتدينين الحقيقيين، بل كان

كلهم يشعر بضرورة القيام باصلاح يشفى أوربا من هذا المرض . ولم يكن الخلاف بين رجال هذا الفريق الا فى كيفية عمل هذا الاصلاح : أيتم ذلك باصلاح الكنيسة نفسها أم بهدم أنظمتها باصلاح خارجى ؟

٣ — حسد الامراء للبابا

السبب الثالث يرجع الى حسد الأمراء والحكام للبابا وتصادم أغراضه مع العواطف القومية الوطنية . نعم ان ما كان يدّعيه بعض بابوات القرون الوسطى من السيادة الدنيوية أخذ يتداعى فى أواخر تلك العصور؛ لكن بقى لهم مجال فسيح للتدخل فى بعض شؤون الأمراء الدنيوية ؛ كتعيين مستخدمى الكنيسة ، وحدّ الضرائب التى تُجبى من القسوس ومن أملاك الكنيسة ، وفى مسائل الزواج والوصايا ، وغيرها من الأشياء التى كان البابا بحق الرآسة الدينية له سلطان الرقابة عليها والنظر فيها . ومن هذا يظهر أن الأمم الأوربية كانت فى الحقيقة غير مستقلة ، واذا ضاهينا ما للأمم من الحقوق الآن بما كان لممالك القرون الوسطى فاننا لا نعتبر الأخيرة الاّ أقاليم من دولة عظيمة مركزها رومية

وكان من اكبر الأسباب التى أدت الى تألب الحكومات والأمراء على البابا تدخّله فى الأمور المالية ، فلسيطرته العامة على أملاك الكنيسة العظيمة حقت له جباية القناطير المقنطرة منها ؛ هذا الى ما كان يجمعه من «صكوك الغفران»* من كل الأمم الأوربية . فكانت جملة ما تجبيه الحكومة من الأهالى فى بعض الممالك لا يوازن ما كانت الكنيسة تجمعه . ومما زاد الطين بلة ان هذه المبالغ الباهظة التى كانت الكنيسة تجمعها لم تصرف كلها فى أوجه دينية؛ بل عبث بها بعض السفلة من البابوات فى مطامعهم الشخصية أو فى أغراضهم السياسية ، مثل فعل الاسكندر السادس ، كما سيأتى عند ذكر الحروب الايطالية

الشعور القومى

وقد بلغت هذه الحال منتهاها فى وقت ابتدأ فيه الشعور القومى يهب من رقدته وأخذت الحكومات تقوى وتقوم بأعمال جديدة تتطلب منها أموالاً كثيرة لإعداد

---

* سيأتى شرح « صكوك الغفران » فى الكلام على « مرتن لوثر »

جيوش منتظمة ولأغراض أخرى ، فكان من المستحيل الرضا بهذه الحال والسكوت عليها

الحالة العلمية قبيل الحركة

ويجدر بنا أن نوضح هنا حالة أوربا العلمية والدينيــة قبل انفجار تلك الثورة العظيمة حتى نكون على بينة من تأثير الأسباب السالفة فى الاصلاح الدينى

قد لاحظنا أثناء الكلام فى النهضة ان أهم غرضلها فى ايطاليا كان احياء الاداب والعلوم القديمة وانها لما سَرَت الى شمالى أوربا كان من أهم أغراضها نشر الآداب العبرية المسيحية القديمة واحياؤها . والسبب فى ذلك ان المدنية الايطالية أقدم من المسيحية ، أما المدنية التيتونيـــة (الشمالية) فلم تأت الا من طريق المسيحية نفسها . فلما قويت قوة النقد والبحث والتنقيب فى الممالك الأوربية الشمالية أخذت تظهر فى شكل مسيحى لا وثنى كحالها فى ايطاليا . بمعنى أن قوة النقد جعلت وجهتها فى ايطاليا نقد الآداب والفنون ؛ أما ألمانيا فانها عُنيت بالدين ، ولهذا السبب يُعتبر علماء النهضة فى شمالى أوربا هم المهيئين لعصر الاصلاح الدينى العظيم . وقد ظهر منهم عدد عظيم فى انجلترة وألمانيا وغيرها

بعض الممهدين للاصلاح الدينى

ونخص بالذكر منهم فى انجلترة علماء النهضة فى اكسفورد ؛ وأولهم « جون كولِت » (١٤٦٦ — ١٥١٩) ، وقد تلقى العلوم فى ايطاليا ورجع وهو ممتلئ حماسة دينية لما سمعه من بلاغة « سافونا رولا » المصلح العظيم ؛ ثم « إرَزْم » ، وقد تكلمنا عنهُ آنفًا ؛ ويليه « تومس مور » (١٤٧٨ — ١٥٣٥) ، وكان يعتبر أذكى عالم فى انجلترة فى عصره ،

كتاب يوتوبيا

وقد ألف كتابًا اسمه « يوتوبيا » ، وهو على شكل رواية تصور فيها المؤلف مملكة بلغت غاية الكمال فى الآمال والأخلاق ونظام الحكومة والتسامح الدينى ، وكان يرمى فيها الى التشهير بنقائص عصره والسعى فى اصلاحها : مما جعل له المكانة العظمى بين علماء النهضة بعد « ارزم » . فكل من هؤلاء كان من عظماء رجال الاصلاح ؛ غير أن الاصلاح الذى كانوا يرمون اليه لم يكن الاصلاح البروتستنتى (وهو ما آلت اليه الحركة فيما بعد) ، بل كانوا لا يزالون يعتقدون فى سلطان البابا الالَهى ؛ وكان

غرضهم من الاصلاح أن يكون فى البابوية نفسها من غير هدمها ، ويقصدون بذلك بقاء رابطتهم بالكنيسة كحالها فى القرون الوسطى. ولم يكن بينهم وبين الدين الكاثوليكى أى كراهية أو عداء . يدلك على ذلك أن «إرَزْم» نبذ عقيدة «لوثر» بطل الاصلاح البروتستنتى، وطوّح « تومس مورُ » بنفسه فى سبيل تمسكه بمبدأ وجوب سيادة البابا

أما فى ألمانيا فان « حنا رُكلين » الذى هو من أعظم علماء النهضة قد شنّ الغارة على علماء القرون الوسطى وشجع الأهلين على درس اللغة العبرية بحجة أنها تفيد فى تفهم الدين المسيحى؛ وقد قام فى وجهه رجال الدين فى كثير من جامعات ألمانيا وجامعة باريز؛ وسُفّهت أفكاره ؛ على حين أن كثيراً من علماء النهضة استحسنوا رأيه وأرسلوا له مكاتبات استحسان وتشجيع نشرها بعنوان «مكاتبات من مشهورى الرجال»

ولم يكن الشعور الدينى فى أول الأمر هو الباعث الأول على منازلة علماء النهضة لرجال القرون الوسطى ، وانما كان هو حبهم للتبحر فى العلوم واحتقارهم لجهل مميتى النهضة الحديثة وسقطتهم . وابتدأ الجدال بينهم يتشكل بشكل جدى حتى صار مجادلات دينية ؛ ثم أخذ يزداد شيئاً فشيئاً حتى أصبح حرباً عواناً بين الفريقين . وأول من أظهر الشجاعة الأدبية والدينية وقام فى وجه الكنيسة ونقد مخازيها هو بطل هذا العصر وصاحب الاصلاح الكبير « مَرْتِن لوثَر »

﴿ مرتن لوثر ﴾

ينقسم تاريخ حياة لوثر الى ثلاثة أطوار : الأول طور طفولته وتربيته ومدة رهبانيته وهو الوقت الذى كان فيــه على وئام مع المذهب الكاثوليكى ؛ الطور الثانى هو مدة الازمة التى وقع فيها مع البابوية، ويمتد من سنة ١٥١٧ الى مجمع «وِرْمِز» سنة ١٥٢١؛ الثالث طور أخريات أيامه ، وهى المدة التى نظم فيها مذهبه وساعد على انتشار الاصلاح الدينى فى ألمانيا

الطور الأول

وُلد لوثر فى بلد « ايزلِبن » من أعمال سكسونية عام ١٤٨٣ . وكان أبوه معدماً لم ينل نصيباً وافراً من التعليم ، غير أنهُ كان مقتصداً مدخراً مستقيم الحال ؛ وكان فى

عزمه أن يربيه تربية حسنة، فأرسله الى مدرسة القرية فى بادئ الأمر ثم الى مدرسة فى « مَجْدِبُرْج » ثم الى مدرسة « القديس جورج » العالية فى « ازْناخ » حيث أقام مدة ثلاث سنين . ثم انتقل الى جامعة « إرْفورت » ليتلقى علم القانون ، وكانت هذه الجامعة كاثوليكية الصبغة ومع ذلك كان روح النهضة الألمانية قد قرب منها . ولم يتم لوثر دراسته فى هذه الجامعة ، فتركها فجأة عام ١٥٠٥ وولى وجهه شطر دير « القديس أوغسطين » حيث مكث ثلاث سنين . وكان الباعث له على ذلك ما كان يدور بخلده من الشكوك الدينية ، ولكن ما لبث أن هدأ باله بمطالعة الانجيل وكتابات القديس أوغسطين . ثم ترك الدير وأخذ يدرّس فى جامعة « وِتِنْبِرْج » التى كان قد أسسها حديثاً نائب سكسونية (فردريك) . وكان ذلك فى عام ١٥٠٨ ، فمكث بها يدرّس ويخطب الى أن نشبت الحرب بينه وبين البابوية عام ١٥١٧ . وفى أثناء هذه الفترة ساح سياحته المشهورة الى رومية عام ١٥١١ ، فوقف فيها على كل معايب المدينة والكنيسة، فما لبث ان مجّ الاقامة برومية ، فرجع فى عام ١٥١٢ الى « وتنبرج » . ثم حدثت الأزمة الحقيقية بينهُ وبين الكنيسة فى عام ١٥١٧ ، وكانت من جراء بيع « صكوك الغفران » بأمر البابا (ليو العاشر) لجمع مال لبناء كنيسة القديس بطرس فى رومية . وقد قام ببيع هذه الصكوك فى سكسونية أحد الرهبان المسمى « حنّا تِزِل » . وكانت العادة اذا ذهب أمثال هذا الراهب الى احدى القرى أو البلاد أن يخرج للقائه جمّ غفير من الصغار والقسوس والأهالى بالأنوار مرتّلين الاناشيد . ويجدر بنا الآن أن نشرح حقيقة صكوك الغفران التى ابتدأ من أجلها هذا الانقلاب العظيم

(لوثر فى جامعة ارفورت — رهبنته — تدريسه فى جامعة وتنبرج — رحلته الى رومية)

(صكوك الغفران)

كانت هذه الصكوك فى بادئ أمرها عفواً يمنح من البابا ليرفع عقاب الكنيسة عمن وقع منه ذنب . غير أن الأهلين أخذوا يفهمون أنها تعفيهم من عقاب الكنيسة ومن عقاب الآخرة معاً . وقد غلوا فيها حتى زعموا أنها بمثابة غفران لما تقدم من الذنوب وما تأخر ، اذ كانوا يعتقدون أن فى يد البابا كنزاً لا ينفد من طيبات المسيح والصالحين والقديسين ، وفى قدرته أن ينفق منه على المؤمنين الأتقياء . وهذا ما أثار غضب لوثر ، اذ كان روح وعظه الدينى أن العفو الالهى عن أى خطيئة لا يكون

الاّ بالتوبة القلبية والاقلاع عن المعاصى ، وان ما يفعله البابا بواسطة صكوك الغفران لجمع المال مشجع للناس على ارتكاب الخطايا ومتلف للأرواح التى من واجبه تخليصها وتطهيرها . وقد رسخ فى عقل لوثر هذا الاعتقاد ورأى ضرورة المعارضة والاحتجاج عليه ، فعلّق على باب كنيسة البلدة لوحًا فيه خمس وتسعون فقرة منافية لصكوك الغفران . فلما وصل الى البابا طعن لوثر على صكوك الغفران طلبه أمام محكمة التفتيش فى رومية ، ولكن « فودريك » نائب سكسونية حرضه على عدم الذهاب ولطف من غضب البابا ، فأرسل البـابا الى مدينة « أوجزبرج » أحد (الكردنالات) ليرده عن زيغه ، الاّ أن لوثر أصر على اعتقاده . فلما سمع البابا « ليو » بذلك عدّهُ زائغًا عن الكنيسة وحرّمه منها ، وطلب الى نائب سكسونية ان يسلمه الى القضاء ، أما لوثر فانه أحرق كتاب البابا علنًا فى وسط وتنبرج . وفى هذه الفترة كان عرش الامبراطورية* خاليًا . فلما تولاه شارل الخامس وكان أقوى حاكم فى جميع أوربا عرض عليه البابا أمر لوثر ليحاكمه ، فطلبه الامبراطور فى ابريل سنة ١٥٢١ أمام مجمع « ورمز » واتهمه بمخالفة قوانين الكنيسة ونشر تعاليم خطّأها البابا وانه يجب عليه أن يرجع الى الحق . فطلب لوثر الى البابا أن يدحض آراءه ليقتنع بخطئه فلم يصغ البابا اليه ، وبذلك انفض المجمع بدون نتيجة من هذه الوجهة . وأعلن الامبراطور حرمانه من التمتع بالقوانين المدنية والدينية وأمره أن يغادر « ورمز » فى الحال . الاّ أن نائب سكسونية كان معاضداً له ، فنقله الى قصره فى وَرْتِبُرج (تحرسه ثلة من الجند) ليكون بعيداً عن انتقام الكنيسة منه .

الطور الثانى


مرتن لوثر

البابا يحرم لوثر من الكنيسة

لوثر أمام مجمع ورمز

حماية نائب سكسونية له

* انظر معنى « الامبراطورية » فى الفصل التالى

ولنتركه هنا فى مخبئه حتى نعود الى ذكر بقية حياته ، لأن الثورة التى أحدثها ولّدت حركة وطنية ضد رومية ، ولذلك كان ما بقى من حياة لوثر لا يقتصر على تاريخ حياته فقط بل يشمل تاريخ حركة الاصلاح الدينى فى ألمانيا

وقبل أن نختم هذا الفصل نذكر شيئاً عن زعيمين آخرين كان لمبادئهما اكبر أثر فى الاصلاح الدينى بأوربا : وهما « كَلْفِن » الفرنسى و « زِوِنجِلى » السوِسرى

كلفن — وُلد كلفن فى بلدة « نوايون » من أعمال « بيكارديه » بفرنسا عام ١٥٠٩ . وكان والده فقير الحال غير أنه كان يطمح الى تربيته تربية حسنة ، فأرسله عام ١٥٢٣ الى جامعة باريس ليتم دراسته بها . وكان غرض كلفن أن يتفقّه فى الدين، ولكن والده رغبهُ فى دراسة الحقوق ولذلك ذهب الى أورليان حيث أخذ عن أحد المتضلعين فى القانون فى ذاك العصر . فكان مثله كمثل لوثر فى دراسته للقانون لكنه خالفه من جهة أخرى بميله الى دراسة علوم النهضة . ولم تظهر عليه آثار الميل الى المباحث الدينية الاّ بعد خروجه عن مذهب الكنيسة (سنة ١٥٣٤) واتّباعه مذهب لوثر . وحينئذٍ اضطر الى الفرار من باريس لأن فرنسوَا الأول ملك فرنسا أخذ يضطهد البروتستنت فى هذه المدة . ونزل كلفن ببلدة « بال » حيث نشر كتابه الذائع الصيت « قواعد الدين المسيحى » الذى بيّن فيه منهجه لإصلاح الدين . وبعد نشر هذا المؤلف العظيم نزح الى « جِنِيْرَة » (جنيف) وأقام فيها معظم باقى حياته (١٥٣٦ — ١٥٦٤) ، وفى هذه البلدة أخذ اسمه العظيم وشهرته يفشوان فى كل أوربا . وقد مهدت له حالة هذه المدينة السياسية أن ينهض بتعليماته وبنشرها ، فكانت حكومتها (ديمُقراطية) ، اذ طرد الأهالى الأسقف حاكم المدينة عام ١٥٣٤ واعتنقوا المذهب « البروتستنتى » . ولذلك لم يجد كلفن معارضة أو اضطهاداً من الحكومة فى وضع تلك المبادئ الكلفنيّة التى تركت لها أثراً خالداً فى الحياة الدينية والسياسية فى أوربا . ويمكننا أن نقدر ما قام به كلفن فى سبيل الاصلاح اذا علمنا ان ما أتاه لوثر فى هذا السبيل لم يكن الاّ هدم نقائص الكنيسة ومعايبها من غير أن يضع نظاماً ثابتاً يسير الناس على مقتضاه ، ولذلك كان الفشل يُخشى على حركة الاصلاح لولا ظهور كلفن فى هذا الوقت العصيب

(انتشار مذهبه)

وقد تناول اصلاحه أمرين عظيمين : الأول مبادئه الدينية، والثانى النظام الذى وضعه لادارة الكنيسة . وقد كان لهذين الاصلاحين أثر فى تاريخ أوربا أعظم من أى حادث آخر فى خلال الثلاثة القرون الأخيرة (اللهم الا الثورة الفرنسية) ، لما كان فى أثرهما من حركة الهيجونوت فى فرنسا وايقوسيا وحركة البيورتان فى انجلترة وحركة الاصلاح الدينى فى الأراضى المنخفضة . وسنتكلم على كل فى حينه

اصلاحاته

زونجلى

أما حركة الاصلاح فى سوسرة فكان زعيمها « زِونجلى » (١٤٨٤ - ١٥٣١) الذى تلقى علوم الدين فى جامعة « ويانة » . وقد أثار غضبه بيع صكوك الغفران ؛ ثم حدث التصادم الحقيقى بينه وبين البابا عند ما أراد « ليو العاشر » أن يجمع جيشاً من سوسرة لمحاربة الفرنسيين، فعارضه فى ذلك زونجلى فلم يفلح . ومن هذا الحين أخذ يشن الغارة على تعليمات الكنيسة بعزيمة قوية حتى انتشر مذهبه فى جميع أنحاء سوسرة


كلفن

ولم تكن آراؤه وأغراضه السياسية مطابقة كل المطابقة لآراء لوثر وأغراضه . اذ كان من مصلحة لوثر معاضدة سلطان الأمراء، فى حين أن أحوال سوسرة السياسية قضت على زونجلى بالأخذ بناصر الشعب

الباب الثانى

تاريخ أوربا الى نهاية عهد الاصلاح الدينى

الفصل الأول

ألمانيـــا

١ — * منشأ الدولة الرومانية المقدسة *

بعد أن ثلّ « أُدْوَكْر » عرش الدولة الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ م أخذت القبائل المتبربرة المغيرة عليها ترثها فى أملاكها الشاسعة ، فاحتلت قبائل القوط الغربية بلاد «الغال» (فرنسا) ، واستولت القوط الشرقية على ايطاليا بانتزاعها من ادوكر . وكان من بين القبائل الجرمانية المغيرة قبائل تسمى « الفرنج » نزلوا غربى نهر الرين قبل سقوط رومية بنحو ٢٠٠ عام ، فلما سقطت هذه المدينة ساروا بقيادة أحد قوادهم « كلوفس » (٤٨١ — ٥١١ م) وهجموا على بلاد « الغال » عام ٤٨٦ م . وتغلبوا على القبائل التيتونية الأخرى التى كانت سبقتهم الى تلك البلاد . وجدّ « كلوفس » فى مطاردة القوط الغربية جنوباً ، فتقهقروا الى ما وراء جبال البرانس فاتخذوا شبه جزيرة ايبيريا (اسبانيا) مقراً لهم

قبائل الفرنج

كلوفس

وعمل « كلوفس » على نشر المسيحية فى «الغال» وتهدئة أحوالها واصلاح شؤونها ، ولكن خلفاءه لم يكونوا على شاكلته فى القوة وشدة البأس ، فسلب حُجّابهم السلطان من أيديهم تدريجاً حتى قبض على زمام الأمور « شارل مَرْتل* » أحد هؤلاء الحجاب . فكان له النفوذ المطلق فى جميع ارجاء البلاد ، فمهّد السبيل لابنه « ببين » فى احراز لقب ملك اذ منحه البابا اياه عام ٧٥١ ، ووهب « ببين » له مقابل ذلك جزءاً من أواسط ايطاليا ، فصار للبابا لأول مرة ملْكاً دنيوياً يسيطر عليه بعد ان كانت سيادته مقصورة على الشؤون الدينية

شارل مرتل

ببين

(*) وهو الذى هزم العرب فى فرنسا فى واقعة بلاط الشهداء التى استشهد فيها عبد الرحمن الغافقى قائد العرب ووالى الاندلس من قبل بنى أمية سنة ٧٣٢ م

شرلمان ودولته

وخلف بپين على عرش بلاد الغال ابنه « شرلمان » المشهور[١] عام ٧٦٨ ، فشرع يوسع نطاق ملكه من جميع الجهات ، حتى كوّن دولة مترامية الاطراف تشمل ما يقابل الآن شمالى اسبانيا الشرقى وجميع فرنسا وشمالى المانيا ووسطها (ما عدا بروسيا الشرقية) وجزءاً عظيماً من النمسا وجميع شمالى ايطاليا ووسطها وجزيرة قرشقة . وكان يرمى الى اعادة مجد الدولة الرومانية بجعل هذه الأملاك العظيمة متماسكاً بعضها ببعض ، فتوّجه البابا امبراطوراً عليها عام ٨٠٠ ، فكان بذلك المؤسس للامبراطورية الرومانية المقدسة[٢] التى شغلت جزءاً عظيماً من تاريخ أوربا وبقيت الى أن أزالها من عالم الوجود « نابليون بونابرت » عام ١٨٠٦

تتويجه امبراطوراً

ومات « شرلمان » عام ٨١٤ فخلفه ابنه « لويس » ، وكان ضعيف الرأى ، فضاعت بعض الأملاك من يده ، وأخذت الشعوب المختلفة التى خضعت لشرلمان تتطلع الى الاستقلال بنفسها .

تقسيم أملاكه فى معاهدة فردان

ولما مات لويس وقع الشقاق بين أولاده الثلاثة واقتسموا دولة جدهم شرلمان فى معاهدة « فِرْدان » سنة ٨٤٣ . فاستولى « لويس » على الأراضى التى شرقى نهر الرين ، وهى الأساس الذى قامت عليه فيما بعد دولة شاسعة شاملة لامارات عديدة شبه مستقلة سميت المانيا (غير المانيا الحالية) ، واستولى « شارل » على الأراضى التى غربى الرون والموز ، وهى التى صارت فرنسا فيما بعد ، ونال « لوتير » الأراضى التى بين أملاك أخويه ، وكانت تمتد من بحر الشمال الى البحر الأبيض المتوسط وتشمل حوض الرين الأسفل وحوض الرون وايطاليا ، وتلقب بلقب « امبراطور » . على أن انقسام الدولة لم يجعل لهذا اللقب فائدة فعلية يمتاز بها حامله عن ملوك المانيا وفرنسا ، بل كثيراً ما نازعه فيه أمراء ايطاليا نفسها

المانيا بعد شرلمان

أما المانيا فبقى يحكمها نسل شرلمان (الأسرة الكارولنجية) الى عام ٩١١ اذ انتخب أمراء الولايات الألمانية ملكاً من بينهم يدعى « كُنْراد » ، وصارت العادة من ذلك الحين أن يتولى العرش من يختاره الأمراء ، فصار تنصيب الملك حقاً لهم ، ينتخبونه من بينهم ، وبتعاقب الأيام انفرد بهذا الحق أعاظم الأمراء وأكبرهم نفوذاً ، وصاروا يعرفون « بالنوّاب العظام » . وفى سنة ٩٣٦ تولى العرش أمير المانى يدعى « أُتّو » ، فعمل على استرجاع مجد دولة شرلمان وجدّ فى توسيع نطاق أملاكه وتوطيد دعائم الملك فيها . فضم ايطاليا الى دولته ، وزاد عليها كثيراً من أملاك الصقلب ودان له الدانمركيون والبولنديون والمجر ، فاتسع بذلك ملكه وتوّجه البابا امبراطوراً « للدولة الرومانيـة المقدسة » عام ٩٦٢ . وجعل حاضرته « أيكس لاشابل » (آخن) . واعترفت بسلطانه الولايات الألمانية . على أن نفوذ خلفائه لم يلبث أن تقلّص ، لترامى أطراف ملكهم وتشعّب أجناسه وتفكك الرابطة بينهم ، فلما انقرض نسل « أتّو » خلفته أسرة

مبدأ الدولة الرومانية المقدسة

---

(١) وهو الذى كان بينه وبين هرون الرشيد مراسلة ومهاداة ، ومن هدايا الرشيد له الساعة الدقاقة

(٢) لم يطلق عليها هذا الاسم الا بعد عام ٩٦٢

ضعف نفوذ الامبراطور

« فرنكونيا » ثم أسرة « هوهِنْستوفِن » ، وفى عهدهما ازداد نفوذ الامبراطور ضعفاً على ضعف ، حتى صار بالمانيا فى أواخر عهد أسرة هوهنستوفن نحو ٣٠٠ ولاية تكاد تكون مستقلة فى جميع شؤونها ، ولم يكن للامبراطور فى الدولة نفوذ يذكر

٢ — ✱ عصر الفترة العظمى (١٢٥٤ — ١٢٧٣) ✱

الفوضى فى المانيا

بعد انقضاء حكم أسرة « هوهنستوفن » (السويبية) فى المانيا عام ١٢٥٤ قضت هذه البلاد مدة من الزمن كانت فى خلالها ميداناً لطمع الطامعين ، فكان عرشها يباع ويشترى لمن يدفع أغلى الأثمان للنواب السبعة الذين كان بيدهم انتخاب الامبراطور ، وظلت على هذه الحال الى سنة ١٢٧٣ . وتعرف هذه المدة فى التاريخ الألمانى بعصر « الفترة العظمى » . ومن أغرب أخبارها أنه فى عام ١٢٥٦ م تولى عرش المانيا ملكان ، انتخب أحدهما فريق من النواب وانتخب الثانى فريق آخر ، فكان سلطانهما على البلاد اسمياً فقط . فسبب ذلك ضياع ما كان لألمانيا من السلطان والجاه فى البلاد المجاورة لها . أما أمراؤها فانهم انتهزوا هذه الفرصة ووطدوا ملكهم فى ولاياتهم المختلفة

الشعور بالحاجة الى توحيد المانيا

ولم تدم هذه الحال طويلاً ، اذ شعرت الأمة بوجوب لمّ شعثها بانتخاب امبراطور يسيطر على جميع أطرافها المفككة العرا ، فتمّ لها ذلك عام ١٢٧٣

٣ — ✱ أسرة هبسبرج ✱

لم يكن الامبراطور الذى تربَّع على عرش المانيا عام ١٢٧٣ من كبار أمرائها كما كانت القاعدة ، بل وقع الاختيار على «رودُلف» أمير « هَبْسبُرْج » احدى القلاع التى فى جنوبى سوابيا بسوسرة لأنه كان حازماً شجاعاً ، فظلّ يسوس البلاد بعقله وشجاعته الى أن توفى عام ١٢٩٢ ؛ وهو يُعتبر المؤسس لأسرة « هبسبُرج » التى كان لها شأن عظيم فى تاريخ المانيا والتى ظلّت مستولية على عرش النمسا الى سنة ١٩١٨ وتولى بعده عدة امبراطورين من نسله لم يكونوا ذوى شأن ولم يأتوا من الأعمال ما يستحق الذكر

بيت هبسبرج

وتلخص أهم أخبار ألمانيا فى خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر فى ثلاثة أمور وهى : الحرب التى نشبت بين أسرة هبسبرج والسوسريين ، والحركة الدينية التى قام بها « هوس » وأتباعه ، ثم نمو قوة اسرة هبسبرج وامتداد سلطانها

(١) استقلال سويسرة

خروج سويسرة على الامبراطورية

كانت سويسرة فى القرون الوسطى ضمن الأصقاع التى اعترفت بسيادة الامبراطورية الرومانية المقدسة؛ ولم يكن هذا الاعتراف الا اسميًا فقط، فلما أرادت الامبراطورية أن تقبض على زمام الأمور فى البلاد وابتدأ الحكام المنصّبون من قبل الامبراطور يضيقون على السويسريين ويتدخلون فى شؤونهم السياسية لم يدينوا لذلك لما طُبعوا عليه من الحرية وحب الاستقلال. وكان من بين هؤلاء الحكام أُمراء آل هبسبرج الذين كانوا يرمون الى اخضاع جميع مقاطعات هذه البلاد وجعلها تحت حكمهم مباشرة فنتج عن ذلك تكون حلف بين ثلاث مقاطعات على الحدود الألمانية وهى «أُورِى» و«شِوِيز» و«أُنتَرْوُلْدِن» سمّوه «الاتفاق الأبدى» عام ١٢٩١؛ ويعتبر هذا الحلف أصلاً للجمهورية السويسرية. وقد نشبت الحرب بين سويسرة وامبراطورى ألمانيا واستمرت حتى أواخر القرون الوسطى؛ وكانت نهايتها عام ١٤٩٩ م وهو العام الذى عقد فيه الامبراطور «مَكسِمِليان» معاهدة مع الحلف السويسرى بعد أن انهزم فى عدة وقائع عظيمة أظهرت فيها الجنود السويسرية من المهارة الحربية ما خلّد ذكرهم. وفى هذه المعاهدة اعترف باستقلال بلادهم فأصبحت سويسرة من ذلك العهد من الممالك الأوربية المستقلة. وكان من نتائج هذه الحرب أن أصبح أهلها مولعين بالحروب وشن الغارات؛ ولما لم يجدوا مجالاً لإظهار مواهبهم الحربيـة اتخذوا الحرب حرفة يرتزقون منها، فكانوا اكبر عون لملوك أوربا فى حروبهم العديدة التى كانوا يُذكون نارها ويشنها بعضهم على بعض

الاتفاق الابدى

استقلال سويسرة

ولوع السويسريين بالحرب

(ب) الاصلاح الهوسى

بابوان فى وقت واحد

حدث فى أواخر القرن الرابع عشر شقاق بين رجال الكنيسة فى انتخاب البابوات حتى تربع على عرش البابوية اثنان فى وقت واحد، أحدهما فى رومية والآخر فى

« أفنيُون » بفرنسا . فكثر الاضطراب فى الكنيسة وانتشر الفساد بين رجالها ؛

الرغبة فى توحيد الكنيسة

فقامت ضجة فى أوربا تنادى بتوحيد الكنيسة واصلاح شؤونها واستئصال مخازيها. واستفحل أمر هذه الدعوة فى « بوهيميا » فى أوائل القرن الخامس عشر بزعامة «هوس» أحد أساتذة جامعة «براغ» حتى خرج الشعب على الكنيسة والامبراطورية فراع ذلك الامبراطور « سِجِسْمُنْد » واحتال على « هوس » حتى حضر أمام المجمع

هوس أمام مجمع كنستنز

الذى كان معقوداً فى « كُنْسْتَنْز » للنظر فى أمر اصلاح الكنيسة . وهنالك عرض «هوس» آراءه على المجمع، ولكن المجمع لم يعبأ بحججه وحكم عليه بالحرق سنة ١٤١٥ . فلم يزد ذلك أتباعه الا حماسة وشنّوا الغارة على جيوش الامبراطورية ، فكان النصر حليفهم فى كل مكان حتى توغلوا فى قلب الأراضى الألمانية

اتباع هوس

غير أن أمرهم لم يدم طويلاً ، فلم يلبثوا أن انشقوا على أنفسهم ، وأخذ الامبراطور يستميلهم بالوعود الجميلة والأمانى الكاذبة ، حتى خارت عزيمتهم ، وبقيت جيوش الامبراطورية تطارد الغلاة منهم حتى أفنتهم عن آخرهم

(حـ) توطيد سلطان اسرة هبسبرج

الامبراطور ألبرت

سبق أن قلنا انهُ تولى عرش ألمانيا بعد رودلف عدة امبراطورين ليس لهم شأن يذكر ، فلما كان عام ١٤٣٨ تولى العرش « ألبرت» دوق النمسا ففتح بذلك عصراً جديداً فى التاريخ الألمانى ، اذ أصبح المُلك من عهده شبه وراثى فى بيت هبسبرج ؛ فكان النواب ينتخبون الامبراطور بالصفة الرسمية المعتادة ، ولكن اختيارهم كان دائمًا يقع على أحد أفراد هذه الأُسرة . وبقى الأمر كذلك الى أن شتت نابليون

أهمية حكمه

شمل الامبراطورية وحلّها عام ١٨٠٦ . ولم يتربع « ألبرت » طويلاً على العرش. إذ وافته منيته فى العام الثانى من حكمه

فردريك الثالث

وخلفه على العرش «فردريك الثالث» ، فحكم مدة طويلة من ١٤٤٠ الى ١٤٩٣ لم يأت فى خلالها شيئًا يخلد له حسن الأحدوثة . وكان آخر الامبراطورين الذين « توّجوا فى رومية » (عام ١٤٥٢)

وكان شغله الشاغل مصير بوهيميا والمجر؛ وكانت الأولى يحكمها ابن عمه « لادِسلوس » ، والثانية من أملاك ملِك بولندة . وكان فردريك يخاف من امتداد سلطان الصقلب (ملوك بولندة) ، ولكن لحسن حظه لم يمضِ زمن حتى مات ملك بولندة وانضمت المجر الى بوهيميا ، وبذلك أصبحت كلتا المملكتين تحت حكم آل هبسبرج ، وآل الى أيدى الامبراطورين أنفسهم . وفى خلال حكمه استفحل التنازع الذى كان قائمًا بين الصقلب والألمان على سيادة شرقى أوربا ؛ وذلك أنه كان يوجد فى ألمانيا حزب يسمى «الحزب التيتونى» يرمى الى ضم بروسيا الى ألمانيا ؛ وكان يحتم على رجاله مناوأة بولندة ، فأفلحوا فى بادئ الأمر ولكن عدم مساعدة الامبراطور لهم كانت سببًا فى خيبتهم وضياع بروسيا الغربية من أيديهم . أما بروسيا الشرقية فانها بقيت فى يد هذا الحزب كإِقطاعية بولندية؛ وبذلك انتهى الأمر بفشل الحزب التيتونى وسيادة الصقلب

النزاع بين الصقلب والألمان

على أن مدة حكمه فى ألمانيا لم تجن منها البلاد ثمرة تذكر خصوصًا ان جل قوته كانت موجهة الى النمسا (أملاكه الوراثية) ولذلك كان مكروهًا من الأمة . ولما لم يجد أهلُ البلاد منهُ اهتمامًا بأمورهم رغب بعض المصلحين فى تحسين حال البلاد ، فلم تفلح كل مساعيهم لعدم مساعدته لهم ، وكان ذلك سببًا فى شدة تذمرهم وحنقهم عليهِ ، فهمّوا بخلعه من العرش

تأثير المصاهرة

ومع كل ما تقدم كان لعصر فردريك بعض الشأن فى تاريخ اسرة هبسبرج ، إذ بتزويجه ابنه « مَكْسِمِليان » من « مارية » وريثة أمير بِرْجَنديَة سنة ١٤٧٧ وضع الحجر الأساسى لمجد اسرته واتساع سلطانها

مكسمليان

فتولى بعده مكسمليان عام ١٤٩٢ ، فكان على عكس والده محبوبًا من جميع الأمة لما فطر عليهِ من الصراحة وحسن المعاملة . وأهم المسائل التى اعترضته فى سبيله حركة الاصلاح التى ابتدأت فى عهد سلفه ؛ فلما تولى كان فى حاجة الى المال والرجال

لشن الغارة على فرنسا ، فاضطره ذلك الى الخضوع لحزب الاصلاح . فعقد مجمعاً* فى «ورمز» سنة ١٤٩٨ وطلب اليه أن يمده بالمال . فعرض عليهِ حزب الاصلاح فى مقابل ذلك انفاذ مشروع لاصلاح البلاد كان قد سنّه رئيس أساقفة «مينز» . وكان غرض الحزب تجريد الامبراطور من كل سلطان الاّ قيادة الجيوش ، وكان المشروع يقضى بتكوين مجلس امبراطورى يتألف من ١٦ عضواً مسئولين أمام المجمع فقط . وكانت أهم أعمال هذا المجلس الحكم فى كل قضايا الاخلال بالامن ومراقبة دخل البلاد . فحذر الامبراطور عاقبة هذا المشروع لئلاّ تضيع السلطة القضائية من يده ويفقد الوسائل التى يستعين بها على جمع المال ، ولذلك لم يحضر المجمع ثانيةً . فلم ينفذ المشروع اذ لا يمكن تنفيذه الاّ بحضوره

مكسمليان وحزب الاصلاح

المجلس الامبراطورى

ولما اشتدت به الحال من كل جهة شرع فى استرضاء حزب الاصلاح ، فعرض على «مجمع أجزبرج» تكوين جمعية دائمة تعرف بمجلس الوصاية خوّل لها السلطة التنفيذية فى ألمانيا مدة غيابه عنها . وكان يقصد بذلك كما تقدم مساعدة المجلس له على جمع المال والرجال لمقاومة فرنسا . فخانه هذا المجلس وصالح فرنسا على انفراد وسمح لها باسترجاع نابلى ، فاغتاظ الامبراطور من أجل ذلك وباع ميلان (احدى املاك الامبراطورية) للويس الثانى عشر ملك فرنسا، ومنع دفع رواتب المجلس الامبراطورى فانحل المجلس على اثر ذلك ، ولما اجتمع النواب لخلع الامبراطور ولّى وجهه شطر النمسا فنظمها وقوى أركانها ، ثم عمل على تكوين حزب من صغار الامراء الألمانيين ، فنجح وقويت شوكته خصوصاً بعد موت رئيس اسقافة «مينز» الذى كان اكبر عدو معارض له . ومن هذا الحين أخذ حزب الاصلاح يتضعضع كلما ازداد سلطان الامبراطور

مجلس الوصاية

ولا يتسرب الى الذهن ان حركة الاصلاح هذه لم تترك أثراً فى البلاد البتة ،

* كان المجمع الالمانى يتألف من ثلاث لجان : الاولى مكونة من ستة من نواب الامبراطورية (جميع النواب ما عدا ملك بوهيميا) والثانية من الامراء على اختلافهم والثالثة من ممثلى المدن الحرة

بل انها استفادت منها بعض الشئ ، اذ فى أحد المجامع التى عُقدت فى أواخر أيام مكسمليان قُسمت ألمانيا ما عدا بوهيميا الى عشر دوائر يسيطر على كل منها ضابط تحت إمرته جماعة من الفرسان لتنفيذ قوانين البلاد . على أن مشروع المجلس الامبراطورى قد نفذ بحذافيره فى حكم خلفه شارل الخامس ، اذ أعيد المجلس اعادة كانت بلا شك من أهم نتائج هذه الحركة

اصلاحات مكسمليان

ومن أعظم مميزات عصر مكسمليان اتساع نطاق أملاك هبسبرج بطريق المصاهرة، وسنفصّل الكلام على ذلك فى تاريخ شارل الخامس ملك اسبانيا وخلف مكسمليان على عرش الامبراطورية ، وهو الذى بابتداء حكمه سنة ١٥١٩ دخلت ألمانيا فى طور جديد من أطوار تاريخها، وذلك بظهور حركة الاصلاح الدينى فى البلاد

مميزات عصره

٤ — ✱ عهد الاصلاح الدينى فى المانيا ✱

تشغل حركة الاصلاح فى المانيا أربعة وثلاثين عاماً ، من عقد مجمع ورمز سنة ١٥٢١ الى صلح « أُجزبرج » سنة ١٥٥٥ . وهذه المدة تنقسم الى أربعة أطوار متميزة . أولها من سنة ١٥٢١ الى مجمع « اسْبِيِر » فى سنة ١٥٢٦ ، وهو الطور الذى أصبح فيهِ من الأمور الظاهرة انقسام ألمانيا الى حزبين دينيين متضادين: الحزب البروتستنتى والحزب الكاثوليكى ، وانتهى بمهادنة وقتية كان من مقتضاها أن يكون لكل ولاية من الولايات الألمانية الحق فى اتباع الدين الذى تريده

١- من ١٥٢١ الى ١٥٢٦

الطور الثانى من عام ١٥٢٦ الى صلح « نورنبرج » عام ١٥٣٢، وفى أثنائه عقد البروتستنت بينهم حلفًا لمقاومة الكاثوليك ؛ وظهر الامبراطور أثناء هذه المدة بمظهر المناوئ للبروتستنت ، الاَّ أنهُ عاقهُ عن منازلتهم حاجتهُ الى الدفاع عن أملاكه التى كانت تهددها الأتراك من الجنوب الشرقى . وقد أدى هذا الارتباك السياسى الى عقد صلح « نورنبرج » المذكور

٢- من ١٥٢٦ الى ١٥٣٢

الطور الثالث من سنة ١٥٣٢ الى سنة ١٥٤٦ ، ولم يتمكن فيهِ الامبراطور من مناهضة البروتستنت مناهضة جدية ، لما كان بينهُ وبين فرنسا والترك من المشاغل

٣- من ١٥٣٢ الى ١٥٤٦

السياسية . فاجتهد أن يتفق معهم فى مجمع « راتزبون » سنة ١٥٤١ فلم يفلح ، الا أنهُ أخذ يعمل جهده بعد ذلك فى اضعاف حلف البروتستنت حتى يتمكن من اعلان الحرب عليهم . وكانت خاتمة هذا العصر موت المصلح المسيحى الشهير مَرْتن لوثر سنة ١٥٤٦

٤- من ١٥٤٦ الى ١٥٥٥

أما المدة الأخيرة فتنتهى سنة ١٥٥٥ ؛ وفى أثنائها قامت حروب داخلية كان غرض الأمبراطور منها القضاء الأخير على البروتستنت فلم يفلح ، واضطر أخيراً الى عقد صلح « أُجزبرج » الذى به أعطى الحرية الدينية الى أتباع لوثر فى ألمانيا . وسنتكلم الآن على كل طور من هذه الأطوار بشيء من التفصيل

الطور الأول (١٥٢١ — ١٥٢٦)

أربعة أحزاب فى ألمانيا

كانت ألمانيا فى عام ١٥٢١ تتكوّن من أربعة أحزاب عظيمة عليها يتوقف مجرى سير الاصلاح فى ألمانيا : الأول حزب الامبراطور « شارل الخامس » (شارلكان) رئيس أسرة هَبسبُرج وحاكم اسبانيا والأراضى المنخفضة ونابلى وصقلية والدنيا الجديدة . الحزب الثانى ، ويتألف من نواب الولايات الألمانية المختلفة ، الذين كان بعضهم على صفا مع البروتستنت ولاسيما نائبى الشمال (وأهمهم فردريك نائب سكسونيا وحامى لوثر) ، وبعضهم ميالين الى الكاتوليك، الا أنهم كانوا جميعاً يناوءون الامبراطور الذى كان يرمى الى تأسيس حكومة المانية مركزية قوية، اما هم فكان غرضهم أن يُترك كل وشأنه فى ولايته . الحزب الثالث ، وكان مكوّناً من الفلاحين والسوقة ، ولم يكونوا شديدى التشيع للبروتستنتية أو الكاتوليكية ، بل كانوا على استعداد للأخذ بناصر من يمنحهم ما كانوا يسعون وراء نيله من الحقوق السياسية والاجتماعية . أما الحزب الأخير فكان مؤلفاً من الأمراء غير النواب الذين كان جل أمانيهم استقلالهم فى ولاياتهم ، ولذلك كانوا معاضدين لحركة الاصلاح مضادين للامبراطور


شارل الخامس

امتزاج السياسة بالدين

لذلك كان مصير الاصلاح موقوفاً على تغلب أحد هذه الأحزاب على الآخر ، اذ كانت الحركة كما رأيت سياسية دينيــة معاً ، فاذا صارت الغلبة للامبراطور قضى على البرتستنتية وأسس

حكومة ملكية قوية ، واذا تغلب الفريق الثانى سادت الديانة البروتستنتية وتغير نظام الامبراطورية ، وأما نجاح الفريق الثالث وهم الفلاحون والسوقة فكان لكثرتهم نذيراً بانفجار حرب دينية هائلة تنتهى بارتباك سياسى دينى ، أما اذا نجح الامراء (كما حدث فيها بعد) فانهم يعملون على نشر مبدأ التسامح الدينى . هذه كل التقلبات التى كان يتصور حدوث احدها فى المانيا ، واذا تأملنا فيها جميعاً وجدنا ان عهد الاصلاح فى المانيا لم يكن مجرد مشكلة دينية أو أهم وجهة له الدين ، بل كان ممزوجاً باعتبارات سياسية كما كانت الحال فى جميع دول أوربا ، كما سيأتى بعد

الامبراطور أثناء الطور الاول

أما الطور الاول من عهد الاصلاح فلم يأت الامبراطور فيه بشىء يستحق الذكر . فانه غادر المانيا على أثر انفضاض مجمع «ورمز» لحرج الحال فى اسبانيا ، ولم يرجع اليها الا عام ١٥٣٠ ، ولذلك أخذت النهضة الدينية مجراها بدون أى تدخل منه . فكانت النتيجة فى جانب الحركة البروتستنتية ، اذ أصبحت مقاليد الامور فى المانيا فى يد نائبى الجهات المختلفة ، لانهم هم الذين كان يتألف منهم مجلس الوصاية الذى كان يحكم البلاد أثناء غياب الامبراطور ، فلم تنفذ قرارات مجمع ورمز رغم احتجاج البابا . وقد تمكن لوثر أثناء هذه الفترة من الخروج من مخبئه والظهور أمام العالم بلا خوف ولا وجل

نفوذ النائبين

حروب الفرسان

ومن الحوادث التى أثرت فى سير الاصلاح فى هذا الطور « حروب الفرسان » و « ثوران الفلاحين » ، ولم يكن للدين دخل فى كلتيهما ، بل كان سببهما سياسياً محضاً . وكان زعيم الحرب الاولى « فرانز سكنجن » أحد الفرسان الالمان من اتباع لوثر . وسبب هذه الحرب العداوة التى كانت بينه وبين الرئيس الدينى لمقاطعة تريفز الذى التف حوله الامراء ورجال الدين . لذلك لما اشتعلت نار الحرب كانت النتيجة أن هزمت الفرسان وأحرقت قصور سكنجن التى على نهر الرين ، وخر هو قتيلاً من جراحه . وكان فرسان المانيا معادين للنواب والامراء وامهات المدن . فألف فرانز هذا « حلف فرسان نهر الرين الاعلى » الذى كان الغرض منه اجراء اصلاحات خاصة أهمها محو احتكار التجارة وتنقيص عدد القسيسين والرهبان وايقاف بيع صكوك الغفران وعسف البابا . غير ان لوثر لم يكن مرتاحاً للحرب ، فسبب ذلك احجام رجال الاصلاح عن مساعدة القائمين بها ، ولذلك فشلت الحرب على أثر قتل سكنجن سنة ١٥٢٣ . وكانت النتيجة غير مرضية لحركة الاصلاح ، لانه بالرغم من عدم مساعدة لوثر على الحرب عزى نشوبها الى تعليماته ، فنشأ من ذلك وجود حزب مقاوم للاصلاح لم يكن من قبل

فرسان الرين الأعلى

تأثير حركة الفرسان

وقد انتهز هذه الفرصة البابا « كلمنت السابع » فأرسل كردينالا الى المانيا ، يطلب انفاذ قرار « ورمز » وليؤسس حزباً ضد لوثر . فوعدته القوة الحاكمة بانفاذ هذا القرار على قدر الطاقة ، وباعدام كل الكتب الزائغة . غير أنها حتمت عليه تشكيل مجلس دينى عام لتسوية المسائل الدينية

البابا يناوئ البروتستنتية

أما الامبراطور فانه أصدر أمراً ينكر فيه أعمال لوثر ويأمر بتنفيذ كل ما جاء فى قرار « ورمز » وكتب فى الوقت نفسه للبابا يعرض عليه أحد أمرين : اما ان يعود الامبراطور

بنفسه الى المانيا ليخمد أنفاس الاصلاح بالقوة ، وأما أن يعقد البابا مجلساً عاماً للنظر فى هذه الأحوال . على أن البابا لم يلق نجاحاً فوق مفاوضاته مع الأمراء المعادين للوثر ، فقد اجتمع هؤلاء فى مؤتمر « راتزبون » عام ١٥٢٤ ، وبعد مفاوضات قرروا تحريم قراءة كتب لوثر ومنعوا الطلبة من الحضور فى جامعة « وِتنبِرْج »

مؤتمر راتزبون

حرب الفلاحين

أما الحرب الثانية التى كانت لها علاقة بعهد الاصلاح فهى « حرب الفلاحين » ، وقد أخمدت بسهولة كما أطفئت جذوة حرب الفرسان . وكان زعماء هذه الثورة جماعة من الواعظين يقطنون « وتنبرج » ، فلما وصل الى مسامع لوثر أن تهييجهم للشعب أخذ يستفحل ترك مخبأه ليسكتهم ويشتت جمعهم ، لانهم انتشروا فى البلاد الى أن وصلوا الى جنوبى المانيا ليبثوا فى الفلاحين روح الثورة . أوريت نار هذه الثورة فى «سوسرا» فى خريف ١٥٢٤ فى ضيعة أحد الاشراف بسبب اجبار مواليه على العمل فى يوم عيد . واستمرت الحرب بشدة حتى انتهت فى أواخر عام ١٥٢٥ بعد أن فنى فيها نحو ١٠٠٠٠٠ من الفلاحين . وكان من نتائجها أن لوثر فقد ولاء هذه الطبقة لاحجامه عن الاخذ بناصرها ، ومع ذلك فقد عزيت أسباب هذه الحرب الى تعليماته أيضاً كما حدث فى حرب الفرسان ، وابتعد عنه الكثير ممن يفضلون النظام السياسى والأمن على الشؤون الدينية

مركز لوثر

أما الامبراطور فقد تحقق له بعد ما حصل أن الانشقاق فى الدين معناه العصيان ، ولذلك عزم على اخمادهما معاً فى أقرب فرصة . الا أنه لم يتمكن من الذهاب الى المانيا بنفسه ، لاضطرابات سياسية فى اسبانيا ، ولما كان بينه وبين البابا وفرنسا من الشحناء . وقد كانت مشاحنته للبابا فى صالح المانيا جداً ، لان ذلك قضى على تضامنه مع البابا لاخماد البروتستنتية ، فاضطر الى عقد مجمع « اسبير » الذى انتهى به الطور الاول عام ١٥٢٦ . وكان مما قرره المجمع ترك الحرية لكل أمير ليقرر دين رعاياه حتى يشكل المجمع ثانية ، وهذه أول خطوة فى نجاح الاصلاح الدينى

مجمع اسبير

الطور الثانى (١٥٢٦ — ١٥٣٢)

انتشار مذهب لوثر

حدثت فى خلال هذه المدة حوادث ذات أثر بين فى تقدم الاصلاح الدينى فى المانيا . أولها انتشار تعليمات لوثر ودخول ولايات جديدة من الامبراطورية فى دعوته . وقد نبذ لوثر نفسه تعليمات الكنيسة الكاثوليكية علناً ، فترك الرهبنة وتزوج فى عام ١٥٢٦ ، وفى هذه المدة أيضاً نشأت كنائس مستقلة تعمل بالعقائد البروتستنتية ، وأخذت الاديرة تنحل الواحد بعد الآخر وحبست مواردها على التعليم ، وحل انجيل لوثر وأناشيده محل كتب الكنيسة الرومانية ، ثم انتشر الاصلاح من سكسونيا وهس الى « برندنبرج » و « أنهالت » و « سيليسيا » و« شرق فرِزلند» و« شِلزوِج هُلستين » ، هذا عدا بعض أمهات المدن مثل أُجزبرج و« أُلْم »

رجوع الامبراطور الى المانيا

ومن الامور الهامة أيضاً فى ذاك الوقت رجوع الامبراطور الى المانيا سنة ١٥٣٠ بعد ان غاب عنها مدة ثمانى سنين . وكانت كل أسباب الظفر مهيأة له عندئذ فى المانيا ، اذ كان قد تخلص من كل الصعوبات التى أمامه ، فتمكن سلطانه فى ايطاليا بعد واقعة بافيا ، وأجبر ملك فرنسا على عقد صلح معه ، وتوجه البابا امبراطوراً واتفق معه على استئصال شأفة الزائغين ، هذا الى أن المانيا كانت فى ذلك الوقت فى هدنة مع الترك أمنت فيها شر هجماتهم . من أجل ذلك كله خاف رجال الاصلاح ورأوا أن يتفقوا مع الكنيسة ، وكان زعيمهم فى ذاك الحين « ميلنكتون » الواضع « لاعتراف اجزبرج » ، الذى بين فيه مذهب البروتستنت ، وقد توخى فيه كل الاعتدال والحيطة ، ثم عرضه على الامبراطور فى مجمع أجزبرج الذى كان برآسة الامبراطور نفسه عام ١٥٣٠ . على ان شارلكان لم يكن بالمتعصب ، وانما كان غرضه عند عودته الى المانيا ان يكون حكماً بين الحزبين ليقمع بذلك الفتن الدينية . الا أن الكاثوليك أبوا أن يقيموا حججهم على هذا الاعتراف ، وطلبوا الى الامبراطور ارجاع البروتستنت الى الوحدة الدينية . فأخذ شارلكان يتوعد البروتستنت ويهددهم ، الى أن ظهر له أخيراً انهم متمسكون بعقائدهم كل التمسك ، وبعد أن خاب مسعاه فى سبيل التوفيق بين الفريقين حل المجمع وأعلن عزمه على تنفيذ قرار « ورمز » . وقد أمهل البروتستنت الى ابريل عام ١٥٣١ ليتدبروا فى الأمر لعلهم يرجعون من تلقاء أنفسهم الى الكنيسة الكاثوليكية ، والا اتخذ العدة بعد انقضاء تلك المدة للقضاء على مذهبهم مرة واحدة

ميلنكتون واعتراف اجزبرج

مجمع اجزبرج ١٥٣٠

شارل مع الكاثوليك على البروتستنت

فلم يجد البروتستنت أمامهم بعد انتهاء هذه المفاوضات الا سبيلا واحداً وهو لمّ شعثهم وعقد حلف بينهم لمقاومة الامبراطور والبابا . وقد تم ذلك فى « شملكلد » فى أواخر سنة ١٥٣٠ ويعتبر عقد هذا الحلف فاتحة طور جديد فى تاريخ الاصلاح فى المانيا ، فقد كان مجرى الأحوال فى المانيا فى هذا الوقت ينذر بنشوب حرب داخلية ، ولذلك صار من العبث السير على سياسة لوثر فى ابتعاده عن المقاومة ما أمكنه . فخضع لوثر نفسه لرأيهم ووافق على عقد حلف « شملكلد » ، اذ اتضح له جلياً أن الاصلاح لا يمكن حدوثه بالسلم الذى كان يأمله ، وأن الوقت الذى لا بد فيه من استعمال القوة أصبح قاب قوسين أو أدنى . وكادت الحرب تنشب لولا ما قام فى وجه الامبراطور من المشاكل السياسية ، اذ توترت العلاقة بينه وبين فرنسا ، وأخذ السلطان سليمان القانونى يهدد تخوم بلاده تهديداً مريعاً اضطره الى الاحجام عن مناوأة البروتستنت ، وكانت الأحوال فى اسبانيا أيضاً مضطربة ، وعلاقته حتى مع أمراء المانيا الكاثوليك غير مرضية . فكان الامبراطور وهو محاط بكل هذه الشواغل مضطراً أن يعمل ما فى وسعه نحو الاتفاق مع البروتستنت ، فعقد معهم عام ١٥٣٢ صلح « نورمبرج » الذى وعد فيه بأن يقف تنفيذ قرارات المجلس الامبراطورى ضد البروتستنت حتى يعقد مجلس عام للنظر فى الأمر . وقد وافق فيما بعد فى مجمع « راتزبون » على أن البابا ان لم يشكل مجلساً فى غضون ستة أشهر يشكل هو جمعية عمومية للفصل فى المشكلات الدينية . وقد ظهر فضل هذه السياسة ، اذ ساعده البروتستنت على

حلف شملكلد

لوثر يعزم على استعمال القوة

صلح نورمبرج

تسامح شارل مع البروتستنت

الترك حتى عادوا من حيث أتوا . غير أن ذلك لم يخلصه من كل شواغله ، لأن الحالة فى ايطاليا واسبانيا أخذت تقلق باله . فعبر جبال الألب فى خريف ١٥٣٢ ، وبقى بعدها عدة أعوام مشغولاً بالمشكلات الأوربية . وقد سبب ذلك تأخر اشتعال نار الفتنة الداخلية فى المانيا تلك المدة

الطور الثالث (١٥٣٢ — ١٥٤٦)

اشتغال شارل خارج المانيا

كانت الحالة فى المانيا فى هذه المدة هادئة ، لاشتغال الامبراطور بنفسه فى جهات أخرى . وقد كان ذلك من أعظم العوامل التى ساعدت حركة الاصلاح فى المانيا . وقد خطت البروتستنتية خطوات واسعة فى هذه السنين : ففى عام ١٥٣٤ رجع الدوق « ألرِخْ » الى دوقية ورتنبرج بعد أن طرد منها عام ١٥١٩ ، فكان أول أعماله ادخال المذهب البروتستنتى فى ولايته ، فكان ذلك ربحاً كبيراً للاصلاح ، لوقوع هذه الولاية فى جهات الجنوب التى كان معظمها من الكاثوليك . هذا الى أن مذهب لوثر كان كل يوم تزداد أتباعه فى جهات الشمال : يدلك على ذلك أنه بعد موت « يوآقيم » نائب بِرَنْدِنبرْج سنة ١٥٣٥ ودوق سكسونيا سنة ١٥٣٩ (وكانا على مذهب كنيسة رومية) اعتنق خلفاهما المذهب البروتستنتى وأصبح دين بلادهما . وقد قفا أثرهما غيرهما

زيادة اتباع لوثر

من الأمراء ، حتى لم يبق على مذهب الكنيسة فى نهاية عام ١٥٣٩ فى الولايات ذات الشأن الا النمسا وبافاريا والبلاتين ودوقية برنزويك . عند ذلك شعر الامبراطور بضرورة الاسراع فى القضاء على البروتستنت ، لأن سيلهم كان جارفاً ولا بد من وقوفه . الا أن يديه كانتا لا تزالان مغلولتين مع فرنسا ، ورأى أن استعمال القوة مع البروتستنت ضرب من المستحيل ، ولذلك لم

مجمع راتزبون

يجد بداً فى مثل هـذه الأحوال من الاتفاق معهم ، فشكل لذلك الغرض مجمع « راتزبون » سنة ١٥٤١ . وقد كانت كل الأمور مهيئة لاتفاق الفريقين ، اذ كان الممثل للبابا فى هذا المجمع

كنتريني

« الكردنيال كُنتَرينى » وهو من الحزب الذى يريد اصلاح الكنيسة ذاتها وتكاد آراؤه تتفق مع آراء لوثر فى بعض العقائد الجوهرية ، وتخلف معظم المتحمسين من رجال الاصلاح البروتستنتى عن الحضور ، كذلك حل محل لوثر « ميلنكتون » ، وكان ألين عريكةً منه ، وقد اتفق الفريقان بالفعل على بعض الأمور التى كانت موضوع الخلاف بين المذهبين . غير أن مجلس الأمراء أضاع

مجلس الامراء ودسائس فرنسا

كل أمل فى الصلح بعدم موافقته على ذلك . والسبب فى عدم موافقة الأمراء خوفهم من تخويل الامبراطور سلطاناً عظيماً عليهم ، ومن جهة أخرى كان ملك فرنسا يدس الدسائس لاحباط أمر الصلح ، اذ كان له فى تفريق الكلمة فى المانيا فائدة عظيمة . وبذلك انتهت المفاوضات ، فذهبت مساعى الامبراطور أدراج الرياح ، وضاعت آخر فرصة للتوفيق بين المذهبين . ومع

شارل يمنح البروتستنت مزايا

ذلك نال البروتستنت مزايا كثيرة من شارلكان ، اذ كان يرغب فى مساعدتهم له على فرنسا فى ذلك الحين . وأهم هذه الميزات عدم التعرض لمن يريد اعتناق مذهب لوثر ، الى أن يجتمع المجلس العام . وقد كان منح هذه الميزات رغم أنفه : يدل على ذلك أنه لما فرغ من مشكلاته مع فرنسا

بصلح « كربى » سنة ١٥٤٤ ولى وجهه ثانية شطر المانيا وعزم على اقتلاع جذور البروتستنتية منها ، ولكن ما فطر عليه من الدهاء جعله يخفى غرضه حتى يأتى الوقت المناسب ، فاجتهد فى استمالة بعض أمراء البروتستنتية المذبذبين وأظهر لهم أن غرضه سياسى لا دينى ، أى أنه لا يريد اخماد الاصلاح الدينى بل يريد القضاء على حلف شملكالد الذى يتهدد الحكومة العليا . فأفلح فى فصل دوق بافاريا واثنين من أسرة « هوهنزلرن » من الحلف ، وتمكن من جعل يواقيم نائب برندنبرج ، وفردريك نائب بلاتين ، وبعض المدن التى كانت انضمت الى الحلف ، فى حالة حياد . أما أعظم حليف له فكان موريس نائب سكسونيا الذى انحاز الى شرلكان لما كان بينه وبين بعض أعضاء الحلف من العداء والشحناء ولما كان الامبراطور يعده ويمنيه به من العطايا الجزيلة مقابل مساعدته له . فانفصل من الحلف وانضم اليه عام ١٥٤٢

ابطانه الشر لهم

اضعاف حلف شملكالد

من ذلك يتضح أن المانيا كانت على أبواب معركة ناشبة لا محالة فى القريب العاجل . وقبيل نشوبها مات « لوثر » بطل الأصلاح الدينى عام ١٥٤٦ وكان طول حياته يعمل كل ما يستطيع لحفظ السلام ، فتم له ذلك مدة حياته ، ولم تنشب الحرب الا بعد موته ، اذ نزلت صواعقها فى يوليه سنة ١٥٤٦ بصدور الحكم الامبراطورى على زعماء حلف شملكلد . وستبين لنا تلك الحرب الى أى الفريقين آلت السيادة فى ألمانيا

وفاة لوثر

نشوب الحرب

الطور الرابع (١٥٤٦ — ١٥٥٥)

هذه هى المدة التى حدثت فيها الحروب الدينية فى المانيا . وسنضرب صفحاً عن تفصيلات تلك الحروب لكثرة تشعبها وغموض أخبارها ، ونقتصر فى ذكرها على النتائج الهامة التى نشأت عنها . بلغت هذه الحروب ثلاثة أطوار متباينة : الأول ظهر فيه الامبراطور على حزب البروتستنت فى واقعة « مهلبرج » فى سنة ١٥٤٧ وأجبر أمراء البروتستنت على التسليم له . الطور الثانى من سنة ١٥٤٧ الى ١٥٥٢ ، وفى أثنائه كان الامبراطور صاحب السيادة العليا فى المانيا ، وكاد يقضى على استقلال الأمراء السياسى ويعيد الدين الكاثوليكى فى جميع جهات المانيا . الطور الثالث من سنة ١٥٥٢ الى ١٥٥٥ ، وفيه ثار الامراء على الأمبراطور وأجبروه على عقد صلح «اجزبرج»

ثلاثة اطوار للحرب

أما الطور الأول فقد كان من أعظم أسباب فوز الامبراطور ، فيه ضعف الحلف البروتستنتى بفصل بعض زعمائه عنه وفى مقدمتهم« موريس »(نائب سكسونيا) ، واختلال نظام الحلف لما كان بين زعمائه من التحاسد والشحناء . وزاد الطين بلة التنازع على القيادة العامة وتفضيل نائب سكسونيا الغر على فليب حاكم « هِس » الذى كان يعدّ أكبر قائد بين أمراء البروتستنت . فكانت النتيجة أن هزم الحلف فى موقعة « مهلبرج » الفاصلة عام ١٥٤٧ ، وبها خضع معظم أمراء البروتستنت للامبراطور . وكان الطور الثانى فى الحرب أعظم شأناً من سالفه . وذلك أن

الطور الاول ١٥٤٦ ـ ١٥٤٧

واقعة مهلبرج

شارلكان حصل فى الطور الأول على شىء من مطامعه وهو نيله السيادة الدينية بإخضاع الأمراء ، فأخذ بعد ذلك فى سبيل الوصول الى توحيد الكنيسة ، ولم يدر أن بذور الاصلاح كانت قد تأصلت فى المانيا ، حتى أصبح من الصعب استئصالها . وفى سنة ١٠٤٨ وضع أمام مجمع «اجزبرج» نظاماً دينياً تسير عليه كل البلاد سماه « النظام الوقتى » اذ لم يكن يقصد استمراره ، وكانت معظم تعليماته كاثوليكية وبعضها بروتستنتية ، فلم يرض كلا الفريقين . ولم يكن النظام الوقتى وحده السبب فى هدم مقاصد شارلكان بل يضاف اليه ما أتاه بعد ذلك من الأعمال التى كان يرمى بها الى توطيد سلطان الامبراطور ، فكانت معاملته القاسية للعصاة والثائرين عليه من الأمراء من أهم الأمور التى ألبت الرأى العام عليه فى جميع انحاء المانيا ، حتى أنه لما شرع فى وضع نظام استبدادى للحكومة انفض من حوله كل الأمراء الذين ساعدوه فى مبدأ الحروب الدينية ، اذ رأوا أنه أخذ يتدخل فى أمر استقلالهم . وممن انفض عنه من أجل ذلك عضده الأكبر « موريس » نائب سكسونيا ، فصار رئيس حزب المعارضين له . وابتدأت الحرب ثانية عام ١٥٥٢ ، فكانت الكفة الراجحة للامراء ، وقد أجبر موريس نائب سكسونيا بمهارته الحربية الامبراطور على أن ينزل لأعدائه عن أمور كثيرة ضمنت فى معاهدة « اجزبرج » عام ١٥٥٥ التى بها أخمدت نار الفتن الدينية مدة ثلاث وستين سنة ، حتى أورى لهيبها ثانية فى « حرب الثلاثين سنة » عام ١٦١٨

الطور الثانى ١٥٤٧ ـ ١٥٥٢

هدم مقاصد شارل

الطور الثالث ١٥٥٢ ـ ١٥٥٥

معاهدة اجزبرج

وأهم شروط هذه المعاهدة أن تُمنح الحرية الدينية لأتباع لوثر ؛ وأن يشكل المجلس الامبراطورى من عدد متساو من كلا الحزبين للبحث فى كل المسائل المختصة بالكاثوليك والبروتستنت ، حتى يكون الحكم عادلاً ، وان يكون لكل أمير الحق فى انتخاب المذهب الذى يريد اتّباعه فى ولايته ، وكل فرد لا يرضى بمذهب ولايته له أن يهاجر منها ويأخذ معه جميع امتعته ، وأن جميع أملاك الكنيسة التى استولى عليها غيرُ رجال الدين قبل عام ١٥٥٢ تبقى لهم ، أما ما استولوا عليه بعد ذلك التاريخ فيعاد الى الكنيسة

نقائص المعاهدة

فيتضح مما سبق ان معاهدة « اجزبرج » قضت على مسعى شرلكان ، وهو توحيد الكنيسة فى المانيا . ولم تكن هذه المعاهدة فاصلة ، اذ كان فيها نقائص حدث عنها مشكلات فى المستقبل . فاول نقص فيها انها لم تمنح الحرية الدينية للأفراد ، بل تركت الفصل فى أمر دين الفرد الى حاكمه ، الذى قد يكون على جانب عظيم من الظلم والجور . والنقص الثانى خاص بأمر أملاك الكنيسة ، وهو ان تعيين سنة ١٥٥٢

دون غيرها لم يظهر للكثيرين انه من العدل فى شىء ، فأثار غضبهم . على أن أعظم نقص فيها أنهـا لم تذكر شيئاً عن أتباع كَلْفِن ، الذين ما لبثوا أن فاقوا جميع اتباع الاصلاح فى نشاطهم وعددهم ، ومع ذلك لم ينالوا بهذه المعاهدة الحقوق التى نالها أتباع لوثر . وقد اغتنم الكاثوليك فرصة ما كان بين هذين الحزبين من الشحناء ، فأوقدوا نار الفتنة والتنازع بينهما

الاصلاح الكاثوليكى

وفضلاً عن نقائص هذه المعاهدة قامت بعد صلح أجزبرج مباشرة حركة لمقاومة الاصلاح ، رجع بها كثير من البقاع الأوربية للمذهب الكاثوليكى ، فاشتد بذلك أزر اتبـاع الكنيسة وأظهروا سخطهم على معاهدة أجزبرج . ولذلك كانت مرجل الخلاف الدينى تغلى فى ألمانيا فى الستين سنة التى تلت تلك المعاهدة ، وكان لابد لألمانيا من خوض غمار حرب هائلة تعرف « بحرب الثلاثين سنة » قبل أن يُفصل فى المسائل الدينية نهائياً

الفصل الثانى

فرنسا

(الى عام ١٥٩٨)

١ — ﴿ منشأ فرنسا ﴾

يبتدئ التاريخ الحقيقى للأمة الفرنسية عقيب معاهدة « فردان » عام ٨٤٣ م ، وذلك حينما قُسمت دولة شرلمان بين أحفاده الثلاثة. فكان نصيب «شارل الأصلع» الجزء الواقع غربى نهر الرون والموز ، وهو الذى صار فيما بعد مملكة فرنسا . وكان يُطلق على أسرته بيت « الكارُولِنْجيِّين » . ولم تدم مدة حكمها طويلاً ، اذ فى سنة ٩٨٧ خلفها على عرش فرنسا أسرة « كَبِتان » التى ينتسب اليها جميع ملوك

الاسرة الكارولنجية

فرنسا منذ ذلك الحين ، وقد حكمت هذه الأسرة مدة ٣٤١ عاماً (من ٩٨٧ الى ١٣٢٨ م) تولى العرش الفرنسى أثناءها أربعة عشر ملكاً. وتلتها أسرة « فَلْوَا » وهى فرع من بيت « كبتان » . وأهم الحوادث التى وقعت فى خلال حكمهم حرب المائة العام التى نشبت بين فرنسا وانجلترة (١٣٣٨ – ١٤٥٣) . وكان لهذه الحروب الطويلة أثر عظيم فى الأمة الفرنسية ؛ اذ قضت فى فرنسا على مجد أشراف الاقطاعات بتعدد هزائمهم المنكرة (وقد كان آخذاً فى التداعى) ، ووطدت سلطة الملك (وتلك نتيجة لازمة لذلك) ، وولدت روح القومية والعاطفة الوطنية فى البلاد. وفى الجملة لا نكون مغالين اذا قررنا أن هذه الحرب فضلاً عن اضعافها للنظام الاقطاعى بفرنسا قد كان لها الفضل الأكبر فى توحيد السلطة فيها وتهيئتها لأن تكون فى مصاف الأمم العظيمة

اسرة كبتان

اسرة فلوا

حرب المائة العام وتأثيرها

وممن لهم أثر عظيم من ملوك هذه الأسرة فى اصلاح البلاد وتنظيمها « شارل السابع » (١٤٢٢ – ١٤٦١) . بيد أنهُ قضى أيامه الأخيرة فى شكوك وأوهام خوفاً من ولى العهد لويس ، فنفاه الى مقاطعة « دُفِنْي » وبقى فيها يناوئ والده حتى هرب منها عام ١٤٥٦ حينما أراد أبوه القبض عليهِ واحتمى بدوق « برِجَنْدِيَة » . وقد اكتسب لويس بمكثه هناك تجارب كانت عوناً له عند ما استولى على أريكة الملك بعد موت والده سنة ١٤٦١

٢ — ﴿ لويس الحادى عشر وشارل الثامن ﴾

لويس الحادى عشر (١٤٦١ – ١٤٨٣)

سوء طالع لويس

كان مبدأ حكم لويس الحادى عشر لا يبشر بنجاحه. فأول عمل قام بهِ ان أسرع الى عزل وزراء والده وقواده ، فانضم هؤلاء الى الخارجين من الأشراف وتحالفوا عليه وشنوا الغارة باسم حرب « الصالح العام ». وكان هذا الحلف مكوناً من أكابر أمراء البلاد ، فعزم لويس على القضاء على هؤلاء العصاة بما كان لديه من الجنود

سياسة لويس مع الأشراف

المنظمة. ولما لم يقدر على قهرهم بالسيف اجتهد فى حل عقد هذا الحلف : تارة بتخفيف الضرائب عن أهل باريس ، وطوراً بارضاء الأشراف كل على انفراد . وقد أفلح فى سياسته ؛ فأمسك الأشرافُ عن النداء بالصالح العام ؛ ولم تكن هنيهة حتى انفرط عقد حلفهم . عند ذلك انقلب لويس عليهم وأخذ يسترد ثانية ما منح كلاً منهم . ثم ابتدأ يوسع نطاق ملكه بضم المقاطعات الفرنسية التى كانت فى قبضة الأمراء والأشراف ؛ فأفلح فى الاستيلاء على « نُرْمنْدِيَة » لاشتغال أخيه شارل أميرها (دوق برِّى) فى حرب مع دوق « بِرِتَنِى »

شارل الجسور صاحب برجندية

أما عدوه الأكبر فكان «شارل الجسور» دوق «برجندية» الذى تُعتبر المكافحة بينه وبين لويس من أهم حوادث ذلك العصر. وكان سلطان شارل عظيماً يمتد على « فَلَنْدِرَة » و « أرْتُوَا » و «برابَنْت» و « هولندة » و « زِيلندة » و « هينُلْت» «ولُكسِمبرْج» وعدة مقاطعات أخرى تكوّنت منها فيما بعد « الأراضى المنخفضة » هذا عدا دوقية « برجندية » وجزء من « السوم » . فأول عمل عدائى قام به لويس لاضعاف سلطانه أن بث روح الفتنة فى بلدة « لياج » ، ولكنهُ لسوء تصرفه وقلة حيطته ألقى بنفسه بين مخالب عدوه فى بلدة «بيرون» فى زيارة له ، فاضطره شارل لابرام معاهدة مخزية أجبره فيها على الاشتراك معه فى قمع الفتنة فى « لياج » والنزول عن « شمبانيا » و « برِية » الى شارل أخيه دوق « برّى » . ولكنهُ ما لبث أن أعطى أخاه « جِيين » بدلاً من هاتين المقاطعتين المجاورتين لأملاك شارل الجسور . ولم يمض زمن طويل حتى تجددت الحرب بين فرنسا وبرجندية بسبب دسائس حزب فرنسى كان غرضه زواج بنت شارل الجسور بشارل دوق جيين (وكان الأخير قد فقد كل أمل فى تولى عرش فرنسا بعد أن رزق لويس ولداً عام ١٤٧١) ، فكان فى زواجه ببنت شارل خطر على لويس. ولكن الحظ ساعد لويس بموت أخيه فجأة عام ١٤٧٢ ، وبموته انضمت « جيين » الى أملاك الملك ، وهادنه شارل الجسور

النزاع بينه وبين لويس

تهادنهما

وفى عام ١٤٧٢ اتجهت سياسة شارل الجسور وجهة جديدة ، اذ كان قبل ذلك يعتبر نفسه من اتباع ملك فرنسا المستقلين. وكان أهم غرض له اضعاف سلطان الملك

مارب شارل الجسور

فابتدأ من هذا الحين يوجه عنايته الى أملاكه الألمانية ويسعى فى توطيد سلطانه وتكوين مملكة جديدة قوية الأركان. وكان قد استولى عام ١٤٦٩ من «سِجِسْمُنْد» حاكم تيرول (وأحد أفراد أسرة هبسبرج) على «الالزاس» و «بِرِسْجو» وما لبث أن ضم اليه «جِلْدَرْلندة» أيضاً. ثم حاول أن يتفق مع الامبراطور فردريك عام ١٤٧٣ على أن يمنحه لقب ملك؛ فأعرض هذا عنهُ، فحاصر شارل بلدة «نوس» على نهر الرين فى العام التالى، وكان غرضه أن يبسط سلطانه على هذا النهر، فلم يفلح ورفع الحصار عن المدينة. ثم حاول الاستيلاء على اللورين ليربط الأراضى المنخفضة ببرجندية

كيد لويس له

أما لويس فكان فى هذه الأثناء يدس الدسائس على «شارل الجسور»؛ فحرك فردريك الثالث والأمراء الألمان للدفاع عن «نوس»، وحرض «سجسمند» حاكم تيرول على استرجاع «الالزاس»، وأفلح فى خدع السوسريين، ببذل المال واقامة الحجج، على أن تقدم «شارل الجسور» خطر عظيم على استقلالهم. ولما فطن شارل لدسائس لويس أراد أن يوقعه فى حرب مع انجلترة، فأخفق فى مسعاه. أما السوسريون فانهم هاجموا برجندية أثناء حصار «شارل» لبلدة «نوس»؛ ولما هم شارل بتأديبهم كان فى ذلك القضاء المبرم على سلطانه، اذ كسره السوسريون سنة ١٤٧٦ شر كسرة فى موقعتى «جرَنسون» و «مورات». ثم ساعد السوسريون حاكم «اللورين» فى استرجاعها، فدخلت جيوشهم «نانسى» عاصمة هذه المقاطعة (وكان شارل يريد أن يجعلها عاصمة ملكه الجديد). ولما أراد شارل أن يسترجعها

شارل والسوسريون

موت شارل

قُتل فى ميدان القتال فى يناير سنة ١٤٧٧؛ ولم يترك خلفاً له الاَّ ابنته «مارية»

ففرح لويس فرحاً شديداً لموت عدوه، وعزم على ضم أملاك شارل الفرنسية الى ملكه، وتقسيم البقاع الألمانية بين المصافين له من أمراء المانيا. فضم الى أملاك فرنسا بلاد السوم و «دوقية برجندية» وجزءاً عظيماً من ارتوا». فكان هذا الاعتداء سبباً فى زواج مارية بمكسمليان ولى عهد ألمانيا الذى قام فى الحال يناضل عن أملاك زوجته. ولم يحدث فى هذه الحرب من الوقائع ما يستحق الذكر، وانتهت

مارية ابنته تتزوج بمكسمليان

لويس ومكسمليان

بمعاهدة «ارّاس» سنة ١٤٨٢ بعد موت مارية. وأهم شروط هذا الصلح أن يتزوج ولى عهد فرنسا (شارل) بمرجريت بنت مكسمليان على أن يُمْهَر بمقاطعة «ارتوا» ومقاطعة برجندية. وذهبت مرجريت بعد الصلح لتربى فى فرنسا

وفاة لويس



لويس الحادى عشر

أما لويس فانهُ لم يلبث أن اخترمته المنية عام ١٤٨٣ بعد أن أضناه المرض. ويعتبر حكمه فاتحـة عصر جديد فى تاريخ فرنسا وخاصة نمو السلطة الملكية: ففى مدته قُضى على آخر ثورة خطيرة قام بها حكام الإقطاعات، ووسعت دائرة نفوذ الملك بضمه

تأثير حكمه فى فرنسا

دوقية برجندية و «بروفنْس»؛ وباستيلائه على (رُوسِيُّون) من «حنا الثانى» ملك «أرَجون» صارت جبال البرانس حدًّا منيعًا للبلاد؛ وبمحالفته سوسرة ضمّ الى جانب الحكومة الفرنسية أعظم أُمة حربية فى ذلك العصر. ثم انهُ نظم البريد وحسّن طرق المواصلات بين جميع أنحاء المملكة، فسهل بذلك تثبيت السلطة الادارية؛ وقلل من سلطان الأشراف بترقيته أفراداً من الطبقات السفلى وتنصيبهم فى المراكز السامية. وبالاختصار قد كان عصره خاتمة العصور المتوسطة فى فرنسا ومبدأ لوضع نظام حكومتها على النمط الحديث

شارل الثامن (١٤٨٣ — ١٤٩٨)

آن بيجو

خلف «شارلُ الثامن» لويس وكان لا يزال صبيًا، فأقام مجلسُ الأمة الفرنسى أُختَه «آن بيجو» وصيةً عليه، فسارت على منهاج والدها فى سياسة البلاد. وفى مدتها قامت فتنة أثارها الأشراف بزعامة دوق «أُرلِيَان»، فزجَّته فى ظلمات السجن ثم أخذت العدَّة لضم «برِتَنى» آخر الولايات الفرنسية المستقلة الى أملاك فرنسا، وذلك بعد موت حاكمها فرنسيس الثانى عام ١٤٨٨. وكان الوارث لهذه الولاية من

بعده ابنته « آن » خطيبة مكسمليان ، ففطنت « آن بيجو » للخطر الذى ينجم من مثل هذا الزواج ، فغزت « برِتَنى » وأجبرت الدوقة « آن » على الاقتران بشارل الثامن. ثم أرسلت « مرجريت » بنت مكسمليان الى أبيها ، وكانت تتربى فى فرنسا كما ذكرنا . فاغتاظ مكسمليان لذلك وعزم على غزو فرنسا

مآرب شارل — وفى هذه الفترة كانت قد انتهت مدة الوصاية وأخذ شارل مقاليد الأمور بيده ، فكان أول هم له أن يستعمل قوة فرنسا التى بلغت شأواً عظيماً فى مدة والده وأخته فى امتلاك بعض أجزاء ايطاليا بدعوى حق وراثتها . ولكنهُ رأى أن يحسم قبل ذلك كل خلاف ونزاع بينهُ وبين الممالك المجاورة له : فأرضى هنرى السابع ملك

مهادنته للدول — انجلترة (الذى كان أغضبه ضم برتنى الى فرنسا) بمعاهدة « إِبتابل» (سنة ١٤٩٢) ، وعقد صلحاً مع الامبراطور مكسمليان سنة ١٤٩٣ نزل فيهِ عن « أرْتوا » و «فرانش كُمتيه » ، وأعطى فردنند (ملك ارجون) « روسِيّون » (التى كانت موضع النزاع بينهما) وذلك فى معاهدة بَرْشلونة سنة ١٤٩٣. ولما ظن ان فرنسا أصبحت فى مأمن

غزوه ايطاليا — من طمع الطامعين عبر جبال الألب فى شهر سبتمبر سنة ١٤٩٤ مولياً وجهه شطر نابلى ، فبدأ بذلك الحروب المعروفة فى التاريخ بالحروب الايطالية . ويجدر بنا قبل الكلام على هذه الحروب أن نأتى بكلمة موجزة عن حالة ايطاليا والولايات التى كانت تتكوّن منها فى ذلك الحين

٣ — ﴿ الولايات الايطالية ﴾

ايطاليا بعد سقوط رومية — بعد أن ثلّ « أذوَكَر » عرش آخر ملوك الدولة الرومانية الغربية لم يكد يمكث بضع سنين فى ايطاليا حتى غزاها القوط الشرقيون ، وظلوا يحكمونها حتى ضمها « جُستِنيان » امبراطور الدولة الرومانية الشرقية الى أملاكه سنة ٥٥٣ م . ولم يمض على استرجاعها من يد القوط عشر سنين حتى غزتها قبيلة من البربر تدعى « اللّمبَرد » وبقيت تحت حكمهم حتى قضى عليهم « شرلمان » عام ٧٧٤ م . وكان من أسوأ الآثار التي خلّفها اللمبرديون فى هذه البلاد أنهم فرّقوا وحدتها السياسية التي شيدها

الرومان . وقد تشعبت من أجل ذلك البلاد الى عدة ولايات صغيرة ، فبقى هذا التشعّب متأصلاً فى البلاد الى أن اتحدت وكونت أمة متماسكة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

تأثير حكم اللمبرد

ولما مات شرلمان وقُسمت أملاكه بين أولاده الثلاثة فى معاهدة فردان سنة ٨٤٣ كانت ايطاليا من نصيب ابنه « لوتير » ؛ وكان يلقب بالامبراطور ، ولكن نفوذه لم يكن الاّ اسمياً فقط . ولما استوى « أُتُّو » على عرش ألمانيا عام ٩٣٦ ضم ايطاليا الى أملاكه فأصبحت جزءًا من الامبراطورية الرومانية المقدسة . وبقيت تحت سلطتها حتى أخذت تستقل استقلالاً داخلياً فى خلال القرن الثانى عشر. ثم أخذت الولايات الصغيرة التى كانت تتكون منها هذه البلاد يتجمع بعضها الى بعض فى خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر حتى أصبح بها فى نهاية النصف الأول من القرن الخامس عشر خمس ولايات كبيرة كان لها شأن عظيم فى التجارة والعلوم . ولكن لم يكن لتأسيسها أثر يذكر فى اخماد نار الفتن والقلاقل التى كانت من حين الى آخر قائمة بين مدن ايطاليا المختلفة

لوتير

ايطاليا تحت حكم الامبراطورية

تجمع الولايات الايطالية

أما هذه الولايات فهى دوقية «ميلان» وجمهوريتا « البندقية » و « فلورنسة » (وجميعها فى شمالى ايطاليا) ، وأملاك الكنيسة (البابوية) فى الوسط ، ومملكة نابلى فى الجنوب

اهم الولايات

وسنتكلم على كل منها بغاية الاختصار فى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر لأهمية علاقتها بتاريخ أوربا الحديث

دوقية ميلان

كانت الاسرة الحاكمة فى ميلان فى خلال القرن الرابع عشر اسرة « فيكونتى » وقد منح الامبراطور أميرها « جِيَان جَالِيَزّو » لقَب « دوق » عام ١٣٩٥ . وفى عام ١٤٤٧ مات ابنهُ من غير وارث، فخلفهُ أحد أقاربه (فرنسسكو اسفُرْزا) ، فكان ذلك مبدأ أسرةٍ جديدة . وكان أهم شيء وجه اليهِ عنايته في أولِ أمره حماية أملاكه

اسرة فيكونتى

فرنسسكو اسفرزا

من البندقية »، وكانت تناهضهُ في سيادة شمالي ايطاليا . فنشبت الحرب بينهما ، غير أن خبر سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين نزل على المتحاربين كالصاعقة فانتهى الحرب بصلح « لودى » سنة ١٤٥٤ . ومن هـذا الحين أخذ « اسفرزا » يبذل حياته في تحسين حالة أملاكه . وكان على صفاء وتصادق مع لويس الحادى عشر ملك فرنسا « وكوزيمو دى مديشى » رئيس جمهورية فلورنسة . وكان أيضاً محالفاً لملوك نابلي. وقد ساعده تصافيه مع فرنسا على ضم « جنوة » اليه سنة ١٤٤٦ ، وهذه أكبر صفقة أحرزها في خلال حكمه

اعماله

جليزو اسفرزا وسوء حكمه

ثم خلفه ابنه الاكبر (جليَزو اسفُرزا) سنة ١٤٦٦ وكان جباراً عاتياً خليعاً قاسياً، غير أن وزراء والده كبحوا جماحه وقتاً ما وطد فيه علاقته مع فرنسا بقرانه بأخت زوج ملكها لويس الحادى عشر ، الاّ أنه انقلب عليه وأغضبه بتحالفه مع عدوه العنيد « شارل الجسور » دوق برجندية . ولما هزم هذا في واقعة « جرَنسُون » عام ١٤٧٦ أتى « اسفرزا » صاغراً الى ملك فرنسا يستغفره على ما فرط منه . ثم لم يمض زمن حتى اغتاله ثلاثة ممن أحفظهم عليه من الأهالى

القلاقل فى عهد جيان جليزو

فورثه فى ملكه ابنه « جيان جليزو اسفُرزا » ، وكان لا يزال طفلاً فى المهد ، فقامت أمه بأمر الوصاية عليه . وكان صاحب الكلمة العليا فى هذا الوقت « فرنسسكو سيمونِتّا » الذى كان أميناً لفرنسسكو اسفرزا ومن اكبر المتمسكين بسياسته . بيد ان اخوة « جليزو اسفرزا » أخذوا يشغبون على القائمين بأمر الوصاية ، ففاز عليهم « سيمونتا » وأجبرهم على ترك ميلان . على حين أن مصادقة سيمونتا لآل مديشى أثارت عليه حنق « فردنند » ملك نابلي والبابا لما بينهما وبينهم من العداء ، فعزما على خلع الوصاية من القائمين بها فى ميلان تمهيداً للانقضاض على فلورنسة . فحرضا « لُدُفيكو اسفرزا » اكبر الأمراء المنفيين على العودة الى مناوأة سيمونتا ، فتمكن بمساعدتهما من قتل « سيمونتا » وخلع الوصية وأصبح هو صاحب الكلمة النافذة فى ميلان والوصى على « جليزو » . ثم أخذ يعمل على خلع ابن أخيه حتى يتولى هو الأمر فى ميلان ، فكان ذلك سبباً فى جلب اكبر المصائب عليه نفسه وعلى ايطاليا بأجمعها

خيانة لدفيكو اسفرزا

نابلي

نابلي تحت حكم النرمنديين

كانت نابلي وصقلية مملكة واحدة فى خلال القرن الحادى عشر تحت حكم النرمنديين ، وفى خلال القرن الثالث عشر فتح هذه البلاد « شارل دوق انجو » أخو لويس التاسع ملك فرنسا . وفى عام ١٢٨٢ قامت ثورة فى صقلية انتهت بطرد الفرنسيين منها وضم الجزيرة الى أملاك أسرة

«ارجون» باسبانيا . ومن هذا الحين بقيت صقلية ونابلى منعزلة احداهما عن الأخرى الى أن اندثر بيت «انجو» من نابلى بموت جوانا الثانية فى عام ١٤٣٥ . فانضمت نابلى الى «الفنس الخامس» ملك الارجون وصقلية وسردانيا وذلك بعد نزاع قام بينه وبين فرع من أسرة «أنجو» الفرنسية

ثم بيت انجو

ثم ملك الارجون

وكان الفنس هذا محباً للعلوم والآداب ، حافظ على السلام فى بلاده الى درجة لم تعهد من قبل ، حتى لقبه المؤرخون (بالفاخر) . ولما مات عام ١٤٥٨ قسم ملكه بين أخيه وابنه غير الشرعى . فأخذ أخوه «حنا الثانى» الارجون وصقلية وسردانية وأخذ ابنه «فردنند الأول» نابلى . عند ذلك عارضت أسرة «انجو» فى أمر نابلى وقام بعض أفراد هذه الأسرة يطالب بها ، ولكن بعض أمراء ايطاليا عارضوا فى ذلك خوفاً من تدخل فرنسا وبسط نفوذها فى بلادهم . وكان اكبر المعارضين «فرنسسكو سفرزا» صاحب ميلان ، فانه أخذ يساعد «فردنند» ولم يأت عام ١٤٦٤ حتى أصبح ثابت القدم فى نابلى . أما طريقة حكمه فى البلاد فكانت غاية فى الشدة والعسف ولا سيما بعد أن اشترك معه ابنه «الفنس» حاكم «قلبرية» ؛ فكان استبدادهما وقسوتهما على الأهالى من اكبر الأسباب التى ساعدت على دخول الفرنسيين أرض ايطاليا

ابنه فردنند الاول

البـــابوية

كان البابوات من زمن بعيد يعملون جهدهم فى تأسيس ملك دنيوى فى رومية وما جاورها من الاصقاع ، وكانوا يبررون هذه الفكرة بما يعزونه صدقاً أو افتراء الى ملوك الفرنج وامبراطورى الرومان من منحهم اياهم هذه الانحاء . وكان هذا الملك يشمل رومية و «رومانا» وغيرهما . ثم انتقل مقر سلطانهم الدينى الى «أفنيون» فى فرنسا (١٣٠٥ — ١٣٧٧) ، فتشتت شمل ملكهم فى ايطاليا وسادت فيه الفوضى واستبد الأشراف بالناس . وفى خلال هذه المدة قام رجل من احقر الطبقات اسمه «رنزى» ليخلص العامة من ظلم الأشراف وعسفهم ، وكان مطلعاً على ما فى بطون الكتب من مجد رومية وعظمتها ، فلم تكن فكرته تخليص المدينة من هذه الفوضى الضاربة أطنابها فيها فقط ، بل كان يطمح الى استرجاع مجدها القديم فى ايطاليا وجعلها سيدة العالم ؛ فحرض الأهالى على الثورة فأفلح وأسس حكومة كان هو على رأسها ، فأعاد النظام الى نصابه وسادت السكينة وسر الأهلون سروراً عظيماً . ثم طمح بعد ذلك فى توحيد ايطاليا ، فساعده بعض كبار المفكرين ومن بينهم الشاعر «بترارك» . بيد أن الوقت كان لم يحن لذلك بعد ، لتأصل الشقاق فى البلاد ، ولان «رنزى» لم يكن بالرجل الذى يستطيع القيام باعباء هذه الحركة الخطيرة ، اذ داخله الغرور وأظهر خرقاً عظيماً ، فانفض الناس من حوله وقتل خلال هيج العامة سنة ١٣٥٤ . وبموته ماتت تلك الحركة العظيمة

منشا املاك البابا

البابوية فى فرنسا

الفوضى فى املاك البابوية — رنزى

ولما عاد مقر البابوات الى رومية بقى نفوذهم فيها ضعيفاً الى أن تولى عرش البابوية «نقولا الخامس» (١٤٤٧ — ١٤٥٨) . وفى عهده قامت الحركة لاحياء عصر الجمهورية فى رومية ، فأخمدها وقتل زعيمها «استيفن» . ومن هذا الحين ابتدأ البابوات يحابون أقرباءهم ،

نقولا الخامس

ولم يظهر بينهم من اعلن الحمية الدينية الا النزر اليسير ، منهم « بيَس الثانى » (١٤٥٨ — ١٤٦٤)
انياس سلفيوس وهو «انياس سلفيُوس» المشهور . وقد اجتهد فى تحريك عواطف الأوربيين لشن حرب صليبية على الترك فلم يفلح واكتفى بتجديد الحرب بين البندقية والترك

وخلفه عدة بابوات لا يستحقون الذكر كان معظمهم يدأبون على توسيع املاكهم الخاصة وترقية أقاربهم . وبقيت الحال كذلك حتى عام ١٤٩٢ اذ تولى عرش البابوية أحد أفراد اسرة
برجيا « برجيا » وهو لُزريق برجيا ولقب بالاسكندر السادس

فلورنسة

الجمهورية كانت امارة فلورنسة فى أول أمرها حكومة جمهورية ولكن أولى الأمر وأصحاب النفوذ فيها جعلوا يهدمون هذا النظام فيها بعد ويغيرون على حقوق أهلها الدستورية . وأول من عمل على ذلك
اسرتا البزى ومديشى اسرة « ألبزّى » (١٣٧٨ — ١٤٣٤) ثم اسرة « مديشى » من بعدها . وكان هذان البيتان يتنازعان السيادة فى فلورنسة . فقام « كوزيمو دى مديشى » (مؤسس عظمة اسرته) فى وجه اسرة «ألبزى» مدافعاً عن حقوق العامة . فقام «رينلدو ألبزّى» وتغلب عليه حتى أفلح فى نفيه عام ١٤٣٣ . ولكن لم يلبث ان قامت عليه ثورة كان من نتائجها طرد هذه الأسرة ورجوع «كوزيمو دى مديشى» حاكماً على فلورنسة . فاجتهد فى حفظ نظام الحكومة الدستورية والسير على مقتضى عادات البلاد ارضاء للشعب . وكان اكبر مساعد له ميل العامة اليه وماله الجم الذى اكتسبته أفراد هذه الأسرة من متاجرهم العظيمة . ثم صافى كلا من ميلان ونابلى وبذلك
كوزيمو دى مديشى أصبح ذا نفوذ سياسى فى ايطاليا . وكان «كوزيمو» محبوباً من جميع رعاياه حتى انه لما مات عام ١٤٦٤ نقش على قبره «أبو الشعب». ثم خلفه ابنه « بيرو » (١٤٦٤ — ١٤٦٩) وكان فى مقتبل العمر ، فتآمر عليه حزب قوى من الاهالى كان يمقت نفوذ آل مديشى وسلطانهم . وقد عاضدت هؤلاء المتآمرين البندقية التى كانت تناهض فلورنسة وتحسدها على تجارتها ، ولكنهم
بيرو مع هذا كله اخفقوا فى سعيهم وترك « بيرو » اسرته بعد موته اقوى مما كانت عليه قبل توليته شؤون البلاد رغم تضعضع صحته التى اقعدته فى اواخر أيامه

ترك « بيرو » ولدين وهما « لورنزو » الذى ولى الامر من بعده و « جليانو » . فحكم «لورنزو» مدة تسعة اعوام كانت فى خلالها فلورنسة فى تقدم مستمر وسلام دائم ، وكان حريصا
لورنزو مديشى والبابا على اقتفاء أثر جده العظيم فى سياسته وفى حفظ الوداد بينه وبين ميلان ونابلى . الا ان مركزه تزعزع واصبح على شفا جرف هار لخلاف قام بينه وبين البابا « سكستس الرابع » . ولم يكن بينهما ما ينذر بذلك ، اذ ذهب «لورنزو» عند استواء سكستس على العرش البابوى ليهنئه . فنصّبه البابا محصلاً لاموال الكنيسة فى فلورنسة . ولكن هذا الود لم يدم طويلاً ، لان البابا منح الرآسة الدينية فى « بيزا » الى « فرنسسكو سلفياتى » . وكانت بيزا تحت سلطان

« لورنزو » فلم يرضه هذا الأمر ، وانضم ذلك الى معارضته فى تأسيس البابا لاسرة جديدة فى « رومانا » والى ان مديشى أبى أن يقرض البابا مالاً لشراء « ايمولا » احدى مقاطعات ايطاليا . فأحفظ كل ذلك البابا وأعطى وظيفة محصل الى أحد أفراد آل « بازّى » وكانت ذات نفوذ وسلطان . ولم يكتف بذلك بل دبر لأسرة مديشى مكيدة بزعامة آل بازى وبعض افراد آخرين انتهت بقتل « جليانو دى مديشى » وجرح « لورنزو » . غير ان القائمين بهذه المؤامرة لم يفلتوا من يد أهل فلورنسة ، فانهم قتلوهم شر قتلة . وكان ذلك عام ١٤٧٨ . ولما وصل هذا الخبر الى البابا غضب غضباً شديداً وأعلن حرمان آل مديشى من الغفران وتحالف عليهم مع نابلى . فاختل بذلك توازن الولايات الايطالية ، اذ كانت ميلان وفلورنسة ونابلى لهذا الوقت حلفاء وكان فى مقدرتها ان تحافظ على السلام من غارات البندقية والبابوية ، فأصبحت ايطاليا منقسمة الى حزبين متعاديين : حزب الشمال ويشمل ميلان والبندقية وفلورنسة ، وحزب الجنوب ويتألف من البابوية ونابلى . ولما نشبت نار الحرب لم تجد فلورنسة مساعدة جدية من حلفائها ، لضعف البندقية وتذبذبها ولأن ميلان كانت فى فتن وقلاقل فلم يكن لها تأثير يذكر فى المساعدة . عند ذلك ساعد الحظ « لورنزو » بفتور العلائق بين نابلى والبابا ، فانتهز هذه الفرصة وعقد صلحاً معه . أما نابلى فانها كفت عن محاربته خوفاً من الترك الذين احتلوا « اترنتو » وقتئذ . ومن ذلك الحين اشتد ازر لورنزو خصوصاً بعد اخفاق مؤامرة آل بازّى وبعد تخليصه البلاد من مأزق هذه الحرب . فشرع يحكم بيد مطلقة وهابه الأهلون . وكان لورنزو شاعراً مجيداً محباً للعلوم والمعارف ، وقد شيد له فى ذلك أثراً خالداً فى تاريخ العالم . هذا الى انه كان من اقدر الحكام ومن أقطاب السياسة . وكان اسمه فى ايطاليا مقروناً برجل السلام ، لذلك كان لموته فى عام ١٤٩٢ وهو فى ريعان الشباب أثر سيئ ، اذ كان القوم يعتقدون انه لو امتد اجله لمنع عن ايطاليا كثيراً من الويلات التى انصبت عليها فيما بعد

البابا ونابلى على فلورنسة

انتهاء الازمة

زهاء عصر لورنزو مديشى

ترك « لورنزو » بعده ثلاثة ذكور : « بيرو » و « جوَنى » (الذى صار فيما بعد البابا ليو العاشر) و « جليانو » . فخلفه على عرش فلورنسة « بيرو » ، وكان طائشاً فأثار عليه الامة بحكمه الاستبدادى . وقد جلب على البلاد الويلات من جراء سياسته الخارجية ، اذ باتحاده مع نابلى عادى ميلان فى حين كانت ايطاليا فى حاجة الى توحيد كلمتها لصد غارة المغيرين عليها من الاجانب

البابا ليو العاشر من اسرة مديشى

خرق بيرو مديشى

البندقية

تجارة البندقية

كانت البندقية منذ سنة ١٢٠٤ أى من عهد الحرب الصليبية الرابعة ذات أملاك عظيمة فى شرقى أوربا غنية بمتاجرها العظيمة فى البحر الأبيض المتوسط . وكان لتقدم الترك أثر سيء فى انتقاص أملاكها وانحطاط تجارتها . وقد أرادت أن تستعيض عن ذلك بزيادة نفوذها فى ايطاليا ، فمدّت أملاكها فيها مدة حكم رئيسها « فرنسسكو

اهمال تجارتها ومد املاكها

فُسْكارى » (١٤٢٥ - ١٤٥٧) وأصبحت تناهض ميلان فى السيادة فى شمالى ايطاليا . غير ان طمع البندقيين فى توسيع دولتهم حوّل أنظارهم عن التجارة منبع مجدهم الحقيقى، فكان فى ذلك القضاء الاكبر على عظمتهم

ولما سقطت القسطنطينية كان همّ البندقية العظيم مقاومة الأتراك . ولكن حزب السلام فيها كان له اليد العليا فى السياسة وكان يعارض « فسكارى » ، فعقد صلحاً مع محمد الفاتح قاصداً بذلك المحافظة على منافع البندقية غير مكترث بمصلحة أوربا . فاعتزل فسكارى الأمر ، وتولى بعده ابنه . فخاب فأل أعداء فسكارى ، اذ ضمت الترك الى أملاكها اليونان والجزائر المجاورة لها، واضطرت البندقية أن تشهر السلاح عليهم . فكان نصيبها الفشل التـام واضطرت لعقد صلح مخز عام ١٤٧٩ يعرف بمعاهدة القسطنطينية نزلت فيه عن جزء عظيم من أملاكها واعترفت بسيادة الترك على البقية الباقية منها

امل اوربا فى البندقية

فلورنسة ونابلى وميلان على البندقية والبابا

ثم وجهت البندقية أنظارها من هذا الحين الى توسيع نطاقها فى ايطاليا، فدخلت فى دور تشاحن مستمر مع نابلى (وكانت دائماً ترميهـا بتشجيع الترك على مهاجمة اترنتو) . وفى عام ١٤٨٢ أعلنت حرباً على دوق « فِرّارا » بلا سبب ، وساعدها البابا لاغراض سياسية ، فقام « لورنزو مديشى » وعقد حلفا مع نابلى وميلان للدفاع عن « فرارا » حفظاً للتوازن بين ولايات ايطاليا . وبهذا رجع التوازن القديم الذى كان قد انفرط عقده بعد مؤامرة « بازى » . ويُعد هذا العمل من اكبر انتصارات لورنزو فى السياسة

انقلاب البابا على البندقية

ولما وجد البابا (سكستس) أن كل الغنيمة صارت فى يد البندقية انقلب عليها وانضم الى الحلف ، فأصبحت البندقية فى احرج المواقف . أما « لدفيكو اسفرزا » (أمير ميلان) فانهُ أخذ يشك فى ولاء نابلى، إذ كانت تساعد ابن أخيه على استرجاع ملكه وعزل «لدفيكو»، فاصطلح مع البندقية عام ١٤٨٤، وبذلك انتهت الحرب ،

فوز البندقية

وكان الفوز فيها للبندقية اذ ضمت اليها « بولسين » من أملاك فِرّارا



حالة ايطاليا

تلك كانت حالة الولايات الايطالية فى هذا العهد : كلها كما رأيت جذوة فتن وقلاقل . ولكنها بقيت على الرغم من ذلك صاحبة القدح المعلى فى النهضة العلمية والحركة الفكرية فى أوربا الى أن قضت عليها الغارات الأجنبية . وقد أوضحنا عند الكلام على النهضة ما كان لايطاليـــا من الفضل فى احياء العلوم والآداب والفنون الجميلة . ونزيد هنا ان كبار مفكريها كانوا مرجعاً يُعتمدّ بهِ فى العلوم السياسية بأوربا ، وان لم تتفق مبادئهم مع مكارم الأخلاق وشعائر الفضيلة

رجال السياسة فى ايطاليا

ومن أعظم مفكريها السياسيين «مَكْيافِلّي» (١٤٦٩–١٥٢٧) من أبناء فلورنسة وهو الواضع كتاب « الأمير » الذى كان له أكبر أثر فى السياسة الأوربية فى عصر مكيافلى والعصور التى تلته . ضمّن هذا الكتاب مبادئ سياسية ليقتدي بها الملوك والأمراء فى توطيد دعائم ملكهم وتوسيع نطاقه . فكان على ما به من الفكر الثاقب وبعد النظر اكبر محرض للأمراء والسواس على نبذ الفضيلة فى سبيل السياسة ففيه يقول المؤلف بكل جرأة : « ان الأمير الذى يريد حفظ كيان دولته لا بد له فى كثير من الأحيان أن يخالف الذمة والمروءة والإنسانية والدين » . فما جاء القرن السادس عشر الاَّ وقد تعلمت أوربا هذا الدرس، فكان رائد سواسها فى ذلك الحين

مكيافلى وكتاب الامير

٤ — ✱ الحروب الايطالية (١٤٩٤ — ١٥١٩) ✱

ظلم فردنند فى نابلى

بعد أن تولى فردنند عرش نابلى اشتد عسفه وظلمه لدرجة أثارت عواطف الأشراف فيها وتألبوا عليه سنة ١٤٨٥ . وقد ساعد على اشعال هذه الثورة البابا لماكان يدعيه لنفسه من السلطان على هذه البلاد ، ذلك الأمر الذى كاد يجعله فى شقاق دائم مع ملكها . وقد أوضحنا كيف كان عرش نابلى حين اذ ذاك مزعزع الأركان يدعيه بيت « انجو » الفرنسى وبيت « أرَجون » الاسبانى . أما بيت « انجو » فانه نزل عن حقه للويس الحادى عشر . فلما كثر اضطهاد فردنند للأشراف وخابت كل مساعيهم ذهب فريق منهم الى شارل الثامن ملك فرنسا يطلب اليه المساعدة ويقدم له عرش نابلى سنة ١٤٩٢ . وقد ساعدت شارل حالة ايطاليا على تجريد حملة على نابلى اذ كان لدفيكو اسفرزا لا يزال يعمل على خلع ابن أخيه جيان جليزو وكان يخاف من تدخل نابلى فى الأمر اذ تزوج « جيان جليزو » باحدى أفراد الأسرة المالكة فى نابلى . فانضم الى فرنسا ليحول انظار نابلى عن ميلان

نابلى تستصرخ فرنسا

شارل الثامن يغزو ايطاليا

خرج شارل بجيشه الى ليون عام ١٤٩٤ ، ثم اخترق جبال الالب فلم يلق أية مقاومة فى شمالى ايطاليا لأن ميلان كانت حليفته ، ولأن فلورنسة لزمت جانب الحياد (وكان حيادها على الرغم من « بيرو مديشى » الذى كان على صفاء مع نابلى ، غير أن معظم الفلورنسيين وخاصة حزب المعارضين له كانوا فى جانب فرنسا لمصالح تجارية) فلما توغل شارل الى «بيزا» عزم «بيرو» على تحسين علاقته مع الفرنسيين خوفاً من هياج الرأى العام عليه ، فذهب الى المعسكر الفرنسى بنفسه ونزل للملك عن بعض أملاك فلورنسة ، فأثار بذلك عليه الرأى العام اكثر مماكان من قبل وطرد من البلاد . أما الجيش الفرنسى فانه أخذ يتوغل فى ايطاليا حتى دخل رومية . وكان البابا قد احتمى فى معقل « القديس انجيلوا » ، ولكن شارل عقد معه معاهدة نزل فيها البابا عن بعض المدن وسلم الأمير « جم » أخا بايزيد الى الملك . ولما شعر الفنس الثانى ملك نابلى بدنوّ الفرنسيين

الجيش الفرنسى فى رومية

نزل عن الملك لابنه فردننـد الثانى ، فلم يقدر هذا على المقاومة ، فدخل شارل نابلى وتُوّج ملكا عليها . أما فردنند فانه ولى هارباً

شارل فى نابلى

وقدكان لنجاح شارل الباهر أثر عظيم فى ولايات ايطاليـا . فلم يكن فى حسبان لدفيكو أن فرنسا ستفتح نابلى ، وابتدأ يستولى عليه القلق حينما رأى « لويس » دوق أُرليان وقائد الجيش الفرنسى على حدود لمبردية يستعد لغزو ميلان ذاتها . وخافت البندقية من تأسيس ملك جديد عظيم فى ايطاليا لا طاقة لها به . أما فى خارج ايطاليا فلم يكن قلق ملوك أوربا بأقل من ذلك : فان فردنند ملك الارجون وصقلية كان غير راض عن احتلال الفرنسيس لنابلى ، وسمع الامبراطور مكسمليان بأن شارل يقصد سوءاً بأملاكه أيضاً . فتكون حلف من ميلان والبندقية والبابا وفردنند ومكسمليان كان الغرض الحقيقى منـه اضعاف فرنسا وغرضه فى الظاهر الدفاع عن املاكهم من غارات المغيرين . وقدكان هذا التحالف أول مظهر جدى لذلك المبدأ السياسى الشهير الذى لا يزال رائد رجال السياسة فى اوربا الى الآن : وهو المحافظة على « التوازن الدولى » . وفحواه ان لا يسمح بحدوث تغيير كبير فى قوى الدول الأوربية العظمى ، وانه يجب اتحادها جميعاً على اى دولة تقوى سلطانها الى غاية تكون خطراً على الدول الباقية

قلق الولايات الايطالية وأوربا

تحالف أوربا على شارل

التوزان الدولى

أما شارل فانه بعد فتح نابلى لم يرض الاهالى . ولما بلغه خبر تكوين الحلف همّ بالرجوع الى فرنسا تاركاً جزءاً من جيشه للمحافظة على النفوذ الفرنسى فى ايطاليا . وفى طريقه مرّ على رومية ثم على بيزا ومنح أهلها الحرية فأغضب بذلك فلورنسة اذ كانت بيزا تحت سلطانها منذ سنة ١٤٠٦ . فقل بذلك ناصرو الفرنسيس فى ايطاليا

شارل يغادر ايطاليا

وكان دوق « ارليان » قد أخذ يوطن عزيمته على امتلاك ميلان بدعوى أنها حقه بالذات . فكان ذلك سبباً لاعلان الاحلاف الحرب على فرنسا . فاضطر شارل قبل مغادرة ايطاليا الى منازلتهم فى يوليه سنة ١٤٩٥ فى موقعة لم تكن فاصلة . ثم ذهب الى فرنسا وترك دوق « ارليان » يحارب وحده

وما كاد شارل يترك نابلى حتى شبت فيهـا نار الثورة على الفرنسيين وانتهت برجوع الأسرة المالكة الى العرش وتسليم الحامية الفرنسية نفسها

ثوران نابلى على الفرنسيين

أما شارل فانه كان يلهو ويلعب فى فرنسا ويفكر أحياناً على غير جدوى فى مساعدة « دوق ارليان » وفى استرجاع ملكه فى نابلى . وقد عاش بعد رجوعه من ايطاليا مدة ثلاث سنوات لم يأت أثناءها شيئاً فى مصلحة فرنسا . وكانت وفاته فى ابريل عام ١٤٩٨

وفاة شارل الثامن

فاستوى على عرش فرنسا بعده « لويس الثانى عشر » (دوق ارليان قبل) وكانت توليته من الحوادث العظيمـة فى تاريخ ايطاليا . اذ لم يكن كسلفه يدعى ملك « نابلى » فقط بل كان كما أسلفنا يدعى ملك « ميلان » أيضاً . وقدكانت الحال فى ايطاليا مما يساعده على ذلك : فكانت البندقية دائماً معادية لميلان وخصوصاً فى عهـد « لدفيكو اسفرزا » ، على حين أن فلورنسة كانت مشغولة فى حصار « بيزا » لارجاعها الى أملاكها ، وكان البابا يرغب فى توسيع سلطان ابنه « قيصر بُرجيا » فتطلع لمساعدة فرنسا له على ذلك . فأخذ لويس يرضى كلا من هذه الولايات اما بالمساعدة واما بمنحها بعض البلاد المتاخمة لهـا . ولما تم له الاتفاق معهم زحف

لويس الثانى عشر والغزوة الثانية

بجيشه على ايطاليا سنة ١٤٩٩ فاحتل ميلان ، وقتل « لدفيكو » فى مقاومته للفرنسيس . ثم ولى لويس وجهه شطر نابلى فعارضه فردنند ملك الارجون ، فاتفقا على تقسيمها فيما بينهما ، ولكن لما احتل الفرنسيس البلاد عام ١٥٠١ تنازع لويس وفردنند على تقسيم نابلى ، فنشبت نار حرب بينهما انتهت بهزيمة الفرنسيس هزيمة منكرة على نهر « كرجليانو » سنة ١٥٠٤ . ولم يعودوا بعدها الى حكم نابلى

هزيمة الفرنسيس عند كرجليانو وطردهم من نابلى

ازدياد ملك البابا

وفى أثناء هذه التقلبات كانت ولايات البابا فى طور تغير عظيم ، جنى فيه البابا « الاسكندر السادس » ثمرة محالفته لفرنسا . فقد كان غرض ابنه « قيصر برجيا » أن يشيد لنفسه ملكاً عظيماً فى ايطاليا ، فساعدته فرنسا على فتح كل « رومانا » وكانت من قبل مقسمة بين عدة أمراء ، ثم مد سلطانه على دوقية « أربينو »و« بيروجيا » واصقاع أخرى ذات أهمية ، وبذلك أفلح فى تأسيس ملك عظيم فى أواسط ايطاليا . وكان فى عزمه فتح « تسكانية » ، فحال موت أبيه بينه وبين آماله واطماعه ، اذ انتخب غيره لعرش البابوية

قيصر برجيا وفتوحه

فوقع الاختيار على « بيّس الثالث » ، ولكن هذا لم يتربع على عرش البابوية الا بضعة ايام . ثم خلفه « يوليوس الثانى » ، وكان اول همه توسيع نطاق املاك البابوية دون مراعاة لمصلحة فرنسا أو غيرها ، فاجتهد فى القبض على قيصر برجيا ولما تم له ذلك اضطره الى النزول عن املاكه للبابا . ولم يقف همه عند ذلك بل أراد أن ينزع بعض الاملاك من البندقية . وانتهز لذلك فرصة حنق امراء أوربا على هذه الجمهورية وحسدهم لها . فاتفق مع اسبانيا وفرنسا والامبراطور وعقدوا حلف « كمبراى » سنة ١٥٠٨ للقضاء على البندقية . وابتدأ لويس الثانى عشر فى الزحف عليها عام ١٥٠٩ فهزمت البندقية فى كل مكان ، وأصبحت على شفا الخراب لولا ما حدث بين أعدائها من الشقاق . وذلك ان يوليوس الثانى بعد ان نال غرضه من البندقية انقلب على فرنسا وألب عليها اسبانيا ، فلم يفلح فى بادىء الأمر ، وهم لويس بخلعه من عرش البابوية . فأغضب أمراء أوربا تدخل لويس فى أمر الكنيسة ، وبذلك تمكن يوليوس من تأليف حلف مقدس على فرنسا يشمل الامبراطور ، وفردنند ، وهنرى الثامن ملك انجلترة ، وسوسرة

البابا يوليوس الثانى

حلف كمبراى على البندقية

حلف على فرنسا

ولما قامت الحرب كان النصر حليف فرنسا أولاً على يد بطلها « جستون دى فوا » . بيد انه قتل فى واقعة « رافِنّا » ، وبموته ضاعت آمال فرنسا وطردت من ميلان . هذا فضلا عن ان فردنند استولى على « نافار » ، وان مكسمليان وهنرى الثامن غزوا فرنسا واستوليا على عدة بلاد فيها . فاضطر لويس الى مهادنة اعدائه ، فهادن فردنند ومكسمليان فى ابريل سنة ١٥١٣ وصالح انجلترة عام ١٥١٤ . ولم يعش لويس بعد هذه النكبات الا زمناً يسيراً اذ مات فى يناير سنة ١٥١٥ . ومما سبق يتضح أنه افنى كثيراً من مال فرنسا ورجالها فى ايطاليا بدون فائدة

فشل فرنسا فى الحرب

أما البابا (يوليوس الثانى) فانه مات قبل ان يشاهد خيبة فرنسا الاخيرة . وخلفه على كرسى البابوية « ليو العاشر » ابن لورنزو الفاخر عام ١٥١٣ ، وكان قد نفى من فلورنسة عند ما خلع اهلها أخاه (بيرو) وأسسوا جمهورية باشراف المصلح الدينى العظيم « سفونارولا » . وقد كان لهذا المصلح تأثير فى الأهالى غير ان أمره أخذ يتداعى لخيبة سياسته الخارجية خصوصاً

سفونارولا

عند ما أخفقت فلورنسة فى استرجاع بيزا . فتألف حزب عليه وحرمه البابا من الغفران بحجة خروجه عن الدين فقتل عام ١٤٩٨ . ولما طرد الفرنسيون من ايطاليا حرض « ليو العاشر » (قبل توليته عرش البابوية) الاسبان على مهاجمة فلورنسة ، فأخذوا البلدة عنوة فى اغسطس سنة ١٥١٢ واقاموا آل مديشى على زمام الامور فيها بعد ان طردوا منها مدة من الزمان

الاسبان يعيدون آل مديشى فى فلورنسة

خلف لويس الثانى عشر « فرنسوا الاول » (فرنسيس الاول) وكان عالى الهمة ولوعاً بالشهرة الحربية ، فعقد النية على استرجاع ميلان . فجمع لذلك جيشاً وزحف به على ميلان مخترقاً جبال الالب بسرعة مدهشة ، قبل أن يتأهب لملاقاته السوسريون حلفاء ميلان . ولما التقى جيشه مع السوسريين هزمهم هزيمة منكرة عند « مَرِجنانو » بعد قتال يومين (سبتمبر سنة ١٥١٥) فنزل بعدها « مكسمليان اسفرزا » عن عرش ميلان لفرنسا ، ومن ثم ساد السلام فى ايطاليا مدة من الزمان . واصطلح فرنسيس مع السوسريين . ثم تقابل مع البابا (ليو العاشر) فى « بولونيا » واتفق معه على ارجاع « بَرْما » و « بِيازِنزا » الى ميلان وعلى استقلال الكنيسة الفرنسية عن البابا ، فى نظير مؤازرة فرنسا لآل مديشى فى فلورنسة ، فأصبح بذلك نفوذ ملك فرنسا موطد الأركان من الوجهتين الدينية والسياسية . أما فردنند ملك الارجون فانه فزع لعودة النفوذ الفرنسى فى ايطاليا ، فأراد أن يؤلف حلفاً على فرنسا ، ولكن موته حال دون ذلك ، فساد السلام فى ايطاليا مدة قامت بعدها نار حرب عوان سنتكلم عليها فى موضعها

الغزوة الثالثة

عودة النفوذ الفرنسى فى ايطاليا

٥ — ﴿ فرنسا فى عهد الاصلاح الدينى ﴾

لما ابتدأ طور الاصلاح الدينى فى فرنسا لاقى المصلحون فيها معارضة شديدة واضطهاداً كبيراً اكثر مما لاقوه فى أى مملكة أخرى ، اللهمّ الاّ فى هولندة . لذلك امتدت فيها هذه الحركة اكثر من خمس وسبعين سنة تبتدئ بعام ١٥٢٥ فى حكم فرنسوا الأول وتنتهى بتخويل البروتستنت الحرية الدينيـة عام ١٥٩٨ اذ صدر بذلك « مرسوم نَنْت » الشهير . وكانت حركة الاصلاح الدينى فى فرنسا أثناء هذه المدة هى النواة التى تجمعت حولها كل المسائل الاجتماعية والسياسية والدستورية . وترجع أسباب هذه النهضة الدينية الى انحطاط الكنيسة الكاثوليكية وما انطوت عليه من كثير المخازى والنقائص التى لم تشكُ منها فرنسا وحدها بل كانت منتشرة فى الامم الأخرى . وهـذه النقائص تنبعث من خلاعة كبار رجال الدين وشراهتهم وجهل القسيسين وعدم تمسكهم باهداب الدين ، هذا الى ما كان يُرتكب أحياناً من

صعوبة انتشار الاصلاح الدينى فى فرنسا

نوع الحركة وأسبابها

الفاحشة والفسوق فى الأديرة والبيع . ومع ما لاقته هذه الحركة فى فرنسا فقد نبت فيها أول من فكر فى الاصلاح الدينى فى أوربا عامة وهو « جاك لِففر » أحد أساتذة جامعة باريس ؛ فانه نشر رسائل القديس بولص باللاتينية سنة ١٥١٢ وعلق عليها تعليقات انكر فيها عقيدة « الاستحالة » فى الوقت الذى لم يكن فيه لوثر فكر فيها قط ، وإن كان ما فعله هذا من شن الغارة على البابا وصكوك غفرانه قد نبّه الافكار فى فرنسا ، فخاف رجال المذهب الكاثوليكى على مذهبهم فأعلنت الكلية الدينية فى جامعة باريس فساد كتابات لوثر وصادرها البرلمان الفرنسى عام ١٥٢١ . على أن الفضل فى قيام حركة الاصلاح فى فرنسا لم يكن لألمانيا أو لوثر وحدهما وانما يرجع الفضل كل الفضل الى « كالفن » وبلدة جنيرة التى أبرز فيها كالفن للعالم كتابه « مبادئ الدين المسيحى » الذى شرح فيه حقيقة الدين وتعليماته بكل وضوح . ظهر هذا المصلح العظيم كما سبق فى بلدة جنيرة ونشر تعليماته فيها فكانت المورد الذى يُستقى منه وفيها تخرج كل القسيسين ورجال الدّين الذين نشروا مذهبه فى فرنسا . وقد تكلمنا على خصائص هذا المذهب فى فصل الاصلاح الدينى ، والآن نتتبع سير هذه النهضة فى أطوارها المختلفة

جاك لففر

تأثير لوثر وكلفن

يمتد الدور الأول من سنة ١٥٢١ الى ١٥٦٢ . ولهذه المدة أهمية عظيمة فى تاريخ الاصلاح فى فرنسا ، إذ هى المدة التى قوى فيها سلطان «الهيجونوت» (أتباع المذهب البروتستنتى فى فرنسا) واكتسبوا فيها قوة سياسية عظيمة مكنتهم من مقاومة أعدائهم مدة خمس وثلاثين سنة كانت مشهد حروب دينية لم يرَ التاريخ مثلها فى الشدة والعنف

الدور الاول
١٥٢١ – ١٥٦٢

وكان أول ظهور مبادئ كالفن فى عصر فرنسوا الأول ، فلم يناهضها لما كان مفطوراً عليهِ من التسامح ومؤازرة النهضة العلمية الحديثة . وكان فى ذلك على عكس أُمه التى انتهزت فرصة غيابه فى ايطاليا وحاولت اخماد الحركة باضطهاد البروتستنت عام ١٥٢٥. وفى عام ١٥٢٩ أخذ فرنسوا يحذو حذو أمه فى اضطهاد اتباع كالفن احتراماً لأوامر البابا ورغبات القساوسة فى فرنسا . فحدثت فى عصره مذبحة « فَدْوَا » الشهيرة

فرنسوا الاول
والاصلاح

مذبحة فدوا

عام ١٥٤٥ التي خرّب من جرائهــا في مقاطعة « بروفنس » نيف وعشرون بلدة وقرية وقتل اكثر من ثلاثة آلاف بروتستنتي، فاستؤصلت بذلك شأفة الهيجونوت من هذه الناحية

اضطهاد البروتستنت في عهد هنرى الثانى

ولما تولى هنرى الثانى (١٥٤٧ - ١٥٥٩) اشتدّ في اضطهاد البروتستنت في فرنسا لفرط تعصبه للكاثوليكية وعزم على اقتلاع جذور الهيجونوت من أرض فرنسا فأنشئت فى مدته غرفة فى برلمان باريس خاصة بمحاكمة الملحدين عُرفت فيما بعد بالغرفة المحرقة اشارة الى العدد الكثير الذى حكم عليه فيها بالإحراق. وفى عام ١٥٥١ مُنحت المحاكم الدينية سلطة محاكمة الملحدين ، وفى عام ١٥٥٧ حاول أعداء الاصلاح تأسيس «محكمة التفتيش» في فرنسا. ولكن بالرغم من ذلك كله كان عدد البروتستنت يتزايد يوماً بعد يوم ، حتى بلغ فى عام ١٥٦٠ ما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ نسمة معظمهم من أرقى الطبقات الوسطى وفيهم بعض صغار الأشراف

ابتداء الحروب الدينية

هذه كانت حالة فرنسا حينما فاض روح هنرى الثانى عام ١٥٥٩ . وفى هذا العام ابتدأت الحروب الدينية فى فرنسا وبقيت نارها مستمرة (الاَّ فترات قصيرة) حتى فاز هنرى الرابع بتولى عرش فرنسا وأصدر «مرسوم نَنْت» سنة ١٥٩٨. وقبل الكلام على هذه الحروب يجدر بنا أن نعرف الأفراد الذين مثلوا الدور المهم فى هذه الحوادث الجسيمة والذين كان لهم النفوذ والسلطان على كلا الحزبين : الكاثوليكي والبروتستنتي

أهم الافراد

كترين دى مديشى

كان اكبر ممثل للحزب للكاثوليكى الملكة «كترين دِى مديشى» أرملة هنرى الثانى ، وهى من أسرة مديشى الايطالية الشهيرة . فلما مات هنرى تركها فى أحرج المواقف، اذ ترك لها خمسة أطفال كانت اسرة « بُربون » واسرة «جيز» تعملان على اغتصاب الملك منهم . فلما مات زوجها تولى بعده اكبر أولادها « فرنسوا الثانى » وهو فى السادسة عشرة من عمره ، وعرش الملك محفوف بالمخاطر. اذ كانت فرنسا تئن تحت عبء المصاعب التى نزلت بها من جراء حروبها الطويلة مع المانيا ، وكان الأهالى متذمرين من الحكومة للضرائب الفادحة التى أثقلت بها كاهل الطبقات السفلى

مركزها

وكانت الفئة الحاكمة منحطة مرتشية والقضاء مختلاً؛ هذا الى أن الكنيسة كان لها خُمْسا ايراد الأمة ووظائفها وقفا على الأشراف وحاشية الملك، ولم يكن وقتئذ لمجلس الأمة النيابي أي نفوذ دُستوري. يضاف الى ذلك ان اسرتي «برُبون» و «جيز» كان لهما من النفوذ في البلاد ما يكاد يفوق سلطان الملك، وان كترين نفسها كانت أجنبية مكروهة من الأمة الفرنسية بأجمعها. وفوق هذا وذلك كانت نار الفتن الدينية مشتعلة بين الحزبين، وكادت تمزق البلاد تمزيقاً. كل هذه الأمور تسهّل علينا بعض الشيء أن نتصور ذلك المركز الخطير الذي وُجدت فيه كترين بعد موت زوجها

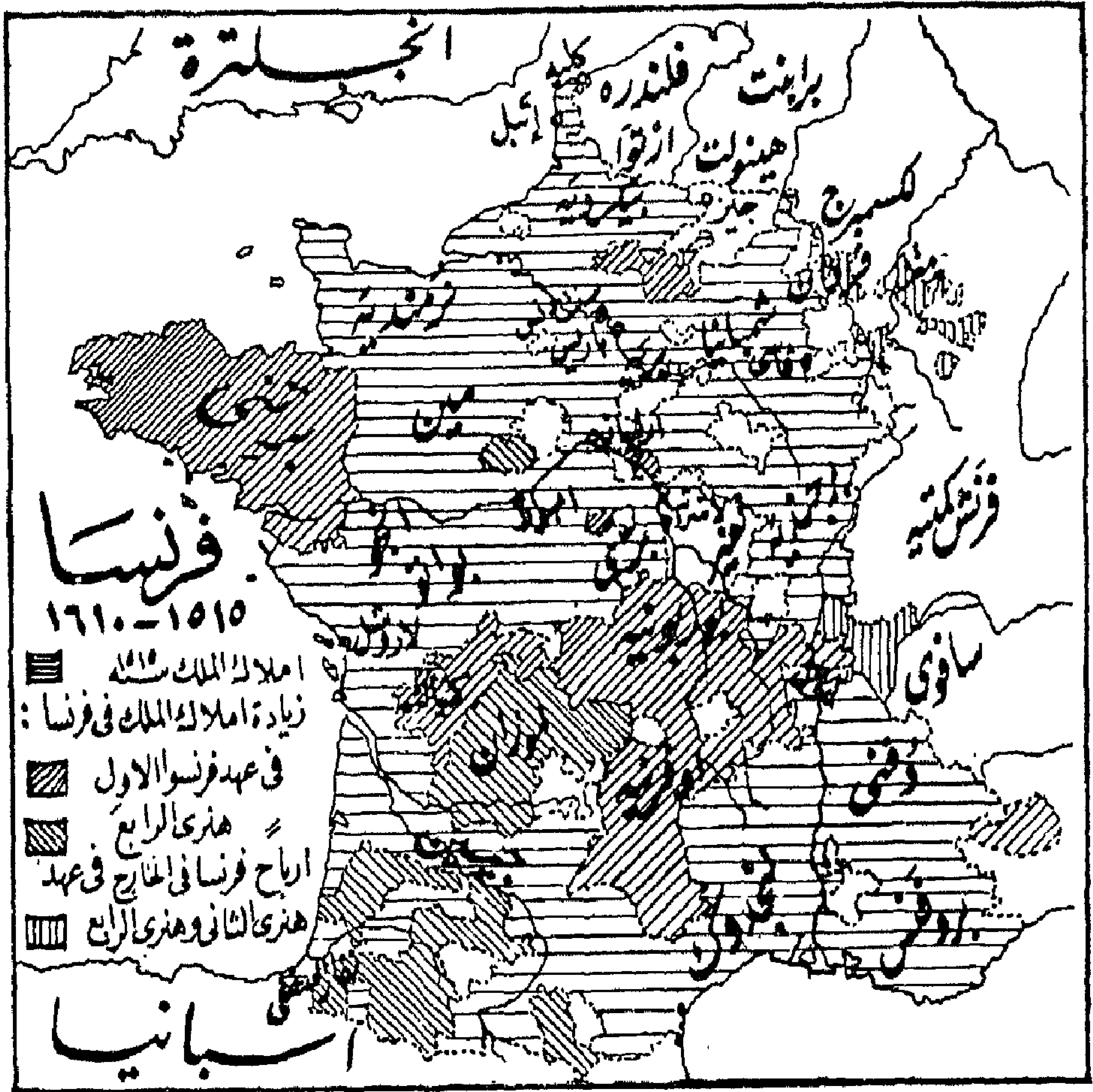
حالة فرنسا

أهم اغراض كترين

وكان أول غرض لها أن تحفظ وراثة مُلْك فرنسا في أولادها. ولما لم تكن متحمسة في الدين لم يهمها خيبة حركة الاصلاح أو نجاحها، وكان من رأيها أن تستخدم الحروب الدينية في حفظ السلطة في جانب العرش. وأهم الأسر التي كانت تخشى بأسها اثنتان: الأولى أسرة جيز، وكانت تتعصب للكاثوليكية تعصباً شديداً، والثانية أسرة «برُبون» (وكانت تخشاها أكثر من الأولى)، وهي الزعيمة لحزب الاصلاح الديني. لذلك كان لابد لكترين من حفظ التوازن بين هذين الحزبين، لأنها اذا مالت كل الميل الى آل جيز الكاثوليك خافت أزدياد سلطانهم والخطر على العرش منهم، واذا مالت مع اسرة بربون والهيجونوت كان الخطر على العرش هو عينه ولاسيما ان «اسرة بربون» فرع من الاسرة الحاكمة. لذلك كانت تميل مع احد الحزبين تارة والى الآخر طوراً حسب الأحوال تنفيذاً لسياستها

أسرة جيز

وكانت أهم اسرة ذات بطش ونفوذ في فرنسا بعد الملك هي اسرة «جيز» وكانت أكبر خطر يتهدد البروتستنت في فرنسا. ومن الغريب أنهم ليسوا من أصل فرنسي بل ينسبون الى آل لورين، ظهروا لأول مرة في عهد فرنسوا الأول اذ منح «كاود» رأس هذه الأسرة دوقية جيز وغيرها. ولما توفي «كاود» عام ١٥٥٠ ترك ابنيه «فرنسوا دوق جيز» و «كاود دوق أومال». وكان له ابنان آخران «شارل» و «لويس» انخرطا في سلك الكنيسة، فصار الأول «كردنال لورين»



وصار الثانى كردنال جيز. وكانت هذه الأسرة الحصن المكين للكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا والعدو العنيد للهيجونوت، فلا غرابة ان كانوا اكبر عامل فى شن الحروب الدينية التى قامت فى فرنسا على هذه الطائفة فى ذلك العصر

أما حزب البروتستنت فكان زعيمه فى جميع أطوار هذه الحروب اسرة بربون التى ختمت الحرب بتوليها عرش فرنسا سنة ١٥٩٤، وقد بقى الملك فى بيتهم الى عهد الثورة الفرنسية. ورأس هذه الاسرة هو « أنطونيو » ، وكان زوجًا للملكة نافار البروتستنتية المذهب. ولما كان ضعيف الارادة انتقلت الزعامة الى أخيه « لويس » أمير « كُنْديه » ، فبقى قائداً للحركة البروتستنتية طول الطور الأول من الحرب — أسرة بربون

وكان ينضم الى الحزب البروتستنتى أسرة « شاتيُّون » التى هى أقدر من أسرة — أسرة شاتيون

دي كوليني — بر بون وزعامتها فى يدى «جَسبار دى كُولِينى» أمير البحر الفرنسى و« دَنْدِلو » من أمهر القواد فى الجيش الفرنسى بل فى أوربا عامة ، وكلاهما كان متطرفا فى تعصبه للمذهب البروتستنتي . ويضاف الى هاتين الأسرتين فريق من الأشراف متحيز للهيجونوت
منتمورنسى — على رأسه مُنْتِمورِنْسى « قُنْسطَبل فرنسا » (وهى أكبر رتبة فى الجيش الفرنسى) . ومن العجيب أنه كان كاثوليكيًا قحًا ولكن بغضه لآل جيز والملكة « كترين » كان يضطره غالبًا الى التحالف مع « آل بر بون » والهيجونوت

وتنقسم هذه الحروب الى طورين متميزين يفصلهما حادث جلل يسمى مذبحة « سنت بَرْتُلوميو » فتك فيه أنصار الكاثوليك بالهيجونوت سنة ١٥٧٢ . وكانت
طورا الحرب — كترين أثناء الطور الأول قد دعاها خوفها من آل جيز الى اخماد أنفاس الكاثوليك فتمتع الهيجونوت بشيء كثير من الحرية الدينية . بيد ان كترين ما لبثت أن شعرت بأن معاضدتها لآل بر بون فى هذه المدة زاد فى نفوذهم فى البلاد وأصبحوا خطراً يتهدد العرش ، فانحازت الى جانب آل جيز والكاثوليك الذين دبروا مذبحة سنت برتلوميو الفظيعة

ملخص أخبار الحرب — على أن هذه المذبحة لم تفت فى عضد الهيجونوت بل أثارت هممهم، فأصبحت الحرب بين الحزبين حرب فناء أو بقاء، وظلت الحال كذلك حتى ظهر حزب الاعتدال فتدخّل فى الأمر وانقرض بيت « فلوا » سنة ١٥٨٩ . وأصبح « هنرى بر بون » الوارث لعرش فرنسا . وعند ذلك عمل حزب الكاثوليك على ابعاده عن العرش فأخذ يذود عنهُ من سنة ١٥٨٩ الى ١٥٩٤، ولما طال أمد الحرب بينه و بين الكاثوليك رأى أن يخلص فرنسا من كل هذه الويلات والآلام بارضاء أعدائه باعتناق المذهب الكاثوليكى، فوضعت الحرب أوزارها واستولى هو على عرش فرنسا . ثم أخذ يستعمل نفوذه فى الحصول على ما يحفظ للهيجونوت حريتهم الدينية ، فتم له ذلك باصدار مرسوم نَنْت عام ١٥٩٨ . ونفصّل هذه الأخبار بعض الشيء فنقول :

سبق ان قلنا ان فرنسوا الثانى تولى الملك عام ١٥٥٩ ، وكان فى ميعة الشباب ،

فوقع تحت نفوذ آل جيز وضاع سلطان كترين خلال مدة حكمه القصير. فقبض الكردنال لورين على كل السلطة فى البلاد ، وكان أخوه دوق جيز قائد الجيوش الفرنسية . ولا شك ان ذلك لم يكن فى مصلحة الهيجونوت ، اذ كانت المنشورات تترى بايذائهم ، ولكن من حسن طالعهم ان كانت سيادة آل جيز ممقوتة فى البلاد حتى من الكاتوليك أنفسهم ، وكان الأشراف يشنؤونهم لأنهم أجانب ولذلك مالوا مع حزب الاصلاح على الكاثوليك . ومن ذلك يتضح أن حركة الهيجونوت لم تكن دينية فقط بل كانت تشوبها عوامل سياسية ؛ فكان فريق من القائمين بهذه الحركة يبغى اصلاح الدين ، والفريق الآخر يقصد مآرب سياسية ، ولكن الفريقين اتفقا على الطريقة التى يصلون بها الى غرضهم . فدبروا مؤامرة للقبض على الملك لابعاده عن نفوذ أسرة جيز ، فأخفقت المؤامرة ولكنها هزّت أركان آل جيز واضطرتهم الى نهج الاعتدال مع الهيجونوت ، فصدر على اثر ذلك « مرسوم رومورنتان » الذى خوّل للهيجونوت الحرية فى معتقداتهم ولكن حرّم عليهم التعبد علانية

نفوذ آل جيز

تآمر البروتستنت عليهم وعلى الملك

مرسوم رومورنتان

وكانت كترين طول هذه المدة منزوية ، فاضطرت أخيراً الى الانحياز الى جانب آل جيز . وبعد قليل مات فرنسوا الثانى واستولى أخوه شارل التاسع على العرش ، وكان فى الحادية عشرة من عمره فأقيمت عليه وصية ، وعملت على سلب السلطة من يد آل جيز ، فلم يروا بُدّاً من مصادقة أسرة « بربون » أو الانحياز اليها . فاستعملت كترين سياستها فى جعل آل بربون سلاحاً تدفع به شر أسرة جيز ولذلك لم تقم بأى أمر عدائى ضد الهيجونوت ؛ فاتخذت « لوبيتال » مستشاراً لها وكان رجلاً معتدلاً فى آرائه ، وأصدرت بمشورته مرسوماً يمنحهم نصيباً وافراً من الحرية الدينية سنة ١٥٦٢ . فأباحت التعبّد على المذهب الهيجونوتى فى بيوت الأشراف والخلوات

كترين تسالم الهيجونوت

لوبيتال

على ان ما كان بين الحزبين من العداوة المتأصّلة لم يترك مجالاً للوئام التام . وكان كلاهما يتحيّن سنوح الفرصة للقضاء على عدوه ، ولذلك كان يعتقد الهيجونوت أن النصيب الذى نالوه من التسامح مهدد بالخطر والتملص من أيديهم . على حين أن

بقاء العداوة بين الحزبين

الكاثوليك قد ذعرهم ما منحته الملكة من التسامح للهيجونوت ، فالّفوا « حلف الكاثوليك » للمحافظة على دين البلاد . واشتد أزر حزبهم بانضمام « انطونيو نافار » اليهم . وأول عمل عدائى قام بهِ هؤلاء الأحلاف ان فتكوا بالهيجونوت فى مذبحة

مذبحة فاسى

« ڤاسى » التى دبَّرها دوق جيز عام ١٥٦٢ . فكان ذلك سبباً لاشعال نارِ أولِ حرب دينية فى فرنسا . وكان لويس أمير كُنديه قائداً لجيوش الهيجونوت فى تلك

الحرب الاولى — موت جيز — صلح امبواز

الحرب فهُزم وأُخذ أسيراً فى موقعة « درُو » . على ان الكاثوليك كانت خسارتهم كبيرة أيضاً . اذ قتل منهم دوق جيز سنة ١٥٦٣ ، وبموته تمكنت كترين من ابرام صلح « أمْبُوَاز » ، وبه عاد للهيجونوت كل ما نالوه من التسامح الدينى سابقاً

استمرت البلاد بعد هذه الحرب فى سلام من عام ١٥٦٣ الى ١٥٦٧ بفضل سياسة كترين ، لأنهُ لما كان غرضها الأكبر أن تبقى صاحبة النفوذ فى البلاد رأت أن لايتاح لها ذلك الأبابعاد نفوذ آل جيز عنها ، ورأت أن تصل الى ذلك الغرض بمنح الهيجونوت حريتهم الدينية . ولكن مجرى الأحوال لم يمكنها من ذلك بعدُ ، وفى مقابلتها الشهيرة لدوق « الفا » الاسبانى فى بلدة « بايون » حرّضها لأغراض سياسية على عزل مستشارها «لوبيتال» وأن تبرهن على تمسكها بالكاثوليكية بقطع دابر الهيجونوت . ولكن ما لبث خبر هذه المقابلة أن نُمى فى فرنسا ، فذُعر البروتستنت . فقام كوليني وكنديه وغيرهما من زعماء الهيجونوت ودبروا مؤامرة للقبض على الملك والملكة لدرء شر هذا الخطر . فسرى الى الحكومة خبر المؤامرة وكان ذلك سبباً

الحرب الثانية

لاشعال نار الحرب الداخلية الثانية سنة ١٥٦٧ . وأهم الوقائع فيها ملحمة «سنت دِنِس» التى قتل فيها « منتمورنسى » قنسطبل فرنسا . وهلاكه سهّل على الملكة ومستشارها

مرسوم لنجومو

لوبيتال ابرام الصلح ، فأصدرا مرسوم « لُنْجومو » وبهِ أُيّدت معاهدة امبواز

ولم يدم أمد السلم هذه المرة طويلاً لاعتزال لوبيتال الأمور ، وفقدت بذلك كترين أحسن ناصح لها . وعلى أثر اعتزاله شبت نار الحرب الثالثة عام ١٥٦٨

الحرب الثالثة

واستمرت سنتين وقعت أثناءهما موقعتان عظيمتان هما : موقعة « جَرناك » ، وفيها قتل « لويس أمير كنديه » زعيم الهيجونوت ، وموقعة « مُنْكُنْتور » وفيها اندحر

كولينى . وانتهت الحرب بابرام معاهدة « سنت جرمان » وبهـا نال الهيجونوت حقوقاً كبيرة بالرغم من موت قائدهم العظيم . فسُمح لهم باقامة صلواتهم فى بلدتين من كل قطيعة من قطائع فرنسا وخُول لهم حق الاستخدام فى جميع مناصب الحكومة . وأخذوا مدن « لاروشِل » و « مُنْتوبان » ، و « كنياك » و « لاشَرِتيه » ضماناً لهم مدة عامين

معاهدة سنت جرمان

وبعد هذه المعاهدة تحولت سياسة كترين الى شكل جديد كان ينذر بسوء مصير الهيجونوت وزعمائهم ، اذ كانت الى هذا الحين لاتزال فى معظم افعالهـا فى جانب حزب الاصلاح خوفاً من آل جيز . ولكنها شعرت ان مركزها أصبح مزعزعاً بازدياد نفوذ الهيجونوت وخاصة بما نالته هذه الطائفة من القوة بتولى « كولينى » قيادتها على أثر موت أمير « كُنديه » ، ففكرت فى القضاء على زعماء الهيجونوت وخاصة كولينى فتآمرت هى ودوق جيز على اغتياله ، ولكن الرامى لم يُصب المرمى تماماً ، اذ أفلت كولينى من يده بعد أن جُرح جرحاً بليغاً . وقد قفا هذا الحادث مذبحة سنت برتلوميو عام ١٥٧٢ ، وفيها حُرّض الغوغاء من أهالى باريس على الفتك بالهيجونوت ، فاعملوا فيهم السيف حتى أفنوا منهم مالا يقل عن ٢٠٠٠٠ نسمة

تغير سياسة كترين

كولينى يتولى القيادة

مذبحة سنت برتلوميو

وتعتبر هذه الحادثة فاتحة طور جديد فى تاريخ حركة الهيجونوت فى فرنسا ، اذ كان من نتائجها اضعاف هذا الحزب بقتل زعيمهم كولينى والقضاء على كل رجاله المدربين على الحروب ، حتى ان البقية الباقية منهم لما قاموا يدافعون عن أنفسهم فيما بعـد لم يقووا على منازلة أعدائهم فى الميادين وانقلبت الحرب الى حصار لمدن الهيجونوت مثل « لاروشِل » وغيرها . وقد أظهر الهيجونوت فى الدفاع عن هذه البلاد بسالة وشجاعة خلدت لهم أثراً مجيداً

تأثير المذبحة

وكان يظهر من قرائن الأحوال أن سيقضى على الهيجونوت لامحالة ؛ ولكن المقادير ساعدتهم بقيام حزب آخر مُوالٍ لهم يدعى « حزب الاعتدال » ، فساعدهم وشد أزرهم على مقاومة الكاثوليك . ومن العجيب أن أعضاء هذا الحزب كانوا من الكاثوليك ولكنهم كانوا معتدلين فى تعصبهم لمذهبهم ؛ وقد دفعهم الى الانضمام الى الهيجونوت

حزب الاعتدال

معاضدة حزب الاعتدال للهيجونوت

ما شاهدوه من فظائع الحروب الداخلية التي مزقت البلاد. فقام الحزب ليخلص العباد من هذه الويلات وينشر السلام على أساس التسامح الديني. وكان من خصائص رجال هذا الحزب تفضيل السياسة على الدين، اذ شاهدوا ما جرّته الحروب الدينية على فرنسا من الخراب والدمار، فرغبوا في تخليص البلاد منها ولو أدى ذلك الى اعطاء الهيجونوت كل حقوقهم الدينية. ولذلك كانوا ممقوتين من متعصبي الكاثوليك؛ ولما لم يقدروا على مقاومتهم وحدهم اضطروا الى الانضمام الى جانب الهيجونوت، فشدوا ازرهم. وقد ساعدت الهيجونوت الأحوال في ذلك الوقت أيضًا لما كانت تشعر به كترين من الحقد والغيرة نحو آل جيز. فلما مات ابنها شارل التاسع عام ١٥٧٤ وتولى الملك ابنها هنري الثالث دفعها بغضها لآل جيز على عقد معاهدة «مُسْيِيه» مع الهيجونوت عام ١٥٧٦، فمنحتهم بها امتيازات لم ينالوها من قبل: فسُمح لهم باقامة صلواتهم أينما أرادوا على شرط أن يكون ذلك على مسافة فرسخين من باريس، وأن لا يكون في أرض أي مالك لا يرضى بذلك. وقد احتلوا ثماني مدن ضمانًا لتنفيذ هذه المعاهدة. هذا الى ما ناله زعماء الهيجونوت من الانعامات والمناصب السامية: فحظي دوق «انجو» بدوقية «برّي» و«تورين» و«انجو». ونصّب هنري دوق «نافار» حاكمًا على «جيين»، وعُيّن هنري أميركنديه على «بيكَرْدِيَة»

معاهدة مسييه

نشوب الحرب من جديد

موت كترين دي مديشي

وكان من نتائج هذا الصلح ان غلى مِرجل الكاثوليك لدرجة عظيمة، فأخذوا يناصبون العرش العداء. فأدّى ذلك الى انفجار نار حرب بين أخويين قُتل في الثانية منهما هنري جيز زعيم الكاثوليك باذن من الملك، وكان يرغب في التخلص من نفوذه. وفي السنة التالية لهذا الحادث (عام ١٥٨٩) هلكت كترين دي مديشي

موت هنري الثالث

وفي هذا العام ذاته حدث حادث عظيم في تاريخ الهيجونوت وهو موت «هنري الثالث» بلا وارث له، فانقضت بموته أسرة فلوا وأصبح مصير المُلك الى هنري صاحب نافار البروتستنتي رأس آل بربون (لقرابتها لاسرة فلوا). فعوّل متطرفو الكاثوليك على مناوأته ومنعه بكل قواهم من ولاية العرش تمسكاً منهم بأن لا يحكم فرنسا من يدين بالبروتستنتية. ولكن المعتدلين من الكاثوليك رأوا أنه أحق بالمُلك

هنرى
صاحب نافار

من غيره ، وعملوا على الانضمام الى الهيجونوت فى مؤازرته، حرصاً على المصلحة العامة وخوفاً من أن يضر التعصب الدينى بها

وكان هنرى بعيد النظر ، فعوّل على ارضاء الكاتوليك ما استطاع ، حتى اذا ما تربع على العرش سعى فى استرضاء الهيجونوت ومنحهم كل حقوقهم . فعرض على الكاتوليك أن يُجعل دينهم الدين الرسمى فى البلاد ، وان لا يُمنح الهيجونوت شيئاً من الحقوق فوق ما نالوه ، فى مقابل اعتراف الكاتوليك بهِ ملِكاً على فرنسا . فأبى الكاتوليك ذلك ، ونشبت الحرب فى البلاد لتاسع مرة (١٥٨٩ — ١٥٩٤)

هنرى
والكاتوليك

فأبلى هنرى فى هذه الحرب بلاءً حسناً ، وهزم الكاتوليك فى موقعتى « أرك » و « إفرى » الفاصلتين سنة ١٥٨٩ . وحاصر باريس وضيّق الخناق على أهلها حتى صاروا فى ضنك شديد . الا أن ذلك لم يفتّ كثيراً فى عضد الكاتوليك لما لديهم من عظيم القوة . ورأى هنرى أنهُ لا يستطيع الاستيلاء على العرش من طريق التغلب عليهم الا بعد حروب مبيرة . وكانت فرنسا قد أنهكتها هذه الحروب الداخلية ؛ فوقفت مصانعها ، وكسدت تجارتها ، وطمع فيها أعداؤها . فلم يجد هنرى بدًّا من اعتناق المذهب الكاتوليكى ليدرك بالسياسة ما لم يدرك بالسيف ، فأعلن اعتناقه لهذا المذهب سنة ١٥٩٣ . فالتف الكاتوليك حوله من كل حدب وصوب ، ثم دخل باريس دخول المظفر عام ١٥٩٤ . وبذلك انتهت تلك الحروب الداخلية التى مزّقت احشاء الأمة الفرنسية مدة خمسة وثلاثين عاماً

حربه مع
الكاتوليك

اعتناقه
الكاتوليكية



هنرى الرابع

وبذل هنرى وسعه فى ارضاء الطائفتين بقدر ما تسمح بهِ الأحوال وتقضى به الحكمة . فأرضى الكاتوليك بجعل دينهم الدين الرسمى للبلاد ، وأرضى الهيجونوت بمنحهم حقوقاً واسعة لم ينالوها من قبل ، ضمَّنها « مرسوم نَنْت » الشهير عام ١٥٩٨ ويُلخص هذا المرسوم فيما يلى :

مرسوم نَنت

١ – الترخيص للهيجونوت بالحرية فى معتقداتهم وعباداتهم غير العلنية فى جل انحاء فرنسا

٢ – اباحة عباداتهم العلنية فى مائتى مدينة ونحو ٣٠٠٠ قلعة

٣ – منحهم اعانة مالية تساعدهم على فتح المدارس والكليات البروتستنتية وأبيح لهم نشر كتبهم الدينية

٤ – تخويلهم جميع الحقوق المدنيــة مع عدم حرمانهم من مناصب الحــكومة على اختلافها

٥ – انشاء فرع خاص فى كل محكمة من محاكم الأقاليم يكون أحد قضاته من البروتستنت للنظر فى قضايا الهيجونوت

٦ – استيلاء الهيجونوت على مائتى مدينة مدة ثمانى سنوات ضماناً لهذه الحقوق ويقوم الملك بدفع بعض ما ينفق على حاميات تلك المدن

٧ – منحهم حق عقد المجامع الدينية والمجالس السياسية باذن من الملك

نقائص المرسوم

ويلاحظ مما تقدم ان ما ناله الهيجونوت بهذا المرسوم من الحقوق السياسية كان اكثر من الحقوق الدينية . ففى حين أن مذهبهم الدينى (بالرغم مما ناله من التسامح فى جزئياته) بقى مقيّداً فى مجموعه ، خُوّلت لهم حقوق سياسية كبيرة لاداعى لها : مما جعلهم أشبه بحكومة صغيرة فى جوف أخرى كبيرة ، حتى كبرت مطامعهم فيما بعد فجرّوا بذلك الويلات على فرنسا وعلى أنفسهم

الفصل الثالث

اسبانيـــا

١ — ✱ العرب في الأندلس ✱

مبدأ تاريخ اسبانيا الحديث

يبتدئ تاريخ اسبانيا الحديث بسقوط دولة العرب في الأندلس بعد أن مكثوا فيها نحو ثمانية قرون ملئوا فيها البلاد علماً وحضارة وبهجة ومجداً

تاريخ العرب في الاندلس غريب في بابه

على ان التاريخ لم يكد يدوّن شيئاً أغرب من أخبار الدولة العربية الأندلسية واضمحلال مجدها بعد ان بلغ مبلغاً لم تر أوربا مثله الى حين انقضاضها وجلاء أهلها. وان هذا الكتاب الصغير ليضيق بذكر نقطة من بحر من تاريخ تلك الدولة العربية الأندلسية الذي لا يعطيه حقه ولا يوفيه قسطه الآكبار المجلدات وعظيم المطولات

الفتح الاسلامي للاندلس

غزا العرب اسبانيا عام ٧١١ م (٩٢ هـ) بقيادة طارق بن زياد ؛ وفي أقل من عشر سنين أتموا فتحها ما عدا بعض اصقاع جبلية على الساحل الشمالي الغربي. ولم يكتفوا بذلك بل عبروا جبال البرانس وأخذوا يجدّون في فتح جنوبي فرنسا الى أن صدهم « شارل مَرْتِل » في موقعة « بُوَاتِييه » (تور)* على نهر اللّوار سنة ٧٣٢ م. فاضطر المسلمون الى التراجع الى الأندلس بعد قتل قائدهم عبد الرحمن الغافقي والى الأندلس من قبل بني أمية ، ولم يفكروا بعدها في فتح فرنسا ، ثم شرعوا في تنظيم البلاد وتهدئة روع الاهلين : فلم يرغموهم على اعتناق الاسلام ، ورضوا منهم بدفع الجزية (وكانت طبعاً أقل مما كان يجبيه منهم أمراء القوط كعادة العرب في البلاد التي يفتحونهــا) ومنحوهم من الحرية وحسن المعاملة ما لم يروه من قبل

عدل العرب في الاندلس

الفتن بين العرب

فكان يُظن ان دولة هذا أساسها تبقى ثابتة الدعائم أبد الآبدين . ولكن ياحسرتا عليها ، لم يلبث الفاتحون أن دبت بينهم روح العصبية الممقوتة بين بعض قبائل العرب

---

* مكان الموقعة يسمى في كتب العرب « بلاط الشهداء »

وبعض من جهة ، وبينهم وبين البربر شركائهم فى الفتح من جهة أخرى، لاحتقار العرب لهم وإنزالهم فى الأراضى الجدبة . ثم ازدادت الفوضى باضطراب دول الاسلام بسبب تنازع الأمويين والعباسيين على الخلافة الاسلامية، حتى كاد يُظن ان خروج المسلمين من الأندلس صار قاب قوسين أو أدنى

الدولة الاموية الاندلسية

عند ذلك أُنقذ المسلمون فى الاندلس بقدوم « عبد الرحمن بن معاوية » ابن الخليفة « هشام الأموى » ، فان السفاح لما أسس الدولة العباسية سنة ٧٥٠ م تتبع بنى أمية قتلا وحبساً حتى هاموا على وجوههم فى البلاد ، فهرب منهم عبد الرحمن وسار الى الاندلس حيث وجد كثيراً من شيعة آبائه ، فتغلب على تلك البلاد بمفرده ، وأسس بها دولة أموية غربية مستقلة مقرها « قُرْطُبَة » سنة ٧٥٥ م* فكان ذلك مبدأ طور جديد فى تاريخ الاندلس

عصر عبد الرحمن الناصر

لم تكد هذه الدولة الجديدة تبسط سلطانها على أكثر أديم الجزيرة حتى درجت فى مدارج الرقى العظيم ، وصارت تضارع الدولة العباسية فى العلم والحضارة . وبلغ هذا المجد اقصاه فى عهد « عبد الرحمن الناصر » (عبد الرحمن الثالث) ، فقد كانت اسبانيا فى عصره (٩١٢ — ٩٦١) جنة يانعة ، وكثرت فيها المدن العظيمة والقصور الشامخة والجامعات الكبيرة الراقية التى كان يؤمها طلاب العلم من جميع أنحاء الممالك الأوربية

اضمحلال الدولة

ولكن أبت المقادير الاّ أن يضمحل هذا المجد ويقتلع الاسلام من الاندلس كأن لم يكن . فان ملوكه وأمراءه لم يلبثوا أن دب فيهم روح الترف والرفاهية ، فألهاهم ذلك وما كان يقع بينهم من الفتن والمشاحنات عما كان يكنه الدهر لهم من حقد سلائل القوط عليهم وعملهم على طردهم الى الشواطىء الافريقية التى أتوا منها بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير

القوط بعد الفتح الاسلامى

قلنا ان العرب استولوا على جميع جزيرة الاندلس ما عدا بعض أصقاع جبلية فى الشمال . فأقام فى هذه الاصقاع بعض أمراء القوط وسلائلهم ممن لم يرضوا بالخضوع للمسلمين ، فبقوا بتلك الأنحاء ، مؤثرين الخشونة فى العيش على خدر أعصابهم بحكم الأجنبى وفتور همتهم ، وعقدوا النية على أن يطردوا المسلمين من بلادهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . فقسموا أنفسهم جماعات ، ثم قوى شأنهم وكونوا منهم امارات أهمها : ليون والبرتقال وقشتالة ونفار وأرجون . ثم شرعوا يتضافرون ويتناصرون بانضمام بعضهم الى بعض ليفوزوا بغايتهم المنشودة

غاراتهم على المسلمين

مقاومة المسلمين لهم

وكان أمراء المسلمين فى الاندلس قبل عصر عبد الرحمن الثالث قد دب فيهم الترف وانغمسوا فى اللذات ، وتسربت الفوضى الى البلاد ، وأخذ الاسبان يغيرون عليها من كل جانب . فانتشلها عبد الرحمن من هذه الوهدة ، وبقى لاصلاحه أثر بعد مماته مدة من الزمن . وذلك أن ابنه « الحكم الثانى المستنصر » (٩٦١ — ٩٧٦ م) خلفه بعد وفاته ، وكان حازماً محباً للعلم والعلماء ، فسار سيرة أبيه وحافظ على كيان الدولة، وساعده على ذلك انقسام أمراء النصارى على

* لذلك كان يلقبه المنصور العباسى بصقر قريش

أنفسهم فى ذلك الحين . وفى شيخوخته ولد له ابنه « هشام الثانى المؤيد » فآلت اليه الخلافة وهو فى نعومة أظفاره . فنظرت أمه فى شؤون الملك واتخذت « المنصور بن أبى عامر محمد بن عبد الله » عوناً لها وكفيلا ، وقلدته منصب « حاجب » (وزير الوزراء)

المنصور بن ابى عامر

وكان المنصور بن أبى عامر من أقدر رجال عصره ، نقبض على مقاليد الامور ، وحجب المؤيد عن الناس وتلقب « بالمنصور » اسوة بالملوك والخلفاء ، وسهر على حفظ مجد الدولة ، وبخاصة صد غارات المسيحيين وكبح جماحهم . وقد بلغ عدد غزواته لبلادهم خمسين غزوة . ومات وليس له شاغل الا خوفه من غاراتهم

فخلفه فى منصب « حاجب » ابنه « أبو مروان عبد الملك المظفر »، فجرى على سنن أبيه وحكم البلاد أيضاً باسم هشام المؤيد الذى كان محتجباً فى قصر « الزهراء » من ضواحى قرطبة فلم يعش المظفر طويلا ، وخلفه أخوه عبد الرحمن الملقب بالناصر وكان شديد الطيش فاختلط عقله وتسمى بولى العهد ، فأثار بذلك غضب أمراء بنى أمية وأهل قرطبة، فقام رؤساء الجيش وقتلوه

نشوب الفتن

وعندئذ عمت الفوضى والفتن جميع البلاد ، فقتل هشام فى خلالها ، واشتد ساعد البربر فأقاموا دولة علوية من سلائل الادارسة ملوك المغرب الاقصى ، تلقب بالخلافة منهم ثلاثة وسط الهرج والمرج ومنازعة أمراء بنى أمية لهم ، حتى عادت الخلافة الى بنى أمية مرة أخرى . ولكنها لم تدم فى أيديهم بضع سنوات حتى تقسم البلاد عمال النواحى والولاة والقضاة وكونوا « ممالك الطوائف » ، وبذلك انقرض ملك بنى أمية من الدنيا سنة ٤٢١ ﻫ (١٠٣١ م) وحل محلهم هذه الامارات التى كان كل منها يعمل على مساعدة المسيحيين لينصروها على غيرها . ثم استعانوا بملوك « المرابطين » من البربر ملوك المغرب ، فأنقذوهم من الاسبان ولكنهم أزالوا تلك الامارات واستولوا على البلاد ، وخلفهم البربر « الموحدون » . ثم قامت دولة بنى الاحمر العربية التى سقطت الاندلس على يدها كما سيأتى

خلافة علوية قصيرة

ممالك الطوائف

المرابطون والموحدون و بنو الاحمر

تفصيل الحوادث الاخيرة

وقد استغرق عمل القوط (الاسبان) على اجلاء المسلمين من الاندلس نحو أربعة قرون : بدءوا بارجاعها الى الجنوب شيئاً فشيئاً ، وانتهوا باستيلائهم على « غرناطة » آخر معقل فى يد المسلمين سنة ١٤٩٢ م . وأول عمل هال المسلمين من فتوحهم وأيقظهم من سباتهم استيلاؤهم على « طليطلة »* بقيادة « الفنس (الفنش) السادس » ملك قشتالة سنة ١٠٨٤ م . وكانت الدولة الاموية فى الاندلس قد انقرضت كما أسلفنا سنة ١٠٣١ ، وقسمت الدولة بين أمراء الطوائف المتفرق الكلمة . فلما سقطت طليطلة فى يد الفرنج ، ولم يأنس أمراء الاندلس فى نفسهم القوة على مناوأتهم ، استنجدوا « يوسف بن تاشفين » سلطان دولة المرابطين التى كانت قد كونت حديثاً فى شمالى افريقية . فجاء يوسف الى الاندلس فى جيش جرار وهزم الفنس السادس هزيمة منكرة فى واقعة « الزلاقة » الشهيرة بالقرب من بطليموس سنة ١٠٨٦ . ثم طمع فى ملك مستصرخيه ، وجعل الاندلس ولاية جديدة مضافة الى ممالكه بالمغرب

سقوط طليطلة

يوسف بن تاشفين

واقعة الزلاقة

على أن ذلك لم يجد نفعاً كبيراً ، فان الدولة التى كونها ، فضلا عن بداوتها وقلة حضارتها ،

---

* كانت عاصمة القوط وقت الفتح الاسلامى

لم تلبث أن أظهرت فى الاندلس من الضعف وعلامات الانحلال أكثر مما أظهرته ملوك الطوائف وعاد الاسبان الى فتوحهم*

انحلال دولة المرابطين

وقد كان النصف الاول من القرن الثالث عشر من أشد العصور نحساً على المسلمين فى اسبانيا اذ تجمع عليهم الاسبان بقيادة ملك قشتالة وهزموهم هزيمة شنيعة عند طولوزة سنة ١٢١٢ كان فيها القضاء المبرم على شوكتهم ، وانكمشت بعدها مملكتهم الى نصف حجمها الاول ، و بقى الاسبان ينقصونها من أطرافها بلداً بلداً حتى سقطت « قرطبة » نفسها عام ١٢٣٦ ، وعندئذ تراجع المسلمون الى الطرف الشرقى الجنوبى من جزيرة الاندلس ، وكونوا فيه امارة « غرناطة »

سقوط قرطبة

امارة غرناطة

وهنالك استرجعت هـذه العصابة من المسلمين بعض مجد العرب ، فان امارتهم على صغرها تمكنت بشدة بأسها وتماسك أطرافها من الوقوف فى وجه الاسبان أكثر من قرنين ونصف . ولم يأل أمراؤها جهداً فى العمل على كل ما فيه رقيها وعمرانها . فكانت صناعاتها يضرب بها المثل في الدقة والجمال ، ولا سيما صناعة السيوف والحرير والجلود وانسجة الصوف والقطن والكتان .

مجدها

وكانت تجارتها رائجة السوق بعيدة المدى ، فكانت تنقل مصنوعاتها الى القسطنطينية ومصر والهند ، وزراعتها مثمرة يانعة ، حتى صارت أوديتها جنات خضراء تكسوها الحقول المنتجة وتزينها الكروم والاشجار المحملة بكل أنواع الثمار والفواكه

الحمراء

ومن أعظم المبانى التى شيدت فيها بناء « الحمراء » الذى لا يزال على طول عهده أجمل ما يرى فى البلاد الاسبانية . وكان عبارة عن قلعة تضم بين جدرانها القصر السلطانى ، ظاهرها قلعة حمراء ساذجة ، وداخلها أجمل ما شيده الملوك والسلاطين وأبدع ما وصل اليه الانسان من التأنق والابداع : قاعات أنيقة ، وردهات فسيحة ، وقباب شامخة يتلألأ باطنها بالالوان الزاهية والنقوش البديعة وتتدلى من سقفها المزخرفة الثريات والقناديل واهداب الذهب كأنها مدلاة فى مغارات طبيعية ، وأواوين لا يدخل جمالها تحت وصف ، تكتنفها عمد شاهقة لا يضارعها فى دقتها ورشاقتها الا بواسق النخيل وأغصان البان الحافة بها ، الى جدران كسيت بستور من الزخرف والنقوش البارزة والغائرة والحواشى المهدبة التى تصغر دونها حلل الديباج المنقبة المزركشة بالقصب والمطرزة بأنواع الوشى والحليـة ، تتخللها حدائق غناء من أنواع الفاكهة والرياحين تطيف ببرك من الرخام الأبيض وأحواض من الفضة الخالصة نصبت عليها تماثيل السباع والطيور تقذف المياه من أفواهها كأنما هى حيات من البلور أو سيوف مسلولة من الفضة

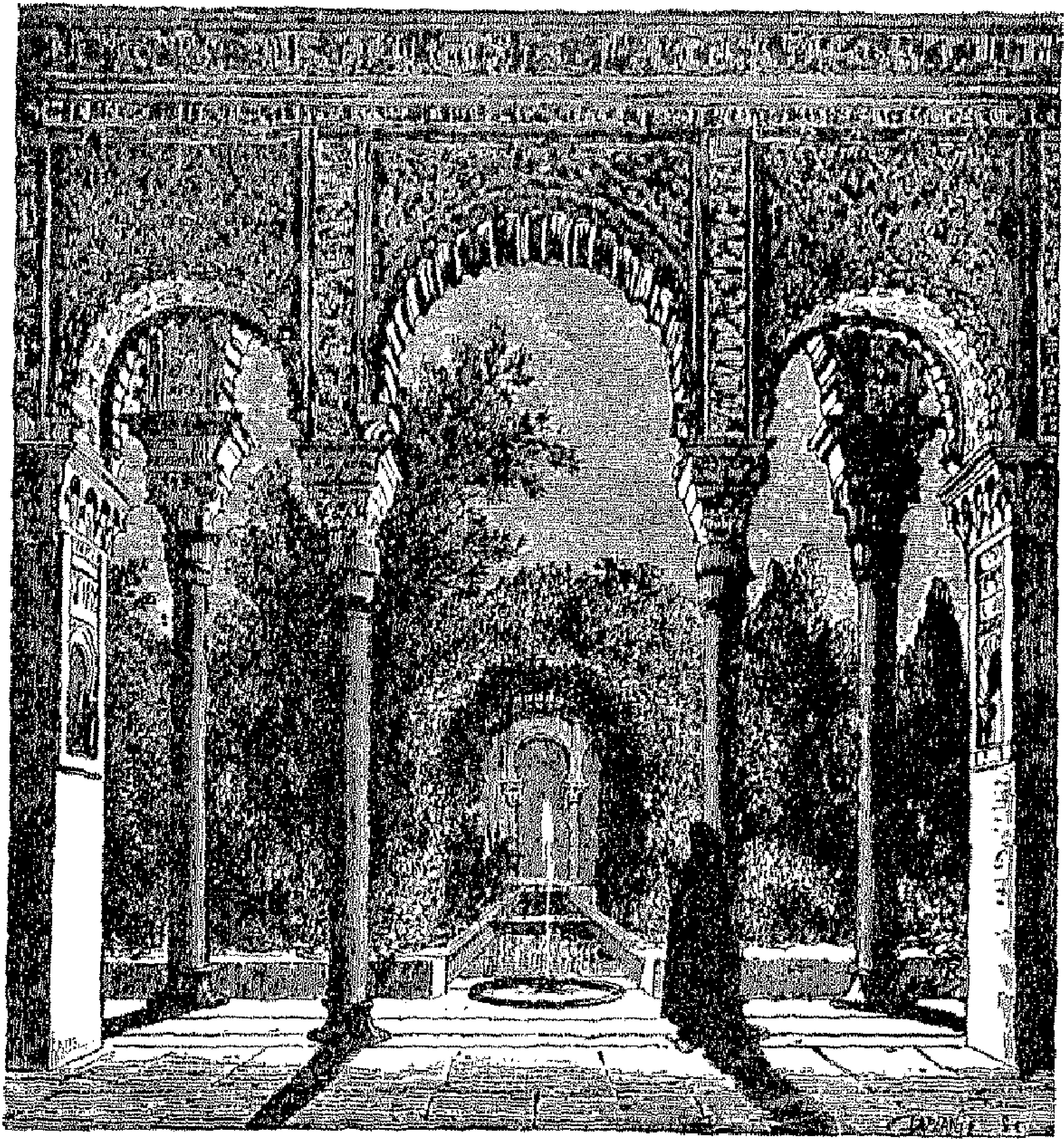
جمال القصر

ضعف سلاطين بنى الاحمر

بين مقاصير هذا القصر ، وفى نضرة هذا النعيم ، كانت تعيش سلاطين بنى الاحمر : ينعمون ويلهون ، كأنما نقلوا فى منامهم الى أرض خالية هم عنها راحلون . فَسُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

---

* ظهر أثناء هذه المكافحات بين الاسبان رجال أشداء فى الحرب والفروسية منهم « السيد » الذى دوخ الاندلسيين بحروبه ومناوشاته، وأعظم ما أثر عنه استيلاؤه على مدينة بلنسية وانتزاعها من العرب بعد حصار طويل ، وبقى حاكما عليها الى أن مات سنة ١٠٩٩ م



ردهة فى الحمراء .

٢ — ﴿ عصر فِرْدِنَنْد وإيزابلاّ ﴾

توحيد الولايات الاسبانية

وبينما امراء الاسلام بالأندلس على هذه الحال كان ملوك الفرنج لا يفترون عن توحيد كلمتهم بتناصرهم وتصاهرهم، ويزدادون قوة وبأساً يوماً بعد يوم بتضافرهم وعقدهم الخناصر على طرد المسلمين من بلادهم . حتى حدث فى أواخر القرن الخامس عشر أمر ذو بال وهو أن فِرْدِنَنْد » ابن ملك « أرَجون » تزوج بالأميرة « ايزابلا » بنت ملك « قِشْتالة » ؛ ثم آل اليهما ملك هاتين المملكتين فصارتا مملكة واحدة ، وبذلك أصبحت لهما الكلمة النافذة فى جميع أنحاء اسبانيا المسيحية . ما عدا اقليمى « نافار » و « غرناطة » ، وكلاهما لم يكن بشىء يذكر بجانب أملاكهما الشاسعة

ارجون وقشتالة

ولم يكد الملك يؤول الى فردنند وزوجته حتى عقدا النية على شن حرب عوان

عمل فردنند وايزابلا على اجلاء المسلمين

على غرناطة لإخراج المسلمين من الأندلس . ابتدأت هذه الحرب الشعواء سنة ١٤٨٢ وبقيت نحو عشرة أعوام، كان أعداء المسلمين أثناءها لا يفترون عن دس الدسائس بين أمرائهم ويمنّون بعضهم بالوعود الكاذبة ليقضوا بهم بعضهم على بعض، وما زالوا بهم حتى قضوا عليهم جميعاً

سقوط الحامة

وأول حادث هام فى هذه الحروب ان صاحب «قادس» الاسبانى خرج فى خمسة آلاف وخمسمائة ما بين فارس وراجل وباغت بهم « الحامة » من مدن المسلمين ، وكانت حصينة بين الجبال على بعد ثمانية فراسخ من غرناطة ومفتاح الطريق اليها . فقاومهم أهلُها وحاميتُها بكل ما لديهم من وسائل الدفاع ، ولكن ذلك لم يجد نفعاً بجانب قوة الغزاة ، فسقطت المدينة فى أيديهم وغنموا منها شيئاً كثيراً . وحاول المسلمون مرتين استرجاعها فى ذلك العام فلم يفلحوا

حصار غرناطة

وأخذ العدو يضيق الدائرة على غرناطة نفسها حتى عسكر « فردنند » امامها فى نحو ٥٠،٠٠٠ مقاتل ، أوائل عام ١٤٩١ ، وكانت المدينة غاصة بألوف المهاجرين اليها من المدن الأخرى التى سقطت فى ايدى الاسبان . وحرق العدو المزارع ، وأفسد الأرض ، وخرب القرى ، وقرَّب من المدينة المدافع وآلات الحصار ، وأمر فشُيدت امام غرناطة بلدة « سَنْتَافى » فهال ذلك المسلمين ، وألقى فى قلوبهم من الرعب اكثر ما ألقته المدافع وآلات الحرب . وصار العدو يضيق على غرناطة كل يوم، ودام القتال سبعة أشهر واشتد الحصار بالمسلمين، غير أن النصارى كانوا على بعد من ديارهم « والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شلير ، الى أن تمكن فصل الشتاء وكلب البرد ونزل الثلج ، فانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقل الطعام ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء ، واستولى العدو على اكثر الأماكن خارج البلد ، ومنع المسلمين من الحرث والسبب ، وضاق الحال ، وبان الاختلال، وعظم الخطب .... وطمع العدو فى الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب . فاجتمع ناس مع من يشار اليهم من أهل العلم وقالوا : «انظروا

فى انفسكم ، وتكلموا مع سلطانكم». فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة ، وكلمهم فى هذا المعنى وقال لهم : ان العدو يزداد مدده كل يوم ، ونحن لا مدد لنا ، وكان ظننا أنه يقلع عنا فى فصل الشتاء ، فخاب الظن وبَنى وأسس وأقام ، وقرب منا فانظروا لأنفسكم وأولادكم* »

سقوط غرناطة

ثم شرع سلطان غرناطة « ابو عبدالله » يفاوض الاسبان على أن يخلى لهم قلعة الحمراء أى غرناطة بما فيها، فى نظير شروط ومطالب يوافق صاحب قشتالة على الالتزام والوفاء بها . ثم عقد الشرط وقرئت على أهل غرناطة ، ونزل السلطان أبو عبدالله من الحمراء شاكيًا باكيًا وأمهُ تقول له : «ابكِ مثل النساء ملكا مضاعًا لم تحافظ عليه مثلَ الرجال » ، وهاجر الى المغرب الأقصى نزيلاً على سلاطينه حتى وافته منيته

شروط التسليم

وكانت شروط التسليم سبعة وستين : منها تأمين المسلمين فى النفس والأهل والمال ، وإبقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، واقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم على أحد منهم الاّ بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لا يُقهر مَن أسلم الى الرجوع للنصارى ، ويسير المسلم فى بلاد النصارى آمنًا فى نفسه وماله من غير أن يجعل علامةً كما يجعل اليهود، وغير ذلك من الشروط الرائقة المنظر. ولكن ما لبث الاسبان ان نكثوا العهد. ونقضوا الشروط عروة عروة، الى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر فيما بعد؛ وامتنعت قرى وأماكن عن التنصر فاستأصلهم الاسبان قتلاً وسبيًا واحراقًا وطرداً الى أن طُرد جميع المسلمين من اسبانيا عام ١٦٠٩؛ وحرقوا من كتبهم ومصاحفهم مالا يحصى ، وخسر العلم والانسانية من عمل الاسبان الجهلة مالا يذكره التاريخ الاّ بالحسرة والأسف والمقت لهذا التعصب الذميم

حمل المسلمين على التنصر

طردهم من اسبانيا جملة

تعصب الاسبان

ولا شك ان روح هذا التعصب الذى حدا بالاسبان الى مناوأة المسلمين بالاندلس ومداومة قتالهم حتى أخرجوهم منها ، وان كان قد تم لهم به استئصال شأفة الاسلام

---

* ملخص من كلام نفح الطيب

من جميع غربي أوربا، قضى على الاسبان بحرمانهم من ألوف النبغاء من المسلمين واليهود مما كان أثره من أعظم الأسباب التي أدت فيما بعد الى اضمحلال الدولة الاسبانية

تأثير حكم فردنند وايزابلا

ويُعتبر حكم فردنند و إيزابلا أكبر أساس شُيدت عليه الدولة الاسبانية الحديثة؛ وقد تمّ في عهدهما كشف خرستوف كلمب للدنيا الجديدة التي فتحت لإسبانيا أبواب ثروة طائلة كانت أكبر عون لها على حفظ مكانتها في أوربا مدة من الزمان

وماتت إيزابلاّ عام ١٥٠٤، وتبعها فردنند سنة ١٥١٦، فآل عرش اسبانيا الى حفيدهما شارل الخامس، فكان له في تاريخها أثر آخر

٣ — ✻ شارل الخامس ✻

(والمنافسة بينهُ وبين فرنسوا الأول)

مجد اسبانيا في القرن السادس عشر

كانت لاسبانيا في معظم القرن السادس عشر المنزلة الأولى بين الدول الأوربية؛ وقد عرفنا كيف صارت أمة واحدة متحدة في عهد فردنند وايزابلاً في نهاية القرن الخامس عشر، وانها ما لبثت بعد كشف أمريكا ان أصبحت المتسلطة على مملكة عظيمة وراء المحيط الاطلنطي؛ وتمكنت من حفظ سيادتها في أوربا بما كان لها من التفوق في فنون السياسة وأساليب الحرب. فكما ان ايطاليا كانت صاحبة القدح المعلى في الفنون الجميلة، وألمانيا في العلوم الدينية في خلال القرن السادس عشر، كذلك كانت اسبانيا مهداً لأعاظم القواد وفحول السياسة؛ فكان ساستها لا يشق لهم غبار في كل أوربا، ورجالتها أعظم قوة حربية في العالم

هذا الى أن أبناءها نالوا نصيباً وافراً من الفنون والآداب الايطالية، فجمعوا بذلك بين النبوغ في الكتابة والمهارة في الفنون الحربية وطول الباع في السياسة

تولية شارل الخامس

وقد ذكرنا أنهُ بعد موت فردنند ملك اسبانيا عام ١٥١٦ استوى على العرش الاسباني حفيدُهُ شارل الملقب بشارل الخامس*، فكان له أكبر شأن في تاريخ أوربا.

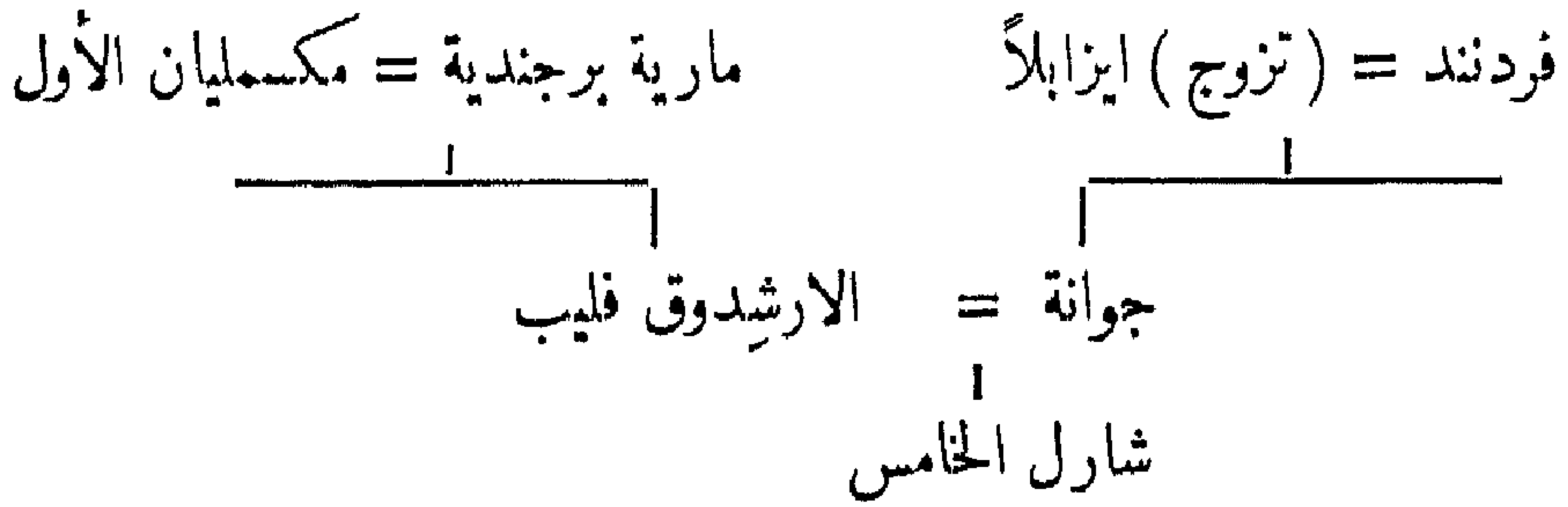
* كان يسمى شارل الأول بالاضافة الى ملوك اسبانيا، وشارل الخامس (أوشرلكان) بالاضافة الى عرش الامبراطورية

وُلد هذا الأمير فى بلدة « غِنْت » من أعمال فلندرة عام ١٥٠٠ ، وهو ابن فليب ارشدوق النمسا و «جُوانَة» ابنة فردنند وإيزابلا ، وكان فليب هذا ابن الامبراطور مكسمليان ومارية بنت شارل الجسور آخر حكام برْجندية التي ورثت أباها فى الأراضى المنخفضة

أملاك شارل

بذلك ورث شارل عن آبائه وأجداده ملْكاً عظيماً : فبموت أبيه ورث الأراضى المنخفضة ، وورث من جده لأمه فردنند مُلْك اسبانيا ومستعمراتها الشاسعة ؛ ثم ورث من جده الاكبر مكسمليان فى عام ١٥١٩ عرش امبراطورية ألمانيا ، وكان له فى ايطاليا جزيرة صقلية ونابلى وجزيرة سردانيا . وهاك بيان موجز للطريقة التى بها آل اليهِ هذا الملك الشاسع :

أملاك شارل الخامس



نواب ألمانيا وعرش الامبراطورية

ولم يستو شارل على عرش الامبراطورية الآ بعد معارضة شديدة من فرنسا ونواب ألمانيا . وكأنّ جده الاكبر مكسمليان كان يشعر بما عساه أن يحصل بعد موتهِ ؛ فبذل جهده فى المدة الأخيرة من حكمه فى جعل حفيده شارل خليفة من بعده . فلم يرُق ذلك فى أعين أمراء ألمانيا ، خوفاً على نفوذهم من قوة شارل وضخامة أملاكه واتساعها ، وكانوا من جهة أخرى لا يميلون الى جعل عرش ألمانيا وراثياً فى آل هبسبرج . فكانت هذه الاعتبارات مشجعة لفرنسوا الأول ملك فرنسا على ترشيح نفسه لهذا المنصب السامى

تنافس شارل وفرنسوا على العرش

وقد كانت بوادر الاحوال تبشر بفوز فرنسوا ، اذ كان لا يزال فى اوج عظمته الحربية بانتصاره المبين فى واقعة «مَرِجنانو» . وكان هو الركن الركين الذى تتطلع

اليه أوربا فى صد غارات الترك ، ذلك الى أنه كان مواليًا لأمراء الألمان المتاخمين لفرنسا ، وكان على وفاق مع البابا . وقد بذل كل غال ونفيس فى اجتلاب مودة كثير من المؤازرين والأنصار . غير أن الحظ أخذ يعانده ، فأنكر الرأى العام فى ألمانيا تنصيب أجنبى عليهم ، وقام « فردريك » نائب سكسونيا (صاحب الجاه والسطوة فى ألمانيا) يعاضد شارل بحجة أنهُ ألمانى الأصل

فوز شارل — ومن هذا الحين أخذ الأمراء الواحد تِلْوَ الآخر يرشح شارل، حتى تم له الأمر واستوى على عرش الامبراطورية فى ٢٨ يونيه سنة ١٥١٩ ، فأصبح بهذا الملك الضخم أعظم ملك حكم فى أوربا منذ عهد شرلمان . ولم يتم له الأمر فى ألمانيا الا بعد أن أجاب أمراءها الى مطالب تضمن لهم راحتهم ونفوذهم، أهمها تنفيذ الاصلاحات

شارل والنواب — الدستورية التى شُرِع فيها أيام جده مكسمليان، وتجديد سلطة المجلس الامبراطورى، وانشاء مجلس يعرف بمجلس الوصاية يجعل للبلاد حظًا فى السلطة التنفيذية . وأيَّد الأمراء هذه المطالب فى مجمع « وِرْمز » عام ١٥٢١ على أثر قدوم شارل الى ألمانيا

اسباب المنافسة بين شارل وفرنسوا — وقد كانت كل الأحوال تنذر بنشوب الحرب بين شارل وفرنسوا، فلم يكن سبب النزاع مقصوراً على ما بينهما من الحسد الذى أذكى ناره وراثة عرش ألمانيا، بل كانت أسباب الشحناء بينهما متوافرة فى كل بقعة تتلاقى فيها أملاكهما . اذ كان شارل قد وضع يده على نابلى بحق وراثتها عن جده فردنند ، وكان فرنسوا يدعيها لنفسه ، ودوقية ميلان التى فتحها فرنسوا واستولى عليها لنفسه كان شارل يعتبرها جزءًا من امبراطوريته لكونها احدى اقطاعاتها من قبل ؛ يضاف الى ذلك أن شارل كان من سلالة آل برجندية، فكان يغار عليها ويود نزعها من يد فرنسا، وكانت مقاطعة نافار التى اغتصبها فردنند من « حنا دَلبريه » آلت الى شارل ، وكانت فرنسا تناضل عن هذه الأسرة وتسعى فى استرجاعها لملكها . وزيادة على ما ذُكر كان سلطان شارل العظيم خطراً يهدد استقلال صغار أمراء أوربا ، وكان فرنسوا قد وضع نفسه الحامى لهم

ولما لم يكن من الحرب بد سعى كل منهما فى تعزيز قوته بالتحالف مع أمراء

أوربا ، وكان كل منهما يسعى بوجه خاص الى محالفة « هنرى الثامن » ملك انجلترة والبابا « ليون » (ليو) العاشر ، فدعا فرنسوا هنرى الى مقابلته بالقرب من كاليه (Field of the Cloth of Gold) ، غير ان شارل كان قد سبقه الى انجلترة ونجح فى ابرام معاهدة مع هنرى ووزيره الشهير « وُلْزِى » ؛ ونجح أيضاً فى ابرام معاهدة مع البابا اتفقا فيها على طرد الفرنسيين من ميلان ، وتنصيب فرنسسكو اسفرزا عليها ، وجعل آل مديشى تحت حمايته ، وأن ينزل للبابا عن « برما » و « بياشنزا »

استعدادهما للحرب

ابتدأت الحرب فى نافار حيث سار اليها جيش فرنسوا ليردّها الى «هنرى دَلْبِريه» عام ١٥٢٠ . ولم يقع فى هذه الحملة ما يستحق الذكر الآ جرح « إجنات لويولا » فى حصار « بَمْبِيلونا » ، فكان لهذه الحادثة اكبر أثر فى تاريخ هذا الرجل بل فى تاريخ الاصلاح الكاثوليكى ، اذ هو المؤسس لمذهب « اليسوعيين » . أما الحرب الضروس فكانت مشتعلة فى ايطاليا ؛ فتغلب فيها جيش الامبراطور على الفرنسيين وطردهم من ميلان . وقد بذل القائد الفرنسى « لوترك » جهده فى الاستيلاء عليها ثانية ، فهزم فى واقعة « بيكُكّا » واضطر الى التقهقر من « لمبردية » ؛ وبذلك تم تنفيذ المعاهدة بين البابا ليون العاشر والامبراطور شارل ، فضم الأول برما وبياشنزا الى ملكه ، وأعيد اسفرزا الى عرش ميلان . وقد وصلت أخبار هذا الانتصار الى البابا وهو على فراش الموت ، حتى لقد قيل إنهُ مات من فرط فرحه

ابتداء الحرب

في نافار

في ايطاليا

ضياع ميلان من فرنسا

اما فرنسوا فانه حزن حزناً شديداً على ضياع ميلان وأصبح فى حالة يأس وقنوط ، وقد ضاعف ذلك ما وصل اليه من أمر المكيدة التى كان يعمل على تنفيذها « القنسطبل شارل بربون » ، اذ كان فرنسوا عزم على ان ينتزع منه دوقية بربون ؛ فالجئ «بربون» الى طرق باب الخيانة تخلصاً من شر فرنسوا ؛ فعرض على هنرى الثامن وشارل الخامس أن يغزوا فرنسا وأن يساعدهما فى ذلك . فنمى الى فرنسوا امر المكيدة وهو على أهبة السير بجيشه الى ايطاليا ، فرجع الى فرنسا ، فولى بربون هارباً الى جيش الامبراطور فى « لمبردية »

فتنة فى فرنسا

قهر الجيش الفرنسى على السيسيا

وسير فرنسوا جيشه الى ايطاليا بقيادة « بُنّفيه » أحد اخدانه ، ولم يكن كفئاً للقيادة فهزمهُ جيش الامبراطور على نهر « السيسيا » عام ١٥٢٤ حيث مات القائد الفرنسى العظيم « الشفَلْييه بيّار » ، واضطر بعد ذلك بنّفيه الى التقهقر الى فرنسا

أما شارل فقد شجّعه هذا الانتصار على غزو فرنسا ، فسير عليها جيشاً بقيادة « بربون » و « بِسكارا » ، فدخل الجيش بروفنس وحاصر مرسيليا ، فقاومه فرنسوا وأجبره على التقهقر ، ثم زحف على ميلان واستولى عليها ؛ وبدلاً من مطاردة جيش عدوه والقضاء عليه حاصر مدينة « بافيا » ، فثبت بها قائدها يدافع عنها حتى وصل

أسر فرنسوا

اليه المدد بقيادة بسكارا وبربون . وكان فرنسوا قد أضعف جيشه بارسال عشرة آلاف منه الى نابلى أيضاً ، فلما تلاقى الجمعان دارت الدائرة عليهِ وأُسر



فرنسوا الأُول

حلفاء شارل ينفضون من حوله

وكان لهذا النصر المبين انقلاب سيء فى نفوس حلفاء الامبراطور ، فأخذوا ينفضون من حوله ، اذ أخذ الرأى العام فى ايطاليا يخشى تسلط اسبانيا على البلاد ؛ فتألّب عليه البابا « كلِمنْت السابع » خوفاً على بلاده ، وأظهر اسفرزا حاكم ميلان ميله الى الخلاص من نير سلطان شارل . أما هنرى الثامن فانهُ بعد أن خابت مساعيه عند شارل فى غزو فرنسا أخذ أيضاً يخشى بأس نفوذ شارل وكثرة انتصاراته فى أوربا . وقد أظهرت « لويزة » أم فرنسوا (وكانت القائمة بالأمر فى فرنسا لاعتقال ابنها عند شارل) ميلاً شديداً للاستفادة من هذا الانقلاب ؛ فأبرمت مهادنة مع انجلترة ، وتفاوضت مع البابا ، وطلبت من الدولة العثمانية المساعدة

معاهدة مدريد

أما شارل فانهُ لم يعبأ بذلك ، وسعى فى ارغام أسيره فرنسوا على اجابة مطالب مجحفة ، غير عالم أن الشروط التى تضر بمصلحة الأمة الفرنسية لا يمكن انفاذها ، وانها

ستكون سبباً في اذكاء نار حرب أخرى . على أن فرنسوا قبل شروط «معاهدة مدريد» مضطراً (يناير سنة ١٥٢٦)، وأهم شروطها هي : أن ينزل فرنسوا عن دوقية برجندية ، وعن كل حقوقه في نابلي وميلان وفلندرة وأرتوا ، وأن لا يساعد «هنري دلبريه» ، وأن يضع اثنين من أولاده رهينة عند الامبراطور ، وأن يتزوج فرنسوا بأخت شارل

وكان فرنسوا قد أعلن للملأ قبل الموافقة على هذه المعاهدة أنه مدفوع الى ذلك بالقهر ، ولما كان من المستحيل عليه النزول عن برجندية أخذ يستعد بعد فكاكه للحرب من جديد . وقد أفاده تألب الرأي العام على الامبراطور في ايطاليا، اذ انعقد عليه حلف كبير في « كنياك » مؤلف من البندقية وميلان والبابا ، كان الغرض منهُ ارغام شارل على رد ابني فرنسوا اليهِ ومنح استقلال ميلان ، وأعلن هنري ملك انجلترة حمايته لهذا الحلف . فأخذ شارل يعد لهذه الحرب عدته ؛ ثم ظهر جيشه بقيادة بربون على جيش الاحلاف ، واضطر اسفرزا الى التسليم . وعند ذلك وصل الى بربون مدد عظيم بقيادة « فرندزبرج » ، فواصل السير حتى دخل رومية . وقُتل « بربون » في أول هجومه على المدينة ، وقد ثأر له جنده بتخريبها ، فأتوا فيها من الفظائع ما لم تر مثله حتى على يد القوط والفندال ، وأخذوا البابا أسيراً . وقد شجع ذلك أهل فلورنسة ، فنزعوا نير آل مديشي ، وأعادوا الحكومة الجمهورية

حلف كنياك على شارل

فوز شارل

أما انتصار شارل هذا وعبثه بسلطة البابا واحتقاره لها فانه ترك أثراً سيئاً في نفوس الطليان أعظم مما تركته موقعة بافيا ؛ فجددت البندقية تحالفها مع اسفرزا ، وانضمت اليها فلورنسة ، وساعدهم فرنسوا بجيش كبير أرسله الى ايطاليا بقيادة لوترك استولى على جنوة . ثم سار جنوباً حتى وصل الى نابلي . وكان جيش الامبراطور الذي يقوده « أمير أورنج » قد وصل اليها قبل الفرنسيين بزمن يسير ، فحاصرها لوترك براً ، ومنع عنها « أندريا دوريا » الجنوي (أعظم أمير بحري في عصره) كل المدد بحراً . وقد كان سقوط المدينة من المحتم لولا سوء تصرف الفرنسيين ، اذ رأوا أن يحطوا من قدر جنوة ، فأغضب ذلك دوريا وجعله ينحاز الى الامبراطور ، وبذا تمكن من

التحالف عليه من جديد

حصار الفرنسيين لنابلي

فشلهم — طرد الفرنسيين من جنوة ، فكان ذلك سبباً فى سلامة نابلى أيضاً . ثم فتك الوباء بالجيش الفرنسى ومات قائده

وقد حاول فرنسوا مرة أخرى استرجاع ملكه فى ايطاليا عام ١٥٢٩ فلم يفلح ،

معاهدة كمبراى — واضطرت فرنسا بعد هذه النكبات الى طلب الصلح، فتم ذلك فى معاهدة « كمبراى » وكانت شروطها كشروط معاهدة « مدريد » سوى أن شارل قد نزل عن حقه فى دوقية برجندية : فتخلت فرنسا عن كل حقوقها فى ميلان ونابلى وجنوة وفلندرة وارتوا وقبل فرنسوا أن يتزوج باخت شارل على أن يطلق سراح ولديه من الأسر

شارل يوطد سلطانه فى ايطاليا — وقبل ابرام شروط هذه المعاهدة كان قد اصطلح الامبراطور مع البابا فى برشلونة على أن يسترجع البابا كل ولايات الكنيسة ، وأن يعيد الامبراطور لآل مديشى ملكهم فى فلورنسة ويحميهم من أعدائهم . وعند ذلك نزح شارل الى ايطاليا لتفقد أحوالها بنفسه ، فتوَّجَهُ البابا فى بولونية ، فكان آخر امبراطور توجه البابا . وهنالك قدّم له فرنسسكو ولاءه ، فأعاد تنصيبه على ميلان . ثم عمد الى فلورنسة فحاصرها ، فخضعت بعد مقاومة عنيفة لحكم آل مديشى . وبعد أن أعاد شارل الأمن الى نصابه فى ايطاليا ولى وجهه شطر ألمانيا

تأثير الحروب فى فرنسا — ومما سبق يتضح أن هذه الحروب التى ظلت تسع سنين انتهت بخيبة فرنسوا وطرده من ايطاليا ، وقد أدى عــدم مدّه يد المساعدة الى حلفائه الطليان الى انفضاضهم من حوله . على أن فرنسا نفسها لم تُمسّ باضرار تذكر ، بل كانت هذه الحروب سبباً فى تقوية وحدتها : يَدلّك على ذلك ما قامت به فى الدفاع عن نفسها وطرد المغيرين عليها بدون كبير عناء فى المستقبل

وفى آل هبسبرج — أما آل هبسبرج فانهم أصبحوا بعد هذه الحروب أصحاب السيادة على معظم ايطاليا التى بقيت فى حوزتهم مدة ثلاثة قرون : فكانت نابلى وميلان تحت حكمهم رأساً ، وكان البابا وفلورنسة من حلفائهم الخاضعين ، ولم يكن بايطاليا ولاية مستقلة سوى البندقية

آل هبسبرج فی شرقی اوربا

وقد امتد سلطان آل هبسبرج فی شرقی أوربا أيضاً ، اذ بموت لويس ملك المجر وبوهيميا فی موقعة « موهـكز » سنة ١٥٢٦ ورثه فردنند أخو شارل ، وكان شارل قد نزل له عن أملاكه النمسوية ؛ فظهر لفردنند معارض فی المجر اسمه «زابوليا» فانتصر عليه أولاً ، ولكن ما لبث الترك أن عضدوا زابوليا فی تأسيس ولاية ترنسلوانيا واكتفى فردنند بسيادته الاسمية عليها ، أما الترك فانهم استولوا على الجزء الشمالى الشرقی من بلاد المجر . وقد كان خوف شارل من توغلهم فی بلاده وعزمه على مقاومتهم من الأسباب التی دعته الى عقد صلح كمبرای

شارل والترك فی افريقية

وبعد أن هدأ شارل الحال فی ألمانيا فی معاهدة « نورنبرج » (انظر الاصلاح الدينی فی ألمانيا) ولى وجهه نحو ايطاليا حيث جدد علاقات الود والمصافاة بينهُ وبين البابا والولايات الأخرى ، ومن ثم هم بالعودة الى اسبانيا . فلما وصل الى « برشلونة » أخذت الأحوال فی افريقية تسترعی نظره ، اذ كان يخشى تفوق الترك وتغلبهم على سيادة البحر الأبيض المتوسط . وذلك أن « خير الدين بربروسی » واخوته كانوا قد أخذوا التلصص فی البحار حرفة لهم واستولوا على « الجزائر » . ثم قدّم خير الدين ولاءه للسلطان سليمان القانونی فنصّبهُ أمير البحر للأسطول التركی ، فتمكن أيضاً من ضم « تونس » الى الأملاك التركية . فلاذ ملكها «مولای حسن» بشارل ، فجمع شارل لذلك أسطولاً بقيادة « دوريا » وقصد سواحل افريقية عام ١٥٣٥ ، فهزم بربروسی وأعاد مولای حسن الى مقر ملكه بتونس

فرنسوا يستعد للحرب من جديد

وفی أثناء ذلك كان فرنسوا يسعى فی الكيد لشارل ، اذ لم يكن من البديهی أن فرنسوا يرضى بشروط معاهدة كمبرای ، وكان مصمماً على عدم النزول عن حقوقه فی ميلان . لذلك سعى فی مصافاة البابا « كلمنت السابع » ، واجتهد فی محالفة « فرنسسكو اسفرزا » . ثم أعد جيشاً مؤلفاً من ٤٢٠٠٠ مقاتل ، وأخذ يوطد العلائق بينهُ وبين هنری الثامن و « جمس الخامس » (ملك ايقوسيا) ، وأظهر ميلاً شديداً الى محالفة حزب شملكلد البروتستنتی . ولكن الأمراء الألمان لم يثقوا

به ورفضوا كل مفاوضاته للحلف ، فسعى من جهة أخرى فى محالفة السلطان سليمان القانونى

فرنسوا فى سافوى

وفى أوائل عام ١٥٣٦ جمع جيشاً جراراً على الحدود الفرنسية ، ولكنهُ بدلاً من أن يبدأ بغزو ميلان داهم شارل الثالث دوق « سافوى » حليف شارل الخامس ، فاستولى على «سافوى » و « بِدْمُنْت» . أما الامبراطور فانه أراد أن يتفق مع فرنسوا وينزل عن ميلان لابنه دوق « أنجوليم »، فلم يقبل

شارل يغزو فرنسا

فسار شارل الى رومية عام ١٥٣٦، وشنع على فرنسوا وطلبه للمبارزة. ثم سار على رأس جيش لغزو فرنسا ، فاخترق « بِدْمُنت » ، ثم اجتاز الحدود الفرنسية ودخل بروفنْس . وكان يريد أن يلتحم مع فرنسوا فى موقعة فاصلة، الاّ أن فرنسوا لم يُنله ذلك، بل أخذ يخرّب الأراضى أمامه ؛ ثم حصن نفسه فى «أفِنيون» و «فَلانْس» وكانت هذه خطة المرشال «دى مُنْتمُورنسى» . فاضطر شارل الى الانحياز الى جنوة بعد أن فتك الجوع والمرض بجيشه فتكاً ذريعاً وكفَّ عن الحرب

ثم يكف عن الحرب

أما فرنسوا فانهُ أعلن فى أوائل عام ١٥٣٧ ان معاهدة كمبراى أصبحت لاغية ؛ فتجددت الحرب، وليس فيها ما يستحق الذكر ، غير استرجاع الفرنسيين « بِدْمُنْت »، وارسال السلطان سليمان القانونى « بربروسَى » لغزو سواحل نابلى مساعدةً لحليفه فرنسا . ثم خشى المتحاربان عاقبة دخول الترك بينهما ، فعقدا « مهادنة نيس » لمدة ١٠ سنين عام ١٥٣٨ . وكان أهم شروطها أن يحفظ كل من المتحاربين لنفسه ما فتحه بحد السيف . وعلى ذلك تقابل شارل وفرنسوا فى « إيج مُرْت » حيث مكثا سويّاً ثلاثة أيام

مهادنة نيس

ثورة فى اسبانيا

ومن ثم اضطر شارل الى الذهاب الى اسبانيا لتهدئة الأحوال فيها ، اذ ثار أعضاء مجلس « الكُرْتيز » ، فكبح جماحهم وقضى على معظم نفوذ هذا المجلس بإبعاد الأشراف والقساوسة عنه سنة ١٥٣٨ . ولم يلبث أن وصل اليهِ خبر ثوران أهل غِنْت فسار اليهم وأخمد نار الفتنة فيها بيد من حديد

تدمير الاسطول الاسبانى

ثم عزم على تجريد حملة الى افريقية للقضاء على أسطول المغيرين الذين أعادوا الكرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، فأبحر بأسطول عظيم الى « الجزائر » فى اكتوبر سنة ١٥٤١ . فعاكسته الرياح والأنواء والعواصف ومزقت أسطوله كل ممزق ، وردته الى اسبانيا بالنزر اليسير من أسطوله الضخم ، فكانت هذه اكبر نكبة لاقاها شارل مدة حكمه . ونجم عنها أن تجرأ فرنسوا على مناهضته من جديد ، وتهيأت له فرصة لمصافاة السلطان وتجديد المحالفة معه (وكانت قد انفصمت عراها عام ١٥٣٨) فاتخذ فرنسوا تجرؤ حاكم ميلان على قتل السفير الفرنسى أثناء مروره فى لمبردية الى القسطنطينية ذريعة لاعلان الحرب . وكان قد أفلح فى ابرام تحالف مع دوق كليف بألمانيا ، وجمس الخامس ملك ايقوسيا وملكى الدانمرك والسويد

تجدد الحرب

أذكى فرنسوا نار هذه الحرب سنة ١٥٤٢ بعد أن أعد خمسة جيوش وأغار على الأراضى المنخفضة و« رُوسيّون » ، ولكن جيوشه لم تنل نصراً يستحق الذكر . وارتدت على أعقابها

انضمام الانجليز الى شارل

أما شارل فانه ذهب الى ألمانيا وأخضع دوق كليف حليف الفرنسيين الذين لم يأتوا لمساعدته الاّ بعد ضياع الفرصة . ثم اتفق شارل مع هنرى الثامن سنة ١٥٤٤ على أن يغزوا فرنسا معاً . ولما نزل الجيش الانجليزى أرض فرنسا بدأ بمحاصرة بولونية بدلاً من سيره الى باريس . أما شارل فانه رغم انهزام جيوشه فى « بدمنت » هزيمة منكرة عند « سريسول » غزا شمبانيا وزحف بجيشه على باريس حتى صار على مسيرة يومين منها ، ثم أظهر ميله الى الصلح فجأة لسبب لم يعرف باليقين ، ولعله حنق على هنرى الثامن لعدم انفاذه الاتفاق الذى بينهما برمته . هذا الى أنه كان يخاف من تحالف الترك مع فرنسا ، وأنه أراد التفرغ لألمانيا وحركة الاصلاح البروتستنتى فيها . على أن فرنسوا لم يكن ليأبى الصلح ، بل كان يرغب فيه ؛ وقدتم فى معاهدة « كِربى » فى سبتمبر سنة ١٥٤٤ . وكان أهم شروطها :

شارل يزحف على باريس

انتهاء الحرب

معاهدة كربى

(١) نزول كل من الفريقين عن جميع ما فتحه منذ مهادنة « نيس »

(٢) تخلى فرنسوا عن كل حقوقه على نابلى وفلندرة وأرتوا؛ وشارل عن حقوقه على برجندية

(٣) وعد الامبراطور أن يزوج ابنته أو بنت أخته من دوق أورليان ، وأن يعطيه الأراضى المنخفضة وفرَنْش كَنتيه أو دوقية ميلان مهراً . ووعد فرنسوا أنه متى تم انجاز هذا الاتفاق يُرجع « سافواى » و « بدمنت » الى شارل الثالث

وقد كانت هذه المعاهدة (التى ربحت بها فرنسا ربحاً لم يكن فى الحسبان) خاتمة المناهضة التى قامت بين شارل وفرنسوا . أما المدة الباقية من أيام فرنسوا فقد قضاها فى حرب مع هنرى الثامن سنذكرها فى موضعها . ومات فرنسوا فى مارس سنة ١٥٤٧ وهو فى الثالثة والخمسين من عمره بعد أن حكم اثنين وثلاثين عاماً قضاها فى حروب عنيفة

موت فرنسوا

تأثير حكمه فى فرنسا

وقد كان متفرغاً الى السياسة الخارجية ، فلم يلتفت كثيراً الى أحوال بلاده الداخلية وبالرغم من ذلك تقدمت البلاد فى حكمه تقدماً يذكر . وقد أخفق فى نيل أغراض أسرته الخارجية ، اذ لم يتمكن من الحصول على نابلى ، وأُجبر على النزول عن ميلان ، الاّ أنه نجح نجاحاً تاماً فى الدفاع عن الحدود الفرنسية وبعث روحاً جديدة للعمل على مدّها وتوسيع نطاقها . وفى أيامه أيضاً ازدادت سلطة الملك وقوى مركزه فى بلاده بدرجة عظيمة ، فأصبحت الكنيسة تحت سلطانه سنة ١٥١٦ ، واضمحل نفوذ مجلس الأمة النيابى وكاد يبطل انعقاده ، وازداد دخل الحكومة ازدياداً عظيماً بزيادة الخراج وبيع المناصب وغيرها . وعزز جانبه بتنظيم جيش من الرجّالة لم ترَ البلاد مثله من قبل

ولم يكن فرنسوا مبغَّضاً من رعيته ، بل كانت تخلص فى خدمته ؛ وكان مثالاً حياً لها فى محبة العلم وتشجيع ذويه . وفوق كل ما ذكرنا جمعت حماسته الحربية انظار الأمة حوله . فكان أمامها تمثال الوطنية الحقة

ويُعتبر فرنسوا الأول الواضع للخطة السياسية التى حذا حذوها كبار سواس فرنسا من بعده وهى « بروتستنتى فى الخارج وكاتوليكى فى فرنسا »

اعتزال شارل الملك

أما شارل الخامس فانه بعد أن أخمد نار الفتن والقلاقل الدينية بالمانيا بمعاهدة أجزبرج سنة ١٥٥٥ أخذ يفكر فى اعتزال الملك لعدة أسباب ؛ منها اعتلال صحته وخيبة آماله فى معاهدة « أجزبرج » التى قضت على ما كان يرمى اليه من توحيد المانيا وتأسيس حكومة ملكية قوية فيها تحت حكم آل هبسبرج ، وفُصلت بموجبها الأراضى المنخفضة عن الامبراطورية ؛ وكانت ضمت اليها سنة ١٥٤٨ . وقد عاكسه الحظ فى خارج المانيا أيضاً ، اذ كان ابنه فليب غير محبوب فى انجلترة ، وكان قد تزوج بملكتها مارية تيودور ابتغاء ضم العرش الانجليزى الى آل هبسبرج . فلكل هذه الأسباب اعتزل شارل الملك فى يناير سنة ١٥٥٦ ؛ فنزل رسمياً عن الأراضى المنخفضة والأملاك الايطالية واسبانيا لابنه فليب الثانى ، ثم أرسل الى ألمانيا رسولاً يعلن اعتزاله الملك ويرشح أخاه فردنند مكانه على الامبراطورية . وفى سبتمبر سنة ١٥٥٦ نزح الى اسبانيا وانعزل عن العالم فى دير « سنت يِيست » ، غير أنه بقى فى معزله موجهاً كل أفكاره الى مجرى السياسة فى أوربا ، حتى فاضت روحه فى ٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٨

تأثير حكم شارل فى اسبانيا

وقد كان لحكمه فى اسبانيا أكبر أثر فى رفع شأنها بين الدول الأوربية ؛ فقد كان ملكها شارل المحرك لسكان السياسة فى أوربا، وجنودها التى خرجت ظافرة فى معظم الحروب التى خاضتها نالت صيتاً لم ينازعها فيه غيرها من جيوش سائر الأمم . ولا ننسى أن فى عصره تم فتح المكسيك و « بيرو » الذى أوجد لاسبانيا مورد ثروة طائلة

على أنه لم يكن محبوباً من الأمة الاسبانية ؛ فانه كان فى نظرها اجنبياً عن البلاد ، وزاد شعورهم بذلك توانيه فى القدوم من فلندرة (التى تربى فيها) عند ارتقائه العرش ، وقصر المدة التى مكثها بينهم بعد ، وجاء الى اسبانيا غير عالم بلغتها محاطاً بحاشية من الهولنديين ، فلم يكن همه فيها هو وحاشيته سوى جمع المال للانفاق على حروبه الكثيرة ورشوة أمراء ألمانيا الناخبين . فعم الاستياء ؛ وبلغ أشدّه فى قشتالة حيث قام عليه « الكُرتيز » (المجلس النيابى) وقد كان أعرق المجالس النيابية فى الحرية بين جميع دول أوربا ما عدا انجلترة ، وعقب ذلك ثوران المدن (الكميونيروس) الذى تأججت به نار الفتنة فى قشتالة بين عامى ١٥١٩ و ١٥٢٠

٤ — ✱ الاصلاح الكاثوليكى ✱

سبق أن أوضحنا عند الكلام على الاصلاح الدينى أن السبب فى تلك الحركة العظيمة كان وجود مخاز ومعايب فى الكنيسة الكاثوليكية نتج عنها ضياع سلطانها وقلة نفوذها على الأهلين وظهور طائفة قوية الأركان كان لها السيادة الدينية فى ممالك أوربا الشمالية. ولم تلبث تعاليم هذه الطائفة أن تسربت الى ايطاليا مقر البابوية نفسها؛ وليس هذا بعجيب، اذ أن أهل ايطاليا كانوا أقرب الناس الى الوقوف على معايب الكنيسة ومخازيها، فظهر منهم فريق يميل كل الميل الى اصلاح ما فسد فيها وما دخل على تعليماتها من الترهات والخرافات: يدلك على ذلك تصديق الكثير من الطليان بعقيدة التبرير بالإيمان التى نشرها «لوثر»

ظهور روح الاصلاح فى ايطاليا

وكان غرض هذا الفريق فى أول الأمر أن يوفق بين المذهبين البروتستنتى والكاثوليكى ليحفظ كيان الوحدة الدينية فى أوربا؛ ولكن ذلك لم يجد نفعاً كما ظهر فى مجمع «راتزبون» سنة ١٥٤١. والسبب فى اخفاق هذه الحركة راجع لعدة أمور: منها أن دُعاتها فى ايطاليا لم يجاوزوا علية القوم، وأن البابا كان لا يريد أن ينزل عن شىء من حقوقه يكون سبباً فى تقوية عدوه الامبراطورية بتهدئة الفتن القائمة فيها بين الامبراطور وأمراء البروتستنت، وان فرنسا كانت تعاكس الامبراطور وتعرقل مساعيه من هذا الوجه

غرض المصلحين فى ايطاليا

فلما لم تفلح هذه الحركة قامت أخرى تعمل على تطهير الكنيسة من المعايب التى كانت فاشية فيها وتوطيد أركانها لتكون قادرة على مناهضة البروتستنت. وهذه الحركة تعرف فى التاريخ بحركة الاصلاح الكاثوليكى

الاصلاح الكاثوليكى

وقد ساعد هذه الحركة الجماعات العديدة التى ظهرت فى خلال القرن السادس عشر. وأهم هذه الجماعات وأعظمها تأثيراً جمعية اليسوعيين؛ والسبب فى تأسيسها يرجع الى «إجنات لويولا» أحد الفرسان الاسبانية. وُلد هذا الرجل فى عام ١٤٩١، ولما ترعرع وبلغ أشده انخرط فى سلك العسكرية، فجُرح فى حصار «بامبيلونا» كما

جمعية اليسوعيين

لويولا

أسلفنا . وقد صرف مدة مرضه فى مطالعة الكتب الدينية ، فعزم على خدمة الدين؛ فعمل على ذلك ونجح فى اكتساب اخوان واعوان كانوا عضداً له على نيل أمنيته . ومن بين هؤلاء « فرنسوا زَفيير » و « لينيز » وغيرهما . وفى عام ١٥٣٤ تعاهد هو وأعوانه على التخلى عن الأمور الدنيوية ووقف حياتهم على خدمة الكنيسة؛ وفى عام ١٥٤٠ وافق البابا على مبادئ هـذه الجمعية . وكانت أنظمتها ومبادئها شبيهة بالنظام الحربى . فكان كل فرد ينخرط فى سلكها لا بد له أن يخضع لادارة رئيسه قلباً وقالباً ، وأن لا يملك فى نفسه شيئاً ، وأن يحلف اليمين باطاعة أوامر البابا بدون تردد . وقد كان ظهور هذه الجمعية فى حين أخذت فيــه سلطة البابا تتداعى من اكبر العوامل على احياء سلطانها ونشر نفوذها ثانية

مبادئ اليسوعيين

وكان فى يد هذه الجمعية سلطة انتخاب رئيسهم ؛ فلما مات « لويولا » المؤسس لها انتُخب « لينيز » مكانه ، وكان مشهوراً بحسن ادارته ، واليه يُعزى نظام هذه الجمعية الدقيق الذى جعلها موضوع اعجاب العالم ونموذجاً لمن قام بعدها من الجماعات. ومما تختلف به عن باقى الجمعيات الدينية ما أُخذ على رجالها من أنهم كانوا يُكثرون من ولوج ابواب السياسة خدمةً للكنيسة . وقد لاقوا نجحاً من هذه الوجهة ، فكان بعضهم مستشارين ووزراء ذوى نفوذ . على ان اكبر مجال ضربوا فيه بسهم صائب كان فى التربية والتعليم ؛ اذ كانت مدارس اليسوعيين أحسن مدارس أوربا ، وامكنهم بحسن نظامها وتعليمها المجانى أن يفوقوا علماء النهضة الذين كانوا وقتئذ يحتكرون العلم والتعليم ، حتى انه لما مات « إجنات » ترك بعده مائة مدرسة ومعهد دينى ، ولم يمض قرن ونصف على تأسيس هذه الجمعيــة حتى أصبح لها ما ينيف على سبعمائة مدرسة . وبلغ من شدة تأثيرهم أنهم أصبحوا المسيطرين على عقول رجال الأجيال التى تلت . ولم يكن أمرهم قاصراً على النهوض بالمذهب الكاتوليكى ونشره وسيادته فى أوربا ، بل كان لإقدامهم وشجاعتهم اليد الطولى فى نشره فى مجاهل أمريكا والشرق الأقصى وغيرهما من الانحاء النائية

اعمال اليسوعيين

وقد ساعد هذا الاصلاح أيضاً تأسيسُ محكمة التفتيش فى رومية وتشكيلها على

محكمة التفتيش فى رومية

النمط الاسبانى : أسسها البابا « بولص الثالث » سنة ١٥٤٢ ليتسنى له اخماد أنفاس الحركة البروتستنتية فى ايطاليا بمحاكمة كل من زاغ عن دين الكنيسة ، فعين لذلك ستة كردنالات منحهم سلطة التحقيق فى كل الأمور التى تتعلق بالدين ، وأن يحكموا بالاعدام ونزع الملكية على كل زائغ . ولم يكتف أعضاء هذه المحكمة باضطهاد أساتذة الدين البروتستنتى بل صادر البابا بولص الرابع كتاباتهم بكل الوسائل

مجمع ترنت

على أن حزب الاصلاح الكاثوليكى لم يلق بنفسه فى يد البابا دفعة واحدة ، فانهُ ما لبث ان طلب اليهِ تشكيل مجلس عام للنظر فى الأمور الدينية ؛ فتلاكأ البابا فى بادئ الأمر فى اجابة هذا المطلب ، ثم اضطر أخيراً للموافقة حينما شدد فيهِ شارل الخامس . فانعقد المجلس فى « ترنت » (١٥٤٥–١٥٦٣) . وكان غرض شارل من اجتماع هذا المجلس العام أن يوفق بين المذهبين البروتستنتى والكاثوليكى ، فلم يفلح وانفض المجلس ؛ ثم عقد ثانية فى عام ١٥٥١ فلم يوفق لعمل أى اصلاح ؛ وبقى الحال كذلك حتى انعقد المجلس لآخر مرة فى عهد بولص الرابع عام ١٥٦٢ . ويمتاز هذا الاجتماع عن سابقيه بأنهُ طرح جملةً البحث فى أمر التوفيق بين المذهبين ، وقصر غرضه على النظر فى شؤون الكنيسة نفسها واصلاح ما فسد فيها . فقرر ان سلطة البابا مستمدةٌ من المسيح ، وان عقيدة لوثر (القائلة بالتبرير بالإيمان فقط بدون وسيلة أحد من البشر) ضربٌ من ضروب الزيغ والكفر ؛ ثم أوضح كل الأمور الدينية تماماً حتى لا يخطئ أحد فى تفهم شيء منها ، وحتم على كل القساوسة والرهبان أن يكونوا مثال الطهارة والعفة والأخلاق الكريمة فى كل أفعالهم وأقوالهم

القرار على اصلاح الكنيسة نفسها

كرلو بروميو

وكان أكبر رجل ساعد فى تنفيذ مشروعات هذا المجلس (كَرْلو بُرُّوميو) الذى كان فى ذلك الوقت رئيس أساقفة ميلان ، فأصلح ما خُرب من الكنائس ، وقوّم ما اعوج من القسيسين ، وأعاد النظام الى الجمعيات الدينية المختلفة ، وأسس المدارس والكليات . فكان ما قام بهِ هــذا الرجل أكبر باعث على وجود روح جديد فى ميلان وما جاورها من الاصقاع ، حتى أخذ الناس يحترمون الكنيسة . وقل انتشار المذهب البروتستنتى ، وابتدأ الناس يرجعون الى المذهب الكاثوليكى أفواجاً كما سيأتى بعد :

الرجوع الى الكاثوليكية

٥ — ﴿ فليب الثانى ﴾

مقابلة بين فليب وولده

استولى فليب الثانى على عرش اسبانيا بعد اعتزال أبيه الملك؛ وكان يمتاز عن والده بميله الى اسبانيا وعطفه عليها، فكان يتمثل فيه كل صفات الاسبانيين ميولاً واطباعاً وشدة فى المحافظة والحرص على الدين. وكان جل أمانيه أن يجعل السيادة فى أوربا لآل هبسبرج، مقتفياً فى ذلك سياسة والده؛ غير أن السبل التى اتخذها لم تكن كالتى نهجها والده لتباين أخلاقهما. فلم تكن علاقة الكنيسة معهُ كعلاقتها مع أبيه شارل الذى كان يفضّل السياسة على الدين، غيرَ ولوع بالمذهب الكاتوليكى، طامحاً دائماً أن يسيطر على البابا ويجعل لنفسه السيادة الدينية والدنيوية معاً. أما فليب فانهُ كان عبد البابوية الخاضع يعتقد أن امتداد سلطانه وبسط نفوذه لا يكونان الاَّ بانتشار المذهب الكاتولكى وسيادته على غيره. لذلك كان فليب بطل الحركة التى قامت تناوئ الاصلاح البروتستنتى. وخلاصة القول فيه ان المحور الذى كانت تدور عليه سياسته ينحصر فى أمرين: تشيُّعهُ للمذهب الكاتوليكى والعمل على نشره، ثم سيادة أسرته فى أوربا. وكان يعتقد أن هذين الأمرين لا يقوم لأحدهما قائمة بدون الآخر

فى السياسة

فى الصفات الشخصية

وكان فليب يخالف والده فى كل صفاته الشخصية. فلقد ساعد الحظ والده وهو فى حداثة سنه فاختلط بالناس وسبر غورهم حتى حلب الدهر أشطره، فأوصله ذلك الى ارضاء الأمم المختلفة التى كان يسيطر عليها؛ فاكتسب حب الفلمنكيين والايطاليين والاسبان وميلهم اليه، أما الألمان فانه رغم ما كان بينه وبينهم من المشاحنات فانهم كانوا لا يبغضون شخصه بل كانوا يمقتون سياسته فقط، وكان ميالاً الى الفنون والآداب شغوفاً بها، وكان يشاطر القوم فى حفلاتهم ومآدبهم .

أما فليب ابنه فلم يكن عنده الاستعداد والميل لشئ من هذه الصفات، اذ بقى طول حياته بعيداً عن جميع رعاياه غير الاسبان، لا يحسن التكلم بأى لغة خلاف الاسبانية، وليس للآداب والفنون أثر فى نفسه. فضلاً عن أنه كان ميالاً الى

الكبرياء والعظمة والاحتجاب عن العالم : تلك الصفات التي كانت دائمًا تعزى الى أشراف اسبانيا والتي تمسك بها ما استطاع اعتقاداً أنها من لوازم أبهة الملك وعظمته ولذلك عند ما عهد اليه بالملك بذل وسعه في الاحتجاب عن الناس حتى كان من الصعب على وزرائه أن يجتمعوا به ؛ وكان يُعرَض عليه كتابةً كل ما يحتاج اليه من الأخبار وأحوال ادارة الملك . ولم يرَ التاريخ ملِكاً مثله في الانكباب على العمل ؛ غير أنه كان في عمله هذا أشبه بالكاتب الصغير منهُ بالسياسي العظيم . فكان يؤتى اليه بكل الرسائل في حجرته فيقرؤها ويوقع عليها أو يجيب عليها بنفسه ، فكان عالمًا بكل صغيرة وكبيرة في ادارة ملكه. واتخذ وليجته من الوزراء المتضاربين في الآراء والسياسة مثل « دوق ألفا » و « أمير إبولى » حتى لايتأثر برأى غير رأيه في كل سياسته . وقد كان لاحتجابه عن الناس أثر سيء في سياسته للملك ، لأنه لم ينل القسط الوافر من المواهب الطبيعية ولاالخبرة التي يكتسبها السياسي العظيم من احتكاكه بغيره ؛ فكان يتشبث بآرائه غير ناظر الى الأشياء من وجهتها الحقيقية . وكان جافًا في معاملة كل رعاياه اللهمَّ الاّ قليلاً منهم أظهر لهم بعض الميل

الحرب مع البابا وفرنسا

بعد أن تولى فليب الثاني عرش الملك وجد نفسه على أبواب حرب أوربية عظيمة أشعل نارها البابا « بولص الرابع » الذى كان يميل الى استرجاع السلطان في ايطاليا الى أسرة « انجو » الفرنسية ويبغض الاسبان ويعمل على طردهم منها . هذا الى ما كان يكنه صدره من الحقـد والبغضاء لأسرة هبسبرج ولا سيما بعد



فليب الثاني

أن علم بموافقة الامبراطور فردنند فى معاهدة « أجز برج » على منح الحرية الدينية لأتباع « لوثر » ، التى أبى البابا الموافقة عليها

ولما طلب البابا المساعدة من الفرنسيين مال هنرى الثانى الى تلبية طلبه طمعاً منه فى استرجاع نابلى ؛ فسيَّر اليهـا « دوق جيز » ، على رأس جيش فرنسى عظيم . فأرسل فليب جيشاً تحت إمرة دوق « ألفا » الذى نصبه فليب حاكماً على نابلى . ولما التقى الجمعان كان النصر حليف الاسبان فى كل الملاحم . وهدد ألفا رومية مرتين فاضطر البابا أخيراً الى ابرام الصلح

انضمام انجلترة الى اسبانيا

وفى أثناء ذلك كانت نار الحرب مستعرة أيضاً بين الدولتين على الحدود الفرنسية (ثم انضمت انجلترة الى جانب اسبانيا بتأثير فليب فى زوجهِ مارية ملكة انجلترة) . وكانت الجيوش الاسبانية والانجليزية بقيادة فِلِبير ، دوق « سافوى* » ، فحاصر « سنت كونتين » التى كان يحميها « الأميرال كولينى » . وبعد دفاع شديد انتصر الاسبان نصراً مبيناً ، وسقطت المدينة فى أيديهم . وفى أوائل عام ١٥٥٨ عوض دوق « جيز » تلك الهزيمة بانقضاضه على « كاليه » والاستيلاء عليها عنوة ؛ ففقدت انجلترة بذلك آخر أملاكها فى فرنسا . وانتصر الاسبان بعدُ على الفرنسيين فى موقعة « جرافلين » على يد « الكُنت إجمنت » . ولم يكن لهذا الفوز نتيجة فعالة سوى أنه كان من أسباب تقريب أمد الصلح ، اذ أُبرمت معاهدة « كتوكمبريسس » سنة ١٥٥٩ ، وأهم شروطها هى :

معاهدة كتوكمبريسس

(١) أن تتنزل انجلترة عن كاليه لفرنسا مدة ثمانية أعوام

(٢) أن تتنزل فرنسا عن دوقية « سافوى » الى أميرها المخلوع

(٣) أن تحفظ فرنسا لنفسها الثلاث الأسقفيات التى استولى عليها هنرى الثانى (تول ومِتز وفِردان) وتتنزل عن كل الفتوح الأخرى الآ خمسة معاقل فى « بِدمُنت » وتتنزل اسبانيا فى مقابل ذلك عن كل فتوحها فى بيكردية

وقد وطدت دعائم هذا الصلح بالاتفاق على قران « اليصابات » بنت هنرى

* كان مخلوعاً عن دوقيته فدخل الحرب ليسترجعها من الفرنسيين

في صالح فليب

الثاني بفليب الثاني (وكانت خطيبة ابنه « دون كرلوس ») . وكانت الصفقة الرابحة في هذا الصلح في جانب فليب ، لأنه ضم الى أملاكه نحو ٢٠٠ حصن على حين أنه لم ينزل الا عن نحو خمسة أو ستة معاقل . وتعتبر هذه المعاهدة نهاية لعصر غَبَرَ وفاتحة عصر آخر لأسباب ثلاثة :

اهمية المعاهدة

الأول : انها كانت خاتمة الحروب التي استمرت نيرانها مدة أربعين عاماً بين فرنسا واسبانيا . الثاني : انها قضت على المشاحات التي كانت قائمة بين فرنسا وأسرة هبسبرج مجتمعة ، اذ من ذلك العهد انفصلت اسبانيا عن النمسا وكانت تجمعهما حروب غُرست بذورها قبل عهد فليب . الثالث : ان معظم الحروب الأوربية التي قامت في خلال المدة الباقية من هذا القرن كانت حروباً دينية أكثر منها سياسية

فليب في اسبانيا

وتحول نظر فليب منذ معاهدة « كتو كمبريسس » بل قبلها الى الشؤون الدينية في اسبانيا ، فاتخذ مقره بها عام ١٥٥٩ بعد ان كان بالأراضي المنخفضة ، وبقي فيها حتى هلك عام ١٥٩٨ . فكان في ذلك على عكس والده شارل الذي صرف جزءاً عظيماً من مدة حكمه في تفقد أحوال ملكه الشاسع

اخماد الاصلاح الديني

وكان المذهب البروتستنتي لم ينتشر في اسبانيا في عهد أبيه ، ولكنه أخذ يتفشى فيها بسرعة منذ أوائل حكم فليب ، فحضه البابا على الاستعانة بمحكمة التفتيش في تنفيذ أغراضه ، فوجد فليب في هذه المحكمة عضداً قوياً وحليفاً سياسياً شديداً ، اذ كانت كل الأراضي التي تنتزعها من يد ملاكها تصير حقًّا للملك ، كما أنها كانت

محكمة التفتيش

تحاكم كل فرد بدون استثناء ؛ فكانت سلاحاً مروّعاً في يد فليب لجمع المال والقبض على كل مجرم سياسي . وكان الجمهور يرهب هذه المحكمة رهبة كبيرة ، لأنها كانت تباغت الأفراد بالقبض عليهم وتحاكمهم سرًّا ، وكانت تبث عيونها في كل أسرة تقريباً حتى أصبح القوم يعيشون في جو من الظنون لا يأمنون على أنفسهم غائلة هذه المحكمة ، اذ كان المتهم لا يعرف غالباً سبب القبض عليه ، وكان يجبر بالتعذيب على

الاعتراف واذا لم يرجع عن عناده بعد سجنه ونزع أملاكه أحرق فى احدى الحرائق التى كانت تشعل لأمثاله فى المواسم والأعياد

وقد أفلحت هذه الطريقة افلاحاً فى اخماد الحركة البروتستنتية فى اسبانيا ، غير أن فليب قضى بعمله هذا على حرية الفكر فى بلاده حتى جعلها فى ذيل الممالك الأوربية علماً وعرفاناً . وقد كان لذلك أقبح أثر فى مستقبل البلاد فى خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر

اضطهاد عرب اسبانيا

بمثل ذلك وجه فليب قوته الى اضطهاد البقية الباقية من عرب اسبانيا الذين كانوا ينبوع ثروة البلاد الصناعية ؛ فانحطت بذلك الصناعات واضمحلت ثروة البلاد التجارية . وهم بقيــة السيف الذى سله الاسبان المتعصبون على رقاب المسلمين يكرهونهم على التنصر ، فهؤلاء الذين آثروا الحياة الذليلة كانوا يظهرون المسيحية ويبطنون الاسلام . وهم كانوا مهرة الفلاحين وحذاق الصناع ؛ وكان الاسبان ينظرون اليهم شزراً ، آخذين الحيطة منهم . وقد حدث فى البحر الأبيض المتوسط بعض حوادث أثارت الاسبان على هذه الفئة ؛ فان لصوص البحر من مسلمى البربر أقرباء عرب اسبانيا (بالجزائر ومراكش وتونس) أغاروا على سواحل اسبانيا ، فأرسلت عليهم حملتين لم تأتيا بكل المرام . كذلك حاصر الترك المسلمون مالطة سنة ١٥٦٥ فخلصها من أيديهم والى نابلى وهى على وشك السقوط . وكانت نتيجة حرب اسبانيا مع هذه الدول الاسلامية صدور عدة مراسيم باضطهاد عرب اسبانيا المتهمين بكتمان الاسلام ، فلم يسعهم طبعاً ازاء هذا الاضطهاد والظلم الاّ الثورة فى وجه المتعصبين والدعاء الى الاستقلال ؛ فنصبوا عليهم ملكاً منهم وأخذوا ينتقمون شر انتقام من المسيحيين الذين فى حوزتهم . فعزم فليب على اجتثاث هؤلاء القوم من بلاده ؛ فسفك دماء الرجال والنساء والأطفال منهم . ولما خمدت نار الفتنة شتت البقية الباقية منهم فى برارى اسبانيا المجدبة الى أن طردوا من البلاد جملةً عام ١٦٠٩

طردهم من اسبانيا

وكان فليب قد عهد باخماد الفتنة الى أخيه (دون جوان) . وكان هذا الأمير فضلاً عن اشتهاره بالبسالة الحربية متصفاً بكل الصفات التى كانت تنقص فليب

دون جوان والترك

لجمع القلوب حوله وبث الحمية فى اتباعه. فلما أخمدت هذه الفتنة رجا أخاه فليب فى تخليص قبرس التى كان يحاصرها الأسطول التركى ، فجهز فليب هو والبابا والبندقية أسطولاً بقيادة دون جوان ، غير أنها سقطت في يد العثمانيين قبل انجادهم لها. ولكن دون جوان انتقم من العثمانيين فى موقعة « ليبنتو » عام ١٥٧١ حيث شتت شمل الأسطول التركى (انظر « تاريخ مصر من الفتح العثمانى »). وبعد هذا النصر العظيم طمع دون جوان فى استرجاع القسطنطينية وطرد الترك من البحر الأبيض ؛ الآ أن الحال فى اسبانيا لم تساعده على العمل على نيل أمنيته. فقصد افريقية واستولى على تونس وكان يؤمل أن تكون عاصمة ملك له . فلما علم فليب بأغراضه اضطرمت نار الحسد له فى صدره ، فمنع عنه كل المدد من اسبانيا. فاسترجع الترك تونس بعد عدة أشهر وانتزعوا أيضاً « جولتا » من أعمال افريقية

اوهام فليب وأحزانه

كل هذه المكافحات وكذا الثورة الهائلة التى أضرم فليب نارها فى الأراضى المنخفضة بظلمه وعسفه مما سنتكلم عليه على حدة لم تكن الاَّ لنعرة دينية شديدة ضاعفها توهمه ان ربه ساخط عليه بدلائل شاهدها فى أهل بيته ؛ اذ فقد أزواجه الثلاث ، وزاد غمه وضاعف حزنه سوء حال ابنه الوحيد « دون كارلوس » الذى كان يعمل على اغتيال والده واضطر فليب أخيراً الى سجنه لضعف قواه العقلية ، فبقى سجيناً حتى مات، ولا يزال سبب موته سرًّا من الأسرار ، والمتداول انه مات مسموماً بأمر والده

فليب يحاول ضم انجلترة اليه

فلما أعيت فليب كل مكافحاته السالفة ابتدأ يدرك أن العوائق الحقيقيـــة التى تعترضه فى سبيل تحقيق سياسته الدينية ترجع الى انجلترة وايقوسيا. فشرع فى ضمهما الى المذهب الكاثوليكي عنوة . وسنتكلم على ذلك عنـــد الكلام على « حرب الأرمادا » فى تاريخ انجلترة

تكلمنا فيما سبق على ما قام به فليب لاحياء المذهب الكاثوليكى ، وسنبحث الآن فيما قام به لبسط سيادة أسرته فى أوربا. ففى عام ١٥٧٨ سنحت له الفرصة لضم

ضم البرتقال

البرتقال الى أملاكه . فأصبحت كل شبه جزيرة ايبريا تحت سلطانه . وقد مهد له الطريق الى ضمها موت ملكها « هنرى الكردنال » ؛ فطالب فليب بعرشها بحق

الوراثة وأرسل اليها جيشاً بقيادة «دوق الفا» فاستولى عليها بمساعدة أسطول يقوده « سنتا كروز » وبقيت في يد الاسبان مدة ستين عاماً الى أن استقلت ثانية عام ١٦٤٠

فائدته لاسبانيا

ولهذا الفتح أهمية كبرى في التاريخ ، فانه لم يكن مجرد توسيع رقعة اسبانيا في أوربا بل كان أهم منه بسط نفوذها على المستعمرات البرتقالية في أمريكا الجنوبية وافريقية وجزائر الهند الشرقية واستغلالها في وقت كانت فيه خزائن اسبانيا خاوية

سياسة فليب الداخلية

أما في ادارة الشؤون الداخلية فكان أهم ما ترمي اليه سياسة فليب أن يقضي على كل ما في أيدي الاهلين من الامتيازات الدستورية ويخمد أنفاس الحرية الشخصية فيها ، وبذلك يجعل كل اسبانيا خاضعة لحكومة مركزية هو رئيسها ، ناحياً في ذلك منحى والده وجده من قبله . فلاقى في ذلك نجاحاً في ولاية « قشتالة » التي كاد شرلكان يقضي على سلطان مجالس « الكرتيز » فيها سنة ١٥٣٨ : أما في «الأرجون» فان الحرية كانت فيها أعرق ، ولذلك مكثت زمناً أطول ، وكان نفوذ مجالس الأمة فيها يعضده موظف يُدعى « الجُستيزا » كاد يفوق الملك في القوة والسلطان . ثم حدث في عام ١٥٩٠ أن « انطونيو بيريز » أحد وزراء فليب أثار سخط الملك عليه فلجئ الى الجستيزا . فاتخذ الملك ذلك ذريعة للقضاء على ما لهذه البلاد من الحقوق الدستورية ، فتم له ذلك وأصبح مجلس الأمة من أعوان الملك وليس في أيديهم أي سلطان الاّ عرض مطالبهم عليه ، وأصبح في يد الملك أيضاً تنصيب رجال القضاء

القضاء على الامتيازات الدستورية

وقد ساعد فليب على نيل هذه الحقوق ما كان بين الولايتين من العداوة والبغضاء فكان يستخدم أهالي احداهما لنيل مآربه من الأخرى

أثر الحكم الاستبدادي

وقد كان لهذا الحكم الاستبدادي أثر سيئ عاجل في البلاد ظهرت عواقبه قبل أن ينقضي حكم فليب . فقد كانت حالة البلاد المالية غاية في الارتباك وسوء الحال ، لجهل الملك ورجال حكومته بأوجه الاقتصاد . وكان ما يرد على بيت المال من الدنيا الجديدة مبالغاً فيه ، فكان معظم دخل الحكومة الحقيقي يأتي اليها من الأراضي المنخفضة . فلما شبت نار الثورة فيها وخرجت على اسبانيا وقع ذلك العبء الثقيل على اسبانيا نفسها . فاستعمل الجباة كل الطرق لجمع المال ، وساعدتهم الحكومة فضُربت

الاضطراب المالى — الضرائب الفادحة واغتصبت الأموال من التجار وجُبيت المكوس حتى على معظم ضروريات الحياة كالزيت واللحم وغيرهما؛ ولما اشتدت الحال جمعت الاعانات من البيوتات. هذا الى ما كانت تستدينه الحكومة عاماً فعاماً مما كان ربحه يستنفد معظم دخل البلاد؛ وكانت الطريقة التى تجبى بها الضرائب مبنية على الاختلاس وتتطلب نفقات باهظة، مما أدى وحده الى تعس الأهالى ونضب معينهم. وزاد الطين بلة أن المصنوعات الوطنية كان يعرقَل نموها بوضع جملة قيود عقيمة على كل السلع الصادرة من البلاد والواردة اليها

والاقتصادى — أما التجارة فانها كانت قد أخذت تنسلخ بسرعة من أيدى الاسبان الى أيدى غيرهم من الأمم الأخرى لما أصاب الأهلين من الفقر

اضمحلال اسبانيا — فاذا راعينا استمرار هذه الحال السيئة عاماً بعد عام، ولاحظنا ما كان ينفقه فليب من الأموال الطائلة على حروبه الطويلة، رأينا أن ذلك كان لا بد أن يؤدى حتماً الى الإفلاس، وهو ما وقعت فيه اسبانيا من جراء سوء حكومة فليب الثانى وتدبيره العقيم

ثورة الأراضى المنخفضة

وظهور الجمهورية الهولندية (١٥٧٢ — ١٦٠٩)

كانت ثورة الأراضى المنخفضة أكبر مصيبة نكبت بها اسبانيا فى عهد فليب الثانى. فقد أفضت بعد حروب طاحنة الى اضعاف شوكتها ونضوب معين ثروتها وأوجدت لها عدواً شديداً فى شخص تلك الأمة الهولندية التى صارت بعد استقلالها من أقوى الأمم البروتستنتية؛ ثم أصبحت فى القرن التالى عماد الحرية ومهبط العلم والعرفان بين الممالك الأوربية

حالة البلاد السياسية — كانت الأراضى المنخفضة تتكون من سبع عشرة قطيعة كلها آهلة بالصناعة والتجارة. وكانت فى الظاهر جزءاً من الامبراطورية وان لم تخضع يوماً ما لسلطانها المطلق، لما فُطر عليه أهلها من حب الحرية والاستقلال

اسباب انقسام البلاد

وكان أهم غرض يرمى اليه حكامها منذ عهد شارل الجسور الى حكم شرلكان ، هو توحيد حكومة تلك السبع عشرة قطيعة ، فحال دون ذلك ما كان بين قطائع الشمال وبين قطائع الجنوب من الاختلافات الدينية والجنسية والسياسية والعواطف القومية . فكان سكان الشمال على وجه عام على المذهب البروتستنتى ، ومعظمهم من الجنس التيتونى وينزعون الى الحكومة الديمقراطية . أما سكان الجنوب فكان الجم الغفير منهم على دين الكنيسة الرومية ، وينتسبون الى الجنس الكلتى ، ويميلون فى حكومتهم الى الارستقراطية . هـذا الى أن كل قطيعة من هذه القطائع كانت منفصلة تمام الانفصال فى شؤونها ، وكانت كل منها تنافس الأخرى

حالتها فى عهد شرلكان

لاقت هذه البلاد فى عهد شرلكان شيئًا من الاضطهاد والظلم ، اذ حُرم أهلها من بعض حقوقهم ، وأثقل كاهلهم بالضرائب ؛ الاّ ان لين جانبه لهم فى الجملة جعله محبوبًا بينهم الى آخر مدته . ولما ورث فليب هذه البلاد كانت لا تزال فى الظاهر آمنة مطمئنة ، وقد مكث هو فيها الى أن رحل الى اسبانيا سنة ١٥٥٩ . وكان فى خلال هذه المدة يدبر الطرق التى يتسنى له بها القضاء على المذهب البروتستنتى فى هذه البلاد ، عملاً باعتقاده ان توحيد الملك لا يأتى الاَّ بتوحيد الدين

ولاية مرغريت برما

وأول الأغلاط التى ارتكبها فى سياستها انه عند مبارحته لها لم ينصّب عليها واليًا من أبنائها ، بل عهد بها الى أخته « مرغريت بَرْما » (١٥٥٩ — ١٥٦٧) ، فساء ذلك أهلها ، ولا سيما لما قضى فليب على مجلسهم المؤلف من أشراف البلاد وشكل غيره برآسة « جِرَنْفِلاّ » البرجندى الذى كان مشهوراً بجوره وغلظته . هذا الى أنه وسع نفوذ محكمة التفتيش التى كان أدخلها والده من قبله فى البلاد ، فأنشأ فيها أربع عشرة أسقفية فرعية علاوة على الثلاث الأصلية ، فاتسع بذلك نطاق محاكم التفتيش: مما أغضب الأهلين من الكاثوليك والبروتستنت على السواء وجعلهم يظهرون سخطهم الشديد لذلك . وكأنّ فليب كان يشعر بما عساه أن ينجم من جراء عمله ، فاحتل البلاد بجيش كان سببًا فى ازدياد اثارة الخواطر ، مما جعله يضطر بعدُ الى سحبه .

جرنفلا

ثم قام بعد ذلك الأشراف بمساعدة مرغريت يطلبون الى فليب عزل جرنفلا ،

وكانت تمقته كثيراً . فلم يرَ فليب بدًّا من اجابة مطلبهم (١٥٦٤)

شدة الاضطهاد — على انه بعد اعتزال جرنفلا الأمر كانت مرسومات الاضطهاد تنفذ بكل قسوة وغلظة ، فقام نفر من الشبان الأشراف وألفوا جمعية لقبوها بالحلف كان الغرض منها إلغاء محكمة التفتيش . واكبر زعماء هذه الحركة ثلاثة وهم « وليم أورَنْج » الشهير بوليم الصامت و « الكنت إجْمُنْت » وأمير البحر « هُورن » . أما وليم وهو أقدر الثلاثة سياسة ومهارة واكثرهم وطنية فانه ينتسب الى بيت « نَسَّاو » الألمانى . وقد تربى فى بطانة شرلكان ، وكان محبوباً منهُ مقرباً لديهِ . ولما تولى فليب الملْك كان وليم لا يزال فى ميعة الشباب

حلف لالغاء محكمة التفتيش

اهمية الحلف — وقد زاد فى أهمية هذا الحلف اشتماله على نفر من الكاثوليك . وأول عمل قام به ان قدم الى مرغريت احتجاجًا على محكمة التفتيش، فداخل الأميرة الخوفُ واستولى عليها الفزع ، فشجعها أحد رجال حاشيتها وقال: « لا تخافى بأس هؤلاء الشحاذين» فلُقب الحلف بهذا الاسم من ذلك اليوم

ولما عُرض هذا الاحتجاج على فليب أبى اجابة مطلب الحلف ، فامتدت بذلك نار الثورة الى الغوغاء ، فخربوا الأديرة والبيع والكنائس، وأتلفوا الصور والتماثيل الدينية فى معظم أمهات المدن مثل « انفرس » وغيرها ، فاضطرت مرغريت أن تعِد الثوار بالغاء محكمة التفتيش . ثم إنّ عبث البروتستنت بكنائس الكاثوليك ومعابدهم صرف الكاثوليك من حولهم . فخمدت نار الفتنة وكادت المياه تعود الى مجاريها بحزم أورنج وأصحابه

اخماد الثورة الاولى

تفشيها من جديد — الاَّ أن فليب كان قد علم بقيام الثورة فانتهزها فرصة للقضاء على البروتستنت ؛ فسير « دوق ألفا » على رأس جيش عظيم لهذا الغرض ، فكان وصوله السبب النهائى فى اعلان الثورة وتفشيها ؛ وذلك سنة ١٥٦٧

دوق الفا — أما مرغريت فانها اعتزلت الحكم ، فنُصب مكانها «الفا» . وأول عمل قام به أن قبض على « اجمنت » و « هورن » ، وأفلت من يده « أورنج » . ثم أخذ يرتكب فظائع تقشعر منها الأبدان وتنفطر لها القلوب على يد « مجالس الدم » الذى الفهُ من

الاسبان لهذا الغرض . وكان « الفا » يفتخر أنهُ أهلك بأمره ١٨٠٠٠ نفس ، وقد برح من البلاد ثلاثة أمثال هذا العدد ذهب معظمهم الى انجلترة . أما « اجمنت » و « هُورن » فانه أعدمهما من غير محاكمة عادلة

فظائعه في البلاد

وفي أثناء ذلك كان وليم « أورنج » يجمع جيشاً لقتال « ألفا » ، وكان يشعر أن لا قِبَل له بمنازلة جنود اسبانيا المدربة التي ظهر فواقها جلياً عند ما هُزم أخوه لويس نسَّاو عند « جِمِنْجِن » وأراد هو أن يعوض تلك الهزيمة فلم يتمكن ، واضطر الى الانسحاب بدون قتال ، وكادت جميع البلاد تكون في قبضة « الفا »

نجاحه اولاً في اخماد الثورة

وكان «الفا» في ذلك الوقت يضرب الضرائب الفادحة على الأهالي لحاجة الحكومة الاسبانية الى المال ، فكان عمله سبباً في تعطيل حركة التجارة في هذه البلاد ونضوبها وكسادها حتى عمَّ السخط ، وقام بين هذه الزعازع جماعة من لصوص البحر الهولنديين والانجليز ينتقمون للثوّار من سفن اسبانيا وبلاد الساحل الموالية لها في الأراضي المنخفضة ، فخربوا الكنائس وسلبوا نفائسها وباعوها علناً في «دوفر». وكانت انجلترة في أول الأمر تساعد هؤلاء القوم وتحميهم ، ثم تنحّت عن ذلك لأسباب سياسية ، فاضطر «دلمارك» رئيس متلصصة البحارة الهولندية (شحاذي البحر) الى الالتجاء بأسطوله الى سواحل زيلندة ، فاستولى على ثغر «بِرِل» باسم وليم أورنج سنة ١٥٧٢ ويُعتبر استيلاء شحاذي البحر على هذا الثغر ابتداء ظهور الجمهورية الهولندية

ظلمه يعيد الثورة

برل ابتداء الجمهورية الهولندية

وأخذت الثورة تتفشى في الأعمال الشمالية بسرعة ، وقُلد وليم منصب ستاتْهُلْدَر (رئيس الجمهورية) لأعمال هولندة وزيلندة وجِلْدَرلندة وأُتْرخت . وكان يأمل مساعدة انجلترة وفرنسا له لنشر نفوذه في الأعمال الجنوبية أيضاً ، فلم تحقق امانيه . أما «ألفا» فانه بعد طرده «لويس نسَّاو» من «مُنْس» في الجنوب أخذ يغزو الجهات الشمالية . وأهم حادث في هذه الحرب هو حصار «هارلم» الذي أظهر فيهِ الهولنديون ضروب الصبر والشجاعة وحب الوطن ، وقد سلمت البلدة أخيراً بعد ان أبلى رجالها بلاءً حسناً خلد ذكرهم في التاريخ* . بعد ذلك طلب الفا الى فليب أن يقيله من حكم هذه

حصار هارلم

* كان شأن الهولنديين في جل حروبهم مع الاسبان أن لا يلتحموا بهم في ميدان مكشوف بل يتحصنون داخل مدنهم المنيعة ويهدمون وقت الشدة الحواجز التي تقي بلادهم من البحر فتنطلق المياه منها على المحاصرين فتشتت شملهم

البلاد يائساً من نجاحه فيها ، فأجاب رجاءه سنة ١٥٧٣

تولية ركوسنس

ونصب فليب مكان هذا الطاغية القائد العظيم « رِكُوسِنْس » وكان يرغب في انهاء الحرب. الآ أن أورنج أصر ألاّ يبرم الصلح الاّ بشروط ثلاثة : وهى التسامح الدينى واسترجاع حقوق البلاد الدستورية واعتزال كل الأجانب أعمال الحكومة

حصار ليدن

فلم يقبل فليب هذه الشروط واستمرت الحرب. وكان أهم حادث فيها « حصار ليدن » (١٥٧٣ - ١٥٧٤). ولما يئس الهولنديون من خلاصها قطعوا جسورها فطغى الماء عليها وشتت شمل الاسبانيين ، فأنقذت المدينة بذلك . وقد أسس وليم اورنج بها كلية ليدين تذكاراً لهذا الدفاع المجيد

تخريب انفرس

أما فليب فانه لم يتحول عن رأيه ، فطلبت بعض الولايات الى « اليصابات » ملكة انجلترة أن تستولى على بلادهم ، فرفضت لعلمها أن الوقت لم يحن بعد لمناوأة اسبانيا . وفى عام ١٥٧٦ مات « رِكُوسِنْس » فجاءة ؛ وبموته ثار الجنود لتأخر وظائفهم وخرّبوا مدينة « انفرس » وأحرقوا منازلها وتركوها قاعاً صفصفاً

معاهدة غنت بين الشمال والجنوب

فأثار ذلك غضب أهل الشمال والجنوب جميعاً ، فاتحدوا على اسبانيا وأبرموا بينهم معاهدة « غنت » الشهيرة، وأهم شروطها : (١) أن يتحدوا جميعاً على طرد الجنود الاسبانية : (٢) أن يقضوا على كل أنواع الاضطهاد الدينى ويكوّنوا مجلساً من بينهم يتمثل فيه كل الولايات للبحث فى المسائل الدينيــة : (٣) أن يبقى وليم أورنج رئيساً عليهم ويحكم البلاد باسم فليب : (٤) ان يفرج عن كل المسجونين ويُردّ كل ما اغتصبته الحكومة الى أهله

ولاية دون جوان

وكان فى ذلك الحين قد وصل « دون جوان » أخو فليب الحاكم الاسبانى الجديد سنة ١٥٧٦ ، فوافق على هذه المعاهدة على شرط أن يكون هو صاحب السلطان فى البلاد ، وأن تسلّم اليه كل القلاع الشمالية . فحذّر وليم أورنج الولايات من تنفيذ هذه الشروط وأن لا يغتروا بوعود اسبانيا الكاذبة

أما وليم فكان لحين قدوم « دون جوان » صاحبَ الزعامة فى جميع الأراضى المنخفضة ؛ ولكن نفوذه أخذ ينحصر فى الأعمال الشمالية، لحسد أشراف المقاطعات

انقسام الشمال والجنوب

الجنوبية له وما كان بين أهل الشمال والجنوب من الاختلاف. واختار هؤلاء الاشراف « الأرشدوق متياس » الألمانى رئيساً لهم لمناهضة دون جوان ، فلم يمانع فى ذلك أورنج حباً فى استقلال بلاده وتحريرها . أما دون جوان فانه شن الغارة على أعدائه مناضلاً عن مركزه ، فهزمهم فى موقعة « جمبلو » فى يناير سنة ١٥٧٨ . ولما رأى فليب الثانى نجاح أخيه حسده ومنع عنه المدد والمؤن ؛ فأثر ذلك فى نفس دون جوان فمات كمداً وهو فى ميعة شبابه (اكتوبر سنة ١٥٧٨)

وكان فى خلال المدة القصيرة التى أقامها بهذه البلاد يتوخى اللين والدهاء ، اذ كان يرمى الى القضاء على معاهدة غنت . وبالفعل مهد السبيل الى رجوع الجهات الجنوبية الى حكم اسبانيا

ولاية اسكندر برما

ثم عهد بأمر الأراضى المنخفضة الى اسكندر برما « ابن مرغريت » ، فسار على خطة سابقيه ، فكان النجاح رفيقه . فاستفاد من العداء الدينى الذى كان بين الولايات الجنوبية والشمالية . وساعده أيضاً عبث جنود وليم أورنج بالأهالى وظلمهم لهم

أما وليم أورنج فظهر له انه يحاول عبثاً توحيد كل الولايات والمحافظة على شروط معاهدة غنت ، فاضطر الى الالتجاء الى أهالى الجهات الشمالية الذين كانوا يبغضون الاسبان من أجل الدين والحرية . فنجح فى توحيد سبع ولايات فى الشمال سميت « اتحاد أترخت » عام ١٥٧٩ . وانتخب هو رئيساً لها . وهذا الاتحاد هو المبدأ الحقيقى للجمهورية الهولندية ، وان كانت سيادة اسبانيا بقيت معترفاً بها اسماً حتى عام ١٥٨١ حينما أعلن انفصال هذه البلاد عن اسبانيا . فقابل فليب ذلك باعلان سخطه على وليم أورنج واباحة دمه ومكافأة قاتله * . أما وليم فانه دافع عن نفسه فى اعتذار أرسله الى حكومات أوروبا نفى عن نفسه فيه العصيان . ثم رأى أن يستعين بفرنسا فعرض عرش البلاد على دوق انجو أخى ملكها ؛ فقبله بكل ارتياح ، ولكن مالبث أن ساءه نفوذ أورنج

اتحاد اترخت

دوق انجو

* وقد كان ذلك من أكبر الأسباب التى دعت الهولنديين الى الخروج جهاراً على فليب بعد أن كان قيامهم بدعوى طلب الاصلاح ، وقالوا : « ان الملك اذا لم يكن فى رعيته كالراعى مع غنمه ، واسترقهم وسار فيهم سير الظلم والعسف ، حق لأهل البلاد شرعاً أن يخلعوه ويولوا غيره » ، فكان لهذا المبدأ أكبر أثر فى أوروبا ، وقد ردد صداه فى الثورات التى قامت فى انجلترة وأمريكا وفرنسا

فى البلاد فعزم على الاستقلال بالسلطان ، فاحتل بعض البلاد بجنده ، فدافع سكان

وليم الصامت رئيس الولايات الشمالية

انفرس عنها دفاعاً شديداً أفضى الى مذبحة عظيمة . وقد سببت هذه الأمور حنق الأهالى عليه حتى اضطر الى العودة الى فرنسا حيث مات فى العام التالى سنة ١٥٨٤ وبعد طرد الأمير الفرنسى ألفت الولايات الشمالية حكومة دستورية برآسة أورنج ، فلم تكن الاّ مدة يسيرة حتى اخترمت حياة ذلك البطل العظيم يد « بَلْتا سار جيرارد »

مقتله

الأثيمة فى يوليه سنة ١٥٨٤ ، وكانت تلك المرة السابعة التى حُووِل فيها اغتياله بتحريض من فليب . وقد كان لوليم الصامت الفضل الأكبر فى اثارة هذه الحركة والسير بها الى طريق الظفر . فانه مع قلة نبوغه فى الفنون الحربية كان أكبر قدوة لمواطنيه

فضله فى تحرير البلاد

فى الصبر والشجاعة والاقدام ، وإلى بُعد نظره ودهائه ولين عريكته التى جعلته فى قمة سواس عصره يرجع الفضل فى لمّ شعث الأحزاب المتضاربة التى قامت بها الثورة. ولا نكون مغالين اذا قلنا انه هو المكوّن لدولة هولندة الحديثة



وليم أورنج (الصامت)

موريس اورنج

خلفه ابنه « موريس » فأظهر مهارة حربية تفوق مهارة والده . ومن هذا العهد لَم يكن للحروب التى قامت فى هذه البلاد شأن يذكر الاّ من الوجهة الحربية . وقد أفلح برما فى اخضاع كل الجهات الجنوبية الى اسبانيا ، فعُرفت بالأراضى المنخفضة الاسبانية

تأثير الارمادا

أما الجهات الشمالية فانها حافظت على استقلالها بفضل حذق موريس وقدرته ومساعدة «اليصابات» ملكة انجلترة وهنرى الرابع ملك فرنسا . هذا الى ان اشتغال فليب بشؤون أملاكه الأخرى كان أهم سبب فى بقاء استقلال هولندة وقلة مناهضته لها. فان حربه مع انجلترة وتدمير اسطوله (الأرمادا) كان ضربة مؤلمة لسيادة اسبانيا. وكان فليب من حين الى آخر يرسل النجدات الى كاتوليك فرنسا ، فكان يضطر

برما فى الأوقات العصيبة الى ترك الاراضى المنخفضة ويسير بجيشه الى فرنسا. وقد بقيت الحرب مستمرة بين الفريقين حتى عام ١٦٠٩ وهى السنة التى أبرمت فيها اسبانيا مع جمهورية هولندة مهادنة لمدة اثنى عشر عاماً

استقلال هولندة

وعلى أثر انقضاء هذه المدة قامت نار الحرب ثانية واستمرت كذلك حتى «معاهدة وستفاليا» سنة ١٦٤٨ التى اعترفت فيها اسبانيا والامبراطورية باستقلال هولندة

هكذا انتهت هذه الثورة العظيمة باستقلال هولندة. وقد كان لنجاح هذه البلاد وظهورها على اسبانيا أثر حسن فى حفظ كيان المذهب البروتستنتى، اذ لو كانت الغلبة لاسبانيا لادى ذلك الى تدهور البروتستنت، ولكن ببقائها فى يد أهلها وقف تيار الاصلاح الكاثوليكى عند حد محدود. ومن هذا العهد أيضاً أخذت هذه البلاد تخطو خطوات واسعة فى سبيل العمران والتقدم، وازداد عدد سكانها زيادة عظيمة اذ نزح اليها كثير من بروتستنت البلاد الجنوبية التى بقيت فى حوزة اسبانيا ومن فرنسا وألمانيا. وقد زاد عدد السكان فى بعض الجهات حتى ان الكثير من الاسرات ضاقت بهم الأرض بما رحبت فاتخذت القوارب فى البحار سكناً، وقد أدى ذلك الى تجفيف مستنقع عظيم فى داخل بلادهم. وصار لهذه البلاد شأن كبير فى عالم التجارة، فان سفن شحاذى البحر الذين كان لهم أثر خالد فى العمل على استقلال بلادهم اخذت تجوب بحار العالم يخفق عليها العلم الهولندى وتحمل السلع والبضائع من كل أقطار العالم الى مستودعات بلادها الضخمة، فتوزع منها على سائر ممالك أوربا

فضل هولندة فى اوربا

ولم يكن مبلغهم من الصناعة والعلم بأقل من ذلك، ففضلهم فى الزراعة وصناعة السفن لا ينكر، ولجامعتهم الشهيرة فى «ليدن» الصيت الاكبر فى تقدم العلوم الكونية

الفصل الرابع

انجلترة

١ — ﴿ ملخص تاريخ انجلترة الى عصر النهضة ﴾

مبدأ تاريخ انجلترة الحديث

يبتدئ تكون الأمة الانجليزية الحديثة منذ فتح النُرمَنديين لبلادها عام ١٠٦٦، ولكي يسهل علينا فهم تاريخ انجلترة منذ عصر النهضة الأوربية يجدر بنا الالمام بأهم أخبارها بين الفتح النرمندي والنهضة وأشهر التقلبات والحوادث التي سبقت ذلك الفتح

انجلترة وهى ولاية رومانية

كان يقطن انجلترة فى أول أمرها قبائل من الجنس الكِلتي يسمون « بريطون »، ومن اسمهم اشتق اسم هذه البلاد. وفى سنة ٥٥ قبل الميلاد المسيحى غزا بلادهم الرومان، فبقيت جزءاً من الدولة الرومانية حتى سنة ٤١٠ م، اذ سحب الرومان منها حاميتهم للدفاع عن رومية نفسها وقت أن أغارت عليها قبائل القوط وغيرهم من الأمم البربرية. ولم يترك الرومان أثراً يذكر فى حكومة البلاد وأحوالها الاجتماعية كما كان شأنهم فى باقى أملاك الدولة الرومانيـة، وجلّ ما تركوه من آثارهم فى برطانيا مقصور على الاصلاحات الظاهرية والمنافع المادية، كالطرق والقلاع والجسور والقناطر. فكأن الفتح الرومانى لانجلترة من حيث تكوّن الأمة وتطورها لم يكن

غارة الانجليز السكسونيين

وكان « البريطون » قد فقدوا الملكة الحربية أثناء حكم الرومان لهم فصاروا بعد خروجهم لا طاقة لهم بصدغارات المغيرين على بلادهم من الشمال والشرق: فغزاها من الشمال « الاسكُتش » و « البِكْت »، ولكنهم لم ترسخ أقدامهم فى البلاد، بل صارت من نصيب غزاة الشرق من الأنْجل[1] والسكسون. أخذ هؤلاء الغزاة يفدون الى البلاد زمراً من الدانمرك ومن شمالى المانيا الغربى، وأخذوا يستوطنون الشواطىء الشرقية والجنوبية الشرقية منذ عام ٤٤٩ م، ومن ثم صاروا ينتشرون فى الجزيرة بالتدريج حتى باد السكان الأصليون أمامهم، أو فروا الى جبال « ويلز » وغيرها من الجبال القاصية. ومن ذلك الحين سمى القسم الجنوبى من جزيرة برطانيا « أرض الأنجل » أو « إنْجِلَنْد »[2]

ملوك وسكس

وكوّن الأنجل والسكسون فى أول الأمر ولايات مستقلاً بعضها عن بعض. ثم اعتنقت الديانة المسيحية واعترفت تدريجاً بالزعامة لأعظم ولاية بينها وهى « وِسكس » التى انتهى أمر حكامها بالتلقب بلقب ملوك فى أوائل القرن التاسع

---

(١) الكلمة فى الانجليزية Angles وهى جمع فعربت بلفظة (انجليز)

(٢) وقد نقلت الى العربية بلفظ « انجلترة » من طريق التسمية الفرنسية

الفرد وغارة الدانمركيين

وكان أعظم ملوكهم « ألْفِرد » ، وكاد الدانمركيون قبل توليته يستولون على جميع انجلترة فتغلب عليهم وقصر ملكهم على شمالى انجلترة وشرقيها عام ٨٧٨ م

ادجر وغارة الدانمركيين

ووطد خلفاؤه من بعده دعائم الملك ، الى أن دب فيهم الضعف بوفاة الملك الكبير « إدْجَر » سنة ٩٧٥ . فأغار على البلاد زمر جديدة قوية من الدانمركيين عام ١٠١٣ ، وصارت انجلترة جزءاً من دولة الدانمرك العظيمة الشأن حينئذ

الفتح النرمندى

ثم عاد المُلْك الى البيت الانجليزى، وبقى فيهم الى أن غزا النرمنديون البلاد بقيادة «وليم الفاتح» دوق نرمندية وقهر الانجليز فى واقعة « هيستنجز » الشهيرة عام ١٠٦٦ ، فاستوطن النرمنديون البلاد وتناسلوا مع أهلها ، ومن امتزاج هذه الأجناس المختلفة نشأ الشعب الانجليزى الحديث .

تكون الشعب الانجليزى الحديث

واتخذ وليم انجلترة مقره ، ونظم شؤون الحكومة ، وجعل البلاد مملكة قوية مستعدة للدخول فى ذلك المضمار الذى دخلت فيه فيما بعد لتكوين مجدها ورفع شأنها بين أمم أوربا

وسنقصر كلامنا فى تاريخ انجلترة من الفتح النرمندى الى عصر النهضة الأوربية (الذى اخترنا مبدأه فى انجلترة استيلاء التيودور على العرش عام ١٤٨٥) على أمرين عظيمين : هما توسيع الملك ونمو الحكم الدستورى ، اذ ابتدأ ظهورهما عقب الفتح النرمندى وبقى متصلاً حتى ابتداء العصر الذى نحن بصدده ، فكان لهما منذ ابتدائه شأن آخر سنفصله فى مكانه

اتساع نطاق انجلترة

ضم وليم الفاتح نرمندية وانجلترة احداهما الى الأخرى ، فبقيتا كذلك طول حكم أسرته (١٠٦٦ — ١١٥٤) الى أن تولى هنرى الثانى ، أحدُ أحفاده وأول ملوك أسرة « البلَنْتجِنتْ » (١١٥٤ — ١٤٨٥) ، فضم الى ملكه أكثر من نصف فرنسا : بعضه بطريق الوراثة وبعضه بطريق المصاهرة . فكان ذلك أول الأملاك الانجليزية خارج الجزر البرطانية* . أما فى داخلها فقد بدأ الانجليز فى عهده غزو « ارلندة » ، وتم لهم الاستيلاء على معظم بلاد ويلز بانتهاء القرن الثالث عشر

نمو الحكم الدستورى

أما الحكم الدستورى فيمكن تقسيمه الى ثلاثة أطوار : —

الطور الاول

(١) من ١٠٦٦ الى ١١٧٤ ، وينتهى باضعاف الملك لنفوذ الأشراف . فقد كان أشراف النرمنديين يطمعون فى التمتع بكل السلطان الذى كان لأشراف فرنسا حيث كان النظام الاقطاعى مستتباً . ولما كان هذا النظام فى انجلترة لم يتجاوز الأمور الزراعية ولم يسمح للأشراف بنفوذ كبير ثاروا على الملك مراراً ، وأخذوا يعتدون على حقوق الطبقات الأخرى ، الى أن أخمدهم « هنرى الثانى » عام ١١٧٤ ، فلم يعودوا بعدها الى ما كانوا عليه من القوة

الطور الثانى

(٢) من ١١٧٤ الى ١٢٧٣ ، وفيه استفحل نفوذ الملك ، فاستعان الأشراف بالشعب والكنيسة على اضعافه . ولما اشتطّ الملك حنا (أظلم ملوك انجلترة) فى الجور والاستبداد اتحدت

---

* فقد الانجليز معظم هذه الأملاك أوائل القرن الثالث عشر ، ولكنهم استرجعوها بعد قرن ونصف على يد ملكهم « ادورد الثالث » (١٣٢٧ — ١٣٧٧) . ثم فقدوا شمالى فرنسا وغربيها فى عهد هنرى السادس (١٤٢١ — ١٤٦١) وخسروا « كاليه » عام ١٥٥٨

جميع طبقات الأمة عليه وارغموه سنة ١٢١٥ على منح الأمة حقوقاً معينة دُوِّنت في مرسوم يسمى « مجنا كرتا » ومعناه العهد الأعظم ، وهو يعتبر أساس الحقوق الدستورية التي يتمتع بها الشعب الانجليزي الآن ، وبه رفعت أعظم المظالم عن الشعب ، وحرّم على الملك أن يفرض على الأمة ضرائب غير ما تمده به بمقتضى النظام الاقطاعي ، ما لم يكن ذلك بموافقة المجلس الأعظم الذي يمثل الأمة

مجنا كرتا

وقد حاول « هنري الثالث » ابن حنا أن يفتات على هذه الحقوق ، فثار به الشعب بزعامة الإرل « سيمون دي منتفرت » وجمع مجلساً عاماً يمثل جميع أنحاء البلاد للنظر في الأمر سنة ١٢٦٥ ، فكان ذلك أول مجلس قريب في تشكيله من البرلمان الانجليزي الحالي . ومن ذلك الحين فطن الناس لحقوقهم ، وتمسكوا بمشاركة الملك في ادارة شؤون الأمة . ولما تولى « ادْوَرْد الأول » عام ١٢٧٢ لم ير بداً من الخضوع لرغبات الشعب واشراكه معه في أمر الامة

الطور الثالث

(٣) من ١٢٧٢ الى ١٤٥٠ ، وفيه حافظ الملك ادورد الاول وخلفاؤه رغبةً أو كرهاً على الروح الدستورية ، وعمل مع الاشراف والشعب على نموّ الحكم النيابي . وقد حاول اثناءه ادورد الثاني أن يستبدّ بالأمر فعزل وقتل . فاضطر خلفه الى الانقياد لرغبة البرلمان ، خصوصاً أنه كان في حاجة الى معونته في جمع ما يلزم من المال للانفاق على حروب «مائة العام». وفي آخر حكمه نما البرلمان ، فصار يتألف من مجلسين (المجلس الاعلى والمجلس الادنى) واتخذ الشكل الذي نراه عليه الآن . ثم اضطر الملوك من بعد هنري الرابع والخامس والسادس الى مؤازرة الروح النيابية ، حتى أصبحت سلطة البرلمان غير مقصورة على الضرائب ، بل تعدتها الى الاشراف على حساب الحكومة والاشتراك في تنصيب الوزراء

حرب الوردتين

وفي سنة ١٤٥٥ نشبت حرب داخلية طويلة (١٤٥٥ – ١٤٨٥) تسمى « حرب الوردتين » اشارة الى الوردة الحمراء التي كانت شارة بيت لَنْكِسْتَر (من أسرة البلنتجنت) والوردة البيضاء التي كانت شارة بيت « يورك » الذي قام ينازعهم في الملك ، وهو من اسرة البلنتجنت أيضاً . ففاز بالعرش بيت يورك عام ١٤٧١ ولكن ملكهم « رِتْشَرْد الثالث » أغضب الشعب بفظائعه العديدة التي من أنكرها قتله ابني أخيه ادورد الرابع ، فتمكن « هنري » أحد افراد بيت لنكستر من ضم الشعب الى جانبه وتأليف اسرة مالكة جديدة تسمى « الأسرة التِيُودورِيّة » نسبة الى جده « أُوِن تيودور » (من بلاد ويلز) عام ١٤٨٥ ، وسمي « هنري السابع » وباستيلاء الأسرة التيودورية وقف نمو الحكم النيابي بانجلترة لأسباب تتضح مما يأتي :

منشأ التيودور

٢ — الأسرة التيودورية : ١٤٨٥ — ١٦٠٣
(عصر الحكم المطلق)

يبتدئ عهد الأسرة التيودورية بتولى هنرى السابع عرش انجلترة عام ١٤٨٥ ؛ وكانت توليته بعد حروب شعواء مزقت أحشاء البلاد كل ممزق

ميزات عصر التيودور

وكان ابتداء حكمه فاتحة لعصر تقدم مالى عظيم قام بأعبائه أفراد الطبقة الوسطى بتجارهم مع الأمم والبلاد النائية التى فتح باب الوصول اليها أكابر كشّاف ذلك العصر ؛ هذا الى ان نهضة احياء العلوم وحركة الإصلاح الدينى استحوذتا على العقول وشغلتا أفكار القوم ، فأصبحت كل همتهم منصرفة الى اكتساب العلوم وطلب الثروة من طريق التجارة ، ونبذوا الاشتغال بالسياسة ؛ فصار الحل والعقد فيها بيد الملك

اخماد نفوذ البرلمان

وكانت الروح الاستبدادية هى السائدة فى ذلك العصر فى معظم بقاع أوربا ، ففى اسبانيا قضى شارل الخامس وفليب الثانى على الحقوق الدستورية التى كان يتمتع بها كل من الأرجون وقشتالة ، وفى فرنسا أخذ مجلس الأمة النيابى يحتضر حتى صُرف سنة ١٦١٤ ، فبقيت أنفاسه مخمدة نحو قرنين من الزمان . على ان انجلترة لم تُصَب فى ذلك العصر بهدم أنظمة برلمانها ، وغاية ما لحق حقوقها النيابية ان عَظُم نفوذ الملك وزادت قوته زيادة كبيرة ، حتى لم يمكن التغلب عليها نهائيًا فى المستقبل الاّ بعد مكافحة شديدة دامت نحو قرن من الزمان . ويرجع بقاء الأنظمة الدستورية فى انجلترة وعدم هدمها الى أمور ثلاثة : (١) لما كانت البلاد الانجليزية مفصولة عن الممالك الأخرى بالبحار لم تكن ثمة حاجة الى وجود جيش قائم بها للدفاع عنها ، ففقد الملك فى ذلك سلاحًا قويًا كان يمكنه شهره فى مد سلطانه وتضخيم قوته . (٢) كان هنرى السابع وخلفه هنرى الثامن يحرصان على التمسك بقوانين البلاد ظاهراً ؛ فلم يعبثا بأنظمة البرلمان أو يمحوا شيئًا منها ، بل سعيا الى جمع السلطة فى أيديهما من طريق الاستبداد بالأعضاء ورشوتهم ، فانحطت حالة البرلمان مؤقتًا ، ولكنهُ بقى حيًّا حتى أتيح له بعدُ الانتعاش والتطهر من كل الأدران التى لحقت بهِ ، حتى أصبح القوةَ

عدم هدم النظام الدستورى

الفعالة فى حكم البلاد . (٣) كان مجلس اللوردات (وهو أكبر مناهض لسلطان الملك فى القرون الوسطى) قد ضعفت شوكته ، ونقص عدده الى ٢٩ عضواً فى عام ١٤٨٥ ، لفناء معظم الأشراف فى حروب الوردتين ؛ فلم يكن فى طاقة مجلس الأمة أن يقوم وحده بمناوأة الملك ، فخضع لنفوذه ؛ اذ لو كان ناصبهُ العداء لكان فى ذلك الضربة القاضية عليهِ

وخلاصة القول ان ملوك الأسرة التيودورية كانوا مستبدين ، ولكنهم حافظوا على رسوم الحكومة النيابية ، فبقى البرلمان ولا حول له ولا قوة حتى حان الوقت المناسب فانبعث روح جديد فى تلك الرسوم الهامدة

طبقة جديدة من الاشراف

وفى ذلك العهد أيضاً قُضى على النظام الاقطاعى ، للحروب الطويلة التى أفنت معظم الأسرات الكبيرة وأفقرتها ، ثم ما لبثت الطبقة الوسطى ان أثرت وأخذت تشترى ضياع الأشراف البائدة ، وكوّنوا طبقة جديدة من الأشراف

هنرى السابع (١٤٨٥ — ١٥٠٩)

هنرى يوطد قدمه

نزل « هنرى تيودور » بانجلترة عام ١٤٨٥ ، وكان فى فرنسا قبيل انقضاضه على عرش بيت يورك ؛ فشن الغارة على رتشرد الثالث وكسره فى موقعة « بُزْورِث » فى العام نفسه ، وقُتل رتشرد فى ميدان القتال. فاعترف البرلمان لهنرى بالعرش، فسمى من ذلك الحين «هنرى السابع». وقد رأى هنرى أن يتزوج بإليصابات من بيت يورك ليحسم ما كان بين الأسرتين من العداوة والشحناء ، فتزوج بها عام ١٤٨٦ ؛ ولكنهُ لم يأمن غائلة تلك الأسرة وبقى يحذر جانبهم ؛ فزج « إِرْل وَرِك » فى ظلمات السجن؛ وفى عام ١٤٨٧ ثار شخص يدعى «لَمْبِرت سِمْنِل» ادعى أنه هو «إرل وَرِك» المسجون ، فقبض هنرى على ذلك الدجال وأهانهُ بضمه الى خدم مطبخه

ثورة لمبرت سمنل

وكان هنرى، حريصاً حذراً مخادعاً شغوفاً بجمع المال ، يعرف من أين تؤكل الكتف . ساعد ولاية « برتَنى » على فرنسا سنة ١٤٨٩ حينما أرادت الأخيرة

صفات هنرى

ان تضمها الى أملاكها ؛ فلما عرض عليه ملك فرنسا مبلغ ٧٤٥٠٠٠ « كَرَوُن » فى مقابل كفه عن شد أزرها قبل عطاءه فرحًا متهللاً . وكان يلجأ فى جمع المال لشن غاراته الى طريقة غير قانونية تعرف « بالمِنَح » ، وهى أعطية يطلبها الملك من سراة الأمة ، فكانوا لا يجدون مندوحة من تلبية مطالب مليكهم . وقد كان ذلك الأمر مصدر منازعات كثيرة فى عصر ملوك اسرة استيوَرْت (الأسرة التى تلت هذه) ، ولم تنظر اليهِ الأمة الانجليزية بعين الرضى يومًا ما . على أن هنرى نجح فى افعام خزائنه بالمال بهذه الطريقة وغيرها ، حتى ترك لخلفه إرثًا عظيمًا

المنح

وكان عرش هنرى لايزال مهددًا ، فقام عام ١٤٩٥ دجال آخر يدعى « برْكِن وُرْبِك » وأدعى أنه رِتْشَرْد أحد ولدَى ادورد الرابع من بيت يورك (١٤٦١–١٤٨٣) فقُبِض عليه وزج فى السجن حتى أعدم عام ١٤٩٩ هو و « ارل ورك » الحقيقى بحجة ارتكابهما الخيانة ، اذ كان هنرى يشعر أنه يكون محفوفًا بالمخاطر ما دام ورك على قيد الحياة

وربك
وارل ورك

وفى عام ١٥٠١ تزوج « أرْثَر » أكبر أولاد هنرى « بكترين » بنت فردنند ملك اسبانيا؛ وكان غرض هنرى من ذلك أن يوطد علاقته مع اسبانيا لتكون عضدًا له على فرنسا عدوهما ؛ ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، اذ مات أرثر بعد خمسة أشهر من زواجه . فرغب هنرى السابع ان يزوج كترين من هنرى ثِنْى أولاده ، وكان ذلك منافيًا لقوانين الكنيسة الرومية ولكن البابا منح اذنًا خاصًا بذلك . ثم زوج ابنته مرجريت الى « جِمْس الرابع » ملك اسكُتْلَنْدَة (ايقوسيا) عام ١٥٠٣ ليوطد العلائق أيضًا بين المملكتين ؛ وصار هذا الزواج سببًا فى توحيد المملكتين بالفعل فيما بعد تحت حكم ملك واحد

سياسة هنرى
فى تزويج أولاده

كانت روح ذلك العصر حصر جميع السلطة فى يد الملك ، والسبب فى ذلك راجع الى عدم مناهضة الأمة له فى السلطان ، لما عاناه الأهلون من مصائب الحروب الداخلية . وكان هنرى يناوئ الأشراف مع قلة عددهم وضعف نفوذهم : فحرم وضع شاراتهم على ملابس أتباعهم وحاشيتهم ، لئلا يتعلق هؤلاء بالأشراف وينسون ولاءهم للملك. وقد غالى فى ذلك فحكم على « ارل لِسْتَر » بغرامة قدرها ١٠٠٠٠

جنيه حينما ألبس أتباعه هذه الشارات اظهاراً لولائهم له فى احدى زياراته . وفى اخريات أيامه اشتد بهنرى الجشع حتى كان يخرج العدل من نصابه ليملأ خزائنه .

امبسن وددلى

وقد اتخذ عونًا له فى ذلك اثنين من علماء القانون . وهما « إِمْبِسُن » و «دَدْلى» . فأخذا يُحييان ما دثر من القوانين التى يمكن بها ابتزاز المال

ومات هنرى السابع سنة ١٥٠٩ . وفى مدته كشف كلب أمريكا الوسطى وأقلعت أول سفينة انجليزية الى تلك البحار بقيادة « جون كَبُت » ، فوصلت الى شمالى أمريكا عام ١٤٩٧

هنرى الثامن (١٥٠٩ — ١٥٤٧)

مقتل امبسن وددلى

تولى هنرى الثامن عقب موت والده هنرى السابع عام ١٥٠٩ . وكان رجلاً ذكى الفؤاد نشيطًا ، محبوبًا من الأمة قبل توليتهِ الملك ، ولكنهُ كان قاسياً غشومًا ، فقتل « إمبسن » و « ددلى » ارضاء لمن ابتُزَّ منهم المال على أيديهما ، وذلك على الرغم من عدم ثبوت الجريمة التى وجهت اليهما ، وهى « خيانة الملك »

حروب هنرى الثامن

وفى عهده خاضت انجلترة عدة حروب خارجية ، فانضم هنرى مع الامبراطور على فرنسا فى الحرب القائمة بينهما اذ ذاك ، فهُزِم الفرنسيون فى موقعة جِنجيت » عام ١٥١٣ . وفى هذه الاثناء انتهزت اسكتلندة ذلك فرصة وغزت انجلترة . الاَّ أن جيوشها هُزمت هزيمة منكرة ، وقتل ملكها فى موقعة « فلُدِن » عام ١٥١٣ . فهادنتها انجلترة على أن لا تمد يد المساعدة الى فرنسا . ثم عُقد الصلح بين انجلترة وفرنسا سنة ١٥١٤ ، ولكن لم تلبث الحرب ان استمرت لظاها ثانية عام ١٥٢٢ ؛ وفى عام ١٥٢٥ تهادنت فرنسا مع هنرى على أن تنقده اتاوة سنوية

ولزى

وكان المحرك لسكان سياسته خلال هذه المدة وزيره العظيم «تومَس وُلْزِى». كان ولزى ابن أحد التجار ، فتربى فى الكنيسة تربية دينية ، ووصل بذكائه وعلمه الى منصب « رئيس أساقفة يورك » ، ثم ارتقى مستشاراً دينيًا ، فكردِنالاً ، الى ان وصل الى رتبة نائب البابا ، وبها أصبح المسيطر على الكنيسة الانجليزية . وقد كان

الأشراف يأبون أن يسيطر عليهم رجل ديني من عرض الناس ؛ ولكن مدة سطوتهم كانت قد انقضت ، ولما أُعدم «استفورد» دوق « بَكِنْجهَام» (وهو من نسل ادورد الثالث) سنة ١٥٢١ بدعوى طموحه الى العرش دبّ في قلوب الأشراف الرعب وانكمشوا . على أنّ « ولزى » كان أيضاً مبغّضاً من الأمة لاثقاله عاتق العباد بالضرائب الفادحة التي كان يضطر لجبايتها للإنفاق على حروب الملك وسدّ نفقاته الباهظة

الانفصال عن رومية

ثم عُزل «ولزى» من منصبه السامي من جراء مسألة طلاق زوج الملك . وذلك أن هنرى أراد أن يطلق كترين ، فادعى أن زواجه بها كان غير شرعي ، وكان يرمى الى التزوج بامرأة أُخرى تُدعى « آن بولين » . ولما كان البابا كلمنت السابع لا يريد اغضاب الامبراطور شرلكان (إذ كانت كترين قريبتـه) ولا يريد اغضاب هنرى ، سوّف الأمر ؛ ورغم ارساله نائبًا عنهُ الى انجلترة ليفحص المسألة مع ولزى عام ١٥٢٥ لم يقرر شيئاً في الأمر . وقد تمسكت كترين بحقوقها وعرضت أمرها على البابا ؛ ولما عيل صبر هنرى تزوج « آن بولين » رغم أنف البابا عام ١٥٣٣ ، وأنّب ولزى على خيبته في قضيته ؛ وفى عام ١٥٢٩ جرده من كل أملاكه وألقابه ، ثم قبض عليـه عام ١٥٣٠ بتهمة « خيانة الملك » ، الآ أن منيته عاجلته في طريقه الى « لندن »



هنرى الثامن

ولم يقف هنرى عند هذا الحد في معاداة الكنيسة ، بعد ما كان بينه وبينها من الصفاء والود السابق ، فقد كان هنرى كتب مقالاً سنة ١٥٢١ دافع فيهِ عن مذهب الكنيسة وطعن على

« لوثر » وتعليماته ، فسر ذلك البابا ومنحه لقب «حامى حمي الدين» (ولا يزال هذا اللقب من ألقاب ملوك انجلترة الى وقتنا هذا ، وان كان المذهب الذى يحمونه غير مذهب الكنيسة) . فلما راوغ البابا فى مسألة طلاق كترين انصدع ما كان بينهما من الود ، وأخذ الخرق يتسع بينهما على الراقع . فاندفع هنرى فى تيار الاصلاح الدينى؛ ومن ذلك الحين أخذت الكنيسة الانجليزية تنفصل شيئًا فشيئًا عن الكنيسة الرومية؛ فحرم الرجوع الى الكنيسة الرومية فى أى موضوع دينى ، ومنع كل ما كانت تجبيه الكنيسة من انجلترة ؛ ثم أعلن أنه الرئيس الأعلى للكنيسة الانجليزية . وقد قتل كثيراً من كبار رجال الانجليز لامتناعهم عن الاعتراف له بهذه السيادة ، منهم « تومس مور » الكاتب الانجليزى الذائع الصيت

دخول الاصلاح الدينى فى انجلترة

وبهذه الطريقة صار هنرى من أقوى أنصار الأصلاح الدينى؛ ولكن غرضه فى ذلك كان سياسياً أكثر منه دينياً ، وقابلت الأمة هذه الحركة بالامتثال ، وان لم يتمسكوا بكل تعليمات لوثر . وأخذ الاصلاح الدينى بعد عهد هنرى يظهر فى البلاد بشكل دينى وسياسى معاً . وقد ترك الجمهور أمر اختيار دين البلاد لملكهم ، وخضعوا لما يسنه من القوانين الدينية كغيرها من القوانين

تومس كرمول

وبعد خلع ولزى تولى ادارة شؤون البلاد « تومس كُرُمْوِل » وكان جباراً قوى البطش، أدار البلاد مدة عشرة أعوام بيد من حديد كان يطمح فى خلالها الى توطيد سلطان الملك مهما كلفه ذلك من ارتكاب الفظائع . وقد عيّنه الملك نائبا عنه فى الأمور الدينية ، فأخذ يعمل على محو الأديرة من البلاد . ففى عام ١٥٣٦ حل نظام كل الأديرة الصغيرة ووضع دخلها فى يد الملك ، فأحدث ذلك ثورة فى البلاد ؛ ثم ما لبث ان أحل بالأديرة الكبيرة ما أحله بالصغيرة منها . وكان بعض هذا المال يُصرف فى بناء المعاقل والحصون، وجانب منه لتأسيس الأسقفيات والجامعات، وإن ضاع منه كثير بين التبذير والتبديد

البابا يخلع هنرى ويحرمه

وفى عام ١٥٣٨ أعلن البابا خلع « هنرى » عن عرشه وحرمانه من الرحمة ؛ فنتج عن ذلك قتل خلق كثيرين من الكاتوليك بدعوى تآمرهم على هنرى لتنفيذ حكم البابا عليه . وقد بقى هنرى على مذهب الكنيسة الرومية ؛ الاّ أنه كان يضطهد

الكاثوليك والبروتستنت على السواء . فكان يضطهد حزب الكاثوليك لعدم اعترافهم بسيادته على الكنيسة الانجليزية ، ويمقت حزب البروتستنت لزيغهم عن المعتقدات القديمة

سقوط كرمول

وفي عام ١٥٤٠ أفل نجم تومس كرمول إذ سخط عليه الملك من جراء زواجه الرابع*؛ فاتهمه بالزيغ والخيانة ، وحكم عليه البرلمان بالاعدام من غير أن يسمح له بالنطق بكلمة واحدة دفاعًا عن نفسه

حروب هنري الثامن

وفي عام ١٥٤٢ شبت نار الحرب بين انجلترة واسكتلندة ، وكان النصر فيها حليف الانجليز ، فأحرقت ادنبرج وسُلبت ، وفي خلال الحرب مات جِمْس الخامس ملك اسكتلندة وخلفته ابنته مارية

وفي عام ١٥٤٤ أعلنت انجلترة الحرب على فرنسا لمساعدة الامبراطور شارل الخامس ؛ وانتهت الحرب عام ١٥٤٦ ، ولم تجن منها انجلترة ثمرة تذكر الا امتلاك بولونية بعد حصار طويل ، ووعدت حينئذٍ أن تبيعها للفرنسيين بعد ثماني سنوات

ولم يعمر هنري بعد هذه الحروب طويلاً ، فمات عام ١٥٤٧ ، وجعل وراثة الملك بعده في ابنه وذريته من بعده ، ثم الى اكبر بناته مارية بنت كترين (وكانت على دين الكنيسة الرومية) وذريتها من بعدها ، ثم الى ابنته اليصابات (بنت آن بولين) وذريتها من بعدها

ضم بلاد ويلز

وكان من أهم الحوادث التي تمت في عهده اندماج بلاد « ويلز » في انجلترة عام ١٥٣٦ ، فأصبح أهلها يتمتعون بكل ما يتمتع به الانجليز من الحرية والعدالة

ادورد السادس (١٥٤٧ — ١٥٥٣)

تولى إذوَرْد السادس عرش الملك على أثر موت والده ، وكان لا يزال في حداثة سنه ، فأقيم عليه خاله « إرْل هِرْتفُرْد » وصيًا

وكان هرتفرد رجلاً طموحًا جشعًا ، غير أنهُ كان جنديًا عظيمًا جلّ ما يقصده خير

* كان هنري الثامن كثير الطلاق والزواج حتى بلغ عدد من تزوج بهن ست نساء .

سمرست البلاد وصالحها ، وقد منحه الملك لقب « دوق سَمَرْسِت » ، وفى العام الأول من قبضه على زمام الأمور أعلن الحرب على اسكتلندة لرفض ملكتها « مارية » الزواج بادورد السادس؛ فكانت الهزيمة فى الجيش الاسكتلندى فى موقعة «بِنْكى» القريبة من ادنبرج ، وبالرغم من ذلك لم ينل سمرست أمنيته ، بل تزوجت مارية ولى عهد فرنسا

وكان سمرست على المذهب البروتستنتى ، شديد الحرص على اعلاء شأنه فى البلاد ، فقضى على كل القوانين الصارمة التى كان يئن تحت نيرها البروتستنت ؛ ثم أخذ يناهض الكاثوليك ، فأقفل كثيراً من كنائسهم ، وحوّل دخلها الى يد الملك الذى نشأ أيضاً على المذهب البروتستنتى . وكان الملك شابا تقيا محبا للخير ؛ بذل جزءاً عظيماً من ثروته فى تأسيس دور العلم والجامعات ، يشهد بذلك بقاء اسمه على مئات المعاهد الى يومنا هذا

سقوطه على أن مركز سمرست أخذ يتزعزع لكثرة أعدائه وبينهم أخوه . وقد اسفرت ادارته للبلاد عن الفشل ، والسبب الأكبر فى ذلك يعزى الى ما تركه له السلف من العقبات والمصائب التى لم يكن له قبل بالتغلب عليها ؛ إذ كانت النقود فى عهدهم قد زيفت وتلى ذلك غلاء الأسعار ، وحُوّل الكثير من الأراضى الصالحة للزراعة الى مراع فقلّ بذلك العمل وتعطل الكثيرون . وكانت الطبقة الجديدة التى آلت اليها هذه الأراضى أشد حرصاً على المال من طبقة الأشراف الأقدمين، فأحاطوا أرضهم بسياج وأدخلوا فيها كثيراً من الأراضى التى كان يعدّها الناس مباحة يتعيش عليها فقراء الأمة . وقد عزا جم غفير من الفلاحين سوء حالهم الى التغير الذى طرأ على الدين وقاموا بثورة أخمدها بعد عراك عنيف «ارل وَرِك» الذى منح بعدُ لقب «دوق نُرْثمَبَرلَنْد»

ويضاف الى ذلك أن سمرست قسا فى معاملة الملك الفتى ، وأن الأشراف كانوا يمقتونه ، وأنه كان مبذراً فى أموال البلاد ؛ جمع لنفسه ثروة طائلة من مال الكنيسة ، وأثار غضب الأمة عليه لبنائه قصراً له سماه بيت سمرست ؛ فكانت كل هذه الأسباب

نرثمبرلند داعية الى خلعه من منصبه عام ١٥٤٩ . وخلفه عدوه دوق « نُرْثمَبَرلَنْد » فلم يفلح فى سياسة البلاد وادارة شؤونها . ولما تحقق من رسوخ قدمه استصدر حكم الاعدام

على سمرست عام ١٥٥٢ بعد أن وجه اليه تهماً كثيرة ، منهـا أنه ترك « بولونيا » معتورة من كل ثغورها حتى اضطر الانجليز الى بيعها للفرنسيين بخمس الثمن الذى اتفقوا مع هنرى الثامن عليه

و « نرثمبرلند » هذا هو ابن « دَدْلى » الذى كان فى عهد هنرى السابع ؛ وقد أظهر شدة بأس فى الثورة التى قام بها الفلاحون ، وتظاهر بالتمسك بالبروتستنتية . ولما مرض الملك عام ١٥٥٣ مرضاً شديداً ورأى نرثمبرلند ان سلطانه سيذهب جملة عند تولى مارية عرش الملك (اذ كانت على المذهب الكاثوليكى) اجتهد فى اغراء الملك على تغيير وراثة المُلْك وجعله فى « جين جراى » من أحفاد أخت هنرى الثامن ، فبادر الى تزويج ابنه بها ، وما زال بالملِك حتى أوصى لها بالعرش ، ولم يمض طويل بعد هذا الحادث حتى مات أدوَرد وهو فى السابعة عشرة من عمره

الاصلاح الدينى فى عهد ادورد السادس

ويعتبر حكمه من أهم الحوادث فى تاريخ انجلترة ، لما حدث فى خلاله من الانقلاب العظيم فى الدين ، ولذلك لايمكن تتبع مجرى الحوادث فى عهد خلفه بدون أن نذكر شيئاً عن هذا الانقلاب . ففى مدته أخذ المذهب البروتستنتى يخطو خطوات واسعة فى لندن وفى مدن السواحل ، أما فى داخل البلاد فكان سيره بطيئاً ؛ وقد لاقى بعض رجال المذهب الكاثوليكى اضطهاداً عظيماً وخاصةً « جارْدِنَر » اسقف وِنْشِسْتَر و « بُنَّر » اسقف « لندن » وغيرهما من صغار الاساقفة ؛ ممن زجوا فى أعماق السجون لعدم موافقتهم على جميع تعاليم المذهب البروتستنتى . وقد كان الملك يشجع أتباع البروتستنتية ، وشيد لهم المعاهد فى « مكْلز فيلد » و « برمنجهام » و « شرُزبرى » ، ولكن كان يستحوذ على جلّ ما وقفه عليها أولو الشأن الذين لم يكن أخذهم بناصر الاصلاح الدينى الاَّ لما فيه من الأموال الطائلة التى يجنونها من نزع أراضى الكنيسة الكاثوليكية

ولم يحل عام ١٥٤٩ حتى نشر كتاب خاص لصلوات هذا المذهب ، وتلاه آخر عام ١٥٥٢ ، وأصدر البرلمان منشورين حرم فيهما استعمال أى كتاب آخر عداهما فى الكنائس الانجليزية ، فأبت مارية أخت الملك العمل بذلك رغم ما بذل من الجهد فى حملها عليه

مارية تيودور (١٥٥٣ — ١٥٥٨)

جين جراى

لما عمل دوق نرثمبرلند على تنصيب جين جراى على العرش وأفلح فى حمل المجلس على اقرار ذلك لم يدم لها الأمر طويلاً ، اذ كان لمارية أنصار كثيرون ؛ فلما مات ادورد وأراد أعداؤها القبض عليها وزجها فى ظلمات السجن الى أن تتربع « جين جراى » على العرش نمّى اليها الخبر ، ففرت من وجوههم . أما جين جراى فانها مكثت على العرش مدة عشرة أيام فقط ، اذ كانت الأمة تعتبر مارية الوارثة الشرعية . ولما رأى « نرثمبرلند » ذلك نفض يديه من حزب جين وانضم الى حزب مارية ، وعلى ذلك أودعت « جين جراى » وزوجها السجن

تولية مارية تيودور

ولما تولت مارية زمام الأمور أسرعت الى رد مظالم أتباع المذهب الكاثوليكى وأعادت مجده فى البلاد؛ فأفرجت عن الأساقفة المسجونين، وزجت الذين كانوا حلوا مكانهم فى ظلمات السجن ، وألغت كل القوانين الدينية التى سُنت فى عصر سلفها . هذا الى أنها تزوجت « فليب الثانى » ملك اسبانيا اكبر متعصب لمذهب الكاثوليك وزعيم ملوك أوربا المتشيعين لهذا المذهب . ولكن هذا القران أثار حنق الأمة بأسرها ، لما كان يحمل أهلها من البغض للاسبان ، فقامت من أجل ذلك ثورة بمقاطعة كِنت بزعامة « السير تومس وَيت » ، وقصد الثوار مدينة لندن ، ولكن الجيش تلاشى قبل وصول ويت الى المدينة ، فسلم نفسه طوعاً ؛ فقطعت عنقه كما قطعت عنق جين جراى وزوجها سنة ١٥٥٤ مع براءتهما . وقد حرض السفير الاسبانى مارية على اعدام أختها « إليصابات » (وكانت بروتستنتية) ، فلم يجد الى ذلك سبيلاً لعدم ثبوت أى تهمة عليها ، واكتفت مارية باعتقالها

زواجها بفليب الثانى

فليب فى انجلترة

ولما وصل فليب الى انجلترة مقتته الأمة ورفضت تتويجه ملكاً عليها ، فبقى فى البلاد ولا صفة له الا أنهُ زوج الملكة

ومن ذلك الحين ابتدأ اضطهاد البروتستنت يظهر فى شكل مرعب ، فأعيد العمل بالمنشورات الصادرة ضدهم، وأُلغيت المرسومات الرافضة لسيادة الكنيسة الرومية؛ ولكن

ما أخذ من أملاك تلك الكنيسة بقى فى يد الذين استحوذوا عليه ، غير أن الملكة وضعت مثالاً حسناً فأعادت ما استولت عليه الحكومة ، ثم عمرت بعض الأديرة . وبذلك تداعى مؤقتاً ما شيده هنرى الثامن وادورد السادس

اضطهاد البروتستنت

وقد اشتد عسف مارية واضطهادها للبروتستنت بتحريض الاسبان حتى لقبها المؤرخون « مارية السفاكة » ، والتصق هذا اللقب أيضاً بالأسقف بُنَرا كبير مساعد لها . فأحرق فى عهدها ما يربو على ٢٠٠ نفس فى مدة خمسة أعوام ، أى بنسبة واحد فى الاسبوع . وقد ملت الأمة تلك المشاهد الفظيعــة واعتنقوا البروتستنتية لا لمجرد اقتناعهم بصحة هذا المذهب بل نفوراً من هذه الفظائع . وكان ممن أوقعت بهم نفر قليل من اكابر رجال الدين ؛ أما السواد الأعظم فلم يكونوا من علية القوم أو أعاظمهم

وقد كان زواج فليب بمارية من سوء طالعه ؛ فلم يكن فليب مغرماً بزوجه لاعتلال صحتها ، ولم يطب له العيش فى انجلترة ، فغادرها ذاهباً الى الاراضى المنخفضة عند ما اعتزل والده الملك ، فتوّج عليها ملكاً . ومن ذلك الحين لم تطأ قدماهُ انجلترة الاّ عند ما عاد ليحرض مارية لتشن معه الحرب على فرنسا . فلبت دعوته ، ولكن العاقبة كانت وخيمــة على بلادها . وذلك أن الانجليز كانوا قد أهملوا أمر تحصين كاليه ؛ فلما نشبت الحرب بينهم و بين الفرنسيين أخذ الفرنسيون المدينة من غير كبير عناء عام ١٥٥٨ ، فحزنت لذلك مارية وماتت كسيرة القلب فى نفس ذلك العام ، فخلفتها أختها إليصابات

فقد كاليه

اليصابات (١٥٥٨ — ١٦٠٣)

اعتدال اليصابات

تولت إليصابات عرش انجلترة وهى فى السادسة والعشرين من عمرها . ففرحت بها الأمة وابتهجت . ولم تكن معتقداتها الدينية معيّنة ، ولذلك اتخذت طريقاً وسطاً بين رجال الطائفتين . ولكنها فى الحقيقة كانت تعاضد حركة الاصلاح ، فأخذت البروتستنتية تنتشر فى البلاد شيئاً فشيئاً . ولما عرض عليها فليب الثانى الاقتران بها رفضت ذلك بتاتاً مع شدة إلحاحه وميله الى ذلك

صفاتها وكانت اليصابات مستبدة (ورثت ذلك عن والدها هنرى الثامن) مغرورة فخورة ميالة الى الدسائس ؛ ولكنها رغم ذلك كانت ملكة عظيمة ، اكتسبت ميل شعبها واخلاصه بشجاعتها وجلال طلعتها وبُعد نظرها وحذقها و بديهتها الحاضرة . وقد أوتيت مقدرة عظيمة على انتخاب مستشاريها من الأكفاء ، ونخص بالذكر منهم « وليم سِيسِل » وفرنسيس وُلزنجهام و إرل سَلِسبُرى (أحد أبناء سسل[١]) ولا يزال الملك الى وقتنا هذا ينتفع بخدمات تلك الأسرة المخلصة للبلاد

حل المشكلات الدينية وكان هم اليصابات داخل بلادها أن توفق بين المتطرفين من حزب الاصلاح وحزب الكاثوليك ، وأن تشكل الكنيسة الانجليزية على طريقة ترضى المعتدلين من كلا الحزبين ، فعقدت النيــة على اجبار الأمة على اتباع الطريقة التى وضعتها ليصبح دين البلاد واحداً ولو فى الظاهر . فعزلت معظم الأساقفة الذين نصبتهم مارية ، اذ لم يعترفوا بسلطان الملكة وسيادتها



اليصابات

على الكنيسة الانجليزية ، وحتمت استعمال كتاب الصلوات الذى كان مستعملاً فى عهد ادورد السادس . وكان من نتائج ذلك ان غادر البلاد خلق كثيرون من الكاثوليك الى الأراضى النائية ليكيدوا لإليصابات . كذلك سعت الملكة فى التضييق على طائفة البيوُرِتان (المتطهّرين)[٢] ؛ فأنشأت محكمة عليا للنظر فى أمر الذين يحيدون

(١) اللورد ادورد سسل مستشار الماليــة المصرية سابقاً أحد أخلاف سسل الذى كان فى عهد اليصابات

(٢) نشرح هنا بالاختصار الفرق بين أهم المذاهب الدينية التى كان لها أثر فى تاريخ انجلترة.
(الكاثوليك) : الذين على عقيدة الكنيسة الرومية ويقولون بأن البابا هو الرئيس الأعلى للديانة
(أتباع الكنيسة الانجليزية) : الذين يسيرون في صلواتهم على حسب كتاب الصلوات الذى وضع

عن الصلوات المتبعة ، وكانت طائفة البيورتان مقلقة لبال اليصابات ، على موالاتهم لها واخلاصهم فى خدمتها

اليصابات والبروتستنت

وفى هذا الحين كان فليب الثانى ملك اسبانيا أعظمُ ملوك أوربا زعيمَ الكاثوليك وركنهم الركين ، فتطلع البروتستنت على اختلافهم الى اليصابات لتحمى حماهم وتحفظهم من شر أعدائهم الكاثوليك . وبذلك قضت الأحوال عليها أن تصير من زعماء الاصلاح الدينى . ولما حان وقت العمل برهنت بشدة بأسها أنها جديرة بهذه الزعامة. وقد تمثل ولاء رجال هذه الطائفة لها فيما حدث لأحدهم «حنا استبز» : وذلك أنه فى عام ١٥٧٩ كانت اليصابات على وشك الاقتران بأمير فرنسى ؛ ولكن ذلك

استبز

كان على غير رغبة الأمة الانجليزية . فكتب فى ذلك « استبز » مقالاً جارحاً طعن فيه على هذا القران . فحكمت عليه اليصابات بقطع يده اليمنى عقاباً له . ولما نفذ الحكم رفع « استبز » يده المقطوعة وهزها وهو يصيح : « اللهم احفظ الملكة »

مارية ملكة اسكتلندة

ولم تعدم اليصابات منافساً لها فى الملك ، فقد كانت مارية ملكة اسكتلندة تُعتبر الوارثة لعرش انجلترة بعد اليصابات . وكانت على المذهب الكاثوليكى ، وقد أفضى بها حمقها وسوء تصرفها الى عزلها عن عرش اسكتلندة وتولية ابنها جمس السادس مكانها . ثم أخذت بعد ذلك تُحْدث القلاقل والاضطرابات فى البلاد ، مما أدى الى سجنها . ولكنها تمكنت من الهرب ، فقصدت انجلترة . وكانت اليصابات تخاف

فى عهد ادورد السادس . ويقولون بأن الملك هو رئيس الكنيسة وهو ينصب أسقفاً على رأس كل دائرة من دوائرها . وصلواتهم اكثر سهولة وأقل كلفة من صلوات الكنيسة الرومية وينقسمون على وجه الاجمال الى قسمين : اتباع الكنيسة العليا واتباع الكنيسة السفلى . فالفريق الأول يقرب نوعاً ما من الكنيسة الرومية والثانى ينحاز الى غلاة البروتستنت

(البرزبتيريان) : اكثر بعداً عن الكنيسة الرومية من اتباع الكنيسة الانجليزية وصلواتهم اكثر سهولة من صلوات الفريق الأخير ولا يرضون بتنصيب أساقفة عليهم بل يدير كل كنيسة من كنائسهم قس يساعده نفر من رجال الدين يسمون « برزبتيرز »

(المستقلون) : لا يرضون بتنصيب الأساقفة أو البرزبتيرز عليهم ويقولون بأن كل طائفة صغيرة يجب أن تدير شؤونها الدينية بنفسها

وهاتان الطائفتان أقرب من الكنيسة الانجليزية لتعليمات لوثر وكلفن

أما لفظ « بيورتان » (المتطهرين) فتطلق عادة على اتباع الكنيسة السفلى والبرزبتيريان والمستقلين وغيرهم من الخارجين عن الكنيسة الانجليزية

منافستها لاليصابات

على العرش منها ، فسجنتها تسعة عشر عاماً قامت فى خلالها عدة مؤامرات على اليصابات دبّرها البابا والاسبان والساخطون من الانجليز الكاثوليك ، وكان الغرض من كل هذه المؤامرات خلع اليصابات وتولية مارية مكانها ، ولكنها أسفرت عن الفشل التام

دسائس البابا

وفى عام ١٥٧٠ قام البابا يناوئ اليصابات ، فأصدر منشوراً حلّل فيه خروج الانجليز عن طاعتها ، وكان يقصد بذلك اشعال الفتن والقلاقل فى البلاد ، فقطع بذلك كل أمل فى المصافاة بين البابا واليصابات . وكانت قساوسة اليسوعيين وغيرهم يفدون الى البلاد فى هذه المدة لإثارة الفتن والدسائس ، حتى كانت آخر مؤامرة بزعامة بَبِنْجتون لاغتيال حياة اليصابات؛ فكشفت المؤامرة ، واتهمت مارية بالاشتراك

مقتل مارية

فيها وحكم عليها بالاعدام . ولا مشاحة أن بقاءها كان خطراً يتهدد اليصابات ومنبعاً للقلاقل والفتن ؛ فكان موتها سبباً فى منع كل المخاطر والاضطرابات ، غير أنه ربما كان من الدواعى التى عجلت اشتباك انجلترة واسبانيا فى حروب طاحنة

المنافسة بين انجلترة واسبانيا

الدين اكبر اسباب النزاع

كان شغل اليصابات الشاغل أن تحافظ على استقلال البلاد وابعادها عن مخاطر الحروب ؛ ولكن على مر الأيام أخذت انجلترة واسبانيا تدسان الدسائس أحداهما للأخرى ويكيد بعضهما لبعض سراً ، وكان الدافع الأكبر على ذلك اختلافهما فى الدين. فساعدت اليصابات أهل الأراضى المنخفضة على فليب ؛ وساعد فليب العصاة فى ارلندة . وبلغ بفليب الأمر أن عزم على غزو انجلترة . ولكنه كان يرجئه من وقت لآخر ، فلم يُجْدِ ذلك الا اشتداد بغض الأمة الانجليزية له . وفى عام ١٥٨٥ انضمت الملكة علناً الى جانب الأراضى المنخفضة وأرسلت حملة لتشد أزر الثوار فيها

ملاحو الانجليز

وكان العامل الأكبر فى اشعال نار الحرب بين انجلترة واسبانيا فئة من الانجليز ممن شغفوا بحب الجولان فى البحار وركوب المخاطر فيها ، وقد كانت تلك الروح قد دبّت فى الأمة الانجليزية*: فمنهم « مَرْتِن فرُوبِشَر » و « جون ديفز » اللذان تركا

* من أراد الاطلاع على أخبار هؤلاء الأبطال فليقرأ كتاب « ملاحو الانجليز فى القرن السادس عشر » تأليف « فرود » فهو ممتع فى هذا الباب

أثرهما فى الخليج والمضيق اللذين كشفاهما فى الشمال الشرقى من أمريكا . ومنهم « جون هوكنز » الذى أثار غضب الاسبان باتجاره فى الرقيق مع جزائر الهند الغربية ، و « السير وُلْتَررالى » الذى بذل جهده فى إنشاء مستعمرة انجليزية فى فرْجِنيا بأمريكا الشمالية . و « السير فرنسيس دريك » الذى هو أول من طاف حول الدنيا من الانجليز

كيدهم للاسبان

وقد رجع من رحلته يحمل القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والنفائس التى سلبها من السفن والمدن الاسبانية . وكان ملاحو الانجليز فى ذلك الحين يعتبرون تخريب مدن الاسبان فى الدنيا الجديدة وسلبها وحرقها ونهب الكنوز التى كانت تحملها سفنهم من الأعمال التى تعود عليهم بالأرباح الطائلة ولا تنافى الفضيلة فى شىء

دريك فى قادس

وفى عام ١٥٨٧ عند ما كان فليب يتأهب لغزو انجلترة انقض « دريك » على ميناء قادس بست سفن انجليزية ، فدمر بعض السفن الراسية فيها وقاد بعضها الآخر ، وكانت جميعها محملة بالنفائس

الحملة على انجلترة (الارمادا)

ابتدأ فليب حملته المشؤومة على انجلترة عام ١٥٨٨ . وكان قد جمع لها اسطولاً ضخماً يسمى « الأرمادا »* دعا له البابا باليمن والبركات ، وأعد جيشاً عظيماً عند ميناء دنكرك ليذهب منها بحماية الأسطول الى شواطئ انجلترة . وكان الاسطول الانجليزى يتألف من جملة سفن صغيرة الحجم بقيادة اللورد هوارد إفنجهام ومعه دريك وهوكنز وفروبشر ومن شاكلهم . وكانت الجيوش البرية على تمام الأهبة ، غير أن النصر كان موقوفاً على عمل الأسطول ، فأخذ هوارد يضايق الأسطول الاسبانى الضخم المؤلف من ١٢٠ سفينة باسطوله الصغير الذى لم يتجاوز ٥٤ سفينة فى عرض البحر من « كُرْنُوُول » الى « كاليه » . فالتجأ الاسطول الاسبانى الى الساحل قرب كاليه ، ولكنه اضطر الى الخروج ثانية الى عرض البحر بسبب ثمانى حراقات انجليزية أرسلها عليه الانجليز ليلاً . وعند بزوغ النهار هاجم الاسطول الانجليزى على صغر سفنه

هزيمة الارمادا وتحطيمه

الاسطول الاسبانى المشتت فى عرض البحر وهزمه هزيمة منكرة ، على أنه لو كان لدى الاسطول الانجليزى ذخيرة كافية لقضى على الأرمادا جملة . ولحسن حظ الانجليز

* وسماه فليب « الارمادا الذى لا يقهر » تيهاً به

أن ما فر من أيديهم قضت عليه العواصف والزعازع ، اذ حملت الاسطول الاسبانى الى بحر الشمال ، فحاول ما بقى منه العودة الى اسبانيا بالطواف حول شمالى اسكتلندة ، فلم يصل الى شواطئ اسبانيا من هذا الاسطول الضخم الا نحو ٥٤ سفينة غير صالحة للعمل من جراء ما أحلته بها نيران الانجليز وعبث العواصف والزعازع

وقد حاول الاسبان فيما بعد اشعال الثورة فى ايرلندة فخاب فألهم ؛ اذ هُزم الثوار وعفى عن « إرل تيرون » زعيم هذه الحركة

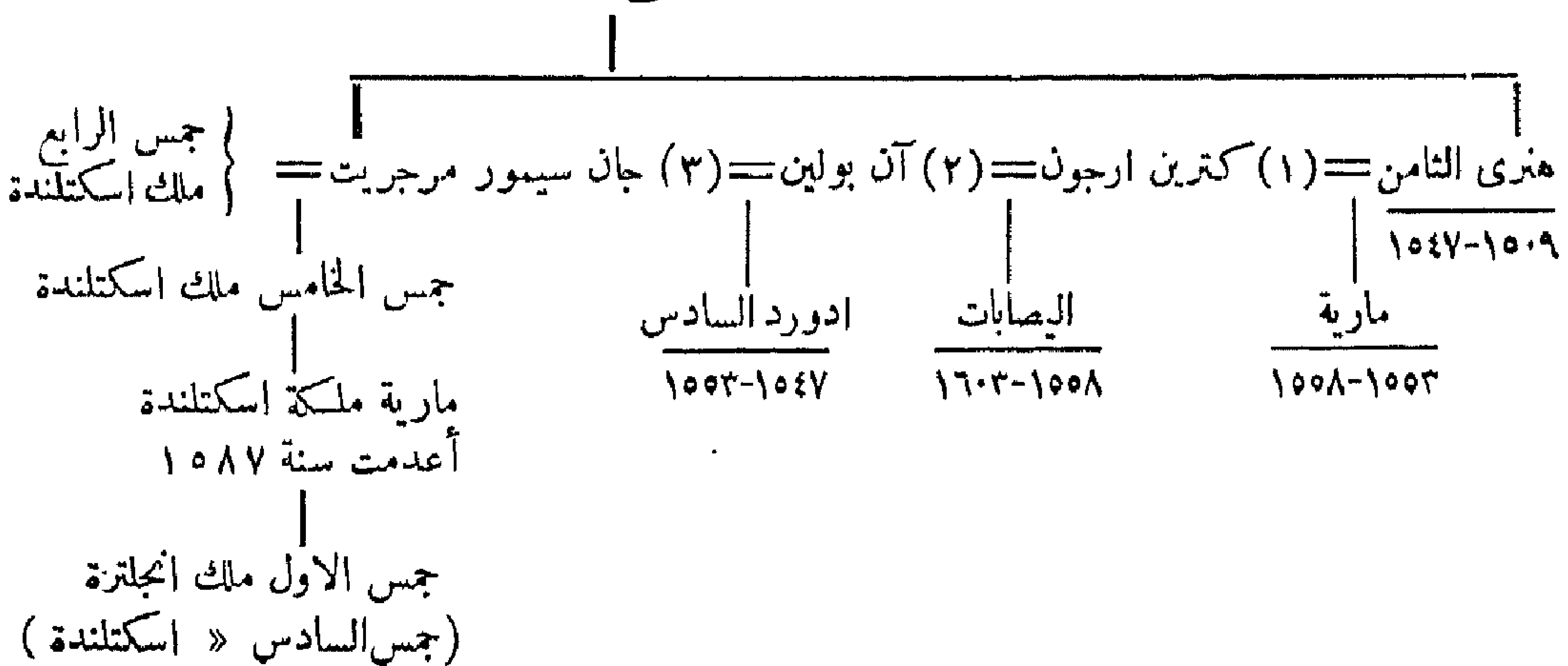
احتكار المتاجر

وفى حكم اليصابات كثر الترخيص للمقربين من القصر باحتكار المتاجر ، بمعنى أنه كان يخول للواحد منهم أن يتجر فى صنف خاص ليس لأى فرد آخر أن يزاحمه فيه . وفى عام ١٦٠١ ازداد عـدد هؤلاء الأفراد لدرجة أثارت غضب البرلمان ؛ فطُلب الى الملكة الغاء امتيازاتهم . فلما رأت الملكة ذلك لم تر بداً من تهدئة خاطر الأمة باجابة مطالبها رغم ما فطرت عليه من شدة البأس وقوة الشكيمة

شركة الهند الشرقية

ولم تعمّر بعد ذلك اليصابات زمنًا طويلاً اذ توفيت عام ١٦٠٣ . وخلفها على العرش « جمس السادس » ملك اسكتلندة فسمى « جمس الأول » ملك انجلترة . ومن الأعمال العظيمة التى تمت فى حكمها تأسيس شركة الهند الانجليزية الشرقية سنة ١٦٠٠ وهى التى قامت على دعائمها دولة الانجليز فى الهند

﴿ ملخص ببيان كيف خلف جمس السادس اليصابات على عرش انجلترة ﴾



الباب الثالث

اوربا بعد عهد الاصلاح الديني

الفصل الأول

ألمانيا بعد عهد شارل الخامس

حرب الثلاثين سنة

الخلاف بين الكافنيين واللوثريين

أوضحنا فيما سبق أن معاهدة أجزبرج (سنة ١٥٥٥) لم تنصف الكلفنيين، اذ لم تخول لهم ما خولته لأتباع لوثر من الحرية فى الدين. فحقد الكلفنيون على اللوثريين وانقسم البروتستنت على أنفسهم بكثرة اختلافهم فى تحديد مبادئ مذهبهم وقواعده على حين كان المذهب الكاثوليكى آخذاً فى الانتشار بنشاط جمعية اليسوعيين وجدّهم، فأصبح المذهبَ السائد فى بولندة والأراضى المنخفضة الاسبانية وفرنسا، ولم يكن له منازع فى اسبانيا وايطاليا، وانتشر كذلك فى ألمانيا وخاصة فى بافاريا و « إستيريا » وكرِنثِيا، ونشره الامبراطور « رودلف الثانى » (١٥٧٦ - ١٦١٢) بالعنف فى النمسا وبوهيميا ومورافيا. فناقض فى ذلك سياسة سلفيه « فرنند الأول » و « مكسمليان الثانى »، بل كان رودلف يريد القضاء على المذهب البروتستنتى، لشدة تعصبه وتربيته الأولى فى اسبانيا حصن المذهب الكاتوليكى. غير أن عمله هذا كان أكبر عامل على تعاضد البروتستنت وتوحيد كلمتهم. ولما اشتد عسفه أُكره على النزول عن الملك لأخيه « متياس » عام ١٦١٢ رغبةً فى تهدئة الاضطرابات الدينية وتأميناً للبروتسنت الذين أخذ الخوف يدب فى نفوسهم ويستولى عليهم القلق من ترادف اضطهاد الكاتوليك لهم

انتشار المذهب الكاتوليكى

عسف رودلف يوحد كلمة البروتستنت

الاتحاد البروتستنتى والحلف الكاثوليكى

وكان أمراء الشمال والجنوب من البروتستنت قد تجمعوا وكوّنوا « الاتحاد البروتستنتى » سنة ١٦٠٨ بزعامة « كرستيان » أمير أنهلت؛ فقابل الكاثوليك ذلك بتأليف « الحلف الكاثوليكى » سنة ١٦١٠، فتهيأت بذلك نار حرب دينية فى ألمانيا لم يبق الا شرارة لاشعالها. وقد قويت رابطة البروتستنت بعض الشيء فى عهد متياس حتى أفلحوا فى ارغامه على منحهم عهداً يسمى « العهد الملكى » ضمن لهم به التسامح الدينى وحرية الضمير وتشييد الكنائس والبيع

العهد الملكى

ولما كان متياس طاعناً فى السن ولا وارث له اجتهد فى جعل وراثة أملاك بيته فى ألمانيا لابن عمه فردنند أمير «استيريا»، وكان يودّ لو يخلفه على عرش الامبراطورية نفسها. فانتُخب فردنند ملكاً على المجر من غير أن يلقى معارضة. أما فى بوهيميا فان معظم الأهالى كانوا من أتباع المذهب البروتستنتى، وكانوا يخافون شر فردنند الذى تربى على مبادى اليسوعيين وتعليماتهم، وكان عدواً عنيداً وخصماً لدوداً للمذهب البروتستنتى، ولكنهُ على الرغم من ذلك انتُخب ملكاً عليهم، فكان ذلك ضربة قاضية على حريتهم الدينية، وما لبث أن أخذ الاستياء من ذلك يظهر بين القوم، وخاصةً لما نقض فردنند « العهد الملكى » الذى كان أوثقَ الأيمان بمراعاتهِ، اذ أمر بهدم بعض الكنائس؛ فتظلم البروتستنت من ذلك، فلم تجبهم حكومته الا بالشدة فتجمهر أشراف بوهيميا بزعامة الكُنت « ثُرْن » وصمموا على اشهار الحرب

أسباب النزاع فى بوهيميا

وابتدأت الثورة فى « براغ » حيث اعتدى الثوار على ثلاثة من رجال الحكومة كان يُظن أنهم سبب كل هذه الويلات: فألقوا بهم من نافذة دار البلدية (٢٣ مايو ١٦١٨). وقد كان هذا الاعتداء فاتحة لحرب شعواء تسمى «حرب الثلاثين سنة» لاستمرارها ثلاثين عاماً

حرب الثلاثين سنة اربعة ادوار

كانت هذه الحرب فى بادئ أمرها دينية محضة. قامت كما رأيت بين أتباع المذهب الكاثوليكى وبين رجال المذهب البروتستنتى؛ ولكنها ما لبثت أن تشكلت بشكل آخر وأصبحت حرباً دولية بين أمم مختلفة قامت تناهض سيادة آل هبسبرج لحفظ توازن الدول الأوربية، وصارت الأمور السياسية أهم عامل فى استمرارها

١ — الدور البوهيمى ١٦١٨—٢٣

أخذ البروتستنت يستعدون لهذه الحرب الضروس بزعامة الكنت « ثُرْن » والكنت « منْسفلد » الذى أُرسل سراً من قبل أمير « سافوى » الحاقد على بيت هبسبرج . فأفلح جيش البروتستنت فى قهر جيوش فردنند وطردهم من بوهيميا ؛ ولما مات الامبراطور « متياس » عام ١٦١٩ رفض البوهيميون تولية فردنند الثانى ملكاً عليهم وانتخبوا فردريك نائب « البلاتين » مكانه ، فقبل فردريك مُلك بوهيميا رغم تحذير صهره « جمس الأول » ملك انجلترة له . وقد برهنت الحوادث على عدم كفاءته لهذا المنصب ؛ اذ أخذ ينكب على شهواته ، فى حين كان فردنند يبذل كل قواه فى الاستعداد للحرب وفى عقد المحالفات مع اسبانيا ومكسمليان دوق بافاريا . ولما تم لفردنند كل ذلك سير جيشاً الى بوهيميا مؤلفاً من خمسين ألف مقاتل تحت إمرة القائد العظيم « تِلى » ، فأُخذ فردريك على غرة . والتحم الجيشان فى موقعة « الجبل الأبيض » بالقرب من براغ » ، فكان النصر فيهـا لجيش فردنند ، واضطر فردريك للهرب تاركاً جيشه . وقد أطلق عليه « ملك الشتاء » لأنه لم يمكث على عرش بوهيميا الاَّ مدة الشتاء . أما فردنند فانه مزّق «العهد الملكى» بيده ومثّل بعدد عظيم من أمراء البروتستنت ونفى جمًا غفيراً منهم ، وأرغم الأهالى على اعتناق المذهب الكاثوليكي بالاضطهاد والعسف . وقد سبب ذلك هجرة عشرة آلاف أسرة وإماتة الصناعات بهذه البلاد واطفاء نور العلم بها

فردريك نائب البلاتين

واقعة الجبل الابيض

وفى أثناء تلك الحرب لم يبدِ أميرا برندنبرج وسكسونيا أية حركة لمساعدة فردريك اذ كان الأول يخاف النمسا ، وكان الثانى حذراً محبًا لنفسه متمسكاً بعرش بلاده ، وقد انحل عقد الاتحاد البروتستنتى سنة ١٦٢١ على أثر تلك الحرب

أما الأمراء الأحرار الذين كانوا انضموا فى بادى الأمر فانهم استمروا فى مزاولة الحرب بقيادة منسفلد ؛ ورجع فردريك آملاً فى النصر فخاب ظنه ، اذ ظهر البارون « تِلى » على جيوش الأمراء قبل أن ينجدهم منسفلد ، ولجئ فردريك الى الفرار ثانية الى هولندة ، فورثه مكسمليان دوق بافاريا فى ملكه الخاص ، وبذلك انتهى الدور الأول من حرب الثلاثين سنة

تلى ومنسفلد

١ — الدور الدانمركى ١٦٢٥—٢٩

وفى خلال هذه الحروب كانت انجلترة والدانمرك تتتبعان سير الحرب وتخشيان هزيمة البروتستنت . وكان كرستيان الرابع ملك الدانمرك يميل اليهم ، وكان أحد أولاده أسقف «فِرْدِن» البروتستنتية . فلما عرض عليه ملك انجلترة تأليف حلف لمساعدة البروتستنت ، على أن تؤازره انجلترة بالمال والأسطول ، لم يمتنع ، وتم ابرام التحالف فى مايو سنة ١٦٢٥ بين انجلترة والدانمرك وأمراء شمالى ألمانيا

الامبراطور فى ضيق

فاستعرت نار الحرب ثانية فى سكسونيا السفلى ، وكانت كفة الحلف البروتستنتى هى الراجحة فى بادئ الأمر . فلما رأى فردنند ذلك ، واتضح له تصميم البروتستنت على المقاومة ، رغب فى أن يُنزل جيشاً آخر الى ميدان القتال لمساعدة القائد «تلى» ولكنهُ كان فى حاجة الى المال والرجال . فأنقذه من هذه الضائقة «وَلِنْستين» دوق فريد لَنْد أعظم قواد ألمانيا فى ذلك العصر وصاحب المكانة الأولى بين الجند المرتزقة فى أوربا

ولنستين

تطوع هذا القائد بجمع جيش عظيم لمساعدة الامبراطور بدون أن يكلفه شيئاً؛ على شرط أن تكون القيادة العليا فى يده . فرضى الامبراطور ذلك ؛ وما لبث ان جمع «ولنستين» تحت لوائه جيشاً يربو على ثلاثين ألفاً جلهم من أشداء المرتزقة الطامعين فى الغنائم وهزم بهِ «منسفلد» عند جسر «دِسَّاو» سنة ١٦٢٦ . وفى العام نفسه قابل هو و «تلى» جيوش «كرستيان» ملك الدانمرك عند «لوتَر» فى

واقعة لوتر

مقاطعة بِرَنْزْوِيك فشتتا شملها . وفى العام الثانى تمكن «ولنستين» من طردها من الأراضى الألمانية واحتلال معظم الأراضى الدانمركية بألمانيا. ثم حاصر «سترالْسَنْد» عام ١٦٢٨، فقاومته حاميتها مقاومة عنيفة بمساعدة الأسطولين الدانمركى والسويدى

صلح لوبك

حتى اضطر الى رفع الحصار عنها ومغادرتها . وعلى أثر ذلك تم صلح «لوبِك» سنة ١٦٢٩ بين الامبراطور والدانمرك على أن ينزل كرستيان عن كل ما يدعيه فى الأسقفيات الألمانية ، ويسترد أملاكه الوراثية

وبذلك قوى مركز الامبراطور وكادت تُخمد أنفاس البروتستنت ؛ ولو توخى الامبراطور الحزم والحكمة لوقفت الحرب عند هذا الحد . ولكن انقياده لمطالب غلاة

الكاثوليك واشتراكه مع امرائهم فى حسدهم لولنستين وتوهمه أنه يريد انتزاع العرش لنفسه جرّ على ألمانيا تدخل الأجنبى واشمال حرب أشد من سالفتيها

وذلك ان ولنستين لم يسرح جيوشه بعد الحرب بل بقى فى شمالى ألمانيـا مرخياً العنان لعساكره، فعاثوا فى الأرض فساداً . وتظلم الأهلون الى الامبراطور من عبث جنود ولنستين فلم يجد تظلمهم نفعاً، لأن ولنستين فى هذه المدة كان يزاحم الامبراطور نفسه فى القوة والسلطان . فانتهز ريشليو رئيس الوزارة الفرنسية هذه الفرصة لإضعاف شوكة آل هبسبرج ، فألّبَ الأمراء على ولنستين وأغار صدورهم بدسائسه . فطلبوا الى الامبراطور عزله فى مجمع « راتزبون » فلم يرَ بداً من تلبيـة طلبهم ، فأعطيت القيادة العامة الى « تلى » . أما ولنستين فانه احتجب عن العالم فى ضياعهِ ببوهيميا

دسائس ريشليو

عزل ولنستين

ولما أحسّ الامبراطور أنه فى مأمن من المخاطر البروتستنتيـة أصدر بتحريض الاتحاد الكاثوليكى مرسوماً عاماً سنة ١٦٣٠ خول فيهِ للكنيسة الرومية استرجاع كل الأملاك التى انتزعت منها منذ معاهدة اجزبرج سنة ١٥٥٥ ، فارتاع البروتستنت لهذا المرسوم . وفى غضون تلك الازمة العصيبة التى كانت تحدق بالبروتستنت من جراء هذا المرسوم أغاثهم «جُستاف أدُلف» ملك السويد وأعظم قواد ذلك العصر بأسره وقد دفعه الى خوض غمار الحروب مع البروتستنت غيرته الدينية ونصرته لاخوانه البروتستنت الذين كان يخشى القضاء عليهم فى ألمانيا . هذا الى أنهُ كان يريد حماية بحر البلطيق ويطمح الى بسط سيادة بلاده عليهِ ، اذ كان يرى ذلك ضرورياً لفلاحها

استرجاع املاك الكنيسة

نزل « جُستاف » بجيشه الصغير الذى، لم يتجاوز خمسة عشر ألفاً فى بومرانية (يوليه سنـة ١٦٣٠) وطوّح به فى مهاجمة جيوش الامبراطور الجرارة رغم تردد البروتستنت وأمرائهم فى الانضمام اليه لتخوفهم من نياته لبلادهم ، ولم يجد عوناً الاّ ريشليو الذي تحالف معه على مساعدته بالمال . فتمكن باديء بدء من طرد جيوش الامبراطور من بومرانية ؛ ثم اسرع لنجدة « مَجدِبُرج » التى كان يحاصرهـا « تلى » لينزعها مِن يد البروتستنت عملاً بمرسوم الامبراطور . فلم يسعده الحظ بذلك ، فاحتلتها جيوش تلى و « بابنهايم » فى مايو سنة ١٦٣٠ . وقد ارتكب

٢ — الدور السويدى ١٦٣٠ — ٣٥

جستاف ادلف فى المانيا

الفاتحون فى هذه المدينة من الفظائع ما لم يسمع به التاريخ الاّ فى حصار « تروادة » وفتح الصليبيين لبيت المقدس

وفى هذا الحين انضم نائب سكسونيا الى ملك السويد وهزما جيوش الأمبراطور هزيمة منكرة عند « بريتنفلد » * على مقربة من « ليبزج » فى سبتمبر سنة ١٦٣١ اذ تلاشت مهارة تلى وبابنهايم وبُعد صيتهما أمام حذق جستاف « أسد الشمال » وتدربِ جيشه ودقة عدده الحربية

واقعة بريتنفلد

وبعد هذه الموقعة عمد جستاف الى بافاريا فقابلهُ أهلها بالبشر، اذ رأوا أن قدومه ينقذهم مما هم فيه من الظلم والاضطهاد . وقد حاول تلى أن يعوق سيره ويعترضه ، فالتحم معهُ فى موقعة على نهر « لِخ » أحد روافد الطونة ، جُرح فيها « تلى » جرحاً مميتاً لم يمهله اكثر من أسبوعين وهزم جيشه هزيمة شنيعة . ودخل جستاف « ميونخ » عاصمة بافاريا دخول المنتصر الظافر

موقعة نهر لخ



جستاف أدُلف

بعد هذه الهزائم المتوالية دب دبيب الضيق والفزع فى صدر الامبراطور فردنند وأخذ يشعر بحرج مركزه ولا سيما أن جيش ملك السويد كان يزداد يوماً فيوماً حتى بلغ سبعين الف مقاتل ؛ فلم ير أمامه ملجأ يلجأ اليه الاّ استدعاء ولنستين فلم يجب دعوته الاّ على شرط أن يكون صاحب السلطان والنفوذ على جيوشه وعلى البلاد والغنائم التى يستولى عليها جيشه ، وان

الامبراطور فى ضيق شديد

استدعاء ولنستين

* هذه الموقعة تسمى أيضاً موقعة ليبزج

يلغى مرسوم سنة ١٦٢٩ الذى يراه ولنستين منافياً لمبادئه ومبادئ جيشه المؤلف على دعائم التسامح الدينى . فلم ير فردنند بداً من الإذعان لذلك رغم ما فيه من الحط من كرامته . وفى مدة وجيزة جمع ولنستين تحت لوائه جيشاً يبلغ ستين الف مقاتل، وسار به مخترقاً سكسونيا . ثم التقى الجمعان عند « لُتزن » سنة ١٦٣٢ فى موقعة عنيفة تشتت فيها جيش ولنستين وجرح بابنهايم قائد الفرسان جرحاً مميتاً . أما السويد فانهم رغم انتصارهم الباهر فقدوا ملكهم وسط المعمعة، فكان فقده أكبر خسارة عليهم. وتولى «أُكْسِنِستِرنا» المستشار السويدى زمام الأمور بعد موت ملكه قيماً على ابنته الصغيرة

موقعة لتزن

موت جستاف

أما ولنستين فانه تراجع الى بوهيميا ليلم شعث جيشه وينظمه ثانية؛ ولما تم له ذلك ورأى أنهُ أصبح صاحب النفوذ فى ألمانيا بجيشه أراد أن يرغم الامبراطور والسويد على عقد صلح يمليه هو، وابتدأ يفاوض اكسنستِرنا سرًّا . فأغضب ذلك الامبراطور والموالين له من الجيش والأمراء؛ ولما رأى أن الحاجة الى ولنستين باتت يسيرة بعد موت جستاف أدلف عزم على عزله ، فلم يجد طريقة يستعين بها على تنفيذ ذلك الاَّ أنهُ جمع كبار رجال الجيش حوله أولاً، ثم أعلن عزل ولنستين من قيادة الجيش لخيانته بموالاة العدو والتفاوض معه سراً ، وأعد مكافأة لمن يغتال حياته . فلم تمض مدة يسيرة حتى طعنه جندى ارلندى من رجال جيشه نفسه طعنة نجلاء قضت على حياته فى فبراير سنة ١٦٣٤

عزل ولنستين ثانية

وبعد موت ولنستين تولى فردنند ابن الامبراطور قيادة الجيش العليا ، فانتصر على الجيش السويدى فى موقعة « نُردِلِنجِن » سنة ١٦٣٤ ، وأسر « هُرنْ » القائد السويدى واضطر برنارد دوق « ويمر » الذى كان يقود الجنود البروتستنتية مع هرن أن يولى الأدبار

موقعة نردلنجن

وكان من نتائج هذه الهزيمة أن عقد « يوحنا جورج » نائب سكسونيا صلحاً مع الامبراطور فى مايو سنة ١٦٣٥ ، وحذا حذوه بعض الأمراء المعادين ؛ وكان أهم شرط فى هذه المعاهدة الحرية الدينية لأتباع لوثر فقط . فلم يقبل السويد شروط هذا الصلح اذ لم ينزل فيه الامبراطور لهم عن شىء من الأراضى الألمانية ، وطلب اكسنستِرنا الى فرنسا المساعدة

سياسة ريشليو

فانتهز ريشليو هذه الفرصة أيضاً لاضعاف بيت آل هبسبرج (وكان يكيد له خفية طول هذه الحرب) ولمدّ الحدود الفرنسية ، وتوسيع رقعتها . فعقد مع السويد معاهدة على أن تُضَم الألزاس الى فرنسا فى مقابل مساعدتها لهم . وانضم الى هذه المعاهدة برنارد دوق ويمر

وفى سنة ١٦٣٥ احتلت الجنود الاسبانية مقاطعة « تريفز » واعتقلوا أسقفها حليف فرنسا وقتئذ ؛ فاتخذت فرنسا ذلك الاعتداء ذريعة لاعلان الحرب على اسبانيا التى كانت أعظم سند لألمانيا فى هذه الحروب الشعواء

٤ — الدور الفرنسى ١٦٣٥—٣٨

ومن ذلك الحين دخلت الحرب فى طور جديد بالمرة . فذهبت مسحتها الدينية وأغراضها الداخلية التى كان يرمى اليها الامبراطور والأمراء فيما بينهم وصارت حرباً دولية ذات أغراض سياسية بعيدة . جهز ريشليو أسطولين وسير ستة جيوش الى ميدان القتال : بعضها يحارب الاسبان فى ايطاليا وفى الأراضى المنخفضة بمؤازرة الهولنديين ، وبعضها يشد ساعد السويد فى ألمانيا على الامبراطور . ولم تحرز الجنود الفرنسية نجاحاً فى بادئ الأمر بل كانت مقهورة مكسورة فى كل الميادين حتى كاد الاسبان يزحفون على باريس

وفى هذا الحين مات الامبراطور ، واستوى على عرش المانيا ابنه فردننند الثالث سنة ١٦٣٧ ؛ وكان ميالاً فى نفسه الى التسامح الدينى ؛ ولكن زوجه الاسبانية أثرت فيه فحادت به عن ميله الى الصلح الى الاستمرار فى الحرب . فكانت الكفة الراجحة

موقعة وتستك

فى جانب السويد ، اذا انتصر القائدان « بينر » و « تُرِستِنِسُن » عند « وِتْستُك » على جيوش الامبراطور نصراً مبيناً

وفى خلال هذه المدة كانت الجيوش الفرنسية ألفت الحرب وعجمت عودها وأخذ النصر يحالفها وصار أسطولها يُظهر شأناً بمساعدة الجمهورية الهولندية التى حطم أسطولها

فوز فرنسا

العمارة الاسبانية فى « الدونز » بمهارة أمير بحرها « فان ترُمب » . هذا الى ما كاده ريشليو لاسبانيا باشعال نار الفتنة فى بلادها ؛ فخرجت عليها كتالونيا عام ١٦٤٠

ولما مات ريشليو قبض على خيزرانة الأمور فى فرنسا « مزَران » سنة ١٦٤٢

فكانت فاتحة أيامه انتصار الفرنسيين على الاسبان فى موقعة « رُكْرُوَا » العظيمة على يد الأمير « كُنديه » سنة ١٦٤٣ . فكانت هذه الملحمة مبدأ لسيادة فرنسا الحربية فى أوربا موقعة ركروا

وفى أثناء ذلك كان القائد « تورين » الفرنسى يعمل جهده فى المحافظة على ما فتحه الفرنسيون من أراضى نهر الرين . ثم غزا « بافاريا » بمساعدة « رَنجل » القائد السويدى ؛ وأرخى للجند العنان فعاثوا فى الارض فساداً ، حتى أصبحت بافاريا قاعاً صَفْصَفاً تخريب بافاريا

وبقيت الحرب خمس سنوات أخرى كانت فيها مفاوضات الصلح جارية ، وأفضت الى عقد الامبراطور صلحاً مع البروتستنت برآسة السويد فى « أُزْنابروك » وابرام معاهدة أخرى مع الكاثوليك برآسة فرنسا فى « مُنْسْتَر » مفاوضات الصلح

وتُعرف هاتان المعاهدتان بمعاهدة « وِسْتِفاليا » (٢٥ اكتوبر سنة ١٦٤٨) وتلخص أهم شروطها فيما يأتى : معاهدة وستفاليا

١ ان يتمتع اتباع كلفن ولوثر على السواء بالحرية الدينية فى جميع أنحاء الامبراطورية

٢ ان يحفظ البروتستنت والكاثوليك ما كان فى أيديهم من أملاك الكنيسة منذ عام ١٦٢٤ ، وان ترعى شروط معاهدة اجزبرج (سنة ١٥٥٥) وان ليس لأمير الحق فى قسر رعيته على اتّباع مذهب ما

٣ ان تحتفظ بافاريا بالبلاتين العليا ، وتعاد البلاتين السفلى الى ابن فردريك التعس الذى كان نائب البلاتين وقت نشوب الحرب

٤ ان يبقى فى يد فرنسا مِتز وتول وفِرْدان وتستولى على جميع الألزاس ما عدا مدينة استراسبرج الحرة

٥ ان تستولى السويد على بومرانية الغربية وجزيرة روجن وأسقفيتى برمِن وفردِن وبلدتى وِزْمَر واستِتن وتأخذ غرامة حربية . وصارت من ذلك الحين تمثل فى مجمع ألمانيا

٦ ان تستولى برندنبرج على بومرانية الشرقيــة ومعظم مجدبرج وأسقفيتى « هَلبَرستات » و « مِندِن »

٧ ان تعطى سكسونيا باقى مجدبرج ومقاطعة لوزاتيا

٨ الاعتراف رسميًا باستقلال سوسرة وهولندة

تأثير الحرب فى المانيا

وقد كانت هذه الحروب الحل النهائى للمسألة الدينية فى ألمانيا اذ لم تقم بعدها حروب فيها من أجل الدين . غير أنها من جهة أخرى تركت أثراً سيئًا فى الامبراطورية اذ انقسمت البلاد الى ولايات تربو على المائتين، وأصبح كل أمير مستقلاً فى ولايته؛ فلم يبق للامبراطور سلطان يذكر . هذا الى أن كل أمير كان يجتهد فى تقليد أبهة البلاط الفرنسى ، فكانوا يضطرون الى ضرب الضرائب الفادحة على رعاياهم ؛ مما سبب تعسهم وسوء حالهم

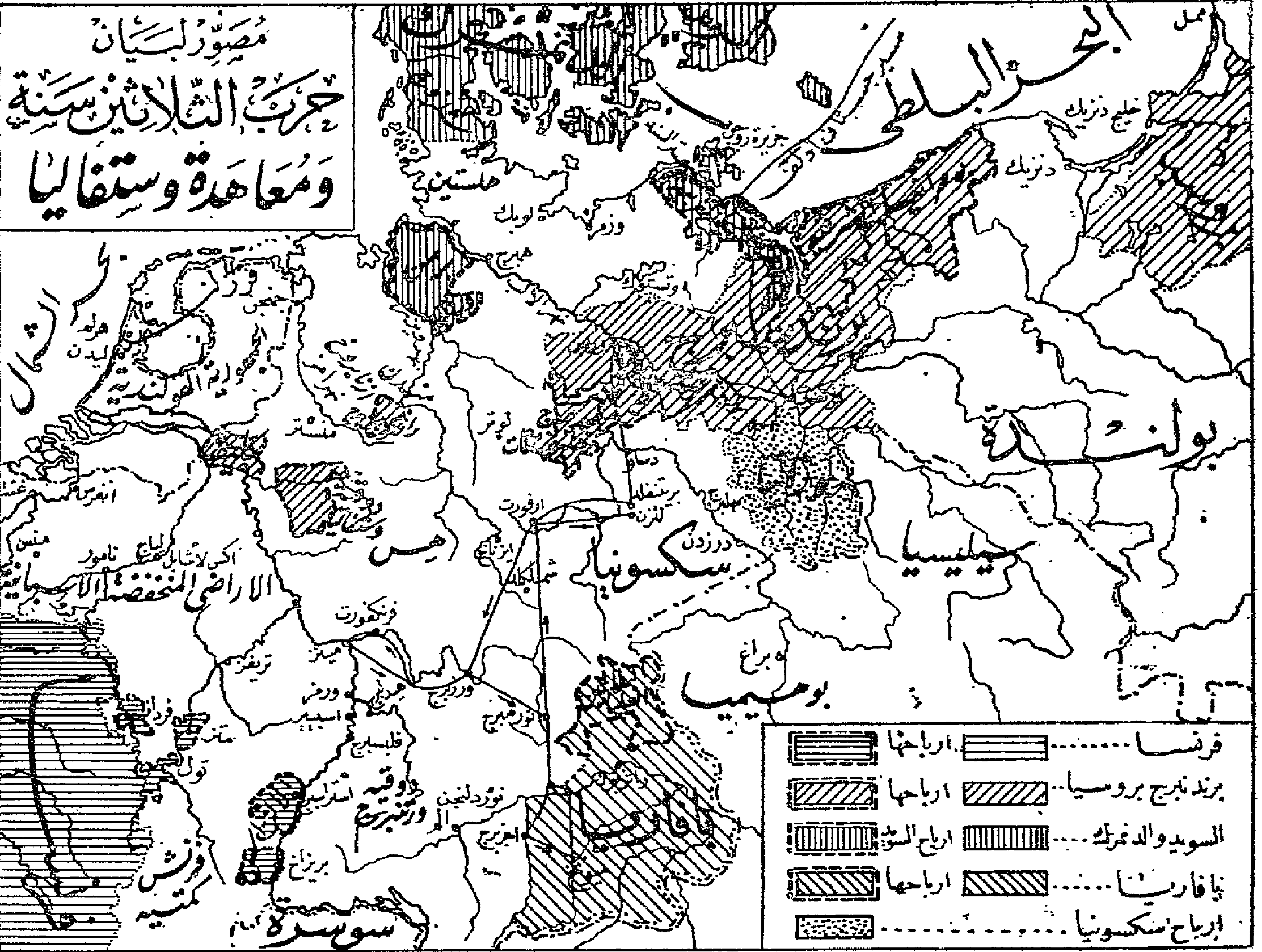
حالة المانيا بعد الحرب

وكادت ألمانيا بعد ابرام الصلح تكون صحراء جرداء ، فلم يبق من سكانها الاّ الثلث ، وكانت البقية الباقية منهم فى حالة يرثى لها ، فان تلك الحروب الشعواء خربت جل قراها فأصبحت خاوية على عروشها تعوى فيها الذئاب ؛ وعطلت الزراعة ومحيت الصناعة ، وأنشب الفقر فيها أظفاره وأذكى نار القسوة حتى اكلت الأم ولدها . وفشا الجهل ، وانحطت مدارك الأهلين وأصبحوا يعتقدون السحر والتنجيم . ولم يقلع الجند عما تعودوه ابان الحرب من النهب والسلب ، فجاء ذلك ضغثًا على ابّالة وزاد فى اضطراب أحوال البلاد وخرابها

نتائج معاهدة وستفاليا فى اوربا

وكان لهذا الصلح نتائج أخرى فى دول أوربا أهمها : (١) أن نفوذ البابا أخذ يضعف ، اذ لم تهتم الدول برفضه الموافقة على هذه المعاهدة (٢) ابتدأ سلطان آل هبسبرج ونفوذهم ينحط ، وظهرت فرنسا بين دول أوربا وأصبحت صاحبة القدح المعلى فى السياسة والقوة والجاه (٣) صارت السويد سيدة البلطيق وتعد من ممالك أوربا العظمى

وتُعدّ معاهدة وستفاليا من أنجح المعاهدات التى ابرمت بين دول أوربا ، . وقد بقيت شروطها مرعية فى الجملة الى انفجار الثورة الفرنسية


مصور لبيان
حرب الثلاثين سنة
ومعاهدة وستفاليا
البحر البلطي
بولندة
سكسونيا
جليسيا
بوهيميا
براغ
درزدن
سويسرة
هس
الاراضي المنخفضة الاسبانية
الولايات الهولندية
بحر الشمال
هلستين
لوبك
ورزبرج
نورمبرج
فرنكفورت
ارفورت
دنزيك
خليج دنزيك
فرنسا .... ارباحها
برندنبرج بروسيا .... ارباحها
السويد والدنمرك .... ارباح السويد
بافاريا .... ارباحها
ارباح سكسونيا ....

الفصل الثانى

فرنسا (فى أوج عظمتها)

١ — ✱ هنرى الرابع ✱

تولى هنرى الرابع عرش فرنسا وقد أنهكت قواها وفشا الخلل فى جميع شؤونها ولاسيما المالية منها . فلما هدأ الفتن الدينية بما منحه للهيجونوت من الحرية بمرسوم نتت رأى ان أجدر الأمور بعنايته بعد ذلك اصلاح الشؤون المالية . فشرع فى العمل على ذلك بمعونة الوزير العظيم « دوق صَلى »

صلى واصلاحاته

تولى « صلى » الأمور وحالة البلاد المالية غاية فى الارتباك منذرة بسوء المصير . فقد وجد ان معظم الضياع الملكية مهملة ، وان نفقات البلاد تزيد على دخلها زيادة فاحشة ، وان الضرائب التى كانت تجبى منها يدير شؤونها فئة من المختلسين الخونة ؛ هذا الى أن التجارة كانت فى كساد مستمر ، والزراعة فى اضمحلال وانحطاط . فأخذ صلى بما أوتيه من الذكاء والفطنة يصلح هذه الشؤون ويرفع من شأن البلاد ما استطاع الى ذلك سبيلا . فابتدأ أولاً باصلاح الحالة المالية ، وترك الأنظمة القديمة جانباً واكتفى بتنفيذها بكل دقة وأمانة . لذلك أصدر الأوامر المشددة بأن لاتجبى من الأهلين ضرائب الاّ باذن من الحكومة ، ونظم دفاتر المالية ، وطهر البلاد من كثير من عمّال المالية الذين كانوا عالة عليها ، وأجبرهم على دفع ما اختلسوه من قبل . ثم ألغى اعفاء عدد عظيم من الأشراف من دفع الضرائب بعد أن برهن لهم بطلان ادّعائهم ، فنشأ عن ذلك ان خلّص الأهلين من دفع ضرائب غير قانونية تبلغ ١٢٠ مليونًا من الفرنكات فى مدة الاحدى عشرة سنة التى قبض فيها على زمام المالية ، وسدد من ديون البلاد نحو ٣٣٠ مليونًا من الفرنكات ، وجعل موارد البلاد كافية لسد حاجتها وأودع فى خزائنها نحو ٣٠ مليونًا احتياطًا لأى طارئ مفاجئ

تحسن الحالة المالية

وصل صلى الى هــذه النتيجة المرضية مع انه لم يثقل عاتق البلاد بضرائب جديدة اللهم الاجزية على من يرغب أن يكون ذا عمل فى الأمور المالية أو القضائية واراد أن تكون وظيفته وراثية فى خلفه من بعده

اصلاح الزراعة



صَلى

وكان يرى أن أهم وسيلة تساعده على النهوض ببلاده وتحسين حالها هى اصلاح الزراعة ؛ فأخذ بناصر الفلاح وشجّعه على فلاحــة الأرض وغرسها واصلاح موَاتها

وفى الوقت الذى كان يعمل فيه « صلى » على تحسين الزراعــة كان « هنرى » آخــذاً بناصر الصناعات الوطنيــة ومدّ السكك وحفر الترع .

اعمال هنرى الرابع

فشجع أهل ليون على صناعة الحرير ، وكان للهيجونوت القدح المعلى فيها ، وأهل باريس على صناعتى الفخّار والزجاج ؛ ووصل اللوار بالسين بترعة عظيمة

سياسته الخارجية

على ان ذلك لم يشغله عن سياسة البلاد الخارجية ، بل ضرب فيها بسهم صائب برهن على مقدرته العظيمة ؛ اذ جدد الامتيازات مع « تركيا » ، فأصبح لبلاده صوت مسموع فى القسطنطينية وقسم وافرٌ من تجارتها . ثم عقد المعاهدات التجارية مع انجلترة وهولندة . وتقدم فى زمانه الاستعمار فى كندة ، اذ أسس « شَمْبلين » بلدة كوِيبِك عام ١٦٠٨ كما سيأتى مفصلاً فى الكلام على الاستعمار

هنرى والاشراف

وكان من أهم الآثار السيئة التى نتجت عن الحروب الدينية فى فرنسا أن جعلت للأشراف نفوذاً عظيماً واستقلالاً تاماً . وكان هنرى بطبيعة الحال مضطراً لمصادقتهم قبل استوائه على العرش ، ولكنه لم يكد يلى الأمور حتى قلب لهم ظهر المِجَنّ وأظهر لهم نفوذه وسلطانه . فكان أول من تألب عليه منهم دوق « بيرون » الكاثوليكى ودوق بيون الهيجونوتى ، وكانا يَريان انهما مهضوما الحق ، فاتفقا مع حاكم سافوى

(عدو هنرى) على الغدر بالملك ؛ ولكن هنرى الرابع فطن لذلك ، فأسرع الى احباط المؤامرة وحاكم « بيرون » وأعدمه عام ١٦٠٢ . ولما علم دوق « بيون » بذلك ولى هارباً الى ألمانيا

وكان من سياسة هنرى أن يعهد بأمور الحكومة الى أفراد من عُرض الناس ممن يعتمدون عليه وينقمون على الأشراف حتى يقلل بذلك سلطانهم ونفوذهم . هذا الى انه ألغى كثيراً من الامتيازات التي كانت تتمتع بها هذه الفئة دون سواها . وكان غرضه من جعل مناصب المالية والقضاء وقفاً على أسر خاصة يدفعون فى مقابلها جزية سنوية أن يُنشىء حزباً جديداً من الأهلين يناهض الأشراف

وفى عام ١٦٠٦ ساحَ هنرى فى الأصقاع الجنوبية والجنوبية الغربية التى كانت ثائرة عليه وهدّم فيها كثيراً من قلاع الأشراف وحصونهم ، وأعدم كل من اشترك فى الاضطرابات الأخيرة

سياسته نحو آل هبسبرج

وكان أهم ما تصبو اليه نفسه فى سياسته الخارجيــة القضاء على النفوذ النمسوى الاسبانى فى أوربا . وكان يرى أن لا ينال أمنيتهُ الاّ بتحالف البروتستنت فى ألمانيا والأراضى المنخفضة وايطاليا وانجلترة وفرنسا على آل هبسبرج للقضاء على سيادتهم، حتى اذا ما تم له ذلك أمكنه أن يسوّد فرنسا فى أوربا . وكادت المقادير تساعده على نيل أمنيته ، لولا أن اغتاله فاتك فى أحد شوارع باريس (مايو سنة ١٦١٠) ، فلم ينفذ عزمه وتركه لخلفه من بعده . فقاموا به خير قيام كما سيأتى بعد

لويس الثالث عشر ومارية دى مديشى

وتولى بعده عرش فرنسا ابنه لويس « الثالث عشر » وهو حَدَث السن، فأقيمت أمه « مارية دى مديشى » وصيةً عليه ، وقد ساعدها على نيل ذلك فئة من زعماء الأشراف . وفى مدة وصايتها عليه كانت مقاليد الأمور فى قبضة ايطاليين من حاشيتها هما كُنسينى وزوجته . وقد وصل كنسينى بما له من الحظوة عند مارية الى رتبة « مرشال فرنسا » على الرغم من جهله بالفنون الحربية

كنسينى

ولما أعلن لويس بلوغ رشده عام ١٦١٤ عقد مجلس الأمة النيابى للنظر فى شؤون البلاد وخاصةً ماليتها ، لأن الاحتياطى الذى كنزه «صلى» بدّدته الحكومة فى ارضاء

انعقاد مجلس الامة

المتألّبين من الأشراف . وكان هذا المجلس مؤلفاً من ثلاث طوائف : وهى الأشراف والقساوسة والطبقة الوسطى . فلما اجتمعوا قصر كل حزب همّه على الدفاع عن مصالحه الخاصة ولم يتفقوا على شئ غير اصلاح المالية : فقرّ رأيهم على انقاص الوظائف التى كان يتقاضاها الأشراف المتفوّن حول البلاط (وقد ازداد عددهم منذ موت هنرى الرابع) والغاء ضريبة « البُولِت » وهى الجزية التى كانت تجبى من الأسر التى تريد بقاء المناصب وراثية فى أفرادها ، وتأسيس محكمة خاصة لمراقبة شؤون البلاد المالية .

عدم انعقاده بعد

ولما رأى الملك انقسامهم على أنفسهم ضرب بقرارهم عرض الحائط ، ولم يعقد المجلس بعد (فبقى بلا انعقاد نحو ١٦٠ عاماً*) فنجم من ذلك تذمّر الأمة بأسرها . وزاد الطين بلة احتقار الملكة لعواطف الأمة بتزويجها ابنها لويس الثالث عشر بآن النمسوية ، اذ كان فى ذلك تغيير لمجرى السياسة الفرنسية

وفى عام ١٦١٧ انتهز الكنت « دى لونيس » أحد أصدقاء الملك فرصة غضب الأمة على كنسينى وزوجته وحرضه على قتلهما ؛ فأعدم هو أولاً ثم زوجته ، وتولى «لونيس» منصب رآسة الوزارة بعد كنسينى مدة أربعة أعوام . فلم يمتز عنه بشئ ما الا قلة كراهية الأشراف له ، وذلك لأنه من أسرة شريفة عريقة مثلهم . وفى مدته

خروج الهيجونوت

ثار الهيجونوت وأرادوا تأسيس جمهورية لهم فى جنوبى فرنسا ، فسار اليهم لويس وحاصرهم فى « مُنْبِلْيِيه » و « لاروشل » ثم « مُنْتُوبان » التى قاومت أشد المقاومة . ولما مات لونيس ابتدأت مفاوضات الصلح بين المتحاربين ؛ ولم يمض طويل حتى سقطت منبلييه ، فتم الصلح ، وأهم شروطه : (١) أن يراعى مرسوم « ننت » بعد

صلح منبليية

انقاص البلاد التى كانت فى أيدى الهيجونوت الى اثنين فقط وهما « لاروشل » و « منتوبان » . (٢) وان لا يعقد الهيجونوت فيما بينهم أى اجتماع سياسى

وفى أثناء ذلك رجعت الملكة الى القصر الملكى بعد ان كانت تركته بعد قتل كنسينى . فتولى منصب رآسة الوزراء مستشارها الخاص « الكردنال ريشِلْيو » عام ١٦٢٤ ، فكان له شأن آخر فى تاريخ فرنسا

---

* عقد ثانية قبيل انفجار الثورة الفرنسية

٢ — ﴿ ريشليو ومزَرَان ﴾

(ا) ريشليو

نشأته وصفاته

ولد ريشليو فى باريس عام ١٥٨٥ من أسرة عريقة فى « بواتو » . وأول منصب هام شغله هو منصب أسقف بلدة « لوسون » ، ولما عُقد مجلس الأمة عام ١٦١٤ انتُخب خطيباً عن طائفة القسيسين ، لبلاغته وفصاحة لسانه . وفى عام ١٦٢٣ عين كردنالاً . وما لبث أن ساعده الحظ وتربع على كرسى رياسة الوزارة الفرنسية عام ١٦٢٤ . ومن هذا الحين بقى ثمانية عشر سنة الحاكم الحقيقى فى فرنسا والمحور الذى تدور حوله رحى السياسة الأوربية . وقدكان على ضعف فى جسمه وانحلال فى صحته ، شديد البأس قوى البطش ، ذا نظر ثاقب فى شؤون فرنسا الداخلية وسياسة أوربا جمعاء ، كيد له من المكايد ودُس له من الدسائس ما ملأ كتب القصص والروايات ، فكان يخرج منها ظافراً ، لشدة دهائه ومضاء عزيمته : مما جعله أعظم سياسى أنجبتهُ فرنسا فى جميع عصورها

سياسته

وكان يرمى فى سياسته الى أمرين عظيمين كان يراهما فى الحقيقة غرضاً واحداً لازماً لاعلاء شأن فرنسا : الأول زيادة نفوذ الملك داخل البلاد وتوطيد سلطانه بكل الوسائل ، التى كان أقربها فى نظره اخضاع الأشراف والاجهاز على استقلال الهيجونوت السياسى ونفوذ الهيئات النيابية ؛ والثانى أن يقضى على سيادة آل هبسبرج فى أوربا ، ليجعل فرنسا صاحبة النفوذ الأعلى والكلمة النافذة فيها . وقد أفلح فى سياسته الخارجية وقد سبق الكلام عليها فى حرب الثلاثين * ، وبقى علينا الآن أن نذكر شيئاً عن ادارته الداخلية

١ — زيادة نفوذ الملك

٢ — اضعاف آل هبسبرج

كان الهيجونوت بعد صلح « منبلييه » لا يزالون يطمحون الى نيل استقلالهم ويترقبون الفرص لذلك . فحدث فى عام ١٦٢٥ ان الحكومة أقامت حصناً على مقربة

* من أهم ما يلاحظ فى سياسته فى تلك الحروب الاخذ بناصر البرتستنت مع كونه كاثوليكياً بل كردنالا ؛ وما ذلك الا لانه كان يرى فى نصرتهم اضعاف سلطان آل هبسبرج

قهر الهيجونوت

من لاروشل ، فاتخذوا ذلك ذريعة للثورة فثاروا بزعامة « سوبيز » ؛ فانتهت الثورة بقهر أسطولهم وارغامهم على مراعاة صلح « منبلييه »



ريشليو

ورأى ريشليو بعد هذه الفتنة أنه لا يتسنى له القيام بأعباء سياسته الخارجية الا بعد أن يوطد دعائم الأمن فى داخل البلاد . وبدأ بالعمل على اخضاع الأشراف ، فسن لذلك عدة مراسيم حرم فيها المبارزة وأمر بهدم كل القلاع التى ليست على الحدود . وقد أدت هذه الأمور الى قيام مؤامرة عليه سنة ١٦٢٦

ريشليو والاشراف

تلاها كثير غيرها كان الغرض منها عزل لويس وقتل ريشليو . وقد اشترك فيها أخو الملك وأمه وزوجه ، ولكن عيون ريشليو كشفتها قبل انفاذها ، فعاقب المجرمين أشد العقاب

خروج الهيجونوت

ولم يكد يخمد هذه الفتن حتى خرج الهيجونوت على الحكومة خروجاً عاماً . وذلك أنه حدث فى عام ١٦٢٧ أن توترت العلائق بين انجلترة وفرنسا من جراء خلاف فى تنفيذ شروط معاهدة كانت عقدت بينهما عام ١٦٢٥ على تزويج «هنريتا مارية»

مساعدة الانجليز لهم

أخت لويس بملك انجلترة شارل الأول ؛ فلما ذهب دوق « بكنجهام » الى فرنسا لاحضار العروس غضب الفرنسيون مما أظهره نحو الملكة من قلة مراعاة ما يليق . وعلى أثر ذلك أخذ يفاوض زعيم الهيجونوت الدوق « روهان » ويحرضه على العصيان ويعده بمساعدة انجلترة ، فشق الهيجونوت عصا الطاعة فى لاروشل ومقاطعة لنجدوك ، فجمع ريشليو كل قواه لدرء هذا الخطر . فبدأ بصد الأسطول الانجليزى (بقيادة

بكنجهام) وكان قاصداً جزيرة « ريه » (امام لاروشل) ، فعاد بكنجهام الى انجلترة لاحضار مدد جديد. ثم صمم على اخماد أنفاس الهيجونوت جملة بالاستيلاء على لاروشل

حصار لاروشل

معقلهم المكين. فشرع فى حصارها، وكانت العقبة الكؤود أمامه أن طريق المحاصرين كان مفتوحاً من جهة البحر؛ فتغلب ريشليو على ذلك ببناء سد ضخم بين طرفى الميناء تمّ انشاؤه قبل وصول المدد الانجليزى. فاضطرت المدينة الى التسليم بعد دفاع مجيد (٢٠ اكتوبر سنة ١٦٢٨). وقد نال أهلها شروطاً مرضية، اذ عُفى عن جميع المحاصرين ولم يُضطهدوا فى دينهم. الاَّ أن ريشليو أمر بهدم كل حصون المدينة

معاهدة اليه

ووجه بعد ذلك كل قواه نحو « لنجدُوك » فى الجنوب وأخمد نار الثورة فيها، فانتهى الأمر بابرام معاهدة « أليه » سنة ١٦٢٩، وبهـا نال الهيجونوت حريتهم الدينية، وفقدوا استقلالهم السياسى الذى كان خطراً يهدد الوحدة الفرنسية. وصاروا من ذلك العهد من اكبر انصار الملك واكثر رعاياه نفعاً للبلاد، بكثرة جدهم واتقانهم لكثير من الفنون والصناعات

مارية وريشليو

وعند ذلك وثق الملك بسياسة ريشليو وعظم فى عينه، ففوض له كل حل وعقد فى البلاد. فحسده الأشراف وأخذوا من جديد يعملون على النكاية بهِ، وحقدت عليه أم الملك مارية دى مديشى خصوصاً لما عاد ريشليو الى العمل بالسياسة الفرنسية القديمة وهى مناوأة آل هبسبرج، اذ انتهز قيام الخلاف على وراثة دوقية مَنْتُوا وأعلن الحرب على النمسا (ولم تستمر الحرب طويلاً لتفشى الطاعون وتوسط البابا فى أمر الصلح، فانتهت عام ١٦٣٠ ولم تكن لها نتيجة سوى تخريب أملاك دوق سافوى). ولما عظم حنق مارية على ريشليو دبَّرت مع ابنها جَستون دوق أرليان مكيدة لخلعه

خلع ريشليو ثم عودته

وقد أفلحت فى بادئ الأمر، فأرغمت لويس على خلع ريشليو، ولكنه ما لبث أن اختلى بالملك فى قصر « فِرساى » واستعاد نفوذه. عنـد ذلك هرب جستون الى اللورين، وفرت مارية مديشى الى بركسل حيث قابلها الاسبان بالحفاوة والاكرام. وثار بعد ذلك جستون ودوق مُنْتِمورِنسى حاكم لنجدوك ومن أشد أعداء الحكومة، لعدم موافقة الملك على زواج جستون باحدى أميرات آل هبسبرج، فهُزمت جموعهما عند

ثورة دوق اورليان ومنتمورنسى

« كَسْلِنودارى » وأُخذ منتمورنسي أسيراً وقتل عام ١٦٣٢ . أما جستون فانه ذهب الى بركسل مدة ، ثم رجع ثانية الى فرنسا وتصالح مع أخيه وريشليو عام ١٦٣٤ . ولما شعر ريشليو بهدو الاحوال فى فرنسا خاض غمار حرب الثلاثين سنة فى العام التالى بعد أن بذل كل همه فى تدريب الجيش على النظام الحديث . وقبل موت ريشليو

مؤامرة سنكمار

ببضعة أشهر دبّر «سَنْـكمار» أحد أصدقاء الملك مؤامرة لاغتيال الكردنال. واشترك معهُ « دِتو » وجستون ودوق بيّون وغيرهم من الأشراف ، ولكن انكشف أمرهم بمهارة الجاسوسية التى كان قد نظمها ريشليو فى البلاد . ويقال ان الملك وريشليو كانا يعلمان بسر هذه المؤامرة ، غير أنهما لم يبديا حراكاً حتى اتضح جلياً سوء قصد المتآمرين ، واذ ذاك عاقبا المجرمين عقاباً صارماً ، فأُعدم سنكمار و « دِتو » وعزل دوق بيون عن ولاية سيدان

نتيجة المكافحة مع الاشراف

ولم يكن غرض ريشليو فى سياسته مع الأشراف اقتلاع جذورهم من البلاد ، بل كان يرمى الى نزع السلطة من أيديهم فقط حتى لا يعيثوا فى الأرض فساداً . فلم يترك وسيلة للعمل على هدم سلطانهم كلما سنحت له الفرصة بذلك؛ فهدم كل قلاعهم وحصونهم ، ونظّم جيشاً مستديماً يركن اليه وقت الحاجة . وكانت الضربة القاضية عليهم استبداله بالاشراف تدريجاً حكاماً للاقاليم ينصَّبون من قبل الملك مباشرة وتفاقم الخطب عليهم حين أصدر الملك مرسوماً سنة ١٦٣٧ بتعميم ذلك فى جميع المديريات

موت ريشليو

ومرض ريشليو فى آخر أيامه حتى كان يُحمل فى المحفات ، ولما أحس دنو أجله طلب الى الملك أن يعهد برياسة الوزارة من بعده الى الكردنال « مزَران » وهو رجل ايطالى ذكى الفؤاد : دربهُ ريشليو على خطته السياسية وهى أن يرفع من شأن ملك فرنسا مهما كلفه ذلك : تلك السياسة التى سار ريشليو فى تنفيذها بعزم وحزم وقدرة لم تعهد من قبل وداس فى سبيلها حقوق الافراد والامم على السواء . ومات عام ١٦٤٢ وهو واثق من صحة سياسته وأنها الدواء الوحيد لفرنسا

قيمته فى تاريخ فرنسا

وقد بذل ريشليو جهده فى انماء تجارة البلاد ونشر العلم . اذ هو المؤسس الثانى لكلية السربون الشهيرة ؛ والمنشيء للمجمع اللغوي الفرنسي (أكَدِمى فرنسيه)

الذى كان له أكبر أثر فى ترقية العلوم والآداب بفرنسا

غير أن ما أتاه من الفوائد الجليلة فى ادارة البلاد لا ينسينا المضار التى نجمت من زيادته فى قوة الملك وسلطانه والقضاء على كل قوة أو عقبة تناهضه؛ فأصبح الاشراف ولا عمل لهم عالة على الأمة يتقاضون مرتباتهم من دماء المزارعين . ولم يكن لهم مجال للعمل الا الانخراط فى سلك الجيش . وفى مدته زادت الضرائب الى أربعة أمثالها مع بقاء الاشراف والقساوسة والموظفين معفين منها . وأهملت حالة البلاد الزراعية التى يتوقف عليها فلاحها . وعند موته كانت خزائن الحكومة خالية

(ب) مزران

قبض « الكردنال مزران » على زمام الأمور فى العام الذى مات فيه ريشليو . ولما كانت صحة الملك معتلة ، وصار من الموت قاب قوسين أو أدنى ، سعى مزران فى استجلاب رضا الملكة بما أوتيه من قوة الجاذبية وشدة التأثير . ولم يمض زمن طويل حتى مات لويس سنة ١٦٤٣ واستولى على العرش الفرنسى ابنه «لويس الرابع عشر» فى الخامسة من عمره . فوُصّيت عليه أمه آن النمسوية وأصبحت هى القابضة على كل السلطان فى البلاد . وساعدها فى نيل تلك السلطة مزران ، اذ وضعت فيه من أول أمرها كل ثقتها ومحبتها . فسبب ذلك غضب الاشراف وأثار حقدهم، اذ وثقت الملكة برجل أجنبى منافق متملق مخادع . وقد اجتهد فى السير على سياسة ريشليو ولكنه اتبع طرقاً أخرى فى تنفيذها لِما كان بين أخلاقهما من البون الشاسع . وقد ضُرب فى ذلك المثل « ظهر الثعلب بعد اختفاء الأسد » تبياناً لما كان بينهما من تباين الأخلاق : أحدهما يعتمد على الشدة والآخر على الخداع . وقد خاب فأل الاسبان الذين كانوا فى حرب مع فرنسا وفرحوا بموت وزيرها العظيم، زاعمين أن موته من أكبر العوامل التى تفتّ فى عضدها ، ولذلك أخذوا يحاصرن «رُكْرُوَا» (على الحدود البلجيكية)؛ فضاع أملهم ، وطاش سهمهم ، ودارت الدائرة عليهم بفضل « كُنْديه » الذى كان يقود الجيش الفرنسى حينئذ

مزران وآن النمسوية

غضب الاشراف

الفرق بين مزران وريشليو

اطماع الاسبان

وكانت حالة البلاد الداخلية فى هذا الوقت فى قلاقل واضطرابات. وكان قد أخمد أنفاسها « ريشليو » بما أوتيه من القوة والحذق وشدة البأس؛ ولكن بموت هذا الرجل العظيم ابتدأت نار الفتن والقلاقل يندلع لهيبها، ولا سيما ان خلفه كان مبغضاً محتقراً من الأمة، ولا ناصر له الاّ الملكة. وقد حدث من جراء ذلك انفجار حروب داخلية تدعى حرب «الفرُونْد*» (١٦٤٧-١٦٥١) لم تؤثر فى حالة البلاد الخارجية الاّ فى اعطاء الاسبان فرصة وقت ان كانت الحرب بين الأمتين بالغة أشدها

القلاقل الداخلية



مزران

حرب الفرند واسبابه

وتلخص أسباب هذه الحروب فى أمور ثلاثة وهى: كره البلاد لمزران، واستياؤها من النظام الاستبدادى الذى وضع أساسه ريشليو، وطموح الأشراف الى استرجاع نفوذهم

برلمان باريس

وقد ابتدأت هذه الحروب برفض « برلمان باريس » الموافقة على وضع ضريبة على كل البضائع التى تدخل باريس. وكان «برلمان باريس» أشبه بمحكمة تتألف من قضاة وأعيان؛ وكل المراسيم التى يصدرها الملك لا يعمل بها الاّ بعد تسجيلها فيه. ولم يكن له الحق فى سن القوانين، واذا حدث أنه رفض تسجيل أى مرسوم، كان للملك بمقتضى الحق المسمى « سرير العدل » أن يظهر أمام البرلمان ويأمر بتسجيل ما يريد. لذلك ظهر الملك فى هذه الحادثة وأمر بتسجيل الضريبة؛ فعارض البرلمان

* (الفرند) معناه المقلاع، وقد سميت هذه الحروب بهذا الاسم ازدراء لها، لأن المقلاع كان السلاح الذى تستعمله الاولاد فى شوارع باريس فى ذلك الوقت

فى ذلك ، وانتهى الأمر باتفاق الطرفين مؤقتاً

القبض على زعماء حزب البرلمان

غير أن برلمان باريس مالبث ان ألف لجنة للدفاع عن حقوقه الدستورية؛ وكان أهم مطالبهم أن يراقب البرلمان ضرائب البلاد ، وان كل فرد تقبض عليه الحكومة لابد أن يحاكم فى خلال ٢٤ ساعة . فأمرت الحكومة بالقبض على بعض الزعماء ، فثار عليها حزب البرلمان

ابتداء الحرب

وحدث ذلك أثناء رجوع الأمير «كُنديه» منتصراً على الاسبان ، فانضم الى حزب الحكومة رغم كرهه لمزران ؛ فحاصر باريس ولكن على غير جدوى ، فقويت عزيمة البرلمان وأصدر حكمه بنفى مزران . وعندئذ انضم الأشراف الى الثوار فاشتد أزرهم

الصلح الاول

ثم انضم اليهم قائد آخر من أعظم قواد فرنسا يدعى المارشال «تورين» ، فاضطرت الحكومة الى قبول مطالب البرلمان مع ابقاء مزران رئيساً للوزارة (١٦٤٩)

تجدد الحرب

وبعد انتصار حزب البرلمان والأشراف على الحكومة ابتدأ كنديه يظهر الغطرسة والكبرياء ويعتبر نفسه أكبر رجل فى البلاد ، فلم يصبر على ذلك مزران ؛ ولما ضاق ذرعاً أمر بزجه فى السجن هو وبعض الأشراف فى يناير ١٦٥٠ . فاتخذ الأشراف ذلك سبباً لاشعال نار الثورة فى باريس ، ثم تسربت منها الى بعض المديريات . واتفق زعماء الثوار على خلاص الأمراء من السجن وعزل مزران ؛ وغزا المرشال تورين فرنسا

فرار مزران

بجيش اسبانى ، ولكن بالرغم من انهزامه استولى على مزران الجبن فأطلق سراح الأمراء المسجونين ، وفر هارباً الى كاونيا حيث كان يدير شؤون البلاد وهو فى مخبئه ، وبذلك هدأت الأحوال نوعاً . الاّ أن سوء أخلاق كنديه أغضب زعماء الفرند كما

سكون الفتنة

أغضب مزران من قبل ، فاتخذت آن النمسوية من ذلك وسيلة لضم زعماء الثورة الى جانبها ؛ واستدعت مزران الى فرنسا ، ورجع تورين الى ولائه للحكومة

كنديه يواصل الحرب

أما كنديه فانضم اليه بعض الأشراف وأثاروا الفتنة فى جنوبى فرنسا بدعوى تخليص الملك من (مستشاريه الفاسدين) . فالتحم معهم « تورين » فى عدة وقائع كان النصر فيها حليفه . وما لبث كنديه ان أغضب حلفاءه ، فاضطر الى الالتجاء بفلول جيشه الى باريس لشدة كراهة أهلها لمزران

الصلح

ولما رأى مزران أنهُ هو العقبة الوحيدة فى سبيل ابرام الصلح ترك البلاد حتى تهدأ أحوالها؛ فتمكنت الملكة من ابرام الصلح مع البرلمان عام ١٦٥٣ . وسمحت بالعفو عن كنديه ، ولكنهُ رفض عفوها وخان بلاده ، وقاد الجيوش الاسبانية ضدها مدة ثمانية أعوام . وبعد ابرام الصلح بعامين رجع مزران الى مزوالة أعماله بدون أى معارضة.

خيانة كنديه

توطيد نفوذ الملك

ولم يكن لهذه الحروب أثر يذكر فى اضعاف نفوذ الملك؛ فبينما كان البرلمان فى عام ١٦٥٧ يتناقش فى أمر ضرائب جديدة دخل الملك وهو بملابس الصيد وفى يده سوطه ، وحرم على البرلمان أن يتناقش فى أى مرسوم يصدره ، بعد أن ذكر أعضاءه بالاضطرابات الأخيرة التى حدثت من جراء ذلك . فقبل الأعضاء أمره بكل خضوع وبذلك قُبرت كل معارضة قامت تناهض سلطان الملك فى فرنسا الى عام ١٧٨٩

الحرب بين فرنسا واسبانيا

وفى غضون هذه الحروب الداخلية التى كادت تمزق أوصال البلاد كانت فرنسا لاتزال فى حرب مع اسبانيا ، اذ لم يتم الصلح بينهما فى معاهدة وستفاليـا . وكان ميدان هذه الحروب الأراضى المنخفضة ، وتغلب فيها المرشال تورين بذكائهِ ودهائه الحربى على جيوش الأعداء التى كان يحارب فيها القائد كنديه الفرنسى . وقد أفلح مزران فى عقد اتفاق مع « كُرُمول » صاحب الكلمة فى انجلترة على خوض غمار هذه الحروب فى جانب فرنسا ، فكان ذلك من أكبر العوامل على انهزام اسبانيا ؛ فاستولى المتحالفان على « دنكرك » أمنع حصن فى فلندرة سنة ١٦٥٧ ، ونزلت فرنسا عنها لانجلترة

كرمول يساعد فرنسا

ولما توالت الهزائم على الاسبان رغبوا فى ابرام الصلح ، ولاسيما بعد أن فاز مزران فى منع كل مساعدة لها من النمسا . وفى عام ١٦٥٩ ابتدأت مفاوضات الصلح بين مزران ورئيس الوزارة الاسبانية (دون لويس دى هرلو) فأبرمت معاهدة «البرانس» الشهيرة سنة ١٦٥٩ ؛ وكان أهم شروطها أن يتزوج لويس الرابع عشر « مارية تريزا » بنت ملك اسبانيا (فليب الرابع) ويعفو عن الأمير كنديه ، وأن تضم فرنسا الى أملاكها ارتوا وجزءًا من هينلت وفلندرة ، وأن تستولى فرنسا أيضاً على مقاطعتى روسيّون وسِرْدَنْية . وقد اعترف لويس فى المعاهدة بأن هذا الزواج لايخوله أى حق

معاهدة البرانس

فى وراثة عرش اسبانيا ، غير أنه لم يرْعَ هذه العهود ، وكان من جراء هذا الزواج اشعال حرب أوربية عظيمة سيأتى تفصيلها بعد

أعمال مزران

وكانت معاهدة البرانس آخر عمل قام به مزران ، وقد كانت هى وسياسته فى حرب الثلاثين سنة من أعظم العوامل التى حفظت اسمه فى التاريخ وجعلت لفرنسا المكانة الاولى بين دول أوربا . ولم يطل أجله بعد ذلك ، اذ مات فى عام ١٦٦١ تاركاً وراءه ثروة طائلة أوصى بمعظمها لتأسيس كلية لتعليم أبناء المقاطعات التى ضمها الى الأملاك الفرنسية هو وريشليو ، ليغرس فى قلوب أهلها حب فرنسا فتتحد بذلك كلمة البلاد . وأوصى لهذه الكلية بمكتبته الفاخرة

٣ — ✱ عصر لويس الرابع عشر ✱

لويس يتسلم مقاليد الامور

بعد موت مزران سنة ١٦٦١ تولى لويس الرابع عشر مقاليد الأمور بنفسه فى فرنسا وهى اذ ذاك صاحبة السيادة فى أوربا ، وبقى يدير خيزرانة الأمور نحو أربع وخمسين سنة بعزم أكيد وجد ونشاط لم يكادا يوجدان فى غيره من ملوك عصره وساعده على ذلك ما أوتيه من قوة الحافظة والجلد العظيم على العمل والمهارة فى السياسة والصبر الذى لا يعرف الكلال على مزاولة مآربه السياسية . هذا الى أنهُ خدمَهُ فى فاتحة حكمه نخبة من أعاظم مَن انجبتهم فرنسا : فكان يدير مالية البلاد « كُلبير » أمهر مدير مالى أخرجته فرنسا فى كل عصورهـا ، و «ليون » السياسى المحنك ، و « تورين » اكبر عالم بالفنون الحربية فى وقته . و « كنديه » قائد الفرسان الشهير و « فوبان » المهندس الحربى الحاذق الذى يقال عنهُ أنه لم يخسر معقلاً دافع عنه ولم يحاصر حصناً الاّ استولى عليه ، ووزير الحربية « لوفوا » الذى كان منقطع القرين فى تموين الجيوش ومدها بالذخائر . فبهؤلاء الأفراد وغيرهم نال لويس فلاحاً عظيماً فى داخلية البلاد وخارجيتها لم ينله من قبله ريشيلو ومزران ، ولا سيما أن الأول كان يعمل للملك عليل غبى ، والثانى كان يدير الشؤون لطفل فى المهد . أما هو فكان يعمل لنفسه وهو هو صاحب المكانة الأولى بين ملوك أوربا . كلهم يعدّونهُ المثال الذى يُقتدى به ويحسبون عمله النموذج الذى ينسج على منواله

الامور التى ساعدت على نجاحه



فوبان

ولم تكن عظمة لويس ناشئة عن مهارة فى الحرب أو حذق فى السياسة . بل كانت بما أوتيه من القدرة الفائقــة على حفظ مكانة الملك والباسها حللاً من الهيبة والأبهة والجلال لم تكد أوربا ترى مثلها من قبل . وقد كان تأثير حاشيته فى أوربا يفوق كل ما أحرزه قواده فى ساحة الوغى وما أظهره سوّاسه من الدهاء

ولا غرابة أن لُقب بالملِك الأعظـم (Le Grand Monarque) ؛ فقد كان يُحسن الظهور بالعظمة من غير تكلف ، والاحتفاء بمن فى مجالسه من غير أن ينزل معهم الى حد الالفة ، جذّاباً فى حديثه ، سليم الذوق رشيقاً ، حسن الطلعة ، من غير أن يظهر عليه فى ملبسه ومظهره شيء من تلك الزخارف الصناعيــة التى لولا مهارة الحاكة ومرجّلى الشعور وصانعى الأحذية لانكشف من تحتها جسم ضئيل عار عن كل ذلك الرونق المهيب

عظمة لويس

وانبعثت روح تلك الأبهة فى حاشيته ، فكان قصر « فِرساى » من أجمل ما شيده ملوك أوربا ، يضم بين جدرانه كل مظاهر التأنق والرقى فى الحياة ، ويؤمه من العلماء والأدباء والسواس والفلاسفة ما ازدهت به فرنسا وفخرت به على أوربا . فمنهم « كُرْنِىّ » و « راسين » و « ملْيير » الذين هم أشهر من أنجبتهم فرنسا فى وضع الروايات التمثيلية ، و « دِيسكَرْت » و « بَسْكال » صاحبا الباع الطولى فى العلوم

عظمة حاشيته

أعاظم الرجال في عصره

الفلسفية، و « بوسيه » و « فِنِلون » من أكبر علماء اللاهوت، و « سنت سيمون » صاحب المذكرات الشهيرة التي على ما بها من الغلو في ذكر الفحشاء والخلاعة في قصر لويس، تُعتبر أحسن ما وُضع في وصف معيشة لويس الرابع عشر وحاشيته

تأثير ذلك في أوربا

وقد كان لكل ذلك أكبر أثر في الممالك الأوربية الأخرى، فظلت قرناً من الزمان تحاكي فرنسا في ذوق أهلها وزيّهم وفنونهم وصناعاتهم وآدابهم وعلومهم، بل في لغتهم

كان لويس يرى في سياسة البلاد الخارجية ان لابد له من اقتفاء أثر أسلافه، وأن يستمر في فتوحه الى نهر الرين الذي يعتبره الفرنسيون الحد الطبيعي لبلادهم، ثم يجعل فرنسا المسيطرة على كل أصقاع أوربا الغربية، ولكنهُ رأى أنهُ لا يتسنى له ذلك الاّ بعد اصلاح شؤون بلاده الداخلية

كلبير

وأعظم فرد خدم فرنسا في اصلاح شؤونها في ذلك العهد هو « كُلْبير » وزير المالية الشهير. نشأ هذا المالي العظيم في خدمة مزران، وقد لفت بمهارته وحذقه في الأمور المالية أنظار أُستاذه الذي كان مغرماً بكنز المال وجمعه، ولذا كان دائماً يستشيره في كل أموره المالية. ولما احتضر مزران أودع في كلبير (مشيّد ثروته) أعظم ذخر وأثمن ميراث لفرنسا ومليكها الشاب

فوكيه

ولما مات مزران كان يدير مالية البلاد « فوكيه »؛ وكان ميالاً للأبهة وجمع الثروة، فحنق عليه العامة وأبغضته الطبقة الوسطى. فما لبث أن تحزّب عليه فريق بزعامة « كلبير » وأسقطوه. ثم آل أمره الى السجن طول حياته. فخلفه في منصبه « كلبير » الذي أصبح القابض على زمام داخلية البلاد بأجمعها، فقام بواجبه بنشاط وجد

ارتباك المالية

وأول ما أهمهُ ماليةُ البلاد التي رجعت الى سيرتها الأولى قبل عهد « صلي ». فكانت الحالة المالية غاية في الارتباك، والبلاد تئن تحت عبء فادح من الديون؛ ولم تف الضرائب بحاجة الحكومة لسوء طريقة جبايتها، على حين أن جُباتها كانوا في بحبوحة من العيش والثراء. فأصلح كلبير هذه الأمور بما أُوتيه من العزم والقدرة؛ فألغى بعض الديون التي اقترضها سلفهُ من الأهلين، وخفض أرباح بعضها الآخر،

كلبير يصلح المالية

وأعفى الناس من المتأخر عليهم من الضرائب ، ثم أخذ يعمل ضد المختلسين ، فعاقبهم وشدد فى ضبط حساب الحكومة . فعاد النظام الى نصابه ؛ ولم يمض أكثر من عام حتى توافر فى خزائن البلاد ٢٠٠٠٠٠٠٠ من الجنيهات من غير أن يُثقَل عاتق أى فرد مستقيم فى طول البلاد وعرضها

نظامه المالى

ثم بذل جهده فى تحسين حال الفلاحين ، فخفض الضرائب المفروضة عليهم الى النصف ، واستعاض عن ذلك ضريبة على المواد الكمالية ، ووجه نظره الى تنمية محصولات البلاد وحمايتها من المنافسة الأجنبية ، فعمل على محو المكوس التى كانت تجبى على السلع عند نقلها من مديرية الى أخرى فى داخل البلاد ، فتم له ذلك فى ست عشرة مديرية رغم كل الصعوبات التى قامت فى سبيله . وحسن الطرق والترع

ترعة لنجدوك

التى منها ترعة لَنجدوك التى توصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الاطلنطى والتى بقيت الوحيدة فى بابها بأوربا نحو قرن من الزمان : مما جعل فرنسا الأولى بين الأمم الأوربية التى وقفت على ضرورة الحاجة الى سرعة المواصلات . ولاغرابة فان الذكاء الذى أبرز فكرة ترعة السويس يرجع فى أصله الى ترعة «لنجدوك»



كلبير

وأخذ أيضاً يناصر مصنوعات البلاد بوضع المكوس على السلع التى ترد من الخارج واعفاء مصنوعات البلاد المصدرة من المكوس فكان بذلك أول واضع

حماية التجارة

للنظام التجارى المعروف « بحماية التجارة » . وقد اختُلف فى فائدة هذا النظام من

الوجهة الاقتصادية ، ولكن لامشاحة فى أنه الوسيلة العظمى لجعل الأمة قائمة بنفسها مستقلة فى حاجاتها عن غيرها

تشجيع الصناعات

ومن أعظم المصنوعات التى نالت عنايته الخاصة صناعة « الدّنتلة » (الشُّبَيكة) والزجاج والحرير والمزركشات ، فطار صيتها فى العالم

ونظم الغابات على طريقة علمية ، وساعد على تأسيس الشركات الصناعية والتجارية والاستعمارية ، وحمى مستعمرات فرنسا الفتيّة بانشاء اسطول عظيم

اغلاطه الاقتصادية

ومن اغلاطه الاقتصادية ان استثنى من المحصولات التى سهل تصديرها الغلال فانه منع تصديرها مطلقاً مخافة أن تصبح فرنسا يوماً ما عالة على غيرها فى أمر طعامها ولا شك أن هذه من اكبر أغلاطه الاقتصادية ، لأن فرنسا كانت اذ ذاك أولى الممالك الاوربية فى زراعة القمح ، وكان تصديره يعود على البلاد بأرباح طائلة

نتائج أعماله

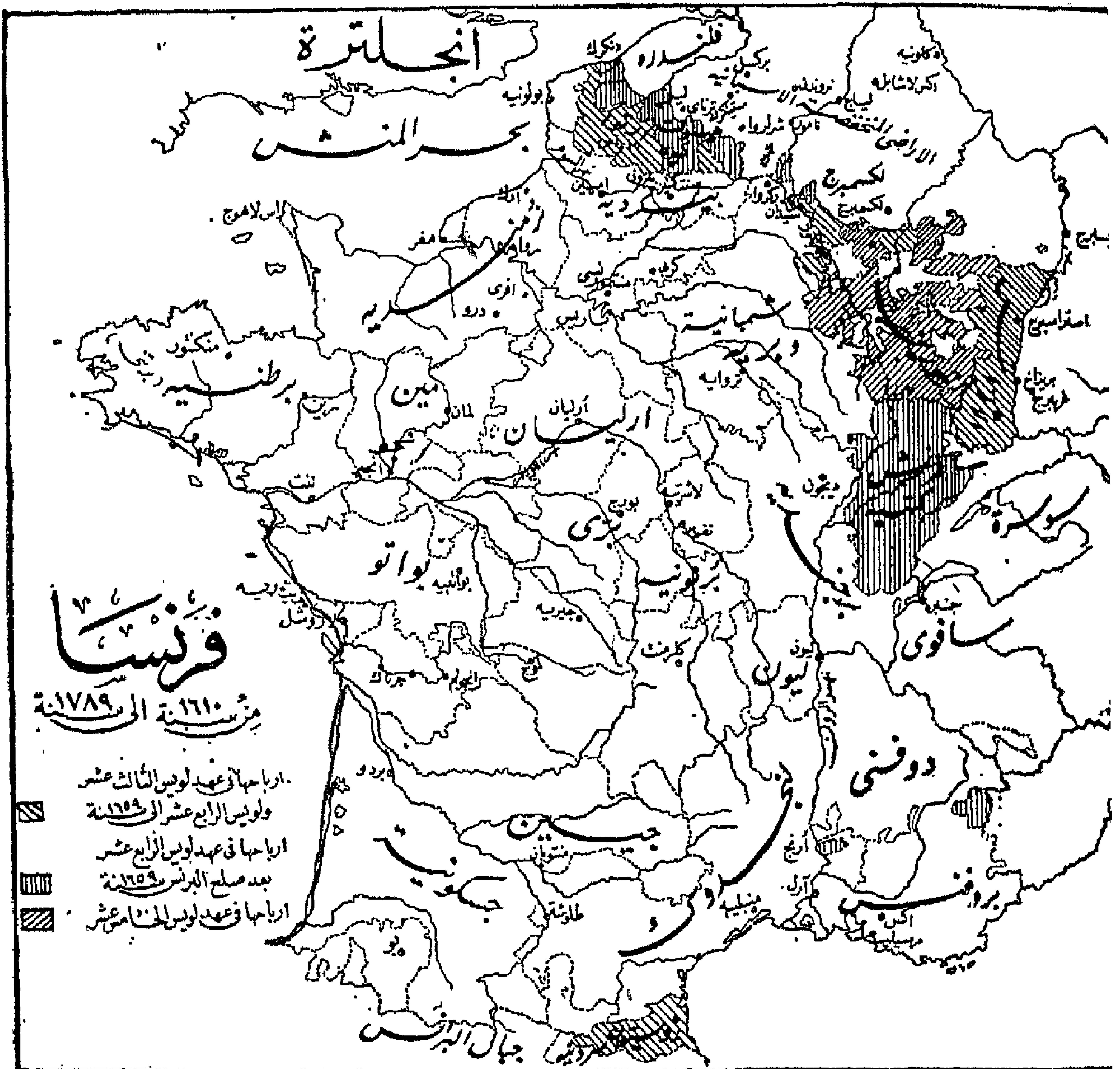
على أن نتائج سياسة كلبير بوجه عام كانت ذات ثمرة حسنة لفرنسا . اذ فى مدته أثرى سكانها ونمت مستعمراتها ؛ وفشى العدل والأمانة بين حكامها ، وأصبحت ادارة البلاد نقية طاهرة من كل العيوب التى كانت تعتورها من قبل

سخط الأمة عليه

ورغم ذلك كله كان كلبير صاحبُ كل هذه الاصلاحات العظيمة ممقوتاً من معظم طبقات الأمة ؛ فأبغضتهُ القساوسة لجده فى انقاص عددهم اذ رآهم عيالاً على الأمة ، ومقته الكاثوليك لحبه للهيجونوت الذين منهم مهرة الصناع ، وساء به الهيجونوت الظن وكرهوه لتنحيه عنهم وهجره لهم عند ما شن الملك الغارة عليهم ؛ وحقد عليهِ الأشراف لمحاكمتهم متى اذنب أحدهم بدون أن يخشى فى الحق لومة لائم . فلا غرابة اذن أن صبّت عليه الأمة اللعنات لما توفى عام ١٦٨٣

الاصلاح العام فى عهد لويس

وفى الوقت الذى كان يصلح فيه كلبير شؤون البلاد المالية والاقتصادية كانت المصالح الأخرى سائرة فى طريق الاصلاح . فنظم القضاء ووُضعت قوانين مدنية وجنائية وتجارية كثيرة ، ونُظم حال رجال الشرطة فأصبحوا سلاحاً قوياً فى تأييد سلطان الملك . ونظم الجيشَ « لِتَلْيِيه » و « لوفوا » حتى أصبح أقوى جيش فى أوربا بأسرها



حروب لويس الرابع عشر

١ – حرب الوراثة فى الأراضى المنخفضة (١٦٦٧ – ١٦٦٨)

مطامع لويس

كانت مطامع لويس متشعبة لم تقتصر على أوربا وحدها؛ ولكنه أراد أن يسيطر عليها قبل كل شيء، فوجه نظره الى توسيع نطاق ملكه فيها وخاصة جهة نهر الرين مقتفياً فى ذلك أثر اسلافه؛ ولم يكن بين ملوك أوربا من يقدر على مناهضة فرنسا منفرداً، وساعده أيضاً نجاح كلبير فى اصلاح مالية البلاد. فلم يكن أمامه مانع يعوقه عن خوض غمار الحرب، وبقى يترقب سبباً يتذرع به لإيقاد نارها

لويس يطالب بملك الاراضى المنخفضة

وحدث فى عام ١٦٦٥ ان مات ملك اسبانيا (فليب الرابع) الذى تزوج لويس بابنته بعد أن نزل عن كل حق فى وراثة عرش اسبانيا . ولكن لويس رغم ذلك ادعى لنفسه ملك الأراضى المنخفضة الاسبانية بحجة أن فى قوانين تلك البلاد ما يسوغ له ذلك

حالة أوربا

وبادر لويس الى تسيير جيشه الى الأراضى المنخفضة (مايو سنة ١٦٦٧) فكان النصر حليفه ، ولا سيما ان اسبانيا كانت مغلولة اليد فى البرتقال التي قامت تطالب باستقلالها ، وكان الامبراطور مشتغلاً باخماد قلاقل وفتن فى المجر ، ونار الحرب مستعرة بين انجلترة وهولندة . فلم يعق فرنسا شىء فى تقدمها : فاستولى « تورين » على أهم القلاع التى على الحدود « تُرْناى وليــل وشَرْلُرُوَا » . فأزعج ذلك أوربا ، وأبرم

التحالف الثلاثى

«التحالف الثلاثى» بين هولندة وانجلترة والسويد لوقف لويس عند حده . فقبلت فرنسا المناقشة فى أمر الصلح ولا سيما بعد أن صالحت اسبانيا البرتقال على منحها استقلالها .

صلح اكس لاشابل

وقد تم الصلح فى « إِكس لاشابِل » سنة ١٦٦٨ . وأهم شروطه أن يبقى فى يد فرنسا من فتوحها شرلروا وليل وترناى وثمانية بلدان أخرى على حدود الأراضى المنخفضة

ب — حروب لويس مع الجمهورية الهولندية (١٦٧٢ — ١٦٧٩)

العداء بين لويس وهولندة

نال لويس بمعاهدة اكس لاشابل جزءاً من الأراضى التى كان يريد ضمها الى أملاكه . وقد رأى أثناء الحرب أن العقبة الكؤود التى اعترضته فى تحقيق كل أمنيته هى الجمهورية الهولندية ، اذ كانت فى الحقيقة هى المؤسسة للتحالف الثلاثى ضده ، فأراد أن يخضعها بحد السيف ، ولا سيما أنها كانت مهداً للمذهب الكلفنى الذى كان يمقته ، وأنها أيضاً قامت على أساس الحرية وقت أن انفصلت عن اسبانيا بحد السيف . وقبل أن يخوض غمار الحرب معها اجتهد فى حل التحالف الثلاثى حتى يكون قضاؤه عليها عاجلاً . فابتدأ يفاوض انجلترة ونجح فى ابرام معاهدة « دوفَر السرية » مع

لويس يحل التحالف الثلاثى

ملكها شارل الثانى عام ١٦٧٠ ، ثم أفلح فى ضم السويد الى جانبه ، ووُفق الى جعل الامبراطور وكثير من أمراء الألمان على الحياد . ولذلك صفا له الجو ليبطش بهولندة

وحدث أن الهولنديين سخروا بالأعلام الانجليزية والفرنسية ؛ فاتخــذ هاتان

ابتداء الحرب

المملكتان ذلك سبباً لاعلان الحرب على هولندة عام ١٦٧٢ . فجهز لويس جيشاً جراراً بقيادة تورين وكنديه يبلغ ١٧٦٠٠٠ مقاتل وانقض به على هولندة ؛ فخرب ثلاث ولايات ونحو أربعين مدينة فى مدة ثلاثة أشهر. ولكن الأسطول الهولندى بقيادة « رُيتَر » انتصر على الأسطولين الانجليزى والفرنسى (٧ يونيه سنة ١٦٧٢)

وفى أثناء تقدم لويس وانتصاراته الباهرة عرضت عليه بعض الولايات الصلح ، فطلب شروطاً مجحفة لم تقبلها الجمهورية ، وثار الشعب وقتل الرئيس « دى وِت » الذى كان يدير شؤون البلاد مدة العشرين عاماً السالفة بكل حزم ودهاء، بدعوى أنهُ كان يميل الى الصلح . ونُصّب وليم أورَنج حفيد وليم الصامت رئيساً للجمهورية وقائداً لجيوشها البرية والبحرية ؛ فعزم وليم على مزاولة الحرب وعدم الخضوع مهما كلفه ذلك



تورين

ولما أحست أوربا بالخطر الذى ينجم من استفحال قوة لويس أخذ أمراؤها يعملون على تلافى ذلك ؛ فأعان الامبراطور ونائب برندِنبرج عام ١٦٧٢ الحرب على فرنسا ، ثم حذا حذوهما لورين واسبانيا سنة ١٦٧٣ والدانمرك سنة ١٦٧٤ ، وتبعها نائب البلاتين وبعض أمراء الألمان ؛ وفى فبراير سنة ١٦٧٩ اضطر البرلمانُ الانجليزى الملكَ شارل أن يهادن الهولنديين . فلم يبق فى جانب فرنسا غير السويد

خوف أوربا من لويس

فوز فرنسا

استمرت الحرب طول عام ١٦٧٣ والنصر فيها حليف الفرنسيين بفضل مهارة تورين ، واضطر نائب برندنبرج أن يعقد معهم صلحًا منفرداً فى يونيه من العام نفسه ثم استولى لويس على فَرَنش كمتيه ، وأصبحت الأراضي المنخفضة الاسبانية ميداناً للحرب

ابتداء النحس

وفى سنة ١٦٧٥ بدأ سوء طالع فرنسا يظهر ، اذ غدر نائب برندنبرج ودخل الحرب ثانية ودحر الجيش السويدى عند « فِهْربلِن » قرب برلين . وحلت بفرنسا أكبر خسارة لحقتها فى هذا العام وهى موت « تورين » قائدها العظيم ، وقد حدث هذا

موت تورين

الخطب الجلل أثناء مطاردته للجيوش النمسوية بقيادة « مُنْتِكُكْيُولى » ونائب برندنبرج الى ما وراء نهر الرين بعد أن دوخ جيوشهما فى الالزاس ، اذ أصابهُ طلق

اعتزال كنديه القيادة

عاثر فوقع صريعًا . ولم يلبث كنديه أيضاً ان اعتزل قيادة الجيوش لاعتلال صحته ؛ وبذلك فقدت فرنسا قائديها العظيمين . هذا الى أن الحروب الطويلة أخذت تنهك قواها وظهرت بوادر الاضطراب فى ماليتها . ومع ذلك قد امتد أجل الحرب بعدُ ثلاثةَ أعوام أخر (١٦٧٦ — ١٦٧٨) لم يحدث فى خلالها شىء يستحق الذكر الاَّ فوز دوق أرليان على وليم أورنج فى موقعة أثارت عليهِ حسد لويس وحنقه

لويس يلجأ الى السياسة والدهاء

ولما رأى ملك فرنسا ان ليس فى مقدرته أن يكسب بحد السيف أكثر مما استولى عليه أخذ يتخلص من هذه الحروب بسياستهِ ودهائه ؛ فعقد معاهدات مع اعدائه

معاهدة نمويجن

كل على انفراد ، وتعرف هذه المعاهدات جميعاً بمعاهدة « نِموِيْجِن» (١٦٧٨) ، وبها رضى لويس بأن تخرج جمهورية الأراضى المنخفضة من الحرب بدون أن تفقد قيد شبر من أملاكها ؛ ونزلت اسبانيا لفرنسا عن « فَرَنش كمتيه » وعدة معاقل على الحدود ، وأصبحت الحدود بين فرنسا والاراضى المنخفضة الاسبانية تمتد من دَنكرك الى « مُوبج » ، ونزل الامبراطور عن فريبُرج وأخذ بدلاً منهــا فِلِبْسبُرج وبسطت فرنسا سيادتها على اللورين سيادة اسمية

نتيجة الحرب

لم ينل لويس من الهولنديين فى هذه الحروب شيئًا ، ولكنه وسع نطاق ملكه فى جهات أخرى . وقد كلفه ذلك كثيراً اذ خُرِبت الولايات الفرنسية التى على الحدود وأصبحت خزانة البلاد خاوية ، وفقد أعظم قواده . ومع ذلك لم يكتف بما استولى

عليه بل أخذ ينظر حواليهِ الى توسيع ملكه . ولم يكد مداد معاهدة نمويجن يجف حتى ابتدأ يجور على الأملاك المجاورة له

مجالس استرجاع الاملاك الفرنسية

وكان المسوغ له فى ذلك ان جاء فى معاهدة نمويجن (ووستفاليا من قبلها) ان لفرنسا الحق فى الاستيلاء على توابع الولايات والمدن التي استولت عليها . فشكل لويس عام ١٦٧٩ محاكم (مجالس استرجاع الأملاك الفرنسية) لتعيين هذه التوابع حسب أهوائه ؛ وبذلك استولى على عدة بلاد ليست من حقه . وكان غرضه فى كل ذلك مدّ الحدود الفرنسية الى الرين ؛ ولم يلق مقاومة أثناء ضمه هذه البلاد الاّ من استراسبرج التى لم يستولِ عليها الأ عام ١٦٨١ . ثم أراد أن يستولى على لكسمبرج من أملاك اسبانيا عام ١٦٨١ فتذمر ملوك أوربا ، فرجع عنها ، وخاصة لما علم أن الترك يزحفون على « ويانة » ، فآثر الرابطة الدينية المسيحية وصبر ريثما يتمكن الاسبان من مساعدة الامبراطورية* . ولما علم ملك اسبانيا شارل الثانى بخلاص ويانة أعلن الحرب على فرنسا (اكتوبر سنة ١٦٨٣) ، فلم تساعده الدول وهزمهُ لويس ، فاضطرت اسبانيا الى مهادنته والنزول له عن لكسمبرج وبعض بلاد أخرى . وفى أغسطس سنة ١٦٨٤ عقدت الامبراطورية مهادنة « راتِزبون » مع فرنسا على أن تترك لها مدة عشرين سنة ما وافقت عليه مجالس استرجاع الأملاك الفرنسية فى أمر «التوابع»

اسبانيا وفرنسا

مهادنة راتزبون

وفى أثناء ذلك عمل لويس على مد سلطانه على البحر الأبيض المتوسط ؛ فشن الغارة على جنوة بدون مسوغ ، اللهم الاَّ أنها فضّلت محالفة اسبانيا على محالفة فرنسا . فدمر المدينة بنيران مدافعه وأجبرها على الخضوع التام لنفوذه

* * *

لويس والبابا

وبعد أن تخلص لويس من كل شواغله الخارجية وجه همه الى انتزاع السلطة الدينيه من يد البابا فى فرنسا والقضاء على نفوذه فيها جملة حتى يصير هو المسيطر المطلق فى كل أمور البلاد . وكانت سياسة البابوات فى ذلك العهد الميل الى آل

---

* وكان ذلك بالرغم من تحالفه مع آل عثمان

هبسبرج ؛ فكان ذلك سبباً آخر حرك لويس للتعدى على حقوقهم الدينية . وكان مبدأ الشحناء أن ادعى الملك حق الاستيلاء على كل وظائف المناصب الدينية أثناء خلوها ، فدعا ذلك لويس الى تجديد قانون قديم كان يخول ملوك فرنسا هذا الحق ، وعقد لذلك مجمعاً دينياً عام ١٦٨٢ ؛ فوافق المجمع على احياء هذا القانون وقرر أن

استقلال الكنيسة الفرنسية

الملوك مستقلون بالأمور الدنيوية عن سلطة البابا ، وأن نفوذ البابا ليس له تأثير فى تغيير عادات الكنيسة الفرنسية وان قراراته حتى فى الأمور الدينية لا تسرى على الكنيسة الفرنسية الا بعد موافقتها . ولا مشاحة فى أن هذه الحركة كانت فوزاً باهراً للملك فى مد سلطانه وتوحيد كلمة الحكومة

لويس والهيجونوت

ولئن كان للويس مسوغ فى تخليص بلاده من نفوذ البابا فيها ، فان ذلك يضؤل أمام ما عامل بهِ الهيجونوت فى فرنسا من الاضطهاد والعسف

كانت هذه الطائفة من عهد هنرى الرابع تتمتع بحقوق خاصة بمقتضى « مرسوم نتت » ؛ فلما قبض ريشليو على زمام الأمور حرمهم من كل حقوقهم السياسية وبقوا يتمتعون بالحرية الدينية . ولكن لويس كان عدواً لكل امتياز ، فأراد أن يحرمهم من ميزة الحرية الدينية ، اذا كان يرى فى ذلك نقصاً فى توحيد شؤون بلاده فضلاً عن أنه كان متديناً شديد التمسك بمذهبه؛ وازداد ذلك على مرّ الأيام، فأراد أن يكون حامى الكاثوليك فى أوربا ، وقد حرضه رجال الدين على الفتك بأهل الزيغ والقضاء عليهم

الغاء مرسوم نتت

فابتدأ باضطهاد هذه الطائفة منذ عام ١٦٦١ ؛ فحرمهم من كل مناصب الحكومة واجبر أطفالهم على اعتناق المذهب الكاثوليكى . ولما ضاقت عليهم البلاد بما رحبت عمدوا الى الهجرة ، فحرّمها عليهم وعيّن لهم طائفة من جنده يضطرونهم الى اعتناق دين الكنيسة الرومانية ؛ واستمر الملك على اضطهادهم حتى عام ١٦٨٥ الذى كانت فيه الطامة الكبرى عليهم ؛ اذ ألغى مرسوم نتت ؛ فأصبحت هذه الطائفة بذلك من البائسين لا ناصر لهم ، اذ نفى قساوسهم وحرمت صلواتهم ؛ وأخذت أطفالهم منهم قهراً ، وأصدرت الأوامر المشددة بعدم مهاجرتهم وباستبعاد كل من حاول ذلك منهم

مهاجرة الهيجونوت

ولكن رغم ذلك هاجر من البلاد منهم ما يقرب من ٣٠٠،٠٠٠ نفس استوطنوا

الممالك الأخرى وخاصة هولندة وانجلترة . وقد انخرط كثير منهم فى سلك جندية أعداء بلادهم ، فاشتركوا فى تكبيد فرنسا خسائر فادحة

المركيزة منتينون

ويعزو بعض المؤرخين سبب هذا الاضطهاد الى « المركيزة مِنْتِينُون » التى عرفت بشدة تمسكها بالدين والتى كان لها شأن عظيم فى سياسة البلاد . وقد كانت فى أول أمرها أرملة فقيرة الحال، ثم جعلت مربية لأطفال الملك ، ولما ماتت زوجته قربها منه وصارت موضع ثقته وتزوجها سرًّا . فكان لها تأثير حسن فى اقباله على الدين والتمسك باهدابه. على أنه لم يكن لها يد فعالة بالذات فى اضطهاد هؤلاء البائسين كما ثبت مما تركتهُ من الرسائل والمكاتبات ؛ وغاية الأمر أنها كانت تريد أن يدينوا بالمذهب الكاثوليكى بدون ذلك العسف والجور والاضطهاد

ضرر اضطهاد الهيجونوت

والحقيقة أن تبعة الغاء مرسوم ننت لامحالة واقعة على لويس ، اذ كانت جزءاً من سياسته، وعلى رجال الدين الذين التفوا حوله . وكفى بهذا العمل ضرراً أنه حرم البلاد من أعظم طائفة كانت ينبوع ثروتها الصناعية والاقتصادية وأغنى بها الأمم الأخرى . وكان لهذا الحادث أعظم أثر سيء فى الممالك البروتستنتية ، فكان من الاسباب التى أدت الى تحالفها على لويس فى الحروب المقبلة

حـ – حرب حلف اجزبرج

أوربا تعد نفسها لمقاومة لويس

وبينما كان لويس يعمل على حرمان بلاده من خيرة أبنائها، ويصرف القناطير المقنطرة من الذهب على بناء قصر فرساى ، كانت دول أوربا العظمى تعدّ نفسها لمقاومته خوفاً من تعديه على أملاكها كما هى سليقته ، ولا سيما بعد أن أغضب الممالك الكاثوليكية بمشاحنته مع البابا وتحالفه مع الترك أعداء أوربا. فأبرم «حلف أُجزبرج» عام ١٦٨٦ بين الامبراطور واسبانيا والسويد وأمراء ألمانيا الشمالية وهولندة لمقاومة فرنسا ، وانضم اليهم امراء ايطاليا وبافاريا فى العام التالى. وكان لويس عالماً بالحلف الذى أبرم ضده . ولكنهُ لم يعبأ بهِ وأخذ ينفذ أغراضه قبل أن يكون الحلف على تمام الأهبة . فطلب الى الامبراطور تغيير مهادنة راتزبون ، الى معاهدة ثابتة ، وأن ينصب « فُرستنبرج » أحد أتباعه نائباً لمقاطعة كاونيا ، فرفض الامبراطور ذلك .

حلف اجزبرج

لويس يبدأ القتال

فاتخذ لويس موت شارل نائب البلاتين فرصة لاعلان الحرب على الامبراطور (سبتمبر سنة ١٦٨٨) وكان لويس يدعى عرش هذه الولاية لامرأة أخيه دوق أرليان، وهى اخت النائب المتوفى من غير وارث له . فأعلن أعضاء الحلف الحرب على فرنسا، وما لبثت انجلترة ان انضمت الى الحلف فى نفس العام بعد فرار ملكها جمس الثانى الى فرنسا وتتويج وليم الثالث رئيس جمهورية الأراضى المنخفضة واكبر أعداء لويس بدلاً منهُ . وأصبح ملك فرنسا لاحليف له من بين ملوك أوربا جميعًا الا سلطان الترك

غارته على البلاتين

انتهز لويس عدم استعداد الحلف وأغار على البلاتين ، فخرب قراها وأحرق مزارعها حتى أصبحت قاعًا صفصفًا ، فساد الغم وفشا الهلع والهول فى كل أرجائها . وترجع تبعــة هذا الخراب والتدمير الى « لوفوا » وزير حربيته . اذ كان المحرض للويس على ذلك ، ومن ذلك الحين قلت ثقته فيه

الحرب تصبح عامة

وفى سنــة ١٦٨٩ أصبحت الحرب عامة وخاض غمارها كل دول الحلف ؛ وابتدأ لويس يشعر بثقل اعبائها ولا سيما بعد موت «كلبير » اكبر مدير مالى له ، وأصبح يجد مصاعب جمة فى جمع المال لاعداد جيوشه الضخمة

وليس لهذه الحروب البرية أهمية كبرى من الوجهة الحربية، اذ لم يظهر فيها أحد من القواد العظام ، ولم يحدث فيها من الملاحم ما يسترعى الانظار أو يُعدّ من الوقائع الفاصلة فى التاريخ . ولذلك نكتفى بذكر أهم الوقائع بدون اسهاب ولا تفصيل

الميدان البرى

كان الميدان البرى يمتد من نهر الرين الى قطيعة بدْمُنت. وكان الفرنسيون على وجه عام ظاهرين على أعدائهم. فانتصروا فى ايطاليا على دوق سافوى عند «استَفَرْدا» (أغسطس سنة ١٦٩٠) وطردوا البرنس يوجين القــائد النمسوى من بدمنت . واستولوا فى الأراضى المنخفضة على « مُنس » سنة ١٦٩١ وعلى نامور سنة ١٦٩٢. وفى هذا العام هزم المارشال لكسمبرج القائدُ الفرنسى وليم الثالث فى « استينكِرْك » ثم فى « نيروِنْدِن » فى العام التالى . ومما قلل أهمية هذه الانتصارات وفائدتها أن

قلة أهمية انتصار فرنسا

وليم مع قلة استعداده الحربى كان دائمًا يحسن التقهقر بجيوشه بكل نظام وبدون كبير خسارة . وفى عام ١٦٩٥ تمكن وليم من استرجاع نامور ، وهذا أكبر عمل حربى قام به أثناء هذه المعركة الطويلة

المواقع البحرية

أما المواقع البحرية التى حدثت بين أساطيل انجلترة وفرنسا أثناء هذه الحرب فلها أثر عظيم فى مجد الدولة الانجليزية وتفوقها فى البحار والسيادة عليها . وذلك أن جمس الثانى المخلوع عن عرش انجلترة اتخذ مقره فى ارلندة التى كانت باقية على الولاء له ، فاضطر لويس الى العمل على جعل سيادة البحار فى يد فرنسا حتى يتمكن من مدّ المساعدة الى جمس، ولذلك كان مصير الحرب فى ارلندة موقوفاً على نتيجة المعارك البحرية . فانتصرت الأساطيل الفرنسية بقيادة « تورفيل » على أساطيل انجلترة نصراً مبيناً عند رأس «بِتْشى» (يونيه سنة ١٦٩٠) وأصبحت سيادة البحار فى يد الفرنسيين مدة عامين تمكن أثناءها لويس من مساعدة جمس وتهديد انجلترة بالغزو . ولكن ما لبث أن قضى على آماله «رَسِل» أمير البحر الانجليزى فى موقعة «لاهوج» سنة ١٦٩١. ومن هذا الحين صرف لويس من ذهنه غزو انجلترة واعترف لهـا بالسيادة فى البحار

فوز الفرنسيين عند رأس بتشى

انجلترة سيدة البحار

سوء الحال فى فرنسا

وبعد مواصلة الحرب مدة ثمانية أعوام كلّ الفريقان ولاسيما فرنسا التى كانت مرغمة على اعداد مالا يقل عن أربعة جيوش فى ميادينها البرية ، مما أثر تأثيراً سيئاً فى البلاد ، اذ ازدادت الضرائب ضعفين ، وبيعت الوظائف، وأصبح عشر سكان البلاد لا يملكون ما يقوم بأمر معاشهم

مفاوضات الصلح

وقد ابتدأت مفاوضات الصلح بعد خروج « فكتور » دوق سافوى من الحلف وابرامه معاهدة مع لويس عام ١٦٩٦ . وتمت شروط الصلح بين جميع المتحاربين فى معاهدة « رِزويك » عام ١٦٩٨ . وأهم شروطها :

معاهدة رزويك

(١) أن تتخلى فرنسا عن كل البلاد التى استولت عليها منذ معاهدة نمويجن ما عدا « استراسبرج » ؛ واتفقت على أن تترك لهولندة تحصين المعاقل الواقعة على الحدود الفرنسية لتحفظ حدود بلادها

(٢) أن ينصب كلمنت دوق بافاريا أسقفاً على كاونيا وأن يعترف لويس بحق وليم الثالث لعرش انجلترة

ولا شك أن معاهدة رزويك هذه كانت ضربة مؤلمة لفرنسا ؛ اذ وضعت من

كبرياءها وحطت من قوتها، ولم يكن لديها الوقت الكافى لتبرأ من جروحها وتصلح من شؤونها قبل أن تخوض غمار حرب الوراثة الاسبانية التى زادتها ضعفاً على ضعف

د – حرب الوراثة الاسبانية

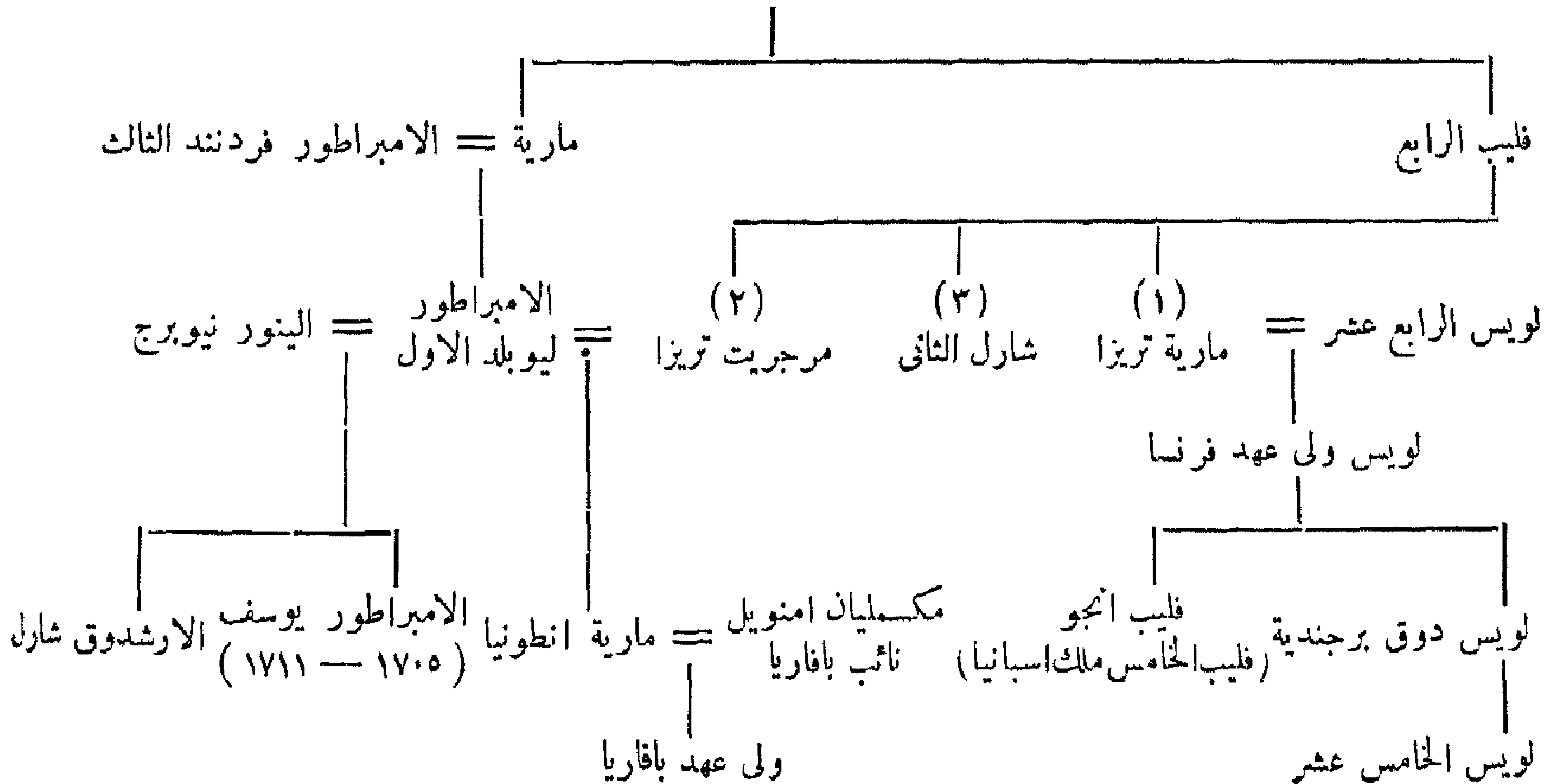
شارل الثانى لم يعقب ولداً

كان شارل الثانى ملك اسبانيا قد لازمه السقام طول حياته، وكانت دول أوربا العظمى ترتجف خوفاً وتهلع فرقاً توقعاً لليوم الذى يحتضر فيه هذا الملك الذى لم يُعقِب ولداً، لأن أملاكه رغم انتقاصها فى المدة الأخيرة كانت فسيحة الأرجاء تشمل مع اسبانيا جزائر البليار والأراضى المنخفضة الاسبانية وميلان ونابلى وصقلية وبعض ثغور على ساحل تسكانية ومستعمرات واسعة فى افريقيـة وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية وجزائر عدة فى خليج المكسيك والبحر الكريبى والمحيط الهادى. لذلك كانت مسألة وراثة عرش اسبانيا مسألة خطيرة، اذ عليهـا تتوقف مصالح انجلترة وهولندة التجارية وبقاء كيان بعض الأمم الأخرى، فلم يكن من الممكن أن تسلك الدول فى حل هذا المشكل قوانين الوراثة المتبعة فى الأحوال المعتادة. وهاك بيان من كان لهم حق فى المطالبة بالعرش:

سعة أملاكه

اهتمام الدول بوراثة عرش اسبانيا

ملخص ببيان المطالبين بعرش اسبانيا



حقوق المطالبين بالعرش

١ — كان يدعى هذا الملك ولى عهد بافاريا لأنهُ حفيد فليب الرابع ملك اسبانيا

٢ — وكان يدعيــه الامبراطور ليوبلْد الأول : أولاً لأنه حفيد فليب الثالث وثانياً لأنهُ تزوج بنت فليب الرابع ونزلت له ابنته مارية أنطونيا عن كل حقوقها . وقد نزل هو عن كل حقوقه هذه لابنه الارشدوق شارل

٣ — وكان ولى عهد فرنسا يدعى هذا العرش لأن أمه مارية تريزا اكبر بنات فليب الرابع ملك اسبانيا . ولكن لويس الرابع عشر عند زواجه بهــا نزل عن كل حقوقها فى عرش اسبانيا ؛ الاّ أنهُ ادعى بطلان هذا النزول ، اذ من جهة لم يُدفع مهر زوجته المتفق عليه ومن وجهة أخرى لم يصدق البرلمان الفرنسى ولا مجالس الكرتيز على هذا النزول

معاهدة سرية بين لويس والامبراطور

وقد لفتت هذه المسألة أنظار الساسة منذ زمن يرجع تاريخه الى عام ١٦٦٨ . حينما أبرم لويس الرابع عشر معاهدة سرية مع الامبراطور على تقسيم أملاك شارل الثانى ، على أن يأخذ الامبراطور اسبانيا وميلان (وتوابعها) والمستعمرات الاسبانية فى الدنيا الجـديدة ، ويستولى لويس على فرنش كمتيه والأراضى المنخفضة ونابلى وصقلية . ولكنه كان يعتقد أن انجلترة وهولندة لا تمكنانه من ذلك

لهذا أخذ يفاوض هاتين المملكتين فى هذا الصدد بعد ابرام معاهدة « رزويك » توا . وكانت الدول تميل الى جعل وراثة هذا الملك فى ولى عهد بافاريا ، اذ لم يكن فى توليته الخطر الذى يهدد الدول اذا تولى هــذا الملك الشاسع ولى عهد فرنسا أو الأرشدوق شارل ، ولذلك أبرموا بينهم معاهدة « التقسيم الأول » ، وبها تقرر اعطاء ولى عهد بافاريا حكم اسبانيا والأراضى المنخفضة والدنيا الجديدة ، ويقسم الباقى بين ولى عهد فرنسا والارشدوق شارل . ولكن لسوء حظ أوربا مات ولى عهـد بافاريا عام ١٦٩٩ بعد أن تمّ التقسيم الأول ، ففُتح باب المفاوضات من جديد وانتهى بابرام معاهدة بين انجلترة وهولندة وفرنسا تُعرف « بالتقسيم الثانى » على أن يرث الأرشدوق شارل ملك اسبانيا والأراضى المنخفضة الاسبانية والدنيا الجديدة ، وأن يستولى ولى عهد فرنسا على جزء من نافار ، ونابلى وصقلية وثغور تسكانية وميلان وتوابعها . ولكن الامبراطور لم يرض بهذا التقسيم

معاهدة التقسيم الأول

التقسيم الثانى

شارل الثانى يوصى بالعرش لدوق انجو

ولما شاع خبر هذه المعاهدة فى اسبانيا غضب أهلها لتقسيم ملكهم العظيم . وانقسم البلاط الى حزبين أحدهما مشايع للنمسا والثانى لفرنسا ، فأفلح الحزب الفرنسى الذى كان يتشيع له الاسبان أنفسهم فى اقناع شارل الثانى ان فرنسا هى المملكة الوحيدة التى يمكنها حفظ كيان الدولة الاسبانية من التمزق ، فأوصى فى أكتوبر (سنة ١٧٠٠) بجميع أملاكه الى «فليب دوق انجو» ثانى أولاد ولى عهد فرنسا . وبعد هذه الوصية بثلاثين يوماً هلك شارل

توقف النتيجة على ما يسلكه لويس

بذلك أصبح العمل بمعاهدة التقسيم أو بالوصية متوقفاً على قرار لويس . فقبل بعد أخذ ورد ماجاء فى الوصية وأجلس حفيده دوق انجو على عرش اسبانيا ؛ وكتب الى وليم الثالث ملك انجلترة يشرح له الاسباب التى من أجلها قبل الوصيـة ونقض المعاهدة . وقد أدلى له بالحجة فقال أنهُ يرى أن الحرب فى كلتا الحالتين واقعة لا محالة ، لأنهُ اذا راعى المعاهدة كان لا مناص من وقوع حرب بينهُ وبين اسبانيا والنمسا ، وربما انضم لهما بعض الممالك الأخرى . أما اذا قبل الوصية فليس فى ذلك خطر على أوربا لأن فرنسا نفسها لا تكسب شيئاً وتُغل يدها عن اغتصاب قيد شبر من الأراضى المنخفضة . فلم يسع كل من انجلترة وهولندة أمام هذه الحجج الاَّ الموافقة على تولية فليب عرش اسبانيا بشرط أن يوافق على اعطاء الأملاك الاسبانية فى ايطاليا الى الأرشدوق شارل ، وأن يبقى لهولندة حق تحصين المعاقل والحصون التى على الحدود الفرنسية ، وأن يمنح هولندة وانجلترة الامتيازات التجارية التى تتمتع بها فى الدنيا الجديدة . فلم يقبل لويس هذه الشروط . ومن الغريب أنها هى نفس الشروط التى اضطُرت فرنسا للموافقة عليها فى نهاية الحرب التى نشبت من جراء المشكلة الاسبانية

لويس يرفض مطالب انجلترة وهولندة

ولما رفض لويس هـذه المطالب خافت انجلترة وهولندة من الخطر الذى كان يتهددهما من ازدياد نفوذ أسرة بربون وعلى تجارتهما التى هى عماد حياتهما ، وصممتا على مقاومة فرنسا . فنجحتا فى ابرام معاهدة سرية مع الامبراطور لهذا الغرض . ثم انضم اليهم بعض أمراء أوربا وكون الكل «التحالف الأعظم» لشن الغارة على فرنسا ، كوّنه وليم الثالث فى مدينة لاهاى فى سبتمبر سنة ١٧٠١ ومات بعد ذلك بأيام قلائل

التحالف الأعظم

اغراض الاحلاف

وقد أعلن المتحالفون ان غرضهم من الحرب نيل شروط ترضى الامبراطور وتحفظ للانجليز والهولنديين تجارتهم وبلادهم. ولذلك أرادوا فتح الأراضى المنخفضة الاسبانية والأملاك الاسبانية فى ايطاليا، ثم يأخذون التدابير لمنع توحيد عرش اسبانيا وفرنسا يوماً ما. ويلاحظ أن فى الشروط التى تمت بين المتحالفين لم يذكر شيء عن ادعاء الامبراطور عرش اسبانيا، ومن ذلك يتضح أن السبب الحقيقى الذى دارت من أجله رحى الحرب هو توازن الدول والمحافظة على مصالح انجلترة وهولندة التجارية لا طلب العرش للأرشدوق شارل

ولم يعبأ لويس باعدائه، وانتهز فرصة موت جمس الثانى المخلوع فاعترف لابنه بحق وراثة العرش الانجليزى . فهاج لذلك الرأى العام فى انجلترة عليه هيجاناً عظيماً، اذ عدّه نقضاً للعهود التى اعترف بها لويس فى معاهدة رزويك . ولذلك لما احتضر وليم الثالث كان على يقين من مواصلة الحرب مع عدوه العنيد بكل عزم وحمية

قوى الفريقين

ابتدأت حرب الوراثة الاسبانية فكانت قوى الفريقين تكاد تكون متكافئة . فكان فريق المتحالفين المكوّن من انجلترة وهولندة والنمسا ونائب البلاتين وملك بروسيا ونائب هنوفر غير متكاتف لم يكمل التحالف بين أعضائه، وكان لويس من جهة أخرى قد ضم الى جانبه مكسمليان نائب بافاريا ونائب كلونيا ودوق سافوى، وكل منهم قوة كبرى لفرنسا من الوجهة الحربية . هذا فضلاً عن ان الرأى العام فى اسبانيا كان مع لويس

فوز الفرنسيين اولا

لذلك كان النصر حليفه على وجه عام فى بادئ الأمر . وأول اشتباك الجيوش الفرنسية كان فى الأملاك الايطالية، اذ أغارت عليها جيوش الامبراطور بقيادة البرنس يوجين، فتمكن من هزيمة الفرنسيين وأسر قائدهم « فِلْرُوى » ولكنهُ ما لبث أن أرغمته الجيوش الفرنسية على التقهقر الى ما وراء نهر « أديج » (سنة ١٧٠٢) . وكان

ملبرا

« مَلْبِرَا » القائد الانجليزى العظيم الذى يقود جيوش التحالف فى الشمال قد أفلح فى حفظ خط المواصلة بينه وبين المانيا، ولكن الهولنديين لم يسعفوه بالمساعدة لعدم ميلهم الى خطة الهجوم، فلم يحدث أى تأثير فى مركز الجيوش الفرنسية بالأراضى المنخفضة

فشل الخطة الفرنسية

ولذلك تقدمت الجيوش الفرنسية نحو « ويانة » سنة ١٧٠٣ مخترقة أملاك نائب بافاريا ؛ غير أن هذه الخطة فسدت بانسلاخ دوق سافوى من جانب فرنسا وانضمامه الى الحلفاء . وفى العام التالى عادت الجيوش الفرنسية الكرة على ويانة . فلما رأى «ملبرا» القائد الانجليزى حرج مركز النمسا صمم على ترك مركزه على نهر الرين الأسفل وبادر بالاسراع لشد أزر البرنس يوجين ؛ فخدع الجيوش الفرنسية التى كانت فى الأراضى المنخفضة بحيلة حربية ، وتسلل بجيوشه حتى انضم الى يوجين عند مدينة « ألم » على الطونة . وكان العدو معسكراً بجيش يبلغ نحو ٨٠،٠٠٠ مقاتل بقيادة تلّار على

واقعة بلنهيم

ربوة بالقرب من نهر الطونة بين قرية « بلنهيم » وغابة كثيفة ؛ وكان يفصل الجيشين رافد تنساب مياهه فى وسط سهل مستنقع . فاجتاز ملبرا المستنقع على غير انتظار من الفرنسيين ، وبذلك ضاع منهم كل أمل فى النصر ؛ اذ هاجمت جيوش ملبرا خيالة العدو ورجالته وبددتها وأسرت منهم نحو ٤٠،٠٠٠ أسير (١٣ اغسطس سنة ١٧٠٤) ومن ذلك العهد أصبحت ويانة فى مأمن ، ولم تعد فرنسا قادرة على اتخاذ خطة

الاستيلاء على جبل طارق

الهجوم فى ألمانيا . وفى هذا العام استولى « روك » أمير البحر الانجليزى على بوغاز جبل طارق ، وبذلك أصبحت انجلترة القابضة على مفتاح البحر الأبيض المتوسط

انضمام البرتقال الى الاحلاف

وكان مجرى السياسة قد تغير أثناء الحرب بانضمام البرتقال الى دول التحالف فى مايو سنة ١٧٠٣، على شرط أن يتولى عرش اسبانيا الأرشدوق شارل، لخوف البرتقال من فليب الخامس . فسار شارل عام ١٧٠٤ الى اسبانيا ومعه جيش من الانجليز والهولنديين؛ فأثار هذا العمل غضب الاسبان ورفضوا تولية شارل بتاتاً . ولما تقدمت الجيوش الانجليزية والبرتقالية نحو مجريط (مدريد) ودخلوها سنة ١٧٠٦ اضطرهم الاسبان الى التقهقر عنها ثانية ، ولما عاودوا الكرة عليها هزمهم القائد « برويك »

واقعة ألمنزا

هزيمة منكرة عند « ألمنزا » سنة ١٧٠٧

انتصار الحلفاء فى ايطاليا

على أن النصر فى الميادين الأخرى كان فى جانب دول التحالف ، اذ بعد انتصار يوجين عند تورين (سبتمبر سنة ١٧٠٦) وقيام الثورة فى نابلى على الفرنسيين وطردهم منها أصبحت كل ايطاليا فى يد الحلفاء وانتصر ملبرا فى الأراضى المنخفضة نصراً

انتصارهم فى الاراضى المنخفضة (رمليه)

مبينًا على القائد فِلروى فى موقعة «رَمليه» (مايو سنة ١٧٠٦) واضطر الفرنسيين الى اخلاء بركسل والتراجع الى الحصون الغربية التى على الحدود.



ملبرا

موقعة اودنرد

وفى صيف عام ١٧٠٨ اشتبك ملبرا هو ويوجين مع الفرنسيين بقيادة « فِنْدُوم » و « دوق برجندية » فى ملحمة دموية عند «أُودِنَرْد» على نهر « شِلت » بُدّد فيها شمل الجيش الفرنسى حتى ان فلوله ولوا الأدبار من خمسة طرق مختلفة. وبهذا النصر استولى ملبرا على ليل، ولم يبق فى طريقه عقبة تمنعه من الزحف على فرنسا الاّ « مُنس » و « نامور »

سوء حالة فرنسا

وكانت فرنسا فى ذلك الوقت فى حالة حرجة جداً، اذ كانت كل جيوشها مهزومة فى جميع الميادين الاّ الميدان الاسبانى، وهلك معظم رجالها، وأصبح الملك غير قادر على زيادة ضرائب أو قرض ديون جديدة. فاضطر لويس أن يحط من غُلَوَائه وينزل عن كبريائه وعظمته ويعرض الصلح على أعدائه. ولكن الحلفاء تمادوا فى مطالبهم لحد الافراط حتى حتموا عليه أن يحارب حفيده ملك اسبانيا ويضطره الى النزول عن عرشها. فأبت نفس لويس ذلك واحتمى فى وطنية شعبه، فلبوا نداءه، فتجمع منهم جيش عظيم. ولكن طاش سهمهُ وخابت آماله عند ما تقابل الجيشان بالقرب من قرية « مَلْبلاَكيه » التى تبعد عن منس مسافة ميل (سبتمبر سنة ١٧٠٩). وذلك أن الجيش الفرنسى كان مخندقاً على مقربة من هذه القرية يقوده المرشال « فِلاّر »، فتقدم اليه ملبرا ويوجين، ودارت رحى الحرب وحمي وطيسها حتى جرح المرشال « فلار »؛ واضطر « بُفْلاَر » خلفهُ الى التقهقر بسرعة بعد أن خسر الحلفاء ٢٠٠٠٠ مقاتل وفقدت فرنسا ضعفى ذلك. وكانت

موقعة ملبلاكيه

تمسك كل من الطرفين

نتيجة هذه المعركة الدموية استيلاء ملبرا على منس وعرض لويس على الحلفاء الصلح مرة أخرى فى شتاء عام ١٧٠٩ – ١٧١٠. ولكن الحلفاء صمموا على مطالبهم الأولى. فنبا سهمهم أيضاً، اذ قام الاسبان سنة ١٧١٠ وأظهروا للعالم أنهم لا يرضون لأنفسهم ملكاً من أسرة هبسبرج، فتحمسوا وأرغموا الحلفاء على الجلاء من مدريد وأجبروا جيشاً من جيوشهم على التسليم وشتتوا شمل جيش آخر

تغير مجرى السياسة

وفى ذلك الحين حدثت بعض حوادث كانت سبباً فى خلاص فرنسا من هذه الحرب الطاحنة؛ فابتدأت روح التنافس والشقاق تدبّ بين أعدائها، ولما مات الامبراطور يوسف سنة ١٧١١ تغير مجرى السياسة مرة واحدة، اذ تولى الأرشدوق شارل عرش الامبراطورية، وأصبح من المستحيل توليه عرش اسبانيا، اذ كانت الدول تفضل وجود عرش اسبانيا وفرنسا فى أسرة واحدة على اتحاد عرش اسبانيا وألمانيا فى فرد واحد. هذا الى أن ملبرا صاحب الانتصارات العظيمة عُزل من قيادة جيوش الحلفاء بتغيّر الوزارة الانجليزية. وابتدأت انجلترة تفاوض فرنسا فى أمر الصلح، وانسلخت من الحرب عام ١٧١٢، ثم تبعتها هولندة. وفى ابريل سنة ١٧١٣ أبرمت معاهدة « أُترِخْت » بين المتحاربين الّا النمسا، فانها تمادت فى الحرب، فانتصر عليها الفرنسيون بقيادة فلار، فاضطرت نهائيًا الى ابرام معاهدة « رَسْتات » التى أُيدت بعدُ بمعاهدة « بادِن » سنة ١٧١٤. وتعرف جميع هذه المعاهدات عادة بمعاهدة اترخت. وأهم شروطها هى:

معاهدة أترخت

(١) أن يبقى فليب ملكاً على اسبانيا والدنيا الجديدة على شرط أن لا يضم عرش اسبانيا الى فرنسا وقتاً ما

(٢) أن يستولى الامبراطور على نابلى وسردانية وميلان والأراضى المنخفضة الاسبانية. ويأخذ دوق سافوى صقلية

(٣) أن يعترف المتحالفون لنائب برندنبرج بلقب « مِلك بروسيا »، وأن يُعطَى جِلدرلندة العليا (الاسبانية)

(٤) أن تستولى انجلترة من اسبانيا على جبل طارق وجزيرة منورقة وتأخذ من فرنسا نيوفوندلندة وأكاديا (نوفا اسكوشيا) وخليج هدسن، (ونالت من اسبانيا بعض امتيازات تجارية أخرى)



أوربا
بعد معاهدة أترخت
أرباح النمسا من إسبانيا
أرباح سافوى من إسبانيا
البندقية وأملاكها
حدود الامبراطورية
بحر الشمال
السويد
البحر البلطي
إرلندة
بريطانيا العظمى
بولندة
روسيا
البحر الأسود
الدولة العثمانية
البحر الأدرياتي
المجر
ترنسلفانيا
النمسا
بوهيميا
بافاريا
فرنسا
إسبانيا
البرتغال
مدريد (مجريط)
قرطبة
غرناطة
جزائر البليار
منورقة (انجلترا)
البحر الأبيض المتوسط
البحر
تونس
الجزائر
رودس
القسطنطينية

(٥) أن يكون لهولندة الحق فى تحصين مدن خاصة فى الجهة الغربية من الأراضى المنخفضة حماية لبلادها من فرنسا * ، وان تمدها النمسا ببعض المال مساعدة لها فى هذا الغرض ، وكذلك لها الحق فى منع مرور التجارة من نهر الشلت بلا اذن منها

(٦) وان تعترف فرنسا بجورج الأول ملكاً على انجلترة ، وتَعِد بهدم حصون دنكرك

نقد المعاهدة

اذا امعنا نظراً فى شروط هذه المعاهدة نجد أنها لم تحل جميع المشكلات التى نشبت الحرب من أجلها : فقد سمحت ببقاء فليب الخامس على عرش اسبانيا وأبقت الألزاس فى يد فرنسا ؛ وفى كلا الأمرين غبن لبيت هبسبرج الذى كان أكبر مناوئ لعظمة فرنسا ونقض المواثيق التى أبرمت معهم فى «التحالف الأعظم» . ولكن الأمر الأول كان لزاما ، اذ لم يوجد لعرش اسبانيا وارث شرعى غير فليب ، وقد رأينا كيف قام الاسبان من تلقاء أنفسهم بلا تأييد من فرنسا فى وجه الارشدوق شارل لمّا أراد الاستيلاء على عرش بلادهم . ولما مات أخوه يوسف عام ١٧١١ وتولى هو عرش الامبراطورية صار من المستحيل العودة الى النظر فى توليته على اسبانيا . أما ابقاء الألزاس فى يد فرنسا فقد رآه المتحالفون ترضيةً لها، اذ كانت لاتزال أقوى دولة فى أوربا ويُخشى أن يكون نزع الألزاس من يدها سبباً فى اشعال حرب أوربية أخرى

مزاياها

على ان المتحالفين راعوا فى المعاهدة مصالح أوربا بوجه عام وأن يوضع توازنها على أساس متين . فقد أخذوا حيطتهم من اسبانيا بنقص أملاكها كما رأينا ؛ وأخذوا حيطتهم من فرنسا بجعل الأراضى المنخفضة فى يد عدوها النمسا وباعطاء هولندة الحق فى تحصين عدة مدن على حدودها الغربية ، وبتقوية بروسيا التى صارت بعد اتساع رقعتها وما نال ملكها من شرف الملك حارساً قويًا وعقبة كؤودا فى وجه فرنسا مما يلى الرين الأسفل . كذلك زيد فى ملك سافوى وأعطيت النمسا وراءه أخصب بقعة فى ايطاليا ، فكان ذلك خير وسيلة تؤمن بها غائلة فرنسا من الجنوب الشرقى

وكذلك حققت المعاهدة غرضاً من أهم أغراض الحرب وهو توسيع نطاق تجارات الأمم البحرية ، ولاسيما بعد أن أخذت اسبانيا تسمح بعض السماح بأن يتجر غيرها مع مستعمراتها ، وبعد أن أسست انجلترة مجدها الاستعمارى وصار مصدر ثروتها التجارية

* منها ابر وغنت وترناى ومنس وشارلروا ونامور

الفصل الثالث

فرنسا واسبانيا بعد معاهدة اترخت

١ — ﴿ فرنسا ﴾

أواخر أيام لويس الرابع عشر

لم يعمّر لويس الرابع عشر (أعظم ملوك القرن السابع عشر) بعد معاهدة اترخت سوى عامين قضاهما فى أحزان ومصائب داخلية . ففى عام ١٧١١ مات ولى العهد وما لبث ان احتضر دوق برجندية (١٧١٢) الذى كان وليًا للعهد من بعده ؛ وبذلك انحصرت وراثة الملك فى طفل ضعيف البنية ، وكان الرجاء قليلاً فى طول حياته ؛ فألّف لويس مجلسًا للوصاية تحت رآسة خليع من اسرته يدعى « دوق أرليان »

آثار حكم لويس

ولا يسعنا هنا الاّ أن نأتى بآخر وصية أوصى بهـا لويس ولى عهد البلاد قال : « لا تقلدنى فى حبى لاقامة المبانى الشاهقة ولا فى غرامى بالحروب، واجتهد فى تخفيف ويلات شعبى ». ولا شك أن هذه الكلمات أكبر شاهد عدل على ما جرّه لويس على بلاده من الخراب والدمار . وأنه وإن أحلّ فرنسا مقامًا فخمًا لم يكن فى الحسبان بين دول اوربا ، فان عواقب ذلك كانت خرابًا عاجلاً فى داخلية البلاد . ولما احتضر لويس فى سبتمبر سنة ١٧١٥ لم يعبأ عقبهُ بوصيته ، بل جلبوا بحمقهم وضعفهم المصائب على تلك البلاد التى كان يحبها لويس حبًا جمًا ، وان كان على غير تبصرة

لويس الخامس عشر

دوق ارليان

تولى لويس الخامس عشر عرش فرنسا وهو فى الخامسة من عمره فبقيت مقاليد الأمور فى البلاد فى يد « دوق ارليان » ثمانية أعوام (١٧١٥ — ١٧٢٣) . ولما كان دوق ارليان هذا خليعا ماجنًا منهمكاً فى اللذات منكبًا على شهواته ، ترك شؤون الملك فى يد وزيره « ديبوا » الذى لم يكن دونه فى انحطاط النفس والشره فى جمع المال

مشروع جون لو

وقد قام فى هذه الفترة رجل ايقوسى يدعى « جون لو » بمشروع لتفريج أزمة الحكومة المالية يسمى مشروع « المسسيبى ». وكان غرض القائمين به أن يكوّنوا شركة

شركة المسيبى تستغل مستعمرات فرنسا الواقعة على نهر المسيبى ؛ فتكوّنت الشركة فى عام ١٧١٧ على أن تحمل على عاتقها الدَين الأهلى وتأخذ عليه أرباحاً بنسبة ٣٪ بدلاً من الأربعة فى المـاية التى كانت تدفعها الحكومة للأمة . وقد توهم الناس أن الشركة ستجنى أرباحاً طائلة باستغلال تلك المستعمرات، فارتفعت سهامها حتى وصلت ١٢٠٠٪ من قيمتها الأصلية ؛ ولكن ما لبث المشروع أن تسرب اليه الفشل، فنزلت أسعار السهام نزولاً فاحشاً ، فعم الخراب فى البلاد وأخفق المشروع اخفاقاً تاماً

لويس الخامس عشر يبلغ رشده

ولما مات دوق اورليان و « ديبوا » عام ١٧٢٣ كان الملك قد بلغ رشده ، فقبض على زمام الأمور بنفسه . وقد تزوج ببنت « استانِسلاس » ملك بولندة لأسباب سياسية . وحدث فى عام ١٧٣١ أن قام نزاع على عرش بولندة نشبت من جرائه حرب بين معظم ممالك أوربا انتهت بمعاهدة ويانة سنة ١٧٣٨ ، ونالت بها فرنسا مقاطعة لورين وهى آخر فتوح فرنسا فى أوربا الى انفجار نار الثورة الفرنسية

حرب الوراثة البولندية

فلورى

وفى خلال المدة ١٧٢٦ — ١٧٤٣ كانت ادارة شؤون البلاد فى يد الوزير « فلورى »، وكان رجلاً طاعناً فى السن ولكنه كان مستقيم الحال ساهراً على مصالح الأمة ، بينما لويس منهمك فى لذاته مع حظيـاته ولا سيما ما دام « بُمْبادور » التى اشتهرت فى أوربا فى ذلك العصر بما كان لها من النفوذ والسلطان فى سياسة البلاد . وقد كانت من أكبر العوامل على اذكاء نار حرب الوراثة النمسوية . هذا فضلاً عن ان جيوش فرنسا كانت مهزومة فى معظم حروبها؛ ففقدت بعض مستعمراتها وذهبت مكانتها بين دول أوربا

اضمحلال فرنسا

وبعد عهد « فلورى » هوت فرنسا دفعة واحدة ، اذ ساد الفساد فى بطانة الملك وأصبحت مقاليد الأمور فى أيدى محاظيه، وابتزت دماء الفلاحين بالضرائب الفادحة. وانهزمت جيوش فرنسا فى « دِتِنْجِن » و « رُسْباخ » و « مِنْدِن » ، واستولت انجلترة على كثير من مستعمراتها فى أمريكا وآسيا مما سيأتى مفصلاً*

وفى هذه المدة قام بعض مشاهير كتّاب فرنسا ونبهوا أفكار الأمة الى هذا النظام

* انظر تاريخ بروسيا فى الفصل التالى

انتشار الظلم

السيء وحولوا مجراها الى السخط على هذا الظلم والعسف والعمل على خلع نير تلك العبودية. وكان لويس يعلم أن دوام مثل هذا الحال من المحال، فكان يقول لحاشيته: « بعدى يكون الطوفان »

مات لويس عام ١٧٧٤ وهو فى الرابعة والستين من عمره بعد أن حكم البلاد تسعة وخمسين عاماً أظهر فيها كيف يبلغ التعس والبؤس مبلغه حينما تُلقى مقاليد الأمور في البلاد الى يد رجل واحد ضعيف الرأى خائر العزيمة

ظهور معالم الثورة

وخلفه على العرش حفيده لويس السادس عشر فى ١٠ مايو سنة ١٧٧٤ وهو اذ ذاك فى الثالثة والعشرين من عمره. وكان الكل ينتظر حدوث تغيير فى حالة البلاد التى آل أمرها الى الخراب والافلاس؛ ولكن نفس لويس على طهارتها وتدينها وحبها للاصلاح كانت تعوزها تلك الصفات التى تؤهله لإصلاح ما أفسده أسلافه والسير بالأمة فى تلك الأوقات الحرجة . فبقيت الأحوال تزداد اضطراباً وارتباكاً حتى ظهرت معالم الثورة فى البلاد ، وانفجر بركانها عام ١٧٨٩ الذى هو مبدأ الثورة الفرنسية وفاتحة طور جديد فى تاريخ أوربا بأجمعها

٢ — ✱ اسبانيا ✱

غضب الامبراطور

برهنت الحوادث أن صلح أترخت لم يضمن لأوربا سلامتها مدة طويلة، اذلم يُوفَّق السواس عند ابرامه الى ارضاء الامبراطور شارل السادس الذى كان يعتقد ان ما ناله فى ايطاليا والأراضى المنخفضة يتضاءل أمام فقده عرش اسبانيا ، فضلاً عما أُخذ عليه من القيود فى الأراضى المنخفضة. ولما لم يفلح فى فك هذه القيود لمعارضة انجلترة وهولندة له أخذ يدعى لنفسه عرش اسبانيا ، وكذلك شرع يعمل سراً على أن يستبدل بسردانية صقلية

سخط اسبانيا

على أن السخط فى اسبانيا أيضاً لتمزيق أملاكها كان عاماً؛ وكان فليب الخامس ملكها يطمع فى تولية عرش فرنسا بدلاً من اسبانيا عند موت ملكها العليل (لويس الخامس عشر). وكان القابض على زمام الأمور فى اسبانيا اذ ذاك « الكردنال ألبيرونى »

البيرونى — أحد فحول السياسة فى القرن الثامن عشر. وهو وان كان ايطالى الأصل كان مخلصاً فى خدمته لاسبانيا، وجل أمانيه أن ينهض بها ويعيد لها سيرتها الأولى بجعلها فى عداد الممالك الأوربية العظيمة الشأن، ويسترجع لها بعض مافقدت فى ايطاليا

سياسته — وقد كان بعيد النظر، فلم يتعجل سوقها الى الحرب لتحقيق تلك الأمنية، لعلمه بما كانت عليه البلاد من الضعف. فأخذ فى اصلاح شؤونها الداخليـة غير مدّخر وسعاً فى تنمية موارد ثروتها التى أنضب الاهمال معينها زمناً طويلاً. فأحييت التجارة والصناعة على اختلاف أنواعها، ونظّم الجيش وزاد دخل الحكومة. وكان همه الاكبر ترقية الأسطول، فكان يقول انهُ بهِ أُسس مجد اسبانيا وبهِ يعاد اليها ذلك المجد المضاع. وكان أثناء قيامه بهذا الاصلاح يسعى فى جلب مودة انجلترة ومساعدتها له جزاء منحها زيادة فى امتيازاتها التجارية فى الدنيا الجديدة

اليصابات فرنيز — ولكن لسوء الحظ لم ترُق حيطة البيرونى وتؤدته فى نظر « اليصابات « فَرنيز » زوجة فليب الثانية التي كانت على جانب عظيم من الجسارة وقوة التأثير. وكان ميلها الى التعجل بالحرب شديداً؛ فبينما كانت تنزع فى سياستها الى معاضدة الاسبان فى مطامحهم الوطنية، اذا بها تطمح فى جعل وراثة ملك برما وتسكانية لابنها دون كرلوس* وكان على عرشيهما أخوها فرنسيس الذى لم يعقب ولداً

مصالح انجلترة وفرنسا — ولما رأت انجلترة وفرنسا ما عساه أن يحدث من النزاع بين النمسا واسبانيا تصافتا حفظاً للسلام فى اوربا وصوناً لمصالح ملك انجلترة جورج الأول ودُوق أُرليان؛ فقد كان الأول يخشى مساعدة فرنسا للمزاحم له فى الملك ويخاف على ملكه فى « هنُوفَر » من بطرس الاكبر، وكان دوق أُرليان القيم على ملِك فرنسا يطمح فى ولاية العرش

التحالف الثلاثى — بعد موت ملكها العليل، وقد رأى ميل انجلترة الى مساعدته على مراغمة فليب ملك اسبانيا الذى كان يتطلع الى ذلك أيضاً. فلهذه الأسباب وغيرها أبرم تحالف بين انجلترة وفرنسا. ثم انضمت اليه هولندة فسمى « التحالف الثلاثى » (١٧١٧)

وكانت النمسا فى هذه الأثناء تفاوض سافوى فى استبدال صقلية بسردانية. وقد

* كانت « برما » موطنها الأصلي

حدث فى هذه الآونة أن قبض النمسويون على أحد مندوبى الحكومة الاسبانية فى ميلان ، فاضطر البيرونى الى اعلان الحرب على النمسا . فاستولى اسطول اسبانيا على سردانية وغزت جنودها صقلية . ثم اجتهد البيرونى فى اقلاق بال أعدائه باثارة الفتن فى بلادهم ؛ ولكن كل ذلك لم يجد فتيلاً امام تظاهر فرنسا وانجلترة عليه ؛ فغزت الجيوش الفرنسية اسبانيا من الشمال بمساعدة الأسطول الانجليزى . ولما رأى فليب أنه يحاول عبثًا بمد أمد الحرب عزل البيرونى وقبل الشروط التى أملاها عليه المتحالفون فى « معاهدة لندن » عام ١٧٢٠ ، وأهمها : نشوب الحرب عزل البيرونى معاهدة لندن

(١) أن يستبدل الامبراطور شارل السادس بسردانية صقلية . وقد رضى دوق سافوى ذلك فى مقابلة منحه لقب « ملك سردانية »

(٢) أن يُعترف لدون « كرلوس » بوراثة دوقيتى برما وتسكانية

وبعد هذه المعاهدة انقضت الطفرة التى طفرتها اسبانيا فى أيام البيرونى ، وتراجعت الى ما كانت عليه من التدهور قبل عهده

الفصل الرابع

بروسيا

١ — ✻ بروسيا قبل عهد فردريك الأكبر ✻

دولة بروسيا من أعظم الدول التى كان لها شأن هام فى تاريخ أوربا منذ القرن الثامن عشر ، وهى الآن الأساس الأعظم الذى ترتكز عليه دعائم الدولة الألمانية الحالية وتقوى به شوكتها . وهى مع ذلك أحدث دول أوربا سنًا ومنشؤها أصغر ما تنشأ منه أمة عظيمة منشأ بروسيا

وذلك أنهُ كان يوجد فى القرن الثانى عشر ضمن الولايات الألمانيـة التى توفد مندوبًا منها للاشتراك فى اختيار امبراطور الدولة الرومانية المقدسة امارة صغيرة فى شمالى المانيا الوسطى تعرف بولاية « برَنْدِنبُرج » . وكان بجوارها ولاية صغيرة على برندنبرج

شواطئ بحر البلطيق من أرض بولندة تسمى « بروسيا » شرقى نهر الفستولا . غزاها الفرسان التيتون فى القرن الثالث عشر واستوطنوها الى أن مسحوها تدريجاً بالمسحة الجرمانية . وفى أوائل القرن السابع عشر انقرض نسل الأدواق (الأمراء) الذين كانوا يحكمونها من أسرة «هوهنزلرن» الشهيرة أصحاب براندنبرج حينئذ والأسرة التى كانت مالكة فى ألمانيا الحديثة . فانضمت الولايتان احداهما الى الأخرى تحت إمرة نائب براندنبرج عام ١٦١١ . فكان ذلك أساساً لمملكة بروسيا الحديثة

أسرة هوهنزلرن

فردريك وليم الاول

وفى عام ١٦٤٠ جلس على عرش الامارتين «فردريك وليم» (١٦٤٠-١٦٨٨) بلقب نائب براندنبرج ودوق بروسيا ؛ وسمى « النائب الأعظم » لعظم أعماله فى تأسيس مجد الدولة البروسية ولما كان له من السطوة والجاه بين نائبى الولايات الألمانية. وقد قضى حكمه الطويل فى توطيد دعائم ملكه وزيادة ينابيع الثروة ببلاده ؛ وزاد كثيراً فى أملاكه بأن ضم اليها فى صلح « وستفاليا » ولايتى مجدبُرج وبوميرانية الشرقية : كوفئ بهما على ما بذله فى سبيل الأخذ بناصر البروتستنت فى حرب الثلاثين سنة . وقد كان يعوّل فى توطيد الملك على حصر السلطة فى يده ؛ فاهتم بالشؤون الحربية وانشأ جيشاً قائماً كان هو النواة الأولى لنظام العسكرية البروسية

النائب فردريك الثالث

ثم خلفه ابنه « النائب فردريك الثالث » (١٦٨٨-١٧١٣) ؛ ولم يكن مثل أبيه فى عزمه وبطشه بل كان مبذراً غريراً شديد الولع بتقليد لويس الرابع عشر فى فخامة قصره وعظم حاشيته . الاَّ أنه تم فى عصره أمر من أهم الأمور فى تاريخ بروسيا بل فى تاريخ أوربا أجمع وهو احرازه للقب ملك . وذلك أن الامبراطور «ليوبلد» لما وجد دنوه من خوض غمار حرب الوراثة الاسبانية أراد أن يستعين بولاية براندنبرج لما لها من المكانة الحربية . فاشترط عليه النائب فردريك أن يمنحه سلماً لقب « ملك » فى مقابل معونته له

احراز لقب ملك

ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن على الامبراطور، لما فيه من بذر بذور المنافسة بين أسرته (بيت هبسبرج) وبين أسرة هوهنزلرن . وبعد أخذ ورد رأى أن يمنحه لقب « ملك بروسيا » مع بقاء لقب « نائب » فقط بالاضافة الى براندنبرج ، وذلك لأن

فردريك الاول وظهور بروسيا

بروسيا كانت خارجة عن نطاق الامارات الألمانية فلا تكون منحته اللقب سبباً فى ايجاد منافس لأسرته داخل الامبراطورية . وعلى ذلك تُوّج فردريك ملكاً لبروسيا عام ١٧٠٠ وسمى « فردريك الأول ملك بروسيا » . وقامت بروسيا فى حرب الوراثة الاسبانية بما اكسبها الفخار وجعل جميع الدول الأوربية تعترف كل الاعتراف بوجود مملكة جديدة بينها يُخشى بأسها ويُسعى الى كسب مودتها

فردريك وليم الاول

وبقى فردريك الأول حافظاً لكيان مملكته الى أن تولى عرشها ابنه « فردريك وليم الأول » (١٧١٣ — ١٧٤٠) الذى لقبه المؤرخون بالمؤسس الثانى للدولة البروسية

كان فردريك وليم على عكس أبيه : جامد الكف شحيحاً شحاً جعل حاشيته موضوع سخرية أوربا بأجمعها . الاّ أنه كان على شذوذه وابتداعه وغلظته وعنجهيته بعيد النظر كثير الجد . عرف دواء مملكته فلزمه طول حياته بهمة لا يدركها الملل وجأش لا يعرف الجزع والفزع

اصلاحه العظيم

زيادة نفوذ الملك

أدرك أن الدولة التى وضع جده النائب الأعظم أساسها وأحرز أبوه فردريك الأول لقب ملك لحكامها ما زالت فى نشأتها ، وأن لاسبيل لتوطيد دعائمها وتهيئتها لمناهزة الممالك القوية الاّ بجمع كلمتها وحصر كل السلطة فى هيئة واحدة يكون هو المسيطر على جميع تصرفاتها . فعمل على تقويض سلطة الأشراف واضعاف نفوذ المجالس المحلية . واستعاض عن ذلك تنظيم مصالح الحكومة واصلاحها وتسهيل حركة أعمالها

الادخار

وكان ثانى عامل عوّل عليه فى تقوية دولته الادّخار واصلاح الشؤون المالية . فرأى ان أعظم أساس لذلك أن تقوم البلاد بجميع حاجاتها بحيث يجب على كل فرد فيها أن يعمل عملاً نافعاً ، فكان يجول فى الشوارع والطرقات ومعه عصا طويلة يخنق بها كل من لقيه بلا عمل أو صناعة . وما زال كذلك حتى امتلأت البلاد جداً ونشاطاً ؛ فجففت المستنقعات ورسخت أقدام الزراعة وأُصلحت مرافقها . ثم استعان

اصلاح الصناعة

على زيادة الثروة بتشجيع الصناعة ؛ فدعا الى الإقامة ببلاده الصناع البروتستنت الذين نفتهم بعض الحكومات الأخرى ، فاستوطنوها آمنين ونشروا صناعاتهم فى انحاء

بروسيا. وقام فردريك وليم لهذا الغرض أيضاً باصلاح الخراج وتنظيم الضرائب وغير ذلك من شؤون الحكومة المالية

الجيش

أما ثالث الأمور التى عول عليها فى اصلاح الدولة فهو الجيش الذى رأى فيه العضد الأكبر فى مساعدته على جمع السلطة فى يده سريعاً والأساس الأعظم الذى تعتمد عليه الدولة فى توسيع نطاقها فى المستقبل . فزاد عدده حتى بلغ ٨٠٠٠٠ جندى ، وهو يقرب مما كان للنمسا فى ذلك الوقت على اتساع ارجائها ووفرة ينابيع ثروتها . واهتم بتنظيمه وتدريبه اهتماماً ليس له مثيل : وكان له ولع عجيب بجمع ضخام الرجال من جميع أنحاء أوربا ، وألف منهم فرقة سماها « حرس بُتْسدام » كان يدربها كل يوم بنفسه . ولم يكن يغضبه من أى دولة أكثر من منعها الضخام من رجالها أن يتطوعوا فى جيشه . ومما قيل فى ذلك ان الحكومة الهولندية أعدمت اثنين من بلادها كانا على وشك الانتظام فى سلك جيشه ، فلما طلبت هولندة اليه فيما بعد أن يسمح بتعيين أحد أعاظم العلماء البروسيين فى إحدى الجامعات الهولندية أجاب بايجاز : « ما دمتم لا تعطوننا رجالاً ضخاماً فنحن لا نعطيكم علماً »

حرس بتسدام

السلم فى عهده

على أنه مع شدة اهتمامه بالجيش لم يخض غمار الحرب كثيراً . ولزم جانب الحياد أثناء حكمه الطويل الذى قضته الدول الأوربية الأخرى بعضها لبعض عدو فى حرب طاحنة مستمرة ؛ وكان غرضه من ذلك المحافظة على السلم فى بروسيا حتى يتم تكوينها وتعظم قوتها . فكان ماظن ، وأبدت بروسيا فى عهد خلفه من القوة الحربية ما لم يخطر ببال أحد

التعليم

أما اهتمامه بالتربية والتعليم فكان مقصوراً على العلوم الأولية والعملية مثل الطب والاقتصاد والادارة والفنون الحربية ، ولم يعبأ بالفلسفة والآداب والفنون الجميلة ؛ وقد رُوى عنهُ أنهُ قال : « ان ذرة من صواب الرأى خير من جامعة طافحة بأنواع العلوم والمعارف »

حبه للنظام

وكان فردريك وليم حريصاً على النظام شديد السخط على من يقصر فيه فى أى أمر من أمور المعيشة ، مستعملاً فى ذلك أشد القسوة حتى مع ابنه وبناته وأهل بيته ،

وما بذله من الجد والحكمة فى ادراة شؤون البلاد وزيادة ينابيع ثروتها كان له أكبر فضل فى تأييد شوكة بروسيا . ومات عام ١٧٤٠ تاركاً لابنه فردريك الثانى ملكاً فسيحاً ثابت الأركان وجيشاً كبيراً مدرباً وخزائن مفعمة بالأموال*

٢ — ✱ فردريك الأكبر ✱

شأن فردريك فى التاريخ

تولى فردريك الثانى أو الأكبر (١٧٤٠ - ١٧٨٦) عرش بروسيا فى أواخر مايو سنة ١٧٤٠ وهو فى السابعة والعشرين من عمره . وقد سمى « فردريك الأكبر » لما لأعماله من الأثر العظيم فى تاريخ بروسيا بل فى تاريخ أوربا جمعاء . وقد كان (خلال حكمه الطويل) المحور الذى تدور حوله رحى سياسة العالم ، ولذلك عدّه كثير من المؤرخين بطل القرن الثامن عشر

نشأته

نشأ فردريك فى شبابه تعساً كثير الآلام ، لما لاقى من قسوة أبيه وسوء معاملته له . وذلك أنهُ شب ولوعاً بالفلسفة والأدب والموسيقى وغير ذلك مما لا يوافق طبع أبيه ، فكان يسئ فى معاملته من غير رحمة أو حنان . ولما اشتد الكرب بفردريك عزم على الفرار الى انجلترة ، ولكن أباه وقف على سره وحكم عليه فى مجلس عسكرى بالاعدام ولم يعدل عن الحكم الاّ بعد مشقة كبيرة . وكان لفردريك صديق مطلع على سره ، فلما عُرف أمره أمر فردريك وليم باعدامه بحضور ابنه فردريك . ولم يخلُ ما لاقاه فردريك من شدة أبيه فى صغره من الفائدة له فى كبره من الصبر وكبح جماح النفس والاعتماد عليها وغير ذلك من الصفات اللازمة لكبار الرجال ، غير أن ذلك غرس فيه أيضاً - لا محاله - شيئاً من القسوة وجفاء الطبع وعدم التمسك بالمواثيق ونحو ذلك من الأخلاق التى لا ينبغى أن تشوب الملوك

اصلاحه فى اول حكمه

تولى فردريك أريكة بروسيا فصرف فى الحال همته الى اصلاح شؤونها الداخلية والى ما فيه استمالة قلوب الشعب . فألغى رقابة الصحافة وأبطل العقاب الجثمانى الصارم ومنح جميع الطوائف الحرية التامة فى عباداتهم ، وأبطل « حرس بتسدام » الذى لم ير

* يقدر ما تركه فى خزائن الحكومة بنحو ١٩٣٥٠٠٠٠ جنيه

في رجاله فائدة متناسبة مع ضخامة أجسامهم. ولكن لم يمض عليه طويل في هذه الحالة حتى حدث أمر جلل في شهر اكتوبر من عام توليته؛ ذلك هو وفاة (شارل السادس) امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، فصرف همته الى الحرب والسياسة الخارجية لما رأى في ذلك من الفرصة السانحة لتوسيع نطاق مملكته. وكانت الولايات التي يحكمها شارل مترامية الأطراف متفاوتة الأجناس مختلفة اللغات[1] لا يقدر على توحيد كلمتها وبسط النفوذ التام عليها الا من فاقت قدرته مقدور متوسط الملوك. ولم يكن ذلك متوافراً في شارل، بل كان طوال التسع والعشرين سنة التي حكم فيها ضعيف الرأى مزعزعه حتى ضاعت سطوته بين ملوك أوربا وأمرائها، وأصبح يسعى في ارضائهم بمنح الهدايا أو النزول لهم عن بعض أملاكه لينال منهم قبل مماته الموافقة على أن تخلفه على جميع أملاكه ابنته «ماريه تريزا» التي لم يكن له وارث غيرها. وما زال بالدول حتى وافق معظمها على طلبته وفيهم فردريك وليم ملك بروسيا. ويعرف ذلك «بالضمان الوراثي»[2] وكان لشارل حينئذٍ مستشار حاذق يدعى «الأمير يوجين»، كثيراً ما نصح اليه بأنه ان ترك وراءه خزانة مملوءة بالأموال وجيشاً حسن التدرب والنظام فذلك خير من ألف ضمان يناله من ملوك أوربا

وفاة شارل السادس

املاكه

الضمان الوراثي

✻ حرب الوراثة النمسوية ✻

١٧٤٠ — ١٧٤٨

فردريك ينقض على سيليسيا

وقد حققت الأيام ظن يوجين؛ فانه بمجرد وفاة شارل السادس ساق فردريك الثاني جيوشه الى «سيليسيا»، وهي ولاية نمسوية كثيرة الخيرات ملاصقة لولاية برندنبرج، بدعوى انها حق لبيتهم من قديم الزمان. والحقيقة أن فردريك كان يعرف ان هذه الدعوى واهية، لقدم العهد على خروج سيليسيا من يد أجداده، ولذلك لم يصبر ريثما يجيئه جواب مارية تريزا على مطلبه بل توغل بجيشه في البلاد وكأنه يقول: «ما لا

(١) كان الامبراطور هو ارشدوق النمسا ودوق ميلان وملك بوهيميا والمجر
(٢) Pragmatic Sanction

يدركه الحق تدركه القوة »* ؛ ولم تمض بضعة شهور حتى اكتسحت جيوشه معظم « سيليسيا » . وفى ربيع عام ١٧٤١ ساقت عليه « مارية تريزا » جيشاً نمسوياً هزمه الجيش البروسى فى موقعة « ملْوِتز » الفاصلة (١٠ ابريل سنة ١٧٤١) . على أن فردريك لم يظهر فى هذه الموقعة شيئاً من الدهاء والحيطة والمهارة الحربية العظيمة التى أظهرها فى حروبه التالية ؛ فقد فتك النمسويون فيها بفرسانه وكاد هو يلوذ بالفرار لولا مهارة مشاة بروسيا واستبسالهم ، واليهم يرجع كل الفخر فى احراز ذلك الفوز المبين الذى كان العامل الأول فى اعتراف أوربا بمهارة الجنود البروسية

موقعة ملوتز

الدول تطمع فى أملاك مارية تريزا

ولقد كانت غنيمة فردريك هذه سبباً فى تحريك مطامع الدول الاوربية الأخرى وأبت الاّ أن يأخذ كل منها نصيباً آخر من تلك الفريسة الهائلة التى تركها شارل السادس فى يد امرأة عزلاء . فتحالفت فرنسا وبروسيا واسبانيا وبافاريا وسكسونيا على أن يكونوا جميعاً يداً واحدة على مارية تريزا . فزحفت الجيوش الفرنسية على ألمانيا حيث التقت بجيش بافاريا ، وزحف السكسونيون على بوهيميا . وقد كانت جيوش الحلفاء تكتسح ما فى طريقها حتى كادوا يستولون على « ويانة » نفسها .

ارشدوق بافاريا يصير امبراطورا

ومن أهم نتائج ذلك أن استولى ارشدوق بافاريا على بوهيميا وتوج ملكاً عليها فى حاضرتها «براغ» ، ثم فى أوائل عام١٧٤٢ انتخب امبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة وتسمى « شارل السابع » ، وكان ذلك من شروط اتفاق الحلفاء

وتسمى هذه الحروب الاوربية التى أشعلها فردريك بزحفه على سيليسيا حرب « الوراثة النمسوية » ، ويعرف العمل الذى قام به فيها بالحرب السيليسية الأولى والحرب السيليسية الثانية

مارية تريزا بلا معين

هتكت تلك الدول الأوربية حرمة المواثيق ومزقت دولة مارية تريزا وهى تنظر اليهم ولا ناصر لها ولا معين (اللهم الا ما كانت تبديه انجلترة من النصح لها فى سبيل النكاية بفرنسا عدوها العنيد فى ذلك الحين) وذلك لعدم تمسك أحد بعرشها من

* ذلك بالطبع مناف للمروءة والشهامة وفيه بلا شك نقض صريح للمواثيق ، ولكن الظاهر أن جميع قادة السياسة بأوربا فى القرن الثامن عشر لم يراعوا الاّ مصلحة بلادهم

التجاؤها الى المجر الشعوب المتفرقة التى آل اليها حكمهم. وأخيراً لجأت الى أشراف المجر فخرجت اليهم تحمل فى ذراعها طفلها الصغير (يوسف الثانى فيما بعد) وشرحت لهم الأخطار التى تهدد دولتها. فثارت عواطف المجر وهبوا لمساعدة ملكتهم مقسمين أن يبذلوا النفس والنفيس فى سبيل الذود عن حياض عرشها. وبذلك ألَّفت النمسا بقيادة القائد العظيم

خفنهلر «خِفِنْهُلَّر» جيشاً قوياً تفوّقَ على الحلفاء فأخرجهم من أراضى النمسا الاصلية وغزا بافاريا نفسها واستولى على ميونخ فى اليوم الذى كان يُحتفل فيه بتتويج شارل

وكان فردريك منذ دخول الحلفاء فى الحرب فى ريبة مما يؤول اليه ظفرهم، وهاله انتصار فرنسا، فخشى من اتساع نفوذها فى المانيا، فعقد مع مارية تريزا معاهدة سرية

معاهدة كلين شنلندورف تدعى «كلين شنلندورف» (٩ اكتوبر سنة ١٧٤١) على أن يبقى هو على الحياد فى مقابل اعطائه سيليسيا السفلى وفيها حصن «نيس» المنيع؛ وكان الى الآن لم يستول

خروج فردريك من الحرب إلّا على سيليسيا العليا؛ وفى الحال سلمت له نيس بعد حصار كاذب وتم له الاستيلاء على جميع سيليسيا. فكفّ بذلك عن مناوأة الجيوش النمسوية فتم لها ذلك النصر المبين

على أن هذا النصر حرّك فى فردريك مطامع ومخاوف أخرى؛ فقضى هذه الفترة فى تنظيم جيوشه وتوطيد نفوذه فى سيليسيا اذ رأى أن انظار مارية تريزا طامحة الى نقض عهدها معه والاغارة على سيليسيا. فسبقها هو الى نقض العهد. فادعى أنها أفشت شروط المعاهدة السرية التى بينهما وأغار على «مورافيا» واستولى فيها على

رجوعه والاستيلاء على المتز مدينة المتْز العظيمة (ديسمبر سنة ١٧٤١) وكادت ويانة نفسها تقع فى خطر لو رضى الحلفاء بمشاركته فى القتال فى مورافيا. ولكن الفرنسيين والسكسونيين تمسكوا بالبقاء فى بوهيميا، فاضطر فردريك الى الجلاء عن مورافيا والنزول بجيشه الى بوهيميا. وهنالك

موقعة شتوزتز التقى بالجيوش النمسوية وهزمها فى موقعة فاصلة عند «شُتوزِتز»[1] (١٧ مايو سنة ١٧٤٢

عند ذلك عادت مارية تريزا فأدركت بأس فردريك وأيقنت أنه لايلين قبضته على سيليسيا وان الأولى لها استجلاب مودته ومنحه سيليسيا نهائياً، فعقدت معهُ صلح

صلح برزلو «برِزْلو»[2] بوساطة الانجليز (١١ يونيه ١٧٤٢) وفيـه اعترفت له رسمياً بملك

(١) وتسمى أيضاً موقعة «زازلو» (٢) ويسمى أيضاً صلح «برلين»

انتهاء الحرب السيليسية الاولى

سيليسيا بأجمعها ورحّب فردريك بالصلح اذ لم يكن لهُ مأرب من الحرب الاّ الاستيلاء التام على تلك المقاطعة النفيسة . وبذلك انتهت الحرب السيليسية الأولى

بقى بعد ذلك فردريك عامين لا يحرك ساكناً بل يرقب حركات المتحاربين وأطوار تقلبهم فى القتال ، حتى اذا خاف من جانب انحاز الى الجانب الآخر . فكان كل يوم يزداد قلقاً من فوز النمسويين ؛ فانهم اكتسحوا بافاريا وما زالت جيوشهم تقاتل الفرنسيين حتى جلوا عن بوهيميا فى أواسط الشتاء ، فلحقهم فى تقهقرهم من أذى البرد القارس اكثر مما لحقهم من وقع سيوف النمسويين . ثم ان الوزارة الانجليزية تغيرت فسقط رئيسها « وُلبُول » الذى لم يكن من سياسته دخول انجلترة فى الحروب الأوربية وخلفه « كارتِرت » وكان اكثر من سابقه اقداماً ؛ فجردت انجلترة جيشاً لمساعدة النمسا على الفرنسيين هزمهم فى موقعة « دِتِنْجِنْ » (يونيه سنة ١٧٤٣) . ذلك الى أن فرنسا فقدت ركناً عظيماً بوفاة وزيرها العظيم «فلورى» وصار لويس الخامس عشر على ضعفه وقلة رأيه يدير شؤونها بنفسه ، فهوت فى مهاوى الارتباك والتخبط

فوز النمسا

فردريك يعود الى الحرب

كل ذلك ساعد على مضاعفة فوز النمسويين ؛ فخشى فردريك العاقبة وخاف أن تعود مارية تريزا الى الاغارة على سيليسيا ؛ فعاد الى خوض غمار الحرب فى صيف عام ١٧٤٤ فكان ذلك ابتدأ الحرب السيليسية الثانية (١٧٤٤ – ١٧٤٥) . وكان الامبراطور شارل السابع عضده الأكبر قد مات فى يناير سنة ١٧٤٥ ونزل خلفه فى امارة بافاريا عن لقب الامبراطور لزوج مارية تريزا وخرج بذلك من الحرب . ففت ذلك فى عضد فردريك وكاد يغلب على أمره فى أواسط جبال بوهيميا ، ولكنه عاد فأظهر تفوقه ؛ فانتصرت جيوشه على النمسا وسكسونيا فى ثلاث مواقع فاصلة وهى « هوهِنفريدبرج » و « صُر » و « كِيسِلز دورف » (١٧٤٥) فعقدت معهُ مارية صلح «درزدن» (ديسمبر سنة ١٧٤٥) بوساطة الانجليز وفيه اعترفت لفردريك بالنفوذ المطلق فى سيليسيا مقابل اعترافه بزوجها « فرنسيس الأول » امبراطوراً وضمانه لسائر أملاكها فى ألمانيا ، وبذلك انتهت الحرب السيليسية الثانية

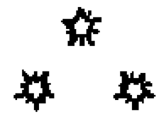
انتصاره فى ثلاث مواقع

صلح درزدن

أما فرنسا فواصلت الحرب وبقيت جيوشها تحرز انتصاراً بعد انتصار بقيادة

صلح اكس لاشبل

المرشال ساكس بالرغم من مساعدة الانجليز للجيوش النمسوية . وأخيراً اضطر المتحاربون الى عقد صلح «اكس لاشبل» سنة ١٧٤٨ وكان أساسه ارجاع كل شيء الى ما كان عليه قبل الحرب ، ما عدا سيليسيا فانه سجل لفردريك ملكها ؛ وبذلك انتهت حرب « الوراثة النمسوية »



فترة سلام

ساد السلام على أوربا بعد صلح « إكس لاشبل » نحو عشر سنين كانت كأن لم تكن جزءًا من ذلك القرن الثامن عشر الذى لطخت أيامه بدماء الحروب والمشاحات. فتفرغ فردريك فى هذه الفترة الى اصلاح بلاده وتحسين شؤون رعيته، فلندع الحرب الآن جانباً ونتتبع فردريك فى صنوف اصلاحه الداخلى وحياته الشخصية

صفات فردريك وأعماله الداخلية

كانت غاية أمل فردريك النهوض ببروسيا وجعلها فى مقدمة الدول الأوربية . فكان يخوض غمار الحرب كلما سنحت له فرصة لتحقيق هذه الأمنية ؛ فاذا أمسك عن الحرب فترة قضاها فى الاصلاح الداخلى غير مدخر فى ذلك وسعاً ولا مجهوداً . كان يقوم من نومه مبكراً (الساعة الرابعة فى الصيف والساعة الخامسة فى الشتاء) فينكب على فحص أوراق الحكومة والناس نيام ، فلا يدع صغيرة ولا كبيرة إلاَّ نظر فيها ، ولذلك قيل عنهُ أنهُ فاق جميع الملوك المستبدين بالسلطة ؛ فاذا قيل عن بعضهم مثل فليب الثانى أو لويس الرابع عشر انه كان رئيس وزارته قيل عن فردريك انه كان وزير نفسه الوحيد. والحق أنه لا يكاد القول المشهور "L'etat c'est moi" (الحكومة أنا) ينطبق على ملك آخر اكثر من انطباقه على فردريك الأكبر . على أنه كان يجيد اختيار الرجال الذين يقلدهم مناصب حكومته ، فكانوا كلهم أعينا ساهرة على ما فيهِ صلاح البلاد وفلاحها لا يسمح الواحد منهم لنفسه بالتقصير فى شيء أو التراخى فى عمل من الأعمال مخافة أن تقع عليه عين فردريك اليقظة فيسام سوء العقاب

وتناول إصلاح فردريك جميع شؤون بلاده . فأحيا المجمع العلمى بعد أن اندثر فى أيام والده وبث فيه روحاً ونشاطاً حتى تقدم التعليم الابتدائى اكثر مما تقدم فى

عهد أحد من أسلافه . ووجّه عنايته الى الشؤون الاقتصادية ولا سيما الزراعة ، فعمّر الأقاليم المهجورة وأسكنها المهاجرين من الممالك الأخرى ، وحفر الكثير من الترع وجفف مستنقعات اودَر بروخ وحاطها بالأسوار حتى صيرها روضة خضراء . وأدخل فى البلاد كثيراً من الأشجار المثمرة وأنواع النبات النافعة التى من أهمها البنجر . ثم أقبل على الصناعات فعضدها بكل الوسائل وفى مقدمتها صناعة الحرير التى لم يكن لها فى بروسيا قبل عهده شأن يذكر

اهتمامه بالزراعة

والصناعة



فردريك الأكبر

أما الجيش فكان موضوع اهتمامه الأكبر لا يفتر عن استعراضه وتفقد أحواله ، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة من أوجه النقص فيه الاّ آخذ الضباط عليها وأمر باصلاحها عاجلاً . وقد زاد عدده الى ١٦٠٠٠٠، وذلك يعادل سبع القادرين على العمل من رجال مملكته ، وحصن الحصون وأعدّ الذخائر ، فكان الجيش على تمام الأهبة

والجيش

تسامحه الدينى

وأطلق للعباد الحرية فى الدين والسياسة حتى أحبه أهل سيليسيا لافساحه المجال لهم فى عباداتهم ، ورحّب باليسوعيين فى الاقامة فى بلاده وكانوا حينئذ يعانون أصناف الاضطهاد فى جميع الممالك الكاثوليكية الرومانية

تأثير أخلاقه فى البلاد

وقد سرى جد فردريك ونشاطه فى عروق الأمة على اختلاف طبقاتها . فكان القوم يعجبون به أيما اعجاب ، وقصارى جهدهم أن يتطبعوا بطباعه و يتخلقوا باخلاقه

على أن كل هذه المجهودات لم تصرف فردريك عن مسرات الحياة قاطبة ، ولم تحرمه من ترويح النفس بالآداب والفنون الجميلة ونحوها مما يجلب السرور و يريح النفس من متاعب الحياة الشاقة . وكان فردريك يحب الطعام النفيس (مع مراعاة الاقتصاد حتى لا تتجاوز نفقات الطعام فى قصره ١٨٠٠ جنيه فى العام) ؛ وكانت مائدته دائمًا مخاطة

حبه للفنون والآداب

بأهل العلم والأدباء، فكان يفسح لهم المجال فى الحديث فينعش بفكاهاتهم ونكاتهم انتعاشه بالنصر فى ساحة الوغى. وكان يحب الموسيقى حباً جماً، وكان له نفسه مهارة عجيبة فى النفخ فى البوق. ولم يكن حبهُ للآداب بأقل من ذلك، ولا سيما آداب اللغة الفرنسية التى كان لا يُنطق فى حاشيته الاّ بها. وكان له شغف باتقانها، وله فيها بعض مؤلفات نثرية جميلة فى بابها. وكانت نفسه تتوق الى النبوغ فى الشعر الفرنسى،

فلتير وفردريك

وسعى لذلك حتى ضم الى حاشيته « فُلتير » الشاعر الفرنسى العظيم؛ فكان يعرض عليه ما يقوله من الشعر فيهذبه له [1] وكان يفخر باحرازه فى حاشيته فيقول اذا فاخر بنفسه: « أنا ملك بروسيا و«مَرجِراف» برندنبرج [2] وحاكم سيليسيا وحائز فُلتير »

* * *

حرب السنين السبع
(١٧٥٦ - ١٧٦٣)

صلح اكس لاشبل هدنة فقط

لم يكن صلح « اكس لاشبل » بالصلح الذى يدوم أجله طويلاً. وكان يشعر بذلك كل المتحاربين الذين اشتركوا فى حرب الوراثة النمسوية؛ فكأنهم لم يقصدوا به الاّ هدنة يتأهبون فيها لحرب أشد طحناً واكثر هولاً. وكانت مارية تريزا فى مقدمة الحاقدين على الصلح، لأنها فقدت به « بَرْما » و « بلاسِنتيا » فى ايطاليا، فضلاً عن سيليسيا التى كانت تعدها أنفس جوهرة فى تاج ملكها

استعداد مارية تريزا للحرب

رأت مارية تريزا هى ووزراؤها ان لا فلاح لها إن عادت الى خوض غمار الحرب الاّ بأمرين أساسيين: الأول اصلاح شؤون البلاد الداخلة وتوحيد الكلمة فى أطرافها المترامية وصيانة التاج بتقليل نفوذ الأشراف؛ والثانى أن تتخذ لها حلفاء جُدداً غير الذين حالفوها فى حرب الوراثة النمسوية؛ فإن هؤلاء لم يقوموا بمساعدتها مساعدة جدية، بل كانوا السبب فى ارغامها على النزول عن سيليسيا. وكان أشد حقدها فى ذلك على انجلترة

فخطت خطوات واسعة نحو اصلاح الشؤون الداخلة بفضل وزيرهـا العامل

---

(١) كان فلتير ينفر من هذا العمل فلا يجد فيه لذة، وكثيراً ما كان يقول لمن يحيط به: « انظروا مقدار ما أعطانيه الملك من الملابس القذرة لأميط عنها الأذى »

(٢) لقب حكامها

« هجْوِتز » ؛ ودخلت سياستها الخارجية فى طور جديد باشارة وزير آخر بعيد النظر هو « كُونِتز » . أشار هذا الوزير على ملكته بمحالفة فرنسا عدوها فى حرب الوراثة النمسوية، وقال انها أكبر عون على استرجاع سيليسيا، لأنها لاتود نمو سلطان بروسيا ولأن الروسيا مكبلة بفتنها مضطربة بمشاغباتها الداخلية فلا تقدر على مؤازرة النمسا . فانقادت مارية تريزا لرأيه ، فخطبت ود فرنسا . فقبلت فرنسا ذلك بعد التردد ، وعقدت معها « محالفة فرساى » الأولى (مايو سنة ١٧٥٦) . أما فردريك فكان الى نبذ حلف فرنسا أسرع منها الى نبذ وده . وذلك : أولاً لاستخفافه بها ، لعلمه بما آلت اليه من الضعف والاضطراب بخُرق ملكها لويس الخامس عشر وحظيّته « مادام دى بمبادور » صاحبة الكلمة العليا فى فرنسا فى ذلك الوقت ، وثانياً لما حدث من التغيير فى السياسة الانجليزية. وذلك أن المنافسة بين فرنسا وانجلترة فى المستعمرات كانت قد قويت وخصوصاً فى أمريكا، وأصبح من المحقق التحامهما فى حرب أوربية، فأدرك فردريك أنهُ ان اتخذ فرنسا حليفةً له وقهرتها انجلترة ، أصبح هو وحلفاؤه لا يقوى على مناوأة حلفاء الفريق الآخر . ومن جهة أخرى كانت العلاقات قد توترت بين النمسا وانجلترة ، لحنق الأولى على الثانية منذ حرب الوراثة النمسوية ، ولرفضها ما طلبتـــه منها انجلترة عام ١٧٥٥ من حراسة هنوفر* وقت ان كانت الحرب بين فرنسا وانجلترة قاب قوسين أو أدنى ، مما جعل انجلترة تتطلب من روسيا أن تتكفل بالدفاع عن هنوفر اذا أغارت عليها فرنسا فى مقابل اتاوة تدفعها انجلترة . فلما أحس فردريك بهذه المعاهدة أدرك ما عسى أن يصيبه منها من الضرر ، وسعى حتى اتفق مع الانجليز على أن يتعهد هو بحراسة هنوفر بشرط ألاَّ يُسمح للجنود الروسية باختراق ألمانيا (معاهدة وِسْتمِنِستر يناير سنة ١٧٥٦) . ولمَّا كان فى ذلك عداء ظاهر من فردريك لفرنسا سهل على الحكومة الفرنسية العمل بمشورة كونتز وزير مارية تريزا فتحالف معها كما أسلفنا

كونتز وسياسته

معاهدة فرساى الأولى

سياسة فردريك

معاهدة وستمنستر بين فردريك وانجلترة

أما الروسيا فانها استشاطت غضباً لمَّا علمت بالمعاهدة التى عقدت بين انجلترة

---

* وكانت ملكاً للانجليز فى ذلك الوقت

وفردريك ، لأنها كانت بتعاهدها مع انجلترة ترمى الى شن الغارة على بروسيا . لذلك

التحالف بين الروسيا والنمسا

بادرت الى مدّ يد المعونة الى النمسا، ففرضت عليها أن تساعدها بنحو ٨٠٠٠٠ مقاتل للاغارة على بروسيا، وألاّ تغمد السيف حتى تُردّ سيليسيا الى النمسا (ابريل سنة ١٧٥٦)

الانقلاب السياسى

هكذا تغيرت علاقات الدول الأوربية بين عامى ١٧٥٥ و ١٧٥٦ ، وأصبحت انجلترة وبروسيا فى جانب ، وفرنسا والنمسا فى آخر، بعد ان كانت انجلترة والنمسا فى حرب الوراثة النمسوية فى جانب ، وبروسيا وفرنسا فى آخر، ويعرف ذلك « بالانقلاب السياسى » . واذا نظرنا الى مطامع المتحاربين وأغراضهم فى ذلك الحين وجدنا أن الترتيب الجديد كان أكثر ملاءمة لهم جميعًا

ابتداء حرب السنين السبع

ولما علم فردريك بانضمام الروسيا أيضًا الى أعدائه اشتد فزعه ، وخشى العاقبة ، ورأى كعادته أن يبدأ بالقتال قبل أن يسبقه اليهِ أعداؤه ، فبدأ بذلك حربًا أوربية شعواء استمرت سبع سنين (١٧٥٦ – ١٧٦٣) ولذلك سميت «حرب السنين السبع»

موقعة لوبوستز

بدأ فردريك بالاغارة على سكسونيا بعد أن رفضت الانضمام اليه . وكان غرضه من ذلك الانتفاع بمواردها وجعلها قاعدة أعماله الحربية ؛ فانقضّ عليها بنحو ٦٠٠٠٠ مقاتل بلا اعلان ولا انذار (أغسطس ١٧٥٦)[1] . وكان جيش السكسونيين ١٧٠٠٠ فتقهقروا أمامــه وتحصنوا بوادى الإلب بين « بِرْنا » و « كُونجْستين » ؛ ثم زحف الجيش النمسوى بقيادة المرشال «بَرَوُن» لانقاذهم . فخف فردريك لملاقاته بنصف الجيش ، تاركاً النصف الآخر لحصر السكسونيين ؛ فالتقى الفريقان فى موقعة « لوبوسِتز » (اكتوبر سنة ١٧٥٦) ، وبعد خسائر جسيمة من الطرفين قُهر برون واضطر الى التقهقر. ثم حاول السكسونيون أن يخترقوا الصفوف البروسيــة لفك الحصار عنهم، فلم يفلحوا . ففر أميرهم الى وُرسو حاضرته فى بولندة[2] وأسر جيشه ، وأرغموا على الحرب فى جانب بروسيا

---

(١) وكان قد علم من جاسوس له من عمال حكومة سكسونيا يدعى « منزل » أن أعداءه يريدون تقسيم بروسيا وأن أوراق تآمرهم على ذلك محفوظة فى درزدن . فانقض على سكسونيا للاستحواذ على هذه الأوراق ونشرها فى أوربا تبريراً لعمله

(٢) وكان ملكا على بولندة أيضاً بالانتخاب

سخط أوربا على فردريك

على أن غارة فردريك على سكسونيا بلا ذنب صريح أثارت عليه سخط كل أوربا وأجمع معظم دولها على أنهُ خطر لا بد قبل استفحاله من القضاء عليهِ . فأعلن المجمع الامبراطورى الحرب عليه فى يناير سنة ١٧٥٧ ؛ وفى الشهر نفسه عقدت اليصابات قيصرة الروس « معاهدة بطرسبرج » مع النمسا للعمل على تجزئة بروسيا ؛ وفى شهر مايو من تلك السنة عززت فرنسا معاهدتها السابقة مع النمسا فعقدت معها « معاهدة فرساى الثانية » ، وأهم شروطها مواصلة القتال حتى تُردّ سيليسيا الى النمسا وتجزّأ بروسيا . وانضمت السويد أيضًا الى أعداء فردريك

معاهدة فرساى الثانية

احداق الخطر بفردريك

بذلك أحدقت بفردريك الأعداء من كل جانب ، ولم يكن له نصير الاّ انجلترة التى كانت مشغولة بحروبها فى المستعمرات عن أن تمده بمساعدة كبيرة ؛ فلم يكن فى وسعها شيء فوق ابقاء جيش صغير فى هنوفر ومد فردريك باتاوة سنوية قدرها ٧٠٠,٠٠٠ جنيه*

ومع ذلك فقد ثبت فردريك أمام كل هذه الكوارث وخرج منها ظافراً ، فعُدّ فى مقدمة عظماء القواد فى التاريخ . اعتمد فردريك على قوة جيشه الصغير ونظامه وعدم التراخي فى مهاجمة أعدائه منفردين قبل أن يتمكنوا من الانضمام ؛ فأسرع الى اجتياز بوهيميا وباغت النمسويين بالقرب من «براغ» (مايو سنة ١٧٥٧) ، فقهرهم فى معركة دموية . ثم شرع فى محاصرة المدينة ، وسار فى الجزء الأكبر من الجيش لملاقاة جيش نمسوى آخر يقوده المارشال « دون » ، وكان قد تحصن لملاقاة فردريك عند « كولين » . وكان فردريك الى ذلك العهد أقل منهُ حيطة ، فهجم عليهِ باستماتة حيث لا ينفع الاستبسال ، فخسر ١٣,٠٠٠ من رجاله . ثم امسك عن القتال ، وفض الحصار عن براغ مسرعًا الى الجلاء عن بوهيميا قبل أن يحدق بهِ الخطر . ثم دخلت الجيوش النمسوية سيليسيا واستولت على جانب منها

انتصاره فى موقعة براغ

انهزامه فى موقعة كولين

وتبع هذه الهزيمة فشل حلفائه الانجليز فى هنوفر ؛ فان جيوشهم فيها هُزمت

* ولم يتم الاتفاق على ذلك نهائياً الاّ فى سنة ١٧٥٨ عند ما تقلد وليم بت منصب رياسة الوزارة البرطانية

موقعة هستنبك وصلح كلسترسفن

بقيادة « دوق كمبرلند » أمام الجيوش الفرنسية عند « هستنبك » ؛ وعقد الدوق مع الفرنسيين معاهدة « كلسترسفن » في سبتمبر سنة ١٧٥٧ وافق فيها على صرف جيشه وتسليم « هنوفر و برنزويك » ؛ فخلا بذلك الجو لجميع الجيوش الفرنسية لمناوأة فردريك

وكان أعداؤه الآخرون قد أخذوا يهجمون على بلاده من جميع الجهات ؛ فأغار

غزو بروسيا من جميع الجهات

الروس على أملاكه الشرقية وجدّوا في تخريبها وتدميرها ؛ واكتسح النمسويون سيليسيا ؛ وأغار السويد على بوميرانيا ؛ وجد الفرنسيون وجيوش الامبراطورية في المسير من الغرب بقيادة « المارشال سوبيز » ؛ واستولت جيوش « كرواتيا » على برلين نفسها . فأصبح الهلاك من فردريك قاب قوسين أو أدنى

تلك كانت حالة فردريك في نوفمبر سنة ١٧٥٧ ؛ وما زال تغلبه عليها وخروجه منها سالمًا غانمًا فيما لا يزيد على ثلاثين يومًا من أغرب ما حفظه التاريخ

وجد فردريك أن مركزه في وسط دائرة يحيط بها أعداؤه ، فأبى الَّا أن يكون هذا المركز عونًا له لاسببًا لارتباكه وتضييق الخناق عليه . فلما رأى أنهُ في مأمن من الروسيين ، لتراجعهم شرقًا لحلول الشتاء ، ترك جزءًا من جيشه لصد النمسويين ، وهمّ

موقعة رسباخ

بباقي الجيش لملاقاة « سوبيز » ، فالتقى به في « رُسباخ » بسكسونيا (٥ نوفمبر سنة ١٧٥٧) . وكان الأعداء قد استخفوا به وأيقنوا بالنصر ؛ فحاولوا أن يدوروا حول جيوشه . فأمهلهم فردريك حتى علم خطتهم ، وأخذ جناحيهم على غرة . ثم فتكت فرسانه ومدافعه بجيوش الأعداء حتى فشا فيهم الاضطراب والخلل ؛ فتشتتت جيوش الامبراطورية ، وتراجع الفرنسيون الى نهر الرين . ولم تتجاوز خسائر فردريك في هذه الموقعة الفاصلة ٥٠٠ قتيل وجريح ، وبلغت خسائر أعدائه نحو ٨٠٠٠ بين قتيل وجريح وأسير و ٧٠ مدفعًا ، مع أن جيشه لم يزد على ثلث جيوشهم

وفي الشهر التالي سار شرقًا للقاء النمسويين ، وقد استولوا على « برزلو » بقيادة

موقعة لوثن

« شارل دوق لورين » و « المرشال دون » . فالتقى بهم في موقعة « لوثن » بسيليسيا وقد كانت خطته الحربية هنا شبيهة بخطته في رسباخ ، فأظهر التأهب لمهاجمة جناح العدو الأيمن ، وبينما النمسويون في استعداد لملاقاته على هذه الصفة اذ هو قد حشد كمينًا



بروسيا
وبيان نموها
لغاية القرن الثامن عشر
برندنبرج في سنة ١٤١٥
الارباح قبل فردريك الاكبر
الارباح في عهده
الارباح في عهد فردريك وليم الثاني
البحر البلطي
بحر الشمال
السويد
بولندة

عظيمًا وراء الجبال وباغت به جناح العدو الأيسر الذى لم يكن على تمام الأهبة ، ففتك به فتكاً ذريعاً . وعند ذلك أمر القائد النمسوى جناحه الأيمن بالتحرك لمساعدة الأيسر، ولكن ذلك لم يكن الآ بعد فوات الفرصة ؛ فبُدد شمل الجيوش النمسوية ، وبلغت خسائرهم ١٢،٠٠٠ ما بين قتيل وجريح ، وكانت خسائر فردريك أقل من نصف ذلك . وتعتبر موقعة لوثن أعظم المواقع التى انتصر فيهـا فردريك ، وبها استرجع سيليسيا وطار صيته فى الآفاق وخاصة فى لندن ؛ وقد قال عنها نابليون انها تكفى وحدها لوضع فردريك فى مصاف اكبر قواد العالم

تأثير الموقعة

وفى السنة التالية خاضت الروسيا غمار الحرب بعزيمة صادقة وأغارت على بروسيا الشرقية وبولندة ، فسار فردريك بجيوشه الى مدينة فرنكفورت على نهر الأودر وقابلهم عند « زورندورف » (٢٥ أغسطس سنة ١٧٥٨) فى موقعة لم يقع مثلها من قبل بين الجنسين التيتونى والصقلبى ، فانتصرت الجيوش البروسية وتراجع الروس الى بولندة

كسر الروس عند زورندورف

ومما تقدم نرى أن فردريك تمكن فى أقل من سنة من قهر أعدائه متتابعين . ثم قلب له الدهر ظهر المجن ، وخاض غمار حروب أخرى عادت بالويلات عليه وعلى بلاده

ففى شهر سبتمبر جمع النمسويون جموعهم وأغاروا على أملاك فردريك وبخاصة سكسونيا التى كانت القيادة فيهـا للقائد العظيم « دون » المعروف بشدة حيطته ، فسار فردريك لملاقاته ، ولم يعبأ بتفوق جيوش عدوه فى العدد ، فعسكر فى موقع غير منيع عنـد « هُخْكِرْخِن » ، فانتهز « دون » هذه الفرصة وحطم الجناح الأيمن للجيوش البروسية . لكنه لم يجن ثمرة هذا الفوز لغلوه فى الحيطة ، فتمكن فردريك من جمع شتات جيشه وارغام خصمه على الجلاء من سكسونيا

موقعة هخكرخن

ثم توالت الهزائم على فردريك فى السنة الرابعـة من الحرب ، بتضافر أعدائه وعقدهم الخناصر على الفتك به . حقًا ان حلفاءه الانجليز قهروا الفرنسيين فى موقعة « مِنْدِن » (١ أغسطس سنة ١٧٥٩) بقيادة فردنند دوق برنزويك ، فأمنوا شر اغارتهم على هنوفر ، ولكن فردريك التحم بالجيوش الروسية عند « كُونَرْزدورف » فى « برندنبرج » ، فهزموه هزيمة منكرة اضطرته الى الفرار بعد أن خسر ١٨،٠٠٠ مقاتل ،

موقعة مندن

موقعة كونرزدورف

واستولى النمسويون على مدينة درزدن . ولو لم تدب روح الشقاق بين أعدائه لقضى عليه فى تلك السنة

موقعة لجنتز وترجو

وفى السنة الخامسة بَسم له الدهر قليلاً ، فقهر النمسويين فى سيليسيا فى موقعة « لِجْنتز » الشهيرة وهزمهم ثانية فى سكسونيا فى موقعة « تُرْجو » . وقد أبدى من النشاط وخفة الحركة بين هاتين الموقعتين ما أدهش النمسويين . وكان من نتائج الموقعة الأخيرة ان استرجع فردريك جميع سكسونيا ما عدا « درزدن » وسرى الخوف فى قلوب أعدائه فجلوا عن بروسيا

تأثير الحرب فى بروسيا

على ان ما حازه فردريك من النصر فى هذه السنة لم يُجْدِ فتيلاً ، فان هذه الحروب الطويلة صيرت بلاده قاعًا صفصفًا : نضبت مواردها بما أنفقه هو فى الحرب وبما فعلته أيدى الروس والسويد من التخريب والتدمير . فاكتفى بالتحصن فى أواسط سيليسيا يرقب أعداءه ، وليس فى مقدوره أن يقوم بأكثر من ذلك ، بالرغم من استيلاء أعدائه على جزء كبير من سيليسيا . وقد استولى عليه اليأس حتى فكر فى الانتحار كما فكر فيه من قبل عند اشتداد الأزمات عليه . وفى هذا الوقت سقطت وزارة « بِت » بانجلترة ، وتنحت الوزارة الجديدة عن المعاهدة المبرمة مع بروسيا ، فخرجت بذلك انجلترة من الحرب الأوربية ، فجاء ذلك ضِغثًا على إبّالة . غير ان

تخلى انجلترة عن مساعدة فردريك

موت القيصرة وتأثيره

الحظ ساعد فردريك بوفاة اليصابات قيصرة الروس ، وخلفها بطرس الثالث الذى كان يعجب كثيراً بشجاعة فردريك ، فأمسك عن مقاتلته وأمده بجيش من عنده ؛ واقتدت السويد بالروسيا فى الكف عن الحرب

ثم ان انجلترة أخذت تفاوض فرنسا وحليفتها اسبانيا فى أمر الصلح بعد أن تغلبت عليها فى المستعمرات ، فأبرم بينهم « صلح باريز » (١٠ فبراير سنة ١٧٦٣) . فلما رأت مارية تريزا نفسها وحيدة امام فردريك ، وانها لا تقدر على مناوأته بمفردها بعد أن فشلت بمعونة حلفائها ، عقدت معهُ أيضًا صلح « هيُوبَرْتسبرج » (١٥ فبراير سنة ١٧٦٣) على ان ترجع الحال الى شكلها قبل الحرب ، وأساسها بقاء سيليسيا فى يد فردريك

صلح باريز وهيوبرتسبرج

بذلك انتهت حرب السنين السبع بعد أن أريقت فيها دماء نيف وألف ألف نفس ، وفردريك الأكبر هو قطب رحاها ؛ فكان ما أبداه فيها من حسن القيادة والمهارة الحربية سبباً فى تخليد اسمه

وبعد ذلك عاد فردريك الى بروسيا وشرع فى اصلاح ما سببته هذه الحروب الشعواء فيها من الدمار والخراب ؛ فنظر الى بروسيا فإذا مزارعها قفر ومصانعها عاطلة وقراها غير آهلة ؛ وانتشر فى أنحائها القحط ، وأعقبه الوباء فأهلك الماشية وكاد يتسرب الى الأهلين ، وقد نقص عدد السكان بتلك الحروب نقصاً فاحشاً ، حتى صار عشر ما كان قبلها ؛ وكادت كل معالم العمران فى البلاد تغيب . فتفرغ لاصلاح جميع ذلك بكل جلد وحزم ؛ فأنشأ المصانع وأصلح المزارع ، وأقام المبانى ، وواسى اليتامى بكل ما تسمح به حالة خزائنه . وبقى يجاهد فى اصلاح بروسيا وتشييد عمرانها من جديد أثناء الأربعة والعشرين عاماً التى عمرها بعد الحرب

آثار الحرب السيئة في بروسيا

اصلاحات فردريك

على ان ذلك لم يصرف فردريك بتةً عن الشؤون الخارجية كلما رأى فى ذلك فائدة لبلاده . وأهم الحوادث التى اشترك فيها « تقسيم بولندة » وسيأتى ذكر ذلك فى تاريخ روسيا . ومن أهم الأمور التى شغلت فردريك بقية حياته مطامع مارية تريزا وابنها الامبراطور « يوسف الثانى » . خلف يوسف الثانى أباه على عرش الامبراطورية بعد وفاته فى عام ١٧٦٥ ؛ وكانت امه قد أشركته معها فى حكم أملاك النمسا الوراثية ، فلما هلكت أصبح صاحب السلطان فى جميع الامبراطورية . وكان له شغف كبير باصلاح شؤون رعيته وبلاده ، الا انه لم يسلك فى ذلك مسلك الحزم والتؤدة ، فخاب في معظم مشروعاته . ومن عظيم اصلاحه اطلاق الحرية التامة لرعيته فى عباداتهم والقضاء على كثير من مخازى الأديرة باغلاق ما لا يقل عن ٦٢٤ ديراً

يوسف الثانى وفردريك

اصلاحات يوسف

وقد حاول يوسف هذا الاستيلاء على بافاريا مرتين ، الأولى فى عام ١٧٧٨ (على أثر هلاك مكسمليان يوسف نائب بافاريا) والثانية فى عام ١٧٨٥ ، نظير النزول عن الاراضى المنخفضة ؛ فلم يسمح له فردريك بذلك ، لعلمه ان استيلاء النمسا على بافاريا يزيد سلطانها عظماً فى ألمانيا . ففى المرة الأولى شن فردريك الغارة على النمسا ؛ ولكن

الروسيا تدخلت فى الأمر قبل أن يلتقى الجيشان وأصلحت بين الفريقين ، وتعرف هذه الحادثة بحرب « الوراثة البافارية » أو « حرب البطاطس » لأن الجند لم يشتغلوا فيها بشىء سوى طبخ البطاطس لطعامهم . وفى المرة الثانية قابل فردريك مسعى الامبراطور بتأليف حلف ضده من الأمراء الألمانيين ؛ فاضطر الامبراطور الى العدول عن قصده ما دام فردريك حياً . وتعتبر هذه المقاومة من فردريك أول خطوة جدية لمنافسة النمسا فى السلطان فى الولايات الألمانية

حرب الوراثة البافارية

ومات فردريك سنة ١٧٨٦ بعد حياة طويلة كلها جهاد ونصب نهضت بروسيا اثناءها الى مصاف الدول الأوربية العظمى . ولقد قيل ان استئثاره بالنفوذ وتدخله فى صغائر شؤون الحكومة لم يترك مجالاً لنبوغ كثير من الوزراء والمصلحين فأبطأ تقدم بروسيا فترة بعد وفاته حينما استوى على العرش خلفه الضعيف « فردريك وليم الثانى » ، ولكن لامشاحة بالرغم من ذلك فى أن بروسيا صارت بعد قرن من وفاة فردريك الأكبر صاحبة السيادة العظمى فى ألمانيا بفضل أعماله . وبفضلها أيضاً تمكن ملك بروسيا « وليم الأول » من تشييد امبراطورية واسعة جديدة ، هى الدولة الألمانية الحديثة

موت فردريك

آثاره فى تاريخ البلاد

الفصل الخامس

الروسيا

١ — ﴿الروسيا قبل عهد بطرس الأكبر﴾

الروس أو المسكوف جيل من الأجيال الصقلبية (السلافية) المنتشرة فى شرقى أوربا ، مثل الصربيين والبولنديين والدلماسيين والبوهيميين وغيرهم . ولم يكن للروس شأن يذكر فى تاريخ أوربا حتى أوائل القرن الثامن عشر، على كثرة عددهم واتساع رقعة بلادهم . والسبب الأكبر فى ذلك وقوع بلادهم فى طريق التتار المغيرين من أواسط آسيا على أوربا اغارات أنهكت قواهم ومنعتهم من مجاراة الأمم الجرمانية التى

منشأ الروس

خطت فى الحضارة خطوات واسعة فى وسط أوربا وشماليها

أقسام تاريخهم

ويمكن تقسيم تاريخ الروسيا الى أربعة أطوار: (١) طور الامارات المستقلة (٢) عهد المغول (٣) عهد قياصرة مسقو (٤) عهد الامبراطورية الروسية الحديثة، ويبتدئ بملك بطرس الأكبر المؤسس الحقيقى لمجد الدولة الروسية الحالية

الطور الأول

أما الطور الأول فلا نكاد نعرف عنه شيئاً غير الأساطير والقصص المتقطعة. وأول ما دوّن من ذلك قصص ينبئ عن وجود قبائل صقلبية وفنلندية فى الأصقاع التى بين بحيرة « لادوجا » وأعالى نهر « الدنيبر » يحكمها غزاة رحلوا الى تلك الجهة من أرض شمالية كانت تسمى اذ ذاك « روس ». وقد اختلف المؤرخون فى موقع هذه الأرض باليقين: فبعضهم يقول انها جزء من بلاد السويد، وبعضهم ينفى ذلك، وعلى كل حال لا يكاد يشك فى أن أولئك الغزاة من الأجناس النرمندية (الشمالية) الذين كانوا يغيرون على كثير من أنحاء أوربا فى ذلك العصر

وفى سنة ٨٥٩ أخرجت القبائل الأصلية النرمنديين من بلادهم، ولكن ما لبثوا أن فشت الفوضى بينهم وعجزوا عن حكم أنفسهم، فدعوا أهل الشمال الى الرجوع اليهم لتولى حكمهم. فلبوا دعوتهم وتولى حكمهم أحد أمراء « روس » المدعو « روريك » (٨٦٥ — ٨٧٩) وجعل حاضرة ملكه مدينة « نفجرود » على نهر « فلكهوف » فى الطريق بين البحر البلطى والبحر الأسود. فعظم شأنها وصارت مقر تجارة عظيمة. ولم يقتصر هؤلاء الحكام الجدد على حكم القبائل التى دعتهم الى الارتحال الى هذه الأصقاع، بل أخذوا يغيرون على الأراضى المحيطة بهم من جميع الجهات، فما مر عليهم قرنان حتى وطدوا ملكهم فى مدينة « كيف » على نهر الدنيبر، واغاروا على بعض الأملاك البوزنطية، وكادوا يستولون على القسطنطينية، فلم يرجعوا عنها الا بعد أن زوج الامبراطور ابنته بأحد أمرائهم وهو « فلادمير الأول » بعد أن رضى الأمير باعتناق المسيحية. ومن ذلك الحين أخذ الدين المسيحى ينتشر بين الروسيين بعد أن كانوا من عبدة الطبيعة، وما زال يعظم شأنه فى الروسيا حتى أخذت تعد نفسها الوارث الطبيعى للدولة الرومانية الشرقية بدعوى حماية الدين، وتعتبر نفسها زعيمة الكنيسة الرومية الارثوذكسية

روريك

غارات الروس

اعتناقهم المسيحية

وكان المنتظر عند ذلك أن تدخل الروسيا فى طور تقدم جديد يماثل تقدم الأمم الأوربية المعاصرة لها، ولكن حال دون ذلك عدم اتحاد كلمة الأمراء خلفاء « روريك »، وما لبثت الروسيا طويلا حتى انقسمت الى امارات عديدة بقيت يشن بعضها على بعض الغارات نحو قرن من الزمان. وبينما هم كذلك اذا بخطر جديد يتهددهم جميعاً من الشرق، وهو غارة المغول. فكان ذلك مبدأ الطور الثانى من تاريخ روسيا

تفرق كلمتهم

وذلك أن « جنكيزخان » القائد المغولى أرسل جيشاً لغزو القبائل التركية التى غربى بحر قزوين، فاخترق الجيش « جرجية »، واجتاز جبال القبجاق (القوقاز) حتى وصل سهول « استبس » فى جنوبى الروسيا، وهنالك انتصر على الروس فى موقعة فاصلة بالقرب من مدينة

غارة المغول ابتداء الطور الثانى

« مزيوبول » الحالية عام ١٢٢٤ . ولكن المغول ، بدلا من أن يتوغلوا فيما وراء ذلك من البلاد جلوا عنها فجأة ، ولم يعودوا اليها الا بعد ثلاثة عشر عاماً ، اذ رجعوا بقيادة « باتو » أحد أحفاد جنكيزخان ، فاكتسحوا البلاد مدمرين كل ما فى طريقهم ، ثم أسسوا لهم حاضرة جديدة على نهر الفلجا (الاتل) تسمى « سراى » ، وبقوا أصحاب السيادة فى الروسيا أكثر من قرنين من الزمان . على أن أمراء الروس ولا سيما زعيمهم أمير « مسقو » لم ييئسوا طول ذلك العهد من طرح نير المغول ، بل عملوا على طردهم ما سنحت لهم الفرص . وقد اتبع أمراء مسقو الدهاء فى سلب السلطان من يد حكام المغول فتعهدوا لهم بجمع الخراج من باقى الامراء ، فكان ذلك اكبر مساعد على ارتباط بعض أمراء الروس ببعض واعترافهم بالزعامة لامير مسقو . وبمضى الايام أخذت دولة المغول فى الاضمحلال ، وانقسمت عدة خانات (امارات) صغيرة : أهمها امارة « القريم » و « قازان » و « استراخان » . فانتهز أمراء الروس هذه الفرصة وأخذوا يبذرون بذور الفتنة والشقاق بين تلك الامارات ، حتى كاد نفوذ المغول يتلاشى فى الروسيا . عند ذلك شرع أمراء مسقو فى التغلب على أمراء الروس الآخرين وجمع السلطة فى أيديهم تدريجيا ، الى أن كوّنوا مملكة عظيمة متحدة الكلمة مقرها مسقو . وبذلك انتهى العصر الثانى من التاريخ الروسى

سراى عاصمة المغول

سياسة أمير مسقو

تلاشى نفوذ المغول

الطور الثالث

ويبتدىء العصر الثالث بابتداء حكم « ايوان الثالث » (١٤٦٢ – ١٥٠٥) وهو الذى تمّ على يديه توحيد معظم الامارات الروسية. وكان لايزال فى روسيا عند توليته بضعُ امارات لم تخضع لنفوذه المطلق: أهمها « نُفْجُرُود » ، وكانت حكومتها جمهورية فى شكلها . قد ألِف أهلها الحرية من عهد بعيد ، فلم يرضوا بالخضوع لأمير مسقو الأعظم (إيوان الثالث) الذى كان يرمى الى الاستئثار بالسلطان فى جميع أنحاء روسيا . فغزاها « ايوان » عام ١٤٧٨ ، وقضى على هيئاتها النيابية التى كانت لها يدٌ فعالة فى ادارة الحكومة ، وضمّها هى ولواحقها الى دولته المسكوفية

ايوان الثالث

ولما رأى أن ارتباطه بالأمم الغربية يعود على بلاده بالفوائد الجمة تزوج من بيت الامبراطور « قسطنطين بَلَيُولوغ » المتوفى وقت سقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين. فكان ارتباطه بهذا البيت الملكى أقوى مؤيد لما كان يطمح اليهِ من جعل روسيا هى الحامية للمذهب الأرتوذكسى ومن الوراثة للدولة الرومانية الشرقية . ثم شرع فى ايجاد العلاقات الودية والسياسية مع كثير من امارات أوربا وممالكها ، مثل تورين وفلورنسة وروميه ونابلى . وتألّب مع ملك المجر والامبراطور مكسمليان على مملكة

سياسته الخارجية

السويد ، التي كانت تصدّه عن مدّ أملاكه الى بحر البلطيق ، على شدة تعلقه بذلك لما فيه من تسهيل تجارة بلاده؛ وأحضر الى روسيا مهرة الصناع من الممالك الأخرى ، فصنعوا له المدافع ونحوها

ودخل « ايوان » منذ ارتباطه بالغرب وبالحضارة البوزنطية في طور جديد من حيث مظاهر المُلك وشاراته : فبعد ان كانت عيشته كسائر أمراء الروس أصبح يهتم بالأبهة والعظمة . ونمت فيه روح الاستبداد بكل قوة والاستقلال بالرأى ، معتقداً أن الناس ليس لهم رأى ولا رغبة ولا ارادة أمام ما يريده مليكهم الأعظم المهيمن على بلادهم ودمائهم وأنهُ نائب عن الله فى أرضه . وهذا أول بذر من بذور الروح الاستبدادية التي أنّت الروسيا تحت أعبائها عدة قرون ، والتي طالما شوهدت آثارها فى الحكومة الروسية؛ فقد بقى نفوذ « الدوما » (الهيئة النيابية فى الروسيا) فى شدة الضعف حتى حدث الانقلاب الأخير سنة ١٩١٧

اهتمامه بمظاهر الملك

استبداده

ومن أعظم أعمال إيوان تغلبه على ما بقى من نفوذ المغول فى الروسيا ؛ فإنهُ لما رأى ضعفهم وتفرق كلمتهم امتنع من دفع الجزية لهم (وكانت الجزية آخر مظهر للنفوذ بقى فى أيديهم) . وعندئذٍ أغار « الخان احمد » التترى على الروسيا ، فهزمه الروس فى موقعة فاصلة على نهر «الاوكا» سنة ١٤٨٠ واضطروه الى الجلاء عن البلاد . ويعتبر عام ١٤٨٠ تاريخ تخلص الروس من سلطة المغول . ومات إيوان بعد أن ترك للروس دولة ثابتة الأركان ؛ وإن بقيت بعدُ محجوبة عن بحر البلطيق والبحر الاسود : يحجزها عن الأول السويد والبولنديون ، ويفصلها عن الآخر تتار القريم

قضاؤه على سلطة المغول سنة ١٤٨٠

بسيل الثالث

فخلفه ابنه « بسيل الثالث » (١٥٠٥ – ١٥٣٣)، ولم يكن فى قوة أبيه وبأسه ، الاَّ أنهُ حافظ على الاستئثار بالنفوذ وسلب السلطة من يد الأشراف . وفى مدته زادت علاقة الروسيا بالغرب وأصبحت مسقو معروفة لدى الممالك الأوربية

ايوان الرابع أو الفظيع

ثم خلفه ابنه « ايوان الرابع » المسمى «ايوان الفظيع» لكثرة الفظائع التى أتاها فى أواخر عهده (١٥٣٣ – ١٥٨٤) . آل اليه الملك وهو طفل صغير فقامت أمه

وصية عليه ؛ فلما ماتت بعد خمس سنوات آلت الوصاية الى الأشراف بزعامة أحدهم « شِوسكى » . ولم يكد « ايوان » يشب ويترعرع حتى أظهر بأساً شديداً وعزماً اكيداً ليستأثر بالنفوذ والسلطان . فلما بلغ الثالثة عشرة من عمره أمر أمراً فجائياً بالقبض على شوسكى ، فقُدّم حياً للكلاب طعاماً ؛ وكان غرضه من هذا العمل الفظيع القاء الرعب فى قلوب الأشراف لئلا يطمع أحد منهم أن يشاركه فى السلطان . ولما بلغ السابعة عشرة تلقب بلقب « قيصر » (١٥٤٧) تشبهاً بقياصرة الروم . فعظمت بذلك مظاهر الملك فى روسيا وزاد تعلق القوم فيها بالعرش

وفى عام تتويجه قيصراً (١٥٤٧) تزوج من أحد بيوتات الأشراف فى روسيا وهو بيت « رومانوف » الذى آل اليه الملك فيما بعد بفضل هذا النسب ، ولايزال فيهم حتى حدث الانقلاب الأخير تتويجه قيصرا

وكانت زوجته ذات عقل وحكمة ، ولتأثيرها الحسن فى أفعاله وتدبير مستشاريه العظيمين « سِلفِستَر » و « أدَشيف » الفضل الأكبر فى اكثر الاصلاح الذى تم فى أوائل حكمه . ومن أهم مظاهر هذا الاصلاح قانونه الجديد الذى وضعهُ للفصل بين الناس ، واصلاحه أحوال الكنيسة ، وتوسيع نطاق مملكته من الشرق ، فضُمت « قازان » الى الروسيا عام ١٥٥٢ ؛ وتبعتها « أسْتراخان » عام ١٥٥٦ ، وصارت الدولة تمتد شرقاً الى بحر قزوين اصلاحاته

ولم تلهه أعماله فى الشرق عن النظر وراء مصالحه فى الغرب؛ فوثق العلائق التجارية مع كثير من ممالكه اسوة بأبيه وجده ، ودعا مهرة الصناع للارتحال الى بلاده . وطلب مرة الي أحد السكسونيين أن يجمع له عدداً من العلماء والصناع من ألمانيا ويقدم بهم الى الروسيا لينشروا فيها الفنون والمعارف ، فبدأ البعث فى طريقه (١٥٤٧) اذ وقفه أمير ليفونيا وبدّد شمله ، وذلك لأن ليفونيا ولتوانيا وبولندة والسويد والدانمرك وغيرها من الممالك التى لها مصالح فى الجهات المجاورة للروسيا كانت تخشى عاقبة تقدم المسكوف لكثرة عددهم وقوة بأسهم ؛ فكانت تسعى وسعها فى أن تحجب عنهم العلوم اهتمامه بالفنون والعلوم

والمخترعات الحديثة ولا سيما الحربية ، خشية أن يتضاعف بذلك خطرهم . ولم يكن الى ذلك الحين طريق بين روسيا وأوربا سوى الطريق البرية المخترقة تلك الجهات .

وبقيت الحال كذلك الى عام ١٥٥٣ اذ عثر أحد بحارة الانجليز مصادفة على الطريق الى الروسيا من البحر الأبيض الشمالى . وكان هذا البحار (شَنْسِلُر) يبحث عن طريق الى الصين من ذلك البحر ، فحُطمت سفينته بين الثلوج قرب الشواطئ الروسية ؛ فالتقطه بعض صيادى الروس وجاءوا به الى مسقو؛ فأكرم القيصر مثواه ، ومن ذلك الحين وُجدت العلائق التجارية بين الروسيا وانجلترة عن طريق البحر الأبيض الشمالى، وأُنشئت مدينة « أرْكَنْجِل » على سواحله عام ١٥٨٤

ابتداء العلاقات بأوربا

على أن الطريق الى أوربا من هذا البحر طويلة وصعبة، خصوصاً أن مياهه تتجمد معظم السنة . لذلك لم ينصرف ايوان عن الجد فى الاستيلاء على جزء من شواطئ بحر البلطيق، فخاض لهذا الغرض حروباً طويلة مع السويد وفرسان ليفونيا و بولندة ، ولكنهُ لم يظفر منها بشيء، ولم تتم لروسيا تلك الأمنية الاَّ بعد اكثر من قرن من عهده

وفى أواخر عهده ساءت أخلاقه وغالى فى سفك الدماء لأقل شبهة ، وسوّى فى ذلك بين الرجال والنساء والأطفال. ولم يعرف لذلك الانقلاب فى خُلقه سبب قاطع ، و يعزوه بعض المؤرخين الى موت زوجته المحبوبة اليه وزعمه أن الأشراف دسوا لها السم . و بعض المؤرخين يقول ان فظائعه قد غولى فى تهويلها ، وانها لم تخرج عن نظائرها فى باقى الممالك الأوربية فى ذلك العصر ، اذ لا يخفى هول عصر هنرى الثامن فى انجلترة وفرننذ الكاثوليكى وفليب الثانى فى اسبانيا وكترين دى مديشى بفرنسا ؛ وما فارقت الأذهان أخبار مذبحة برتلميو ومحكمة التفتيش

غزو سيبيريا

ومن أعظم ما حدث فى أواخر عهد ايوان غزو سيبيريا على يد « قوزاق الدون » وضمها الى روسيا بعد ان كانت فى يد التتار

وأصل القوزاق عصابات رحلت من الأنحاء الروسية التى خضعت لنفوذ قياصرة مسقو المطلق ، ونزلوا فى سهول « استبس » ابتغاء التمتع بالحرية . وكانوا يعيشون

من النهب وقطع طريق القوافل[1] التي تمر بتلك الجهات من روسيا وغيرها ؛ ولذلك تدربوا على الفروسية والقتال . وكان معظم نزولهم فى وادى الدون ووادى الفلجا . وبعد ارتحال التتار زاد عددهم ، وظهر منهم طائفة جديدة على نهر الدنيبر . وقد كانوا دائماً سبباً فى اقلاق بال حكومة مسقو ، ولكنها لم تقدر على إخضاعهم

اصل القوزاق

وحدث ان احدى عصابات قوزاق الدون خشيت مرة بطش حكومة مسقو فى إثر اغضابها ، فهاجرت من تلك الجهة بقيادة رئيسها « إرماك » ، وسارت شرقاً حتى وصلت الى اقليم « بِرْم » . وكان من بين هذه العصابة أسرة تجارية ذات ثروة عظيمة تدعى اسرة « ستروجونوف » ، فأذن لها ارماك ببناء معاقل يتحصنون بها من القبائل المجاورة لهم . وبعد قليل أشاروا على ارماك وعصابته بالتوغل فى أملاك التتار المجاورة لهم ، وهونوا عليه أمرها . فاستولى ارماك على عاصمة التتار « إسْكَر » أو « سيبير » وأخضع بلادهم . وبعد ذلك بعث رسولاً الى القيصر ايوان الرابع يقدم له هذا الملك الجديد ، فقبله بالبشر والتهلل

القوزاق فى سيبيريا

وبعد وفاة ايوان عام ١٥٨٤ خلفه ابنه الأكبر « تيودور » (فيودور) ، وكان ضعيفاً ، وبموته انقرضت اسرة روريك سنة ١٥٩٨

فيودور

وبعد فترة (كثرت فيها الفوضى والتنازع على العرش) تمّ الأمر لأحد أُمراء بيت «رومانوف» ، سنة ١٦١٣ وهو « ميخائيل رومانوف» المؤسس للأسرة الملكية فى روسيا[2] . وفى عهده اضطرت الروسيا الى النزول لبولندة والسويد عن بعض أملاكها . وصرف ميخائيل همه الى اصلاح داخل روسيا ، ومات سنة ١٦٤٥ . ثم خلفه ابنه « الكسيس » (١٦٤٥ — ١٦٧٦) ، وفى مدته استمرت روسيا فى سبيل التقدم الى أن خلفه ابنهُ « بطرس الأكبر » الذى يعتبر مبدأُ حكمه فاتحة الطور الرابع من تاريخ روسيا . وهو المكون الحقيقى لمجد الدولة الروسية الحديثة والسائر بها فى مضمار منافسة الدول الأوربية

بيت رومانوف

---

(١) كلمة قوزاق أصلها مغولى ومعناها قطاع الطرق (٢) أى قبل الانقلاب الاخير

٢ — ✱ بطرس الأكبر (١٦٨٩ — ١٧٢٥) ✱

صوفيا

ترك الكسيس بعد مماته عدة أولاد ، فبقى أمر العرش موضع نزاع ست سنين انتهت بتولية « ايوان الخامس» وأخيه « بطرس الأكبر » معاً بوصاية أختهما صوفيا عليهما (١٦٨٢) . وكان ايوان ضعيف العقل والجسم ، فلم يكن له من الأمر شيء . وبقيت صوفيا قيّمة على أخيها الصغير بطرس ، وبيدها كل قوة ، حتى بلغ بطرس السابعة عشرة من سنه ، ففلّ يدها واضطرها الى الالتجاء الى أحد الأديرة حيث عاشت فى معزل عن العالم لحين مماتها

تربية بطرس

وكان بطرس منذ نعومة أظفاره ولوعاً بالحرب محبًّا للعلم والعلماء ، فكان يختار لنفسه الأساتذة من بينهم ولا سيما الأجانب منهم ، ويعيّن لهم ما يريد تعرّفه من العلوم . فتعلم شيئاً من الهندسة وفن الحيل (الميكانيكا) ، وتدرب على بعض الفنون الحربية والبحرية . ولتربيته على هذا النمط المخالف للنظام شبّ شديد الاستقلال برأيه ، قليل الاكتراث بالتقليدات القديمة والعادات القومية ؛ وذلك مما كاد يخيّب مُزمعاته الخطيرة وضروب اصلاحه العظيمة ، لولا ما فُطر عليه من الذكاء النادر وبعد النظر وشدة البأس ورباطة الجأش

خطبته فى الاصلاح

نظر بطرس الى روسيا ، فوجدها على كثرة سكانها وتباعد أطرافها لا تزال فى معزل عن العلوم والفنون الغربية الحديثة التى عرف من اصدقائه وأساتذته الاجانب أن لا غنى لمن يريد الرقى عنها . فجعل همه الأول وشغله الشاغل ادخالها فى الروسيا ومسح البلاد بالمسحة الاوربية فى جميع أنظمة المعيشة صغيرها وكبيرها ، بعد أن كانت فى كل ذلك تعلوها المسحة الشرقية

وأول ما بدأ باصلاحه الجيش ، لعلمه أنه منبع قوته والأساس الأول الذى يركن اليه فى تحقيق أمانيه . فعهد باصلاحه وتدريبه الى اثنين من أمهر ضباط الأمم الغربية :

اصلاح الجيش

الاول اسكتلندى وهو « بتريك غردون » ، والثانى سوسرى وهو «ليفور» ، فدرّباه

على النمط الغربي وأدخلا في سلكه كثيراً من المتطوعين من غربي أوربا . ولم يمض عهد طويل حتى أصبح الجيش في ملابسهِ وأسلحتهِ ونظامه مماثلاً للجيوش الأوربية

الاسطول

ولم تفته أهمية الأساطيل وكثرة السفن التجارية وتملك ما وصلت اليهِ يداه من شواطئ البحار العظيمة . ولم تقف مطامعه في ذلك عند ما وصلت اليه مطامع أجداده من قبل ، وهو الاستيلاء على شواطئ البلطيق والبحر الاسود ؛ بل كانت له مطامع كبرى في البحار ؛ فكان يطمح الى مد الأملاك الروسية حتى تبلغ المحيطين الاتلنتى والهادى ، وتطل على المحيط الهندى ان استطاعت روسيا الى ذلك سبيلاً . وما مطامع الدولة الروسية الحديثة في الشرق الأقصى وعلى شواطئ البسفور الآ بقية من مزمعات هذا المؤسس العظيم

مطامع الروسيا في الشرق

بدأ بطرس مشروعه العظيم بالسعى وراء التسلط على البحر الاسود الذى كانت السيادة فيه للدولة العثمانية المستضعفة في ذلك الحين . فأنشأ أسطولاً من السفن الصغيرة بعد أن أحضر لذلك صناع السفن من البندقية وهولندة . ثم سيّر الاسطول في نهر الدون وحاصر مدينة « آزاق » ، فانتزعها من يد الأتراك عام ١٦٩٦

فتح آزاق

فقرّت عيناه بهذا النصر المبين ، وعقد النية بعد أن استشار مجلس الاشراف على انشاء اسطول عظيم يتسنى بهِ مواصلة الحرب على الترك والاستيلاء على شواطئ البحر الاسود . ولذلك قام برحلة الى ممالك أوربا ليتعلم فيها بنفسهِ صناعة السفن وكل ما أمكنهُ الوصول اليهِ من العلوم والفنون الغربية النافعة

رحلته الى هولندة وانجلترة

فخرج من روسيا عام ١٦٩٦ بعد أن أقام أحد الاشراف مكانه على العرش ، واتخذ معهُ نفراً من حاشيتهِ وكبار قواده . وجعل وجهته هولندة ، فدخلها متنكراً ، وجعل شغله الشاغل تعلم صناعة السفن وكل ما يتبعها من أصول الملاحة . فاشتغل بنفسه كعامل صغير في حياض « سَرْدام » وبعدها في « امستردام » ؛ وتسمى أثناء ذلك باسم « بطرس ميخائيلوف » . ولم يقتصر على الاشتغال ببناء السفن ، بل كان يتفقد داخل السفن ويتسلق أعاليها وصواريها . وزار كثيراً من المصانع والمعامل فتعلم

صناعة الحبال والقلاع وشيئًا من الحدادة؛ وأمعن فى النظر الى كل ما وقع عليه بصره من الشؤون التجارية والصناعية . والغريب أنه كان أثناء ذلك نازلاً فى مسكن حقير ويأخذ أجرهُ كل أسبوع كسائر الصناع ، ويهيء طعامه بيده كل يوم



بطرس الأكبر

وفى عام ١٦٩٨ زار انجلترة ، ولم يكن متنكراً فى هذه الرحلة؛ فأكرم ملكها « وليم الثالث » مثواه ، وأهدى اليه زورقًا جميلاً للاستراضة واختلط أثناء اقامته ببعض أمراء الانجليز واشرافهم؛ لكن عيشه لم يطب وباله لم ينعم الاَّ بعد أن شرع فى درس صناعة السفن والتدرب عليها . وكان يقضى معظم أوقات فراغه فى الجذف والاستراضة فى النهر؛ وكان غرامه بذلك عظيماً جدًّا ، حتى أنه كان يذكر تلك الأيام بعدُ وينعتها بأنها أسعد أيام حياته؛ وكثيراً ما قال لأشراف مملكته وحاشيته انه يفضل أن يكون أمير بحر فى انجلترة على أن يكون قيصراً فى روسيا

ثورة فى روسيا

وبعد أن قضى فى انجلترة ثلاثة أشهر قصد مدينة ويانة لمشاهدة جيش الامبراطورية وكان اذا ذاك فى زيّه ونظامه نموذجًا لجميع الجيوش الأوربية . فبينا هو فى الطريق اذ انتهى اليه أن قدماء الجند ثاروا فى بلاده ، فأسرع بالعودة الى مسقو ، وعند وصوله وجد أن « غردون » قائده الأمين قد أطفأ الفتنة . فأمر بقتل زعماء الثائرين ونفى كثيراً منهم الى سيبيريا ، وقتل بيده عشرين منهم فى ساعة واحدة

الدول تخالف بطرس في سياسته نحو تركيا

وكان بطرس قبل الخروج من روسيا في رحلته قد عقد النية على بذل كل مجهود في سبيل انتزاع شواطئ البحر الأسود من تركيا ، بل اجلاء العثمانيين جملة من أوربا وعوّل في تحقيق أمنيته على الاستعانة بالدول الأوربية الأخرى ، بأن يأتي لهم من طريق الدين فيثيرهم الى شن حرب صليبية على العثمانيين . ولكن اتضح له أثناء رحلته أن ذلك ليس بالأمر الهين ، وأن الدول الأوربية تنكل عن مشاركته ، لاشتغالها بتنظيم شؤونها الداخلية ، وبخاصة أن فرنسا كانت في ذلك العهد حريصة على وداد سلطان آل عثمان ، وانما تريد المحافظة على السكينة في حدودها الشرقية ، كي تتفرغ لحرب الوراثة الاسبانية

اطماعه في بحر البلطيق

لذلك طرح بطرس أمر البحر الأسود مؤقتاً ووجّه أنظاره الى بحر البلطيق حيث المناظر له مملكة السويد المنهوكة القوى بالفتن الداخلية والحروب الطويلة التي خاض غمارها ملكها « جُستاف أدُلْف » وخلفاؤه من بعده . وعند عودته من « ويانة » عرج في طريقه على بولندة والتقى بملكها « أغسطس » (نائب سكسونيا) فأسرّ اليه هذا عزماً فحواه أن تتحد الروسيا وبولندة والدانمرك على اقتسام أملاك السويد التي على شواطئ البلطيق الشرقية . فتأخذ الروسيا « أنجِرْيا » و« كارِلْيا » . وتأخذ الدانمرك « هلْستين » ، وتسترجع بولندة « ليفونيا » وتضم اليها أيضاً « استونيا » . ففرح بطرس بذلك ، وأُبرم الحلف بين الدول الثلاث

شارل الثاني عشر ملك السويد

وكان على عرش السويد حينئذٍ شاب صغير لا يتجاوز الثامنة عشرة من عمره يدعى « شارل الثاني عشر » ؛ فظنه الحلفاء فريسة هيّنة وأيقنوا بالنصر . ولكن ما لبثوا أن خاب ظنهم ، وأبدى شارل من المهارة الحربية التي تدرب عليها من صغره ما أدهشهم وبدّد شملهم . خف شارل بجيشه المدرب عام ١٧٠٠ وبدأ بالإغارة على الدانمرك ، فحاصر « كبنهاج » براً وبحراً ؛ فذعر أهل الدانمرك وعقدوا معه صلحاً .

واقعة نرفا

ثم سار لملاقاة الروس ، وكانوا قد حاصروا « نَرفا » على الشاطئ الجنوبي من خليج فنلندة في (نوفمبر سنة ١٧٠٠) ؛ فهزمهم وبدد شملهم ، مع أن جيش الروس كان

٨٠،٠٠٠ مقاتل وجيشه لم يزد على ١٠،٠٠٠ . فلما علم بطرس بهـذه الكارثة لم ييئس ، وقال مشجعاً قواده ورجاله : « إنى كنت أعلم أن السويد سيضربوننا هذه المرة ، ولكنهم سيعلّموننا كيف نضربهم فى المستقبل » . وعند ذلك اغار شارل على بولندة ، فأخضع ملكها بعد ثلاث مواقع فاصلة . ونصّب مكانه ملكاً آخر عام ١٧٠٣ فعظم بذلك شأن ملك السويد وطار صيته فى انحاء أوربا

عظم شأن شارل

على أن كل ذلك لم يذعر بطرس ، وانكب أثناء اشتغال شارل بأمر بولندة على تدريب جيشه والتأهب للانتقام من السويد . ثم أغار على أملاك السويد التى على البحر البلطى ، فانتصرت جيوشه على جيوش شارل فى عدة مواقع ، واستولى على كثير من الشواطئ البلطية ، وفى ذلك « انجريا » و « ليفونيا الشرقية » . فتم له بذلك أعظم أمنية كانت تطمح اليها أجداده ، وهى استيلاء روسيا على جزء من شواطئ البحر البلطى . ثم شرع فى وضع أساس حاضرته الجديدة « سنت بطرسبرج » عند مصب نهر « النيفا » عام ١٧٠٣ . وقد اعترضت بناء المدينة مصاعب جمة ، لنداوة موقعها وفساد الهواء بالمناقع المحيطة به . فلم يثن ذلك من عزم بطرس ، فأقام زمناً فى وسط العمال فى كوخ صغير من الخشب بالرغم من شدة البرد ورداءة الجو ، وبقى يشرف على العمل حتى ظهرت مبانى المدينة ولاح رونقها . وأنشأ لحمايتها حصناً منيعاً بجزيرة « كرونستاد » على مسافة ٢١ ميلاً منها

تأسيس بطرسبرج

وكان شارل ينظر الى كل ذلك بلا اكتراث ، استئناساً بما بدا له من مهارته الحربية ، وظناً أنه سيهدم كل أعمال بطرس متى فرغ من أمر بولندة وسكسونيا ، وفاته ان طول المهلة مكّن بطرس من شد أزره وتوطيد قوته ، وأخيراً خرج شارل من سكسونيا فى أربعين ألف مقاتل (سبتمبر عام ١٧٠٧) يريد غزو الروسيا . ويُعتبر هذا الحادث من أهم ما يذكر فى تاريخ روسيا ، فلو أن شارل قهرها فى هذه الغزوة لكان فى ذلك القضاء المبرم عليها . لأنها كانت لا تزال فى مهد نشأتها ولم تكمل بعدُ أعمال بطرس فى النهوض بها من أمة بربرية الى مصاف الدول الأوربية العظيمة

افلات روسيا من مأزق

ولكن أبت المقادير الاّ أن يطيش سهم شارل ، ويجحف بشجاعته ومهارته فى القتال قصرُ نظره وتهاونه فى الخطط الحربية ؛ فبدلاً من أن يضرب العدو من القلب ويسرع بجيشه الى مسقو ، سار جنوبًا الى الأوكرين حيث كان يبغى معونة القوزاق الثائرين على الروس هناك بزعامة رئيسهم « مازبّا » . فلم يلاقهم بطرس فى هذه الأصقاع ، وخرب ما فى طريقهم الى مسقو وانكفأ راجعًا الى الداخل ، وتركهم يعانون طول المسير ورداءة المواصلات وقلة الزاد وشدة البرد . ففتك ذلك بالجيوش السويدية حتى لم يبق منهم الاّ ٢٤٠٠٠ مقاتل . ولما اشتد بهم الجوع هجم شارل بهم على مدينة « بُلْطاوَة » فى جنوبى روسيا بين نهرى الدنيبر والدونتز ؛ وكانت من أعظم مخازن المؤونة فى روسيا ؛ فأسرع بطرس الى انقاذها بجيش مدرَّب يبلغ ٦٠٠٠٠ مقاتل وكان شارل قد أُصيب بجرح ولم يقدر على قيادة الجيش بنفسه ؛ فقاتلت الجيوش السويدية بحماسة واستبسال بالرغم مما أنهكها من النصب . فلم يجدِ ذلك نفعًا أمام تفوُّق الروس عليهم فى العدد ؛ ففتك الروس بالسويد فتكاً ذريعًا ، ولم يفلت منهم الاّ بضع مئات فرَّ بهم شارل الى « بندر » احدى المدن العثمانية . ومن ذلك الحين ذهبت شوكة السويد ؛ وأخذت الروسيا فى التغلب على شرقى أوربا ، حتى صارت بضخامتها واتساع أرجائها من أقوى الممالك الأوربية

واقعة بلطاوة

ذهاب شوكة السويد

الترك يستعدون للقتال

كان بطرس يحرز هذه الانتصارات والترك ينظرون اليهِ شزراً ويترقبون فرصة للقضاء على جارهم العنيد قبل أن يستفحل خطره . فلما وصل اليهم شارل ، وهو يكاد يتميز من الغيظ ويشتعل بلهيب حب الانتقام ، ثارت حميّتهم وأنصتوا لتحريض فرنسا وأعلنوا الحرب على الروس . على أن بطرس لم يكن ليخشى منازلة الترك بعد ما اشتد ازره بنصره الأخير ؛ فسار فى أربعين ألفًا من رجاله الى ملدافيا وهو يظن أن النصر حليفه . ولكنهُ لم يبلغ نهر « البروث » حتى وجد الجيش العثمانى حوله ؛ وكاد الفناء الساحق ينصب على بطرس وجيشهِ بل روسيا الحديثة بأسرها ، لولا أن أنقذتهم زوجته الفتيّة « كترين ألِكسيفنا » بتقديمها حليها وجواهرها الى الخائن « بلطجى باشا »

واقعة البروث ونجاة روسيا

قائد الجيوش العثمانية في تلك الموقعة . ففُك عن بطرس الحصار بعد أن وقّع على «معاهدة البروث» التي بمقتضاها نزلت روسيا للترك عن «آزاق» وغيرها مما انتزعتهُ من الدولة العثمانية

معاهدة البروث

أما شارل فانهُ حنق على الترك عند ما أبرموا الصلح مع الروسيا، وبقي في بلادهم يحرضهم على اعادة الكرّة عليها من جديد، ولكن نداءه ذهب صرخة في واد؛ وأخيراً عاد الى بلاده عام ١٧١٤ .. ومات وهو يحارب النروج أثناء حصاره لمدينة «فردرِكسهلْد» عام ١٧١٨ . وبقي بطرس يحارب السويد وينتزع من أملاكهم بلدة بعد أخرى، الى أن عُقدت معاهدة «نيستات» (سبتمبر سنة ١٧٢٠)، وبها استولت الروسيا على «انجريا» و«كارِليا» و«ليفونيا» و«استونيا» وجزء من «فنلندة»؛ ففازت بمآربها في البحر البلطى

وفاة شارل

معاهدة نيستات

وخرج بطرس عام ١٧١٦ في رحلة ثانية الى أوربا، فزار استكهولم وباريس وبرلين ولكن رحلته لم تطل، اذ سمع فجأة بقيام فتنة في روسيا اشترك فيها الكسيس أحد أبنائه . فعاد مسرعاً، فأخمد الفتنة وزجّ ابنهُ في السجن حيث مات ميتة خفية (عام ١٧١٨)

رحلة بطرس الثانية

وآخر عمل حربي قام بهِ بطرس أنهُ خرج عام ١٧٢٢ في حملة على فارس، بدعوى نصرة شاهها على منازعه في المُلك، والحقيقة أنهُ كان يبغي الاستيلاء على جزء من شواطئ بحر قزوين، فلم يجن من ورائها شيئاً . ومات بطرس الأكبر في يناير سنة ١٧٢٥ إثر حمى أصابته وهو يخوض في بحيرة «لادوجا» يساعد العمال في انتشال قارب ارتطم بالصخور

بطرس وفارس

وفاة بطرس

ولم تله بطرس الحروب الطويلة عن اصلاح شؤون البلاد الداخلية، بل امتدَّ اصلاحه طول مدة حكمه وتناول كل فن من شؤون الحياة وكل مصلحة من مصالح الحكومة. ففضلاً عما سبق ذكره من اصلاح الجيش وانشاء البحرية، أدخل في بلاده كثيراً من الصناعات الغربية كصناعة العدد والأسلحة، وأحدث تحسيناً كبيراً في أخرى،

اصلاحاته الداخلية

مثل صناعة النُّسُج الصوفية على يد صناع فرنسيين ، وذباغة الجلود التي باشر ترقيتها أحد الانجليز . ثم سهل التجارة الخارجية بابرام المعاهدات التجارية مع دول أوربا ، وشجّع التجارة الداخلية بانشاء الطرق وغيرها من المرافق ، وأدخل كثيراً من الطرق الحديثة في الزراعة ، وجلب الى روسيا قطعاناً من الماشية لتتناسل في بلاده . أما التعليم فلم يكن في استطاعته نشره في جميع أنحاء المملكة ، ومع ذلك أنشأ عدداً من المدارس الأولية في كل مقاطعة ، وأكثر من المدارس الخصوصية لتعليم الفنون العلمية النافعة كالمدارس التجارية والبحرية ومدارس الهندسة . وأدّاه التوسع في مقاصده الكثيرة النفقات الى اصلاح الشؤون المالية ، فعدّل نظام الخراج وفرض بعض ضرائب جديدة أهمها جزية الرءوس . ثم التفت الى الكنيسة ، فرأى أن رجالها كثيراً ما يناوئونه العداء في اصلاحه ، فألغى منصب « البطريق » ووضع نفسه على رأس الكنيسة ، وقلل من نفوذ رجال الدين ، وأمر بترجمة الانجيل الى اللغة الروسية ، ووُزع على الناس بثمن زهيد . وأطلق الحرية في التعبد لجميع الملل والطوائف ما عدا اليسوعيين واليهود

القيصر رأس الكنيسة

وكان شأنه في جميع اصلاحه واقتدائه بالأمم الغربيــة شأن اليابان في نهضتهم الحاضرة : لا يتحيز لحضارة أو أمة دون أخرى ، ولا فرق عنده بين المانيا وهولندة وانجلترة والسويد ، يأخذ عن كل منها ما راقه ورآه ملائماً لأحوال بلده

الاصلاحات الكمالية

ولم تكن مجاراته للأمم الغربية مقصورة على الأمور الجوهرية ذات الفوائد العملية ، بل تعدتها الى كثير من مظاهر الحياة الخارجة والتقليدات القومية التي ربما لم يكن لتغييرها داع ، وخصوصاً اذا كان السير فيها على عجل ؛ فان ذلك يُثير عادة خواطر المحافظين فيقفون في طريق الاصلاح ، كما حدث بالفعل في عهد بطرس وكاد يزعزع مكانته لولا شدة بأسه ومضاء عزيمته . فلم يكد بطرس يقدم من رحلته الأولى بأوربا حتى تزيا بالزي الغربي ، وأمر رجال بلده بالاقتداء به وخلع العباء وغيره من الثياب الأسيوية السابغة . ثم حلّق لحيته وأمر رجال حكومته أن يحذوا حذوه وفرض ضريبة

على كل من بقى ملتحيًا ، اعتقاداً منه أن ذلك متمم لوسائل السير فى مضمار الرقى على نمط الدول الغربية . ولم ينس النساء فى ذلك ؛ فأزال الحجاب وحرّض على السفور ، فصار النساء يخرجن فى الطرقات سافرات الوجوه بعد أن كن محتجبات فى المنازل طبقًا للعادات الشرقية ، وأمرهن بالاختلاط بالرجال فى المجتمعات وحضور الحفلات العامة ، وسواها من مظاهر الحياة الغربية

تأثير بطرس فى تاريخ روسيا

وقد رأى بعض المؤرخين أن تعرُّض بطرس لمثل هذه الشؤون وتوخى الاسراع فى أعماله قلّل كثيراً من ثمرة اصلاحه ؛ وبعضهم قال فى وصفه : « أنه طلى أُمته بطلاء المدنية مع بقائه هو على حالة الوحشية ، وأنشأ لها جيشًا مدربًا على الفنون الحربية مع عدم إلمامه هو بشىء منها » . ومهما غالوا فى تقبيح تسرعه واستبداده ، فهو بلا شك أعظم قياصرة الروسيا والناهض بها من حالة البدو والبربرية الى مدارج الحضارة والعمران ، والممهد لسبيل الفتوح العظيمة التى قامت بها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

٣ — ﴿ روسيا من عهد بطرس الأكبر ﴾
الى أواخر القرن الثامن عشر

فترة اضطراب

بعد وفاة بطرس الأكبر وقف تيّار الفتوح الروسية واستولى الاضطراب على البلاد زمنًا (١٧٢٥ – ١٧٦٢) بسبب التنازع على العرش . وكان بطرس قد خشى أن يتولى العرش أحد المحافظين الراغبين فى هدم أعماله ، كما كانت نيّة ابنه « الكسيس » الذى جاهر بها علانية وكانت نتيجتها القبض عليه وموته سجينًا . فسنّ للوراثة قانونًا يقضى بأن يوصى كل ملك بمن يخلفه على العرش ؛ فأوصى قبل مماته بالعرش لزوجته الثانية « كترين الأولى » . فلما تولت أخذ حزب المحافظين يعمل على مناوأتها والسعى فى تولية ابن الكسيس العرش . ونال الحزب أمنيته بعد عام ونصف من حكم كترين ، اذ تولى ابن الكسيس وتسمى « بطرس الثانى »

نفوذ الألمان في روسيا

(١٧٢٧- ١٧٣٠) . وبعد وفاته تولت القيصرة « آن » (١٧٣٠- ١٧٤٠) بمؤازرة المحافظين ؛ وكانت ميالة الى اللهو والسرور ، وتركت مقاليد الأمور لأهل هواها من الألمان الشاغلين لأهم مناصب الحكومة ، ونخص بالذكر منهم « بيْرِن » . ومن ذلك العهد أخذ نفوذهم يقوى في البلاد ، وبقي كذلك حتى أواخر القرن الثامن عشر

معاهدة بلغراد والمشروع الشرقي

وفي عهدها شرعت الروسيا في الزحف جنوبًا على الأملاك التركية ؛ فنشبت بين الدولتين حرب (١٧٣٦ - ١٧٣٩) انتهت بمعاهدة « بلغراد » التي لم تفز فيها الروسيا بشيء يذكر من مطامعها . ولكنها من ذلك الحين أخذت تعمل على انفاذ « المشروع الشرقي » (راجع حروب الروسيا مع الترك في كتاب تاريخ مصر من الفتح العثماني)

اليصابات

ثم خلفها « ايوان السادس » ، وكان طفلاً مائقًا ؛ فعزل بعد سنة وتولت العرش القيصرة « اليصابات » (١٧٤١ - ١٧٦١) بنت بطرس الأكبر ؛ فقللت من نفوذ الألمان في البلاد ، وتمكنت من نفسها كراهتها لذلك الشعب الى أن خاضت مع فردريك الأكبر ملك بروسيا غمار حروب طويلة فقدت بها الروسيا ما لا يقل عن ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل . وخلفها ابن اختها « بطرس الثالث » ، وكان المانيًّا في ميوله

بطرس الثالث

وطباعه ؛ وبلغ به الاعجاب بفردريك الأكبر أن جعله ينسحب من الحرب التي كانت مشتعلة بين الأمتين اذ ذاك (انظر حرب السنين السبع) . فكرهه الروس وعزلوه بعد توليته ببضعة أشهر

كترين الثانية

فخلفته « كترين الثانية » (١٧٦٢ - ١٧٩٦) التي يعتبر عصرها من أزهر عصور الدولة الروسية . تولت كترين اريكة الملك إثر عصر فشت فيه الفوضى وسكن فيه تيار تقدم روسيا بضعف ملوكها وتنازعهم أمرهم بينهم على تولي الملك . فعزمت عزمًا صادقًا على النهوض بالبلاد والعمل على اتمام أعمال جدها العظيم بطرس الأكبر ، سواء أكان ذلك في سياسته الخارجية أم في اصلاحه الداخلي

سياستها الخارجية

ففي سياستها الخارجية وضعت « كترين » نصب عينها توسيع نطاق روسيا من

الغرب والجنوب : فكانت فاتحة أعمالها فى الغرب ان اعتدت على « كورلندة » ، وكانت مملكة صغيرة بين البحر البلطى والأراضى الروسية . فحدث ان منع ملكها الجيوش الروسية من المرور فى بلاده عند عودتها من حرب السنين السبع (ضد بروسيا) فاتخذت كترين ذلك ذريعة للتدخل فى شؤون بلاده ؛ فعزلته واختارت لها ملكاً بنفسها : فصار لروسيا نفوذ عظيم فى كورلندة ، وبقيت هذه كذلك حتى ضُمت نهائيًا الى الدولة الروسية عام ١٧٩٥

أطماعها فى بولندة

ثم وجهت اطماعها الى «بولندة»، وكانت حينئذٍ تئن تحت اعباء الضعف والاضطراب

حالة بولندة

كانت بولندة من الممالك الأوربية العظيمة فى القرون الوسطى ؛ ولكنها حافظت على النظام الاقطاعى ولم تسر مع ممالك أوربا فى نهضتها الحديثة ؛ فبقيت أنظمة حكومتها معتلّة تزداد اضطرابًا يومًا بعد يوم . وكان رأس حكومتها ملك ينتخبهُ الأشراف ، ويتألف من هؤلاء مجلس للنظر فى شؤون البلاد ؛ ومن أكبر عيوبه أن كان لا ينفذ قانون ولا مشروع الاَّ بموافقة جميع الأعضاء ؛ فاذا خالف فى الرأى عضو واحد كان قرار المجلس لاغيًا ، وذلك مما أدى الى ارتباك الحكومة وانتشار الفوضى فى أنحاء البلاد

تقسيم بولندة الاول

فرأت كترين فى ذلك فرصة لاغتيال جزء من هذه المملكة الفسيحة ، وباتت ترقب أحوالها بعين المتأهب للوثوب على فريسته ؛ الاَّ أنها لم تقدم دفعة واحدة خوف منافسة بروسيا والنمسا لها . ولكن فردريك الأكبر ملك بروسيا كان أيضًا ساهرًا على توسيع رقعة بلاده ، فأوعز الى الروسيا بالتعجيل فى اقتسام تلك الفريسة العظيمة . وانضمت اليهما النمسا ، فاتفق الثلاث فى «معاهدة بطرسبرج» سنة ١٧٧٢ على انتزاع كل منها جزءًا من هذه الغنيمة الباردة . فتم لهم ذلك بدون مقاومة هامة ، فاستولى فردريك على « بروسيا البولندية » (بروسيا الغربية) عدا «دنزيك» و « ثورن » ، فصار بذلك صاحب السيادة فى حوض نهر « الفستيولا » ، وأخذت النمسا مقاطعة « زبس » ، وضمت الروسيا اليهــا « ليفونيا البولندية » وجزءًا من « لثوانيا » ، فكان مجموع ما نال الدول الثلاث ثلث بولندة بأكملها . ويعرف ذلك

« بتقسيم بولندة الأول » . وبقى ملك بولندة (ستانسلوس) حاكماً على ما بقى منها؛ ولكن نفوذه أخذ من ذلك الحين فى الاضمحلال من جراء تدخل الروسيا تدريجاً فى شؤون بلاده . وعند ذلك دب روح الوطنية فى قلوب البولنديين ، وهبوا يصلحون فى نظام حكومتهم وشؤون بلادهم ؛ فجعلوا الملك وراثياً ، ومحوا ما كان لكل فرد من أعضاء المجلس النيابى من الحق فى الغاء قرار المجلس اذا كان مخالفاً له فى الرأى ، وزادوا فى سلطان الملك (١٧٩١)؛ فخشيت الروسيا وحلفاؤها أن يشد هذا الاصلاح من أزر بولندة ويعوق مطامع تلك الدول فيها. وكانت الروسيا قد أبرمت مع بولندة عام ١٧٦٨ معاهدة تقضى بألاّ تحدث بولندة شيئاً من التغيير فى نظام حكومتها الاّ بعد موافقة الروسيا . فتمسكت الروسيا بذلك وقالت ان هذا الاصلاح ينافى الاتفاق الذى بينهما ، خصوصاً أن بعض الساخطين من البولنديين ممن سلبهم الاصلاح شيئاً من النفوذ فى الحكومة التجئوا اليها طالبين مؤازرتهم فى استرداد ما فقدوه من الحرية . فانقضّت الروسيا على بولندة بجيش جرار ، واتفقت مع حليفتيها على انتزاع أجزاء جديدة منها . فتمّ بذلك « تقسيم بولندة الثانى » عام ١٧٩٣ ، وبه استولت روسيا على الأقاليم الشرقية التى يبلغ عدد سكانها نحو ٣،٠٠٠،٠٠٠ نسمة

اصلاح بولندة

تقسيم بولندة الثانى

ثم قام البولنديون مستبسلين بزعامة الوطنى الشهير « كُزْيُسكى » يريدون تحرير بلادهم ، فلم يكن نصيبهم الاّ اتفاق الروسيا والنمسا وبروسيا على اقتسام ما بقى من بلادهم ؛ فتمّ بذلك « اقتسام بولندة الثالث » عام ١٧٩٥ ، وبه مُسحت بولندة لأول مرة من خريطة أوربا . ويُعتبر اقتسام بولندة هذا محض اختلاس ، وأنه من أفظع ما جرى فى القرن الثامن عشر بين ممالك أوربا المتمدينة

كزيسكى

تقسيم بولندة الثالث

بذلك اتسع نطاق الأراضى الروسية من الغرب اتساعاً عظيماً زاد فى عظمتها وأفضى الى اتساعها من الجنوب ، حيث انتزعت مواقع ذات شأن من الدولة العثمانية. وذلك أن فرنسا خشيت عاقبة اتساع الأملاك الروسية فى الغرب واضراره بمصالح حليفتيها القديمتين السويد وبولندة ، فأوعزت الى الترك بمهاجمة روسيا من الجنوب ؛ فاغترت تركيا بنصيحة فرنسا ، لحقدها على الروس فيما انتزعوه منها فى الماضى ، وخوفها

الاغارة على الاملاك العثمانية

معاهدة كجوق قينارجة منهم فى المستقبل. فشنت الحرب على روسيا عام ١٧٦٨؛ ولكن الحظ خانها واضطرت الى ابرام معاهدة « كجوق قينارجة » (كُتشُك كينارجى) عام ١٧٧٤ ، وبها ثبتت أقدام روسيا فى أسفل الدانوب وعلى شواطئ البحر الاسود ، ورُفعت السيادة العثمانية عن تتار القرم وكوبان ، واستولت الروسيا على « آزاق » و « كِنبُورن » وسائر الأماكن الحصينة التى فى القرم ، وفُتح البسفور والدردنيل لسفن روسيا التجارية ، وقبلت تركيا أن تضمن للروسيا حكومة عادلة وحرية دينية للرعايا المسيحيين ، وجعلت لها الحق فى المطالبة بحقوقهم اذا رأت حاجة الى ذلك . وقد أخذت الروسيا هذا الحق ذريعة للتدخل فى شؤون تركيا كلما رأت ذلك من مصلحتها



كترين الثانية

وبعد عشر سنين نقضت الروسيا معاهدة كجوق قينارجة ؛ فضمت اليها
١٧٨٤ القرم بعد أن قضت المعاهدة باستقلالها؛ فأشارت انجلترة وفرنسا على تركيا بالرضى بذلك ، مخافة أن تجر عليها الحرب خسائر أعظم منها

ولم تقف الروسيا عند ذلك الحد، بل أخذت تعمل منذ عام ١٧٨٦
كترين والمشروع الشرقى على انفاذ مشروعها الشرقى ، وعوّلت على أن تكون هى البادئة فى تحريك « المسألة الشرقية » ليتم حلها حسب أهوائها

المسألة الشرقية ويرجع تاريخ « المسألة الشرقية » الى عام ١٦٩٦ عند ما استولى بطرس الأكبر على مدينة آزاق ، إذ نزلت عنها تركيا للروسيا فى معاهدة « كَرْلُوِتْز » التى نزلت فيها للنمسا أيضًا عن بعض أملاكها . فمن ذلك العهد ظهرت لدول أوربا علامات الضعف والاضمحلال فى تركيا ، وأخذت تنظر « فيما سيؤول اليه أمرها ومَن يكون الوارث لها »

اقتراح كترين

فبادرت الروسيا الى الشروع فى حل هـذه المسألة الكبرى بأن دعت النمسا للاشتراك معها فى مشروع أساسه اقتسام تركيا؛ فتأخذ الروسيا ما بقى من شواطئ البحر الأسود الشمالية، وتضم النمسا اليها الولايات العثمانية المجاورة لها، ويؤلف من الإيالات الواقعة على نهر الطونة ومن بسارابيا مملكة مستقلة تسمى «دَاسِيا»، وأن يُطرد العثمانيون من أوربا وتحيا الدولة الرومانية الشرقية، فيتولى عرشها «الغرندوق قسطنطين» ثانى أبناء ولى عهد روسيا

غضب الترك

فلما وصل الى القسطنطينية صدى هذا الأمر الخطير؛ وظهر للباب العالى سوء نيات كترين، بادرت تركيا باعلان الحرب على روسيا عام ١٧٨٧ . فساعد الروسيا السعود مرة أخرى، ولكن النمسا حليفتها لم تصادف هذا الحظ، وأبرمت مع الترك معاهدة «سِستوفا» على انفراد عام ١٧٩١، وانتبهت أوربا الى اطماع كترين، ورأت أن لابد من وقوفها عند حد، فتدخلت انجلترة وبروسيا وهولندة فى الأمر.

معاهدة سستوفا

ولم تبد الروسيا معارضة، لأنها أخذت توجه أنظارها نحو فرنسا التى كانت نار الثورة تتأجج فيها ويُنتظر اشتباك النمسا وبروسيا معها فى حرب فيخلو الجو للروسيا فى بولندة، ولذلك رضيت كترين بمهادنة الدولة وأبرمت معاهدة «ياسى» فى يناير عام ١٧٩٢، وبها اعترف الباب العالى بجميع شروط معاهدة كينارجى وترك للروسيا القِرم وباقى الأراضى العثمانية الواقعة بين نهرى البُغ والدنيستر؛ وبذلك صارت الروسيا صاحبة السيادة المطلقة على شمالى البحر الأسود، وان لم تحظ بأمانيها فى اقتسام تركيا وحل المسألة الشرقية

معاهدة ياسى

هذه هى أهم فتوح كترين الثانية، وبها عظم شأن الروسيا بين الدول الغربية، وامتدت أملاكها فى جوف القارة الأوربية

اصلاحات كترين الداخلية

على أنها منذ تولت العرش لم تأل جهداً فى اصلاح شؤون روسيا الداخلية والاقتداء بأمم أوربا فى السير بالبلاد فى سبيل الرقى والعمران، ولم تقتصر فى ذلك على الأمور المادية التى كان جل عناية بطرس الأكبر موجهاً اليها، بل بذلت جهداً عظيماً فى صبغ البلاد بصبغة الحضارة الراقية فى الشؤون الاجتماعية والأحوال الأخلاقية

ونشر الآداب والمعارف ، متخذة فى جميع ذلك فرنسا أستاذاً لها ومثالاً تحذو حذوه. ومن أعظم مآثرها فى مؤازرة العلم وترقية التعليم فى روسيا أنها أسست مدارس ثانوية فى أمهات المدن ، وأنشأت فى بطرسبرج مجمعاً علمياً أسوة بالممالك الأوربية الراقية. ومن فرط ميلها الى معاضدة العلم والعلماء أن مدّت يد المساعدة الى «دِدِرو» العالم الفرنسى الشهير فى اتمام طبع دائرة المعارف الفرنسية العظيمة وقت ان كاد الخطر يحدق بعمله الجليل

أثر حكمها فى روسيا

ومع ما قد دونه التاريخ عن عصر كاترين من انتشار اللهو وشدة ميلها هى الى الخلاعة والمجون ، قد كان من أزهر عصور روسيا وأعظمها أثراً فى رقى شأنها بين الدول الأوربية

الفصل السادس

انجلترة

١ — ﴿ نمو الحكومة النيابية ﴾ (١٦٠٣ — ١٦٨٨)

حقوق الملوك « الالهية »

شغلت بال الأمة الانجليزية فى القرن السابع عشر مسألة من أهم المسائل وهى البت فيما اذا كان للملك أن يحكم البلاد باعتباره خليفة الله فى أرضه لا مهيمن عليه الاّ الله، أو كان عليه أن يخضع فى كل شؤون الملك لرأى نواب الأمة (البرلمان). على أن معظم حكومات الممالك الأوربية فى ذلك الوقت كانت تنزع الى الحكم المطلق؛ ففى فرنسا كان آخر انعقاد لمجلس الأمة سنة ١٦١٤ ، وبعدئذٍ صار الملك هو الذى يَسِنُّ القوانين وينفذها من غير أن يستشير أحداً من الأمة سوى مستشاريه الخواص. ولقد كان «جمس الأول» وابنه «شارل الأول» يميلان الى حكم انجلترة على النظام الاستبدادى، لاعتقادهما فى المذهب الذى كان سائداً فى أوربا فى تلك الأيام، وهو أن حكم الأمم حق وهبهُ الله للملوك. فأتيح للأمة الانجليزية بعد جهاد كبير أن تزيل

الخلاف بين الملك ومجلس النواب بطريقة مرضيــة أوجدت بين الطرفين علاقات وحدوداً لا يتعداها أحدهما ، وذلك بتكوين حكومة ملكية «مقيّدة» أو نيابية . وقد كان الخلاف بين اسرة «استيوَرْت» ومجلس النواب الانجليزى طويلاً ، والنزاع شديداً ؛ ويعدّ عصر هذا النزاع من أهم العصور فى تاريخ انجلترة بل فى تاريخ أوربا بأ كلها ، اذ أنهُ بعد الثورة الفرنسية التى اختتم بها القرن الثامن عشر بدأ نظام الحكومة الانجليزية ينتشر فى أوربا ، حتى حل فى وقتنا الحاضر محل النظام الذى كانت عليه الحكومات الاستبدادية القديمة بجميع ممالك أوربا الغربية

نظام الحكومة الانجليزية

جمس الأول (١٦٠٣ — ١٦٢٥)

توحيد انجلترة واسكتلندة

تولى جمس الأول أول ملوك اسرة استيورت سنة ١٦٠٣ عقب وفاة اليصابات ، وهو ابن مارية ملكة اسكتلندة ، وكان يعرف فى تلك البلاد بجمس السادس . وبتوليته العرش الانجليزى صار لانجلترة واسكتلندة حاكم واحـد ، غير أن ذلك لم يحسن العلائق بين المملكتين الاّ بعد زمن طويل

صفات جمس وأفعاله

وكان أهم الأمور التى تستدعى النظر فى حكم جمس الأول ميله الى الرفع من قدر الملوك وتدبيره حملة منظّمة لتمجيد الحكومة الاستبدادية بكتاباته ، وان كانت أفعاله وحسناته ليست مما يشرف الملوك . وهو وان ضرب فى العلم بسهم وافر قلما كان لغيره من الملوك ، لم تكن مقدرته العقلية ونفاذ خاطره فى صعاب الأمور بنسبة علمه ؛ وكان معاصره هنرى الرابع ملك فرنسا على ضعفه يفوقه كثيراً من حيث الرجولية وتدبير الملك . نعم قد كان هنرى الثامن ملكاً مستبداً غليظ القلب ، وكانت اليصابات شديدة البأس فى حكمها ؛ غير أن الاثنين استجلبا محبة الشعب ، ولم يكثرا من الثرثرة فى حقوق الملوك كما فعل جمس الأول المولع بالجدل والمناقشة فى حقوق منصبه السامى

مذهب حقوق الملوك الالهية

وكان من رأى جمس أن للملك أن يسنّ أى قانون يرى فيه المصلحة للبلاد من غير أن يستشير النواب فى شىء ، وإن كان له أن يقبل ما يقترحونه عليه اذا شاء قبوله . وكان يرى أنه فوق القانون بحجة أنه هو الذى يسنُّ القانون . ومن الكلمات

المأثورة عنهُ قوله : « ان الملك الصالح لا تتجاوز أعماله حدود القانون ؛ ولكنه فوقه وغير مقيد به ، وله أن يتبعه مختاراً ليكون لرعيته قدوة صالحة فى اتباع القانون »

ولقد كان لجمس بعض العذر فى هذه العقائد ، لأنه انما كان يطالب الأمة بالحقوق التى تمتع بها أسلافه بالفعل وكان ملوك فرنسا متمتعين بها أيضًا الى أيام الثورة الفرنسية.



جمس الأول

ومما كان يقوله فى مذهب حقوق الملوك الإلهية: «ان الملك لا يستمد قوته من الأمّة بل من الله الذى اختاره أبًا لشعبه وهو الذى منحه السلطة لتوطيد النظام واقامة العدل فى البلاد ، فلا يكون مؤاخذاً الاّ من الله وحده ، وليس للشعب أن يحاسبه على أعماله». وقد عانى جمس مصاعب كثيرة من النواب ؛ على أن ما لاقاه فى هذا السبيل لم يكن الاّ فاتحةً لمحن ومصائب قضت أخيراً على ولده شارل الأول

سياسة جمس الخارجية

ولم يظهر جمس فى سياسته الخارجية مقدرة اكثر مما أظهر فى علاقاته مع شعبه . فقد جاءه صهره (فردريك ملك بوهيميا المعروف «بملك الشتاء ») مستنجداً ، فلم يمد له يد المساعدة . فلما طُرد من بلاده وأعطيت الولاية البلاتينية لمكسمليان فكّر جمس فى اعادته الى ملكه من طريق الاتحاد مع اسبانيا . فرأى أن يخطب ودّها بتزويج ابنه شارل بأميرة اسبانية ؛ فأثار بذلك غضب الأمة الانجليزية ، ولم يتم له شيء من مأموله

الأدبيات فى هذا العصر

ومع ما كان لانجلترة فى عهده من ضعف النفوذ فى السياسة الأوربيــة العامة فقد ظهر فى أيامه نفر من كبار الكتاب ممن جعلوا لبلادهم القدح المعلى فى عالم

الآداب وفاقوا جميع الكتاب الأوربيين . ومن هؤلاء الكتاب العظام «شكسبير» (١٥٦٤ - ١٦١٦) ؛ فقد كتب فى عصره روايات « عطيل » و « الملك لير » و «العاصفة» عدا الروايات التى كتبها فى أواخر عهد اليصابات؛ ثم «فرنسيس بيكن» ؛ وله كبير الفضل فى عالم العلوم الطبعية ، اذ مهّد طرق البحث والاستكشاف العلمى بايجاد قواعد جديدة للاستنتاج مؤسسة على التأمل مع التأنى والعنـاية فى مشاهد الطبيعة. وكانت هذه القواعد قد أشار بها قبله بنيف وثلثمائة عام سميّه «روجر بيكن» . وفى هذا العصر أيضًا تُرجم الكتاب المقدس ترجمة متقنة غاية فى متانة الأسلوب الانجليزى وجماله ، ولا تزال مستعملة فى جميع البلاد التى تتكلم الانجليزية

شارل الأول (١٦٢٥ — ١٦٤٩)

صفات شارل

تربع على العرش بعد جمس ابنهُ «شارل الأول»، فكان اكثر وقاراً من أبيه ، ولكنهُ كان يعادله فى الاستبداد وصلابة الرأى وفى عجزه عن استجلاب محبة الشعب : فلم يلبث أن تنازع مع مجلس النواب، اذ خشى هذا أن ما طلبهُ الملك من المال يبدده «دوق بكنجهام» صاحب الحظوة لدى شارل ؛ لذلك لم يقرر المجلس الاّ مبلغًا صغيراً

عمله على استرضاء الأمة

فعقد شارل النية على أن ينال ثقة الأمة بنصر مبين يحرزه فى ساحة الوغى ، فأخذ بناصر الهيجونوت فى لاروشيل على ريشليو ، وذلك بالرغم من أن زوجته كانت فرنسية : تزوجها عند ما خاب عزم الاتحاد مع اسبانيا . ثم رأى أنهُ يستميل الشعب اليه أيضًا لو أعلن الحرب على اسبانيا، اذ كان ملكها من أعظم المعاضدين للحزب الكاثوليكى فى ألمانيا فى حرب الثلاثين سنة . لذلك خاض غمار الحرب على الرغم من امتناع المجلس عن الترخيص له بشىء من المال. فجمع بعض المال بطرق أخرى غير قانونية ، واكتفى باعداد حملة للاستيلاء على قادس والسفن الاسبانية التى كانت تأتى اليهـا محملة بالذهب والفضة من أمريكا كل عام . ففشلت الحملة كما فشلت الحملة التى أُرسلت لمساعدة الهيجونوت

فشله فى حروبه الأوربية

وكان شارل كلما أراد مالاً من غير الوجهة الشرعية (وهى موافقة النواب) يلجأ

جمعه المال بطرق غير شرعية

الى وسائل نفّرت منهُ الأمة . وكان القانون يحذر على الملك طلب الهدايا من رعيته ، ولكنهُ لم يحظر عليه عقد القروض مهما كان الأمل فى تسديدها ضعيفاً . فلما امتنع خمسة من الأمة عن إقراض الملك مالاً بالجبر صدر أمره الخاص بسجنهم . فأدى ذلك بالأمة الى المطالبة بتحديد نفوذ الملك ، بحيث لا يسجن أحداً من غير ان تقام الحجة على مداينته

ملتمس الحقوق

وقد كانت هذه الحادثة واشباهها من حوادث الاعتداء على حقوق الرعية مدعاة الى هياج خواطر المجلس وقيامه سنة ١٦٢٨ باعداد عريضة تسمى « ملتمس الحقوق » ؛ وهى من الأوراق التى لها أهمية عظمى فى تاريخ الانجليز . وفيها لفت المجلس نظر الملك الى ابتزازه الأموال بطرق غير شرعية والى ماكان يقترفهُ عماله من سوء الأعمال ؛ وطلب منه : (أولاً) أن لا يجبر فرداً من الرعية على دفع شيء من النقود على شكل عطية أو هبـة أو قرض أو ضريبة أو غير ذلك من المغارم بدون موافقة المجلس . (ثانياً) أن لا يُسجن فرد من أحرار الرعية أو يعاقب بأى عقوبة الاّ بما تقتضيه قوانين البلاد . (ثالثاً) أن لا يجبر الشعب على ايواء الجنود أو ضيافتهم بحال من الأحوال . واذ كانت هذه المواد تقييداً لسلطة الملك ، لم يرض بقبولها الاَّ بعد تردد طويل ؛ وهى قيود كانت الأمة الانجليزية من قبل حريصة أبداً على تقييد ارادة الملوك بها ؛ ولئن كانت تعجز أحياناً عن تنفيذها لم تكن لتهملها فى الظاهر

حل مجلس الأمة

ولما أجاب الملك هذه المطالب قرر المجلس صرف الأموال التى طلبها ، لكنهُ أعدّ مذكرة ودية ناشد الملك فيها أن يأمر بعزل دوق بكنجهام . فغضب شارل وحلّ المجلس فُجاءة ، فلم ينعقد بعدها الاّ بعد أن قُتل بكنجهام

ومما زاد الطين بلة فى النزاع القائم بين الملك والمجلس الخلافاتُ الدينية التى كانت بينه وبين الأعضاء. فان زوجة الملك كانت تدين بالمذهب الكاثوليكى ؛ وكان النصر

الخلافات الدينية

حليف الكاثوليك فى قارة أوربا ، اذ قهر « وَلِنْستين » و « تلى » جيوش ملك الدانمرك (البروتستنتى) وحرم رِيشِلْيُو الهيجونوت من المدن التى كانت تأويهم . وكان جمس وشارل أظهرا استعدادهما لمؤازرة فرنسا واسبانيا فى مقابل حماية الكاثوليك

بانجلترة ؛ وظهرت بانجلترة حركة قوية يقصد منها العودة الى المذهب الكاثوليكى .
فهالت هذه الأمور أعضاء مجلس النواب العريقين فى المذهب البروتستنتى ونفروا
منها نفوراً عظيماً ، وظنوا أن الملك يميل الى المذهب الكاثوليكى فاتسع خرق الخلاف بينه وبين النواب . وفى سنة ١٦٢٩ حُلّ مجلسهم بعد عدة جلسات ساد فيها الهياج والشغب : حلّه شارل نفسه وهو يقول : « ان الأفاعى من النواب سينالون جزاءهم » . ولم ينعقد المجلس الاّ بعد احدى عشرة سنة



شارل الأول

حكومة شارل الفردية

لم يكن شارل ممن هُيئوا بالفطرة للقيام بمهام الحكومة بمفرده ، فضلاً عن أن الطرق التى اتبعها وزراؤه فى جباية الأموال بدون استئذان مجلس النواب زادت من كراهية الشعب للملِك تدريجاً. ومهدت السبيل لفوز الأمة ورجوع السلطان الى النواب . وقد كان بانجلترة قانون قديم يقضى بمنح لقب « فارس » لمن يملك قدراً معيناً من الأرض ، ويغرم لذلك غرماً . غير أن الملاك أخذوا منذ اضمحلال النظام الاقطاعى يقللون من اهتمامهم بذلك اللقب لأنهُ أصبح عديم الفائدة ؛ فرأى وزراء شارل أنهم ان أعادوا فرض غرامة على الملاَّك الذين لم يدفعوا الرسم المقرر لنيل هـذا اللقب فان

ذلك يكون وسيلة لجباية أموال طائلة ، فأعادوها . وكذلك حدث أن أناساً ممن قضى عليهم النحس أن يستوطنوا الغابات الملكية فُرض عليهم الغرامات الثقيلة أيضاً

ضريبة السفن

وفوق هذين الضربين من المكوس فرض الملك على الرعية ضريبة أخرى تسمى « ضريبة السفن » . وذلك أن شارل أراد أن يجهز اسطولاً ؛ فلم يتبع العادة القديمة وهى تكليف كل ميناء تقديم عدد معين من السفن للحكومة ، بل قال انه يعفى من ذلك كل ميناء يدفع قسطه من الأموال اللازمة لتجهيز سفن الملك الكبيرة . ولم يطالَب بتلك الضريبة أهل الموانى وحدهم ، بل تعدّتهم الى السكان البعيدين عن الساحل . وكان الملك يزعم أن ذلك المال لم يكن بمثابة ضريبة ، وانما هو محض اتاوة تدفعها الرعية لاعفائهم من واجب الدفاع عن بلادهم . فلما شرع الجباة فى جمع هذه الضريبة امتنع « جون هَمْدِن » أحد أعيان الطبقة الوسطى بمقاطعة بكنجهام عن دفع ما طلب منهُ وقدره عشرون شلناً ؛ فرُفع أمره الى المحكمة ، فحكمت عليه بأغلبية صغرى . وقد اتضح من هذه الحادثة أن الأمة لم تكن لتسمح للملك بالسير طويلاً على سياسته الاستبدادية . وكان ذلك سنة ١٦٣٨ . ومن قبلُ كان الملك اختار « وليم لود » لمنصب رئيس أساقفة كَنْتِربرى سنة١٦٣٣ ؛ فحاول إجبار جميع القساوسة على استعمال كتاب الصلوات ، فكان من يمتنع منهم عن العمل بتقاليد كنيسة الحكومة الرسمية يحاكم امام المحكمة الملكية العليا ، فاذا حكمت عليه حُرم من أرزاقه . فكانت هـذه الأعمال مدعاة لشدة استياء بعض الطوائف الخارجة عن الكنيسة الانجليزية مثل « البرزبتيريان » و « المستقلين » ، وفر من المستقلّين عدد عظيم الى هولندة استوطن بعضهم ليدن . وفى عام ١٦٢٠ أقلعت منهم جماعة من ليدن الى أمريكا عُرفوا فيما بعد « بالآباء المهاجرين » وهنالك استوطنوا الولايات التى تعرف باسم « انجلترة الجديدة » ؛ وما زال أهل هذه الولايات أكثر عطفاً على انجلترة من سكان بقية الجهات التى استُعمرت بعدُ فى الولايات المتحدة

جون همدن

لود

هجرة البيورتان

المجلس « القصير »

وبقى شارل يدير الملك بنفسه حتى عام ١٦٤٠ ، اذ اضطر الى استدعاء مجلس النواب ليعاونه على جمع مال كان يريده لشن الغارة على اسكتلندة . وذلك أن العداوة اشتدت بينه وبين طائفة « البِرِزْبتَيريان » ، لانكارهم حقوق الملوك الالهية .

ولحقدهم على تصرفات القساوسة الذين كانوا آلة تخريب وعذاب فى يد الملك . فلما هم شارل باجبار الاسكتلنديين (أكبر أنصار المذهب البرزبتيرى) على استعمال كتاب الصلوات، قاموا فى وجهه ، وتألف منهم حلف دينى يسمى «التحالف الدينى القومى» (The National Covenant) سنة ١٦٣٨ ، وفيه تعاقد المتحالفون على بذل كل نفيس فى سبيل تحرير الدين وتطهيره من الأدران التى علقت به ، طبقاً للمبدأ الذى قام عليه مذهبهم

نزاع شارل مع الاسكتلنديين

فلما لم يجد شارل مالاً لاخماد هذه الثورة اشترى بالدَّين من شركة الهند الشرقية قدراً وافراً من الفلفل وباعه بثمن بخس يحصل فى يده سريعاً. ولكن بالرغم مما جمعه من المال لم ترض جنوده بمحاربة الاسكتلنديين ، اذ كانوا يشاركونهم فى عواطفهم ؛ فاضطر شارل الى عقد الصلح معهم سنة ١٦٣٩. لكنه أخذ يستعد للحرب من جديد ؛ ورأى أن يستعين بمجلس النواب على جمع المال اللازم لذلك ، فاستدعاه سنة ١٦٤٠ بعد أن بقى منحلاًّ مدة أحد عشر عاماً . فانعقد المجلس وروح الولاء للعرش سائدة بين أعضائه ، وفى نيتهم أن يوافقوا على جمع مبالغ وافرة من أجل الحرب ، على شرط أن يرفع الملك المظالم التى كانت الأمة تشكو منها ، ولكن الملك ما لبث أن غضب على المجلس وحله بعد ثلاثة أسابيع من اجتماعه

حربه معهم

حل المجلس القصير

وعاد شارل الى حكمه الاستبدادى ؛ فاشتد عسفه عن قبل ، وزاد من الضرائب غير الشرعية . ثم خاب فى حملته على الاسكتلنديين خيبة مخزية ، واشتد السخط عليه من كل جانب . فاضطر ثانية الى عقد المجلس ، فكان آخر مجلس أُلِّف فى أيامه ؛ ويسمى فى التاريخ «مجلس النواب الطويل» اذ لم يحلّه ملك مدة واحد وعشرين عاماً

اشتداد عسف شارل

المجلس الطويل

وكان أول أعمال هذا المجلس أن زج « استرافُرْد » رئيس الوزراء و « لود » رئيس الأساقفة فى أعماق السجن ؛ اذ اتُّهم الأول بالخيانة لمساعدته الملك فى الخروج عن قوانين البلاد ؛ ثم أُعدم فى عام ١٦٤١ رغم ما بذله الملك من المجهودات فى خلاصه*

محاكمة استرافرد ولود

* كان ارل استرافرد من أنبغ أنصار الملك : نصبه شارل حاكماً على ارلندة فهدأ أحوالها وأدار شؤونها بيد من حديد ، وقد درب من أهلها جيشاً قوياً ، فظن النواب أنه يريد به نصرة الملك عليهم . فكان ذلك من أكبر أسباب فتكهم به

وكذلك نفذ حكم الاعدام على لود بعد أربعـة أعوام . ثم أصدر « قانون ثلاث السنوات » الذى قرر فيه أن يجتمع المجلس كل ثلاثة أعوام على الأقل ، وان لم يستدعه الملك ؛ ثم الغى المجلس محكمة « قاعة النجم » * والمحكمة العليا اللتين كانتا تحكمان ظلماً على كثير من المعارضين للملك ؛ وأعلن أن ضريبة السفن غير قانونية . وقصارى القول أنه قضى على النظام الذى كان اتبعه شارل فى حكومة البلاد

الغاء محكمة قاعة النجم

عند ذلك زار شارل اسكتلندة وتودد الى أهلها ، حتى صار له منهم أنصار وأعوان . فأيقن أعضاء المجلس أنه انما يقصد بهـذه الزيارة حمل الاسكتلنديين على تزويده بجيش يقهرهم به . فقدم الأعضاء احتجاجاً على الملك يسمى « الاحتجاج الأعظم » ، وفيه عُددت كل مساوئ شارل ، وطُلب الى الوزراء أن يكونوا مؤاخذين من ذلك الحين أمام المجلس . وقرر المجلس طبع هذا الاحتجاج وتوزيعه فى طول البلاد وعرضها

فأثار ذلك حنق شارل ، فسعى فى ارهاب المعارضين له بأن شرع فى القبض على خمسة من أكبر زعماء مجلس العموم العاملين اتهمهم بالخيانة . ودخل شارل المجلس بنفسه للقبض عليهم فلم يجدهم ، وعلم أنهم التجئوا الى لندن . وقد رافقهم أهلها بعدُ الى المجلس فدخلوه ظافرين

الحرب الداخلية

عند ذلك شرع شارل والنواب كل يعد عدته ويأخذ أهبته استعداداً للفصل فى النزاع بينهما بحد السيف ؛ وما لبثت الحرب الداخلية أن تأججت نارها واندلع لهيبها فى جميع أنحاء انجلترة . وسُمى أعوان شارل بالفرسان (Gavaliers) وكانت جلتهم من النبلاء والكاتوليك ، وانضم اليهم من النواب من خاف أن يبدل البرزبتيريان تقاليد الكنيسة الانجليزية . وعُرف المجلسيون بذوى الرءوس المستديرة (Roundheads) لقصّهم شعورهم بغضاً ونفوراً من النبلاء أعدائهم الذين كانت ذوائبهم تنوس على أكتافهم . وقيض الله من بينهم من يخوض بهم المعامع ويقودهم الى النصر ، وهو ذلك البطل الصنديد والقائد المقدام « أُلِفَر كْرُمْوِل » ، ذلك العبقرى

الفركرمول

---

* محكمة أنشئت فى عهد هنرى السابع لمساعدته على اخضاع الأشراف وجمع المال منهم ومن غيرهم بطريق المغارم ، فكان الملك يحصل بذلك على الأموال الطائلة من غير طريق المجلس

الذى صار بهمته رجلَ أوربا الفذ حتى غدا مكانه بين ملوكها فى الناصية والذؤابة

ألّف « الفر » جيشاً لا كالجيوش : ملأت أفئدة رجاله التقوى وخوف المولى عز وجل ، لم يكونوا كعامة الجند ينزعون الى المجون والفحش ، بل كان كل غرامهم أن يتغنّوا بالأناشيد الدينية عند هجومهم على العدو ، فتثير من حميتهم فما ينثنوا الاَّ وقد عُقِد لهم لواء الظفر والنصر

جيش كرمول

وكان شارل ينتظر المدد من اسكتلندة وطن أبيه وجده ومن ارلندة التى كان أهلها يشايعونه ليذود عن مذهب الكاتوليك . وظلت رحى الحرب دائرة عدة سنين كان النصر فيها بعد السنة الأولى حليف النواب غالباً . واشتهر فيهـــا من الوقائع « مَرِستون مور » سنة ١٦٤٤ و « نازبى » سنة ١٦٤٥ ، وفيها انهزم الملك هزيمة منكرة . ووقعت رسائل الملك ومكاتيبه فى يد ذوى الرؤوس المستديرة ، فعلموا منها كيف كان يدعو الإرلنديين والفرنسيين لمحاربة رعاياه الانجليز ؛ فصرخوا للملة والوطن وثارت نخوتهم واشتدت عزيمتهم . وفُتّ فى ساعد شارل ، فسلم نفسه للجيش الاسكتلندى الذى أتى يساعد حزب النواب (سنة ١٦٤٦) ، فدفعهُ الاسكتلنديون الى أعدائه . وبقى شارل فى الأسر مدة سنتين كان يجتهد خلالها فى القاء بذور الشقاق بين أحزاب الأمة المختلفة فيمنع الفتنة من أن تنام

موقعتا مرستون مور ونازبى

وكان فى مجلس العموم نفر ما زالوا يميلون لجانب الملك ويودون لو يتم الاتفاق معهُ فيعود لملكه وتهدأ الأحوال . فهؤلاء تمكنوا من حمل المجلس فى سنه ١٦٤٨ على الموافقة على ابرام اتفاق مع الملك الذى كان إذ ذاك أسيراً فى جزيرة وَيت . وكان ذلك على غير رغبـــة الجند الذين كان حزبهم فى البرلمان من أكبر خصوم شارل ؛ ففى اليوم التالى لهذا القرار وقف «الكلونل برَيد» نائباً عنهم على باب المجلس ومعهُ ثلة من الجند وطرد من الأعضاء كل مشايع للملك . وتعرف هذه الحادثة فى التاريخ بمُطَهّر برِيد (Pride's Purge)

نقص عدد المجلس

مطهر بريد

بذلك أصبح المجلس بعد أن نقص عدده* من أكبر خصوم شارل وأشد أعدائه

---

* فصل عن المجلس بهذه الطريقة ١٤٣ عضواً ولم يبق به الآ نحو ٥٠ عضواً

اعدام شارل

وما لبثوا أن قرروا محاكمته ، معلنين أن مجلس العموم النائب عن الأمــة والحاكم بارادتها هو السلطة العليا فى انجلترة ومصدر كل الأحكام العادلة ، وما من حاجة الى ملك أو مجلس أعيان ليعطى قراراته أى صبغة قانونية ، وألفوا لهذا الغرض محكمة مخصوصة أعضاؤها من أشد الناس حقداً على شارل ، فحكموا عليــهِ بالموت ، وفى صبيحة اليوم الثلاثين من شهر يناير سنة ١٦٤٩ ضرب عنق شارل ، فى ساحة « هو يت هول » بلندن أمام قصره الملكى . ويُعلم مما تقدم أن موت الملك لم يكن عن رغبة جميع الأمة ، بل بتألب نفر من الغلاة المتطرفين ، قالوا انما يعملون بارادة الأمة النائبين عنها ، والأمةُ من عملهم براء

٢ ﴿ عهد الفترة ﴾ : ١٦٤٩ — ١٦٥٣

الحكومة الجمهورية

بعد ذلك أعلن المجلس ، على قلة عدده ، أن حكومة انجلترة أصبحت جمهورية بلا ملك أو مجلس لوردات . وهى إن ظهرت بهذا المظهر ، كان رئيس الجند كرمول هو فى الحقيقة حاكم البلاد . وكان يظاهره الجند والأقلون من الأمة ؛ أما الأكثرون فكانوا غير مرتاحين الى الغاء الملكية واستبدال الجمهورية بها ، حتى البرزبتيريان أنفسهم فقد كان ضلعهم مع شارل الثانى وارث العرش الشرعى . وكان يُظن أن الجمهورية عما قريب تفشل وتذهب ريحها فى بضعة شهور ، ومع هذا تمكن كرمول من أن يقوم باعباء الحكومة زمناً طويلاً ، لأن الشعب الانجليزى لم ينس أنهُ هو الذى أقام صرح الحرية وقضى على دولة الاستبداد . هذا الى أنه كان حاكماً قوى الشكيمة شديد البأس ؛ يشد أزره خمسون الفاً من خيرة الجند

ثورة ارلندة

أما ما كان من أمر إرلندة فانها أبت أن تطأطئ الرأس لكرمول وحكومته ، واعترف النبلاء والكاتوليك فيها بشارل الثانى ملكاً مكان أبيه ، وحشدوا جيشاً لغزو انجلترة وقلب نظام حكومتها . فبادر كرمول اليهم قبل أن يستفحل أمرهم ، وضربهم ضربة قاضية سنة ١٦٥٢ ، وسامهم من صنوف القسوة والعذاب ما جعل الإرلنديين

وذراريهم لا ينفكون عن لعنهِ كلما ذكره ذاكر . وصادر أموالهم ومتاعهم وجعلها غنيمة للانجليز ، وأرغم كاتوليكهم على الاعتصام بالجبال

ثورة اسكتلندة

وفى تلك الأثناء نزل شارل الثانى بين الاسكتلنديين ، فأهلوا به ورحبوا وقاموا ينصرونه على بكرة أبيهم بشرط أن يكون ملكاً برزبتيريًا؛ ولكن كرمول كان أسرع من البرق اليهم ، فأخمد نار فتنتهم وكانت أخف وطأة من فتنة إرلندة. ولم يجرد كرمول سيفاً فى الجزر البرطانية بعد ذلك قط



كرُمول

الحرب مع هولندة

ولم تشغل كرمول الفتن الداخلية عن الاهتمام بالشؤون الخارجية . فقد أصبحت هولندة فى ذلك الحين أكبر منافس لانجلترة فى البحار : أكثرت من انشاء السفن الكبار ، تغدو وتروح بالمتاجر الكثيرة والأرباح الوفيرة بين أوربا والمستعمرات. فخاف الانجليز على سيادتهم فى البحار وأرادوا أن يضعوا لذلك حداً، فصدر فى سنة ١٦٥١ « قانون الملاحة » الذى حرَّم دخول المرافئ الانجليزية على غير السفن الانجليزية أو سفن البلاد التى تنتج الحاصلات الواردة الى انجلترة . فعاد ذلك على هولندة بالخسارة ولم ترَ بداً من محاربة انجلترة . فاشتبكت أساطيل الدولتين فى عدة وقائع كانت الحرب فيها سجالاً ؛ غير انها انتهت بخروج كرمول منها ظافراً واضطرت هولندة الى الاعتراف بقانون الملاحة . واشتهرت تلك الحرب لأنها أول الحروب التى قامت من أجل المنافسة التجارية وكان جل الحروب قبل ذلك فى سبيل الدين

أما العلاقات بين كرمول ومجلس النواب فلم تكن على ما يرام ؛ مع أن المجلس

كرمول ومجلس النواب
أصبح مبغضًا من الشعب ، لأن أعضاءه كانوا يرتشون ويسندون المناصب الى صنائعهم وذوى أقرباهم ؛ فضاق كرمول بهم ذرعًا ، ثم دخل يومًا عليهم فعنفهم على تلك الأثرة والسلوك المشين ، ودعى جنده فطردوهم من دار المجلس ، وكان ذلك سنة ١٦٥٣ . ثم ألف مجلسًا بنفسه اختار أعضاءه ممن اشتهروا بالتقوى والصلاح ؛

كرمول حامى الجمهورية
فكانوا فى واد والسياسة والاشتراع فى واد ؛ وارتبكت الأمور فى أيديهم ، فبكّر العقلاء منهم ذات صباح الى دار المجلس وأعلنوا حله، وألقوا بزمام الدولة الى كرمول وأفردوه بالحكم ولقبوه « حامى الجمهورية »

نفوذ كرمول
وقضى كرمول ما يقرب من خمس سنين وهو المسيطر على انجلترة ، لا ينقصه من سلطة الملوك غير الاسم . وهو ان لم ينجح فى وضع بناء الحكومة على أساس ثابت متين ، قد برّز فى سياسته الخارجية وعلا كعبه فى مضمار المفاوضات الدولية ؛

كرمول ولويس الرابع عشر
فعقد تحالفًا مع فرنسا ، ونصر جندُ الانجليز الفرنسيين على الاسبان ، فنالت انجلترة نظير ذلك مرفأ دنكرك وجزيرة جاميكا ؛ ولم يَسَع لويس الرابع عشر على عظمته الاّ أن ينظر الى كرمول بعين الاجلال والاكبار ، وعدّه أقوى حاكم فى أوربا

ومات كرمول سنة ١٦٥٨ بعد حياة كلها جهاد فى سبيل اصلاح شؤون الأمة وقد قام لانجلترة بأجل الخدمات التى يصغر دونها كل مدح وثناء

٣ — ﴿ رجوع الملكية ﴾

رتشرد كرمول
ولما مات كرمول أراد نجله « رِتشرْد » أن يقوم باعباء الملك من بعده . وكان دون أبيه همة، فناء بحملها ثم نزل عن الملك بعد أشهر قلائل. واجتمعت بقية أعضاء

اجتماع المجلس الطويل
«المجلس الطويل» مرة أخرى ؛ فما ازدادوا الاّ خبالاً، فاختل النظام وعمت الفوضى فاغتنمها الاسكتلنديون فرصة وسيروا سنة ١٦٦٠ جيشًا يقوده الجنرال « مَنك » ليقطع دابر الفوضى ويرد النظام الى ربوعه . فأسرع المجلس الى الانحلال؛ واعترفت الأمة بشارل الثانى ملكاً عليها ، وكان سرورها بذلك عظيمًا . وأُلف مجلس جديد

تأليف مجلس جديد
أرجع القوانين القديمة والعهد القديم ، وبذلك انتهت الجمهورية وعادت الملكية

شارل الثانى (١٦٦٠ — ١٦٨٥)

ضفات شارل

كان شارل الثانى كأبيه يحب الاستبداد ويكره الاذعان لرأى المجلس ، ولكنه كان أنفذ من أبيه بصيرة وأسدّ رأيا ، فكان يأبى أن يثير الأمة عليه وأن يتعرض لخطر النفى مرة أخرى . وكان شارل هذا مولعاً بالملاهى والملاذ مستهتراً بالتهتك والخلاعة ، فجاءت أيام حكمه مناقضة لعصر الجمهورية الذى اشتهر بالوقار والورع والتقوى

القوانين المضادة للبيورتان

كان أول مجلس نواب عقده شارل مؤلفاً من أعضاء معتدلين ، ولكن مجلسه الثانى كان كله من المشايعين له ، فكان الوفاق بينهما مستحكماً فى الغالب ، حتى بقى هذا المجلس ثمانية عشر عاماً لم يحدث فى خلالها ما يدعو الى حله . وقد أظهر هذا المجلس عداوته للبيورتان فى عدة قوانين أصدرها . فمن ذلك أنه حرم مناصب البلديات على كل من لا يتبع شعائر الكنيسة الانجليزية . وكان المقصود بهذا القانون تضييق الخناق على طائفة المستقلين والبرزبتيريان . وفى سنة ١٦٦٢ أصدر المجلس قانون « توحيد المذاهب » ، ومؤداه أن كل قسيس لا يؤمن بجميع ما ورد فى كتاب الصلوات يفقد أرزاقه ، وقد امتثل لذلك اكثر من ألفى قس . وكانت نتيجة كل هذه القوانين أن مال جميع الخارجين عن الكنيسة الانجليزية من البروتستنت الى تكوين جماعة واحدة لا تزال حتى اليوم تعرف باسم المخالفين (Dissenters) . على أن هذه الطوائف الدينية لم تطمح الى نيل شىء من النفوذ السياسى ، وانما كل بغيتها أن تطلق لها الحرية الدينية وأن تجرى فى العبادة على الطريق التى تختارها

ميل شارل الى الكاثوليك

وكان الملك ينحاز فى الباطن الى كنيسة رومية ، فكان يميل الى التسامح مع كل من الكاثوليك والمخالفين . وكان تسامحه هذا مدعاة الى اثارة الريب وتخوف الناس من رجوع المذهب الكاثوليكى . فلاجتناب هذا الشر أصدر مجلس النواب قانوناً فى سنة ١٦٦٤ يحظر على كل مكلف أن يشهد اجتماعاً لم ينعقد على حسب رسوم الكنيسة الانجليزية ، وكان العقاب لمن يخالف هذا القانون شديداً جداً قد يبلغ حد النفى الى المستعمرات النائية

تدابير المجلس

وبعد قليل أصدر شارل تصريحاً باطلاق الحرية الدينية للكاثوليك والمخالفين، ولكن المجلس أرغمه على الغاء هذا التصريح وأصدر قانوناً (Test Act) يحرم اسناد الوظائف الأميرية الى غير الذين على مذهب الكنيسة الانجليزية

الحرب مع هولندة

وكان شارل شديد الرغبة فى توسيع نطاق تجارة انجلترة وزيادة عدد مستعمراتها فأعلن الحرب على هولندة . فظل القتال بينهما فى البحر سجالاً حتى فازت انجلترة فى سنة ١٦٦٤ بوضع يدها على بعض جزائر الهند الغربية ، وعلى جزيرة «منهاتان» التى عند مصب نهر هَدسُن فى أمريكا الشمالية ، فسميت «نيو يورك» نسبة الى دوق يورك شقيق الملك . وفى سنة ١٦٦٧ عُقد الصلح ، وبهِ ثبت حق انجلترة فى هذه المستعمرات

انقياد شارل للويس الرابع عشر

وفى سنة ١٦٧٠ أغرى لويس الرابع عشر شارل بامضاء معاهدة سرية أخذ فيها شارل على نفسه أن يساعده فى حرب جديدة على هولندة ، لوقوفها فى طريق لويس عند ما عقد العزم على امتلاك الأراضى المنخفضة الاسبانية . ووعد لويسُ فى نظير ذلك أن يمدّ شارل بالجنود والأموال تأييداً له عند ما يريد المجاهرة بالانضمام الى الكنيسة الرومية . فحبطت مساعى لويس بفضل وليم أُورنج*، وأبرم الصلح مع هولندة فى سنة ١٦٧٤ . ولم يمض الاَّ قليل حتى انحازت هولندة الى انجلترة ، وأصبحتا حليفتين متناصرتين على لويس الرابع عشر الذى كان فى ذلك الوقت قد استفحل شره وانكشفت أطماعه وصار يُعتبر اكبر خطر يهدد سلام أُوربا

تحالف انجلترة وهولندة

جمس الثانى (١٦٨٥ — ١٦٨٩)

جمس كاثوليكى

لما توفى شارل خلفه أخوه جمس الثانى ، وكان شديد التمسك بالكاثوليكية ، وكانت زوجته الثانية مارية مودينا كاثوليكية أيضاً ، فعقد النية على ارجاع الكاثوليكية الى انجلترة مهما كلفه ذلك . وكان لجمس ابنة بروتستنتية من زوجته الأولى تدعى مارية ، فكانت الأمة راضية بحكمه على أمل أن تخلفهُ ابنتهُ البروتستنتية على سرير الملك ،

* وهو الذى صار فيما بعد وليم الثالث ملك انجلترة ، وكان ابن اخت شارل الثانى

ولكن جمس لم يلبث أن رُزق ابنًا من زوجته الكاثوليكية ، فضلاً عن أنه أظهر رغبته جهاراً فى تأييد المذهب الكاثوليكى وتقريب أنصاره . فلم تطق الأمة صبراً على ذلك ، وأنفذ جماعة من البروتستنت رسلاً الى وليم اورنج يدعونهُ الى القدوم وتسلم أزمة الحكم فى انجلترة

بغض الأمة له

وفى سنة ١٦٨٨ نزل وليم أرض انجلترة وزحف على لندن ، فقام البروتستنت جميعًا بنصرته وتأييده . وشرع جمس يقاومه ، فأبى الجيش أن يأخذ بنصرته وتخلت عنه حاشيته ، ففر الى فرنسا . فسر بذلك وليم ، لأن وجود جمس فى بلاد الانجليز كان لا محالة يدعو الى اثارة القلاقل والفتن

انقلاب سنة ١٦٨٨

وعلى اثر هذه الحوادث انعقد مجلس نواب جديد ؛ فأعلن خلو العرش ، بحجة « ان جمس الثانى خرق حرمة القوانين باغراء اليسوعيين وغيرهم من ذوى المآرب الفاسدة ، فاضطر الى النزول عن العرش ومغادرة البلاد »

خلع جمس وتولية وليم الثالث وزوجته

ثم حرر البرلمان بيانًا بحقوق الشعب الانجليزى يسمى « اعلان الحقوق » (Declaration of Rights) أوضح فيه كيف افتات جمس الثانى على تلك الحقوق وطلب الى وليم أورنج وزوجته مارية التكفل بمراعاتها فى نظير توليتهما على انجلترة . فأقر وليم ومارية « اعلان الحقوق » وتوليا العرش الانجليزى سويًا . وسمى وليم أورنج « وليم الثالث » ملك انجلترة

اعلان الحقوق

بهذه الطريقة السلمية ، التى تعرف فى تاريخ انجلترة « بانقلاب سنة ١٦٨٨ » ، تخلصت الأمة الانجليزية من شر آل استيورت وما يدّعونه من الحقوق الألهيــة .

وجاهرت الأمة مرة أخرى بمخالفتها للكنيسة الرومية وخروجها عن سلطانها

وقد كان هذا النزاع طويلاً استحرّ فيه النضال وظل الفوز وهو سجال ؛ فآنا ترجح كفة الملكية حتى تشرف الحرية على الزوال ، وآنا ترجح كفة الحرية حتى تشفى الملكية على الفناء ؛ وتناسلت الأعوام العديدة والأمة منقسمة على نفسها ، يحارب أحد شطريها الشطر الآخر . فلما تبوأ وليم وزوجه أريكة الملك التام صدع المملكة واجتمعت كلمة

انقضاء عهد الاضطراب

غظم منزلة انجلترة

الأمة ، ولبثت من ذلك العهد فى نجاح مطرد وتقدم سريع ؛ فعظمت منزلتها فى المجامع الدولية ، وارتفعت مكانتها فى أعين الحكومات الأجنبية ، وامتد نطاق مستعمراتها واتسع ظل نفوذها حتى شمل انحاء المعمورة بأسرها . وسنبيّن فيما يلى الخطوات التى أفضت بانجلترة الى هذه الغاية

٤ — انجلترة فى القرن الثامن عشر

فى خلال القرن الثامن عشر اشتغلت الدولتان الفتيتان روسيا وبروسيا بتوسيع ملكهما ومدّ حدودهما بانتهاز ضعف جارتيهما بولندة وتركيا

اتساع الاملاك الانجليزية

وفى غربى أوربا كانت انجلترة تخطو خطوات واسعة لبسط نفوذها واعلاء شأنها . ومع أنها لم تقم بأمر عظيم فى حروب القارة أبت الاّ أن تصير سيّدة البحار ؛ فأصبحت فى نهاية حرب الوراثة الاسبانيـة أقوى دولة بحرية فى أوربا ، اذ كانت الحروب الطويلة القائمة بين فرنسا وهولندة قد أنهكت قوى هاتين الدولتين . ولم يمض على معاهدة أترخت اكثر من ٥٠ عامًا حتى تمكنت انجلترة من طرد الفرنسيين من أمريكا الشمالية والهند ، ومن وضع أساس متين لملكها الاستعمارى الواسع الذى لا يزال السبب فى سيادتها التجارية على سائر ممالك أوربا

العلاقات بين الكنيسة والخارجين

ويمكن القول بأن تولية وليم ومارية قد حلت المشكلتين العظيمتين اللتين كانتا مصدر النزاع والقلاقل فى الخمسين سنة الأخيرة . فمن جهة قرّ رأى الأمة الانجليزية على البقاء على المذهب البروتستنتى ، فلم يمض طويل حتى سويت العلاقات التى بين الكنيسة الانجليزية والرعايا الخارجين عنها على وجه مرضى . وقررت من جهة أخرى

تعيين نفوذ الملك

أن تضع لسلطة الملوك حدودًا خاصة لا يتعدونها ، فكانت نتيجة ذلك أنه منذ ابتدأ القرن الثامن عشر الى وقتنا هذا لم يجرأ أحد من ملوك انجلترة على رفض أى قرار أصدره مجلس النواب

الملكة آن (١٧٠٢ — ١٧١٤)

زهاء عصر آن

خلف وليم الثالث فى سنة ١٧٠٢ « الملكة آن » أخت زوجته واحدى بنات جمس الثانى . وقد تم فى أيامها امور عظام : منها النصر الباهر الذى أحرزه قواد انجلترة فى حرب الوراثة الاسبانية ، وأهم من ذلك بكثير اتحاد انجلترة واسكتلندة اتحاداً نهائياً بعد ما أريقت دماء كثيرة بسبب الخلافات التي قامت بينهما من عهد بعيد ، أى منذ حاول ادورد الأول عبثاً أن يغزو اسكتلندة . حقاً ان المملكتين صارتا إرثاً لملك واحد منذ تولى جمس الأول ، ولكن كان لكل منهما فى تلك المدة حكومة مستقلة و برلمان مستقل . وقد انتهى ذلك العهد فى سنة ١٧٠٧ اذ اتفقت الأمتان على ضم حكومتيهما احداهما الى الأخرى ، وذلك بأن يكون لاسكتلندة ٤٥ عضواً فى مجلس العموم الانجليزى ، وان يضاف الى مجلس الأعيان الانجليزى ١٦ من لوردات اسكتلندة . وعلى ذلك صار لجزيرة برطانية العظمى كلها حكومة واحدة ، ومن ذلك العهد تضاءلت أسباب النزاع بين الأمتين

حكومة انجلترة واسكتلندة



الملكة آن

ولم يعش بعد الملكة آن أحد من أولادها ، فخلفها بعد وفاتها أقرب وارث بروتستنتى لها ، بمقتضى اتفاق أُبرم قبل توليتها . وهذا الوارث هو ابن الأميرة صوفيا زوجة نائب هنوفر وحفيدة الملك جمس الأول ؛ فلما ارتقى العرش الانجليزى (ولُقّب جورج الأول) صار ملكاً على انجلترة ونائباً لهنوفر وأحد أعضاء الدولة الرومانية المقدسة

مبدأ الاسرة الهنوفرية

جورج الاول (١٧١٤ — ١٧٢٧)

نفوذ الوزراء

كان الملك الجديد المانياً لا يتكلم الانجليزية ، ولذلك كان يكلم وزراءه باللغة اللاتينية ؛ التى لم يكن يحسنها مطلقاً ؛ مما أدى الى استقلال كبار أولئك الوزراء بالأمر وتكوين هيئة خاصة منهم تسمى « الكابنت (Cabinet) » . ولما لم يكن جورج يفهم مناقشاتهم كان لا يحضر جلساتهم ، فأصبحت هذه سنة الملوك الذين تولوا من بعده ، وأصبحت العادة أن يجتمع الكابنت للبت فى أمور المملكة بلا تدخل من الملك فى أعمالهم ، ولم يمض زمن طويل حتى صار من المبادئ المقررة فى البلاد أن الحاكم الحقيقى لانجلترة هو الكابنت لا الملك ، وأن يبقى أعضاؤه فى مناصبهم سواء أشاء الملك أم لم يشأ ، ما داموا متمتعين بمعاضدة البرلمان وحائزين لثقته

الكابنت

التوازن الدولى

تأثير وليم الثالث فى السياسة الانجليزية

كان وليم اورنج قبل توليته عرش انجلترة من كبار رجال السياسة فى قارة أوربا . وكان الغرض الذى وضعه نصب عينيه حفظ التوازن الدولى بأوربا ، بمنع فرنسا من توسيع سلطانها بدرجة يخشى منها على بقية الأمم الأوربية ، وعلى هذا المبدأ خاض بانجلترة غمار حرب الوراثة الاسبانية ، وبقيت انجلترة تعمل بهذه السياسة أثناء القرن الثامن عشر ، فخاضت غمار حروب فى القارة الأوربية لم تكن تأمل من ورائها توسيع دائرة نفوذها بامتلاك

حروب انجلترة فى القارة وخارجها



جورج الأول

شيء في تلك القارة. أما الحروب التي شنتها لزيادة سلطانها وتوسيع املاكها فكانت في أقاصي المعمورة ، وجلها في البحار دون اليابسة . على أن انجلترة بقيت نحو ربع قرن بعد معاهدة أترخت محتفظة بالسلم بفضل سياسة وزيرها العظيم « السير رُبَرت وُلبُول » الذي كان على رأس الكابنت الانجليزي نحو ٢١ عاماً (١٧٢١-٤٢) ساد فيها السلام داخل البلاد وخارجها؛ اذ كان يرى أن انجلترة قد أنهكتها الحروب الطويلة ولا بد لها من فترة تستريح فيها من عنائها وتستعيد قوتها ونشاطها. ولم يكتف هذا الوزير باجتناب الحروب الخارجية ، بل كان حريصاً أيضاً على توطيد أركان السلم داخل البلاد ، بتهدئة خواطر الساخطين من الأمة وتقليل أسباب تذمرهم. ومن كلماته المأثورة : « اتركوا الكلاب النائمــة في رقادها » . لذلك اجتهد في ارضاء «المخالفين» وتهدئة «اليعقوبيين» وهم الذين كانوا لا يزالون يطمحون الى رجوع ملوك آل استيورت الى العرش . وقد كان وُلبول أول من لقب برئيس الوزراء في انجلترة

والبول وسياسته السلمية

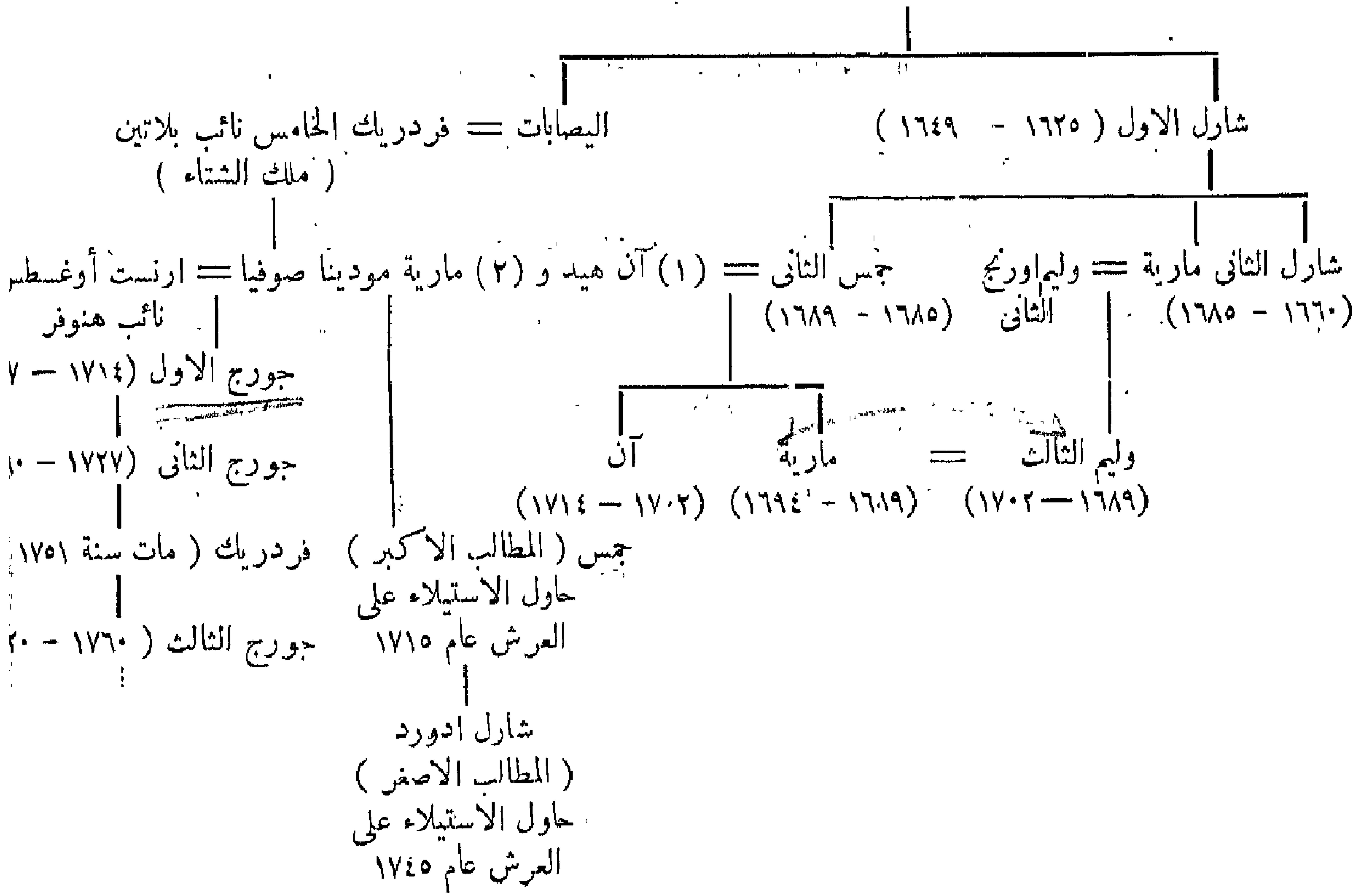
وفي سنة ١٧٤٠ اعتدى فردريك الاكبر وفرنسا على ماريه تريزا، فعطفت انجلترة على تلك الملكة البائسة وسار ملكها جورج الثاني (الذي خلف والده سنة ١٧٢٧) باعتباره نائب هنوفر على رأس جيش ألماني؛ فقاتل الفرنسيين وهزمهم على نهر المين . عند ذلك أعلن فردريك الحرب على انجلترة ، وجردت فرنسا لغزوها أيضاً حملة بحرية على رأسها حفيد جمس الثاني «المطالب الأصغر» بعرش الملك؛ وقد فشلت الحملة لهبوب عاصفة شتتت شمل الأسطول في طريقــه . ولما هزم الفرنسيون الجيوش الانجليزية والهولندية في الأراضي المنخفضة عام ١٧٤٥ طمع «المطالب الأصغر» وحاول الاستيلاء على عرش انجلترة مرة أخرى . فنزل باسكتلندة حيث وجد أعواناً من بين رؤساء عشائر الهيلندر (أهل شمالي اسكتلندة) ورحب به الأهلون حتى في مدينة ادنبرج . وقد جمع جيشاً مؤلفاً من ٦٠٠٠ مقاتل سار بهم الى انجلترة ؛ فما لبث الانجليز أن ردوه على أعقابه وتبعوه الى اسكتلندة حيث هزموه هزيمة منكرة عنــد « كاودن مور » سنة ١٧٤٦؛ فتفرق جيشه وساءت حاله، فعاد الى فرنسا ورضي من الغنيمة بالاياب

حرب الوراثة النمسوية

فرنسا تؤازر المطالب الاصغر

ولم تكد حرب الوراثة النمسوية تنتهى حتى خاضت انجلترة غمار سلسلة حروب كان لها اكبر أثر فى تاريخها وفى مصير كثير من أقاصى أقاليم المعمورة (وقد أوردنا ذلك مفصلاً فى تاريخ التنافس الاستعمارى)

ملخص ببيان ملوك انجلترة بعد الأسرة التيودورية



الباب الرابع

المنافسة الاستعمارية

بين الدول الأوربية الحديثة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر

الفصل الأول

البرتقال والاسبان

١ — ﴿ البرتقال فى المشرق ﴾

ظهور منافسين للبرتقال

كانت أمة البرتقال أول من فتح باب الاستكشاف والاستعمار لدول أوربا الحديثة . وقد رأينا فى الكلام على الاستكشاف الجغرافى كيف كوّنوا لهم ملكاً عظيماً بالمشرق وجعلوا جل تجارته النفيسة فى أيديهم . غير أن ذلك لم يدم طويلاً بعد أن مات ألبوكيرك وخلفاؤه من أبطال البرتقال؛ فأخذت دولتهم بالمشرق تضمحل وورثها غيرهم من الأمم الأوربية ، كالهولنديين والانجليز والفرنسيين . فانهُ فضلاً عن حسد هذه الأمم الفتية لهم ودأبها على ابادة دولتهم ، قـد كان فى نفس سياسة البرتقال الاستعمارية من النقص ما يدعو الى زوال هذا المُلك . و يلخص ذلك فيما يأتى :

نقص سياسة البرتقال الاستعمارية

أولاً — كان البرتقاليون تجاراً قبل كل شىء ، ولم يبسطوا نفوذهم على جهة من الجهات الأ لاحتكار تجارتها ؛ ولذلك لم يحاولوا استعمارها فوق ما يكفى لهذا الغرض: يظهر ذلك فى جنوبى افريقية الذى لم ينتفعوا به الاَّ باتخاذهم فيهِ بعض محطات تتزود منها سفنهم فى طريقها الى الهند

ثانيًا — أفضى بهم حرصهم على الاستئثار بتجارة المشرق واحتكارها الى مكابدة نفقات باهظة فى انشاء المعاقل وتسليح السفن، لحمايتها من الهولنديين والانجليز الذين

كانوا يدأبون على تخطفها من كل جانب ، ولو كانوا معهم فى حالة سلم . وزادت هذه النفقات بزيادة منافسة غيرهم لهم حتى صارت تستنفد جل أرباحهم

ثالثاً – لم تكن تجارتهم فى أيدى شركات تجارية تسهر على ادارتها ، بل كان الملك هو المسيطر عليها . فقصرت الامتيازات التجارية على ذوى الحظوة وتفشت الرشوة بين عمال الحكومة فى سبيل منحها ؛ وأعقب ذلك الضربة القاضية على مجد البرتقال وهى استيلاء اسبانيا عليها عام ١٥٨٠ ، وستأتى نتائج ذلك مفصلة فيما بعد

٢ – « المستعمرات الاسبانية والبرتقالية فى أمريكا »

أمريكا بعد فتح بيرو

بعد أن تمّ للاسبان فتح بيرو على يد « بزّارو » عام ١٥٣٢. اتخذوها مركزاً لمد سلطانهم على الأراضى المجاورة لها شمالاً وشرقاً وجنوباً . وقد قام بهذه الفتوح رجال بزارو، فغزوا ما يسمى الآن « إكوادور » عام ١٥٣٣ ، و « بوليفيا » سنة ١٥٣٨، و « شيلى » سنة ١٥٤٠

وفى أثناء هذه الفتوح رغب بعض رجال من الاسبان فى محاكاة بزارو فى مد سلطان اسبانيا وتوسيع نطاقها فى الأراضى التى فى الجنوب الشرقى من منطقة فتوح بزارو؛ فلم ينالوا سعيه ، وغاية ما بلغوه أن أسسوا مستعمرة لاسبانيا فيما يطلق عليه الآن جمهورية « برَغواى » سنة ١٥٣٦ ، ولم يمض على هذا الحادث سبعة عشر عاماً حتى هبت حملة من شيلى لاستعمار ما يدعى الآن « الجمهورية الفضية » ؛ وفى عام ١٥٨٠ قامت لاستعمارها حملة أخرى من اسبانيا مخترقة الأراضى التى على حوض نهر « لَبْلاتا »

استعمار « الجمهورية الفضية »

مقاصد الاسبان

ولم يحل منتصف القرن السادس عشر تقريباً الاّ وقد قام الفاتحون من الاسبان بمهمتهم خير قيام. وكان غايتهم ومقصدهم فى ذلك ، كأكثر المستكشفين والمستعمرين فى الدنيا الجديدة ، ينحصر على وجه عام فى ثلاثة أمور : نشر الكتاب المقدس ، ونيل الشهرة ، وجمع الذهب

وقد يسرت المقادير للاسبان أمانيهم ؛ فملكوا أرضاً مترامية الأطراف مفعمة

بالخيرات ، فسيحة المجال لاظهار ضروب الشجاعة والاقدام فى حب الكشف وركوب المخاطر ، وآهلة بالسكان الوثنيين الذين يسهل نشر الدين المسيحى بينهم وصبغهم بصبغة المدنية الحديثة . ولقد أظهر الاسبان فى فتحهم الدنيا الجديدة من ضروب الشجاعة والاقدام على المخاطر ما لم يكد يعيهِ التاريخ ، اذ كانوا يعبّدون الطرق فى وسط المستنقعات والغابات وعلى الجبال الشامخة ، ويذللون المسالك فى وسط المفاوز والسباسب التى لم تطأها قدم انسان ، وهم فى كل خطوة يكافحون الطبيعة والمتوحش من الانسان والحيوان؛ حتى كونوا لبلادهم امبراطورية لم يسمع التاريخ من قبل بأوسع منها نطاقاً ولا أضخم منها ملكاً . وبعد أن تم للاسبان ذلك أخذت دولتهم تضع الأنظمة والقوانين لتوطيد ملكها فى هذه الأملاك الشاسعة التى بقيت فى حوزتها نحو ثلاثة قرون من الزمان

فوزهم

أما البرتقال فلم ترسخ قدمها فى البرازيل بعد كشفها الأول . ولذلك قامت حملة ثانية من البرتقال عام ١٥٣٠ بقيادة « مَرْتِن ألفُنْس دى سوزا » للاستيلاء عليها رسميًا وطرد الفرنسيين الذين كانوا قد استعمروا الشاطئ الشمالى الشرقى منهـا . فوصل « دى سوزا » الى شاطئ البرازيل فى أوائل العام التالى ، وفى سنة ١٥٣٢ اختار الجزء الجنوبى من هذه البلاد المسمى « سأوبولو » مقراً للمستعمرين من البرتقال . وفى هذه المدة قسم شاطئ البرازيل الى اثنتى عشرة قطيعة لم تستعمر منها تماماً إلاّ ست ، كلها حول ولايات « سأوبولو » و « باهية » و « برْنمبوكو » . وكان الغرض أن تكون هذه الأقسام مراكز لمد سلطان البرتقال فى البرازيل واستعمارها ؛ ولكن ملكهم فيها لم يلتئم يومًا ما ، لتفرق هذه الاقسام وبعد بعضها عن بعض ، كما أن نفوذهم لم يتوغل فى أعماق البلاد ، لاتساع رقعتها وعظم حجمها بالاضافة الى عدد البرتقاليين

البرتقال في البرازيل

صعوبة استعمارها

على أنه لم يكن بين البرتقاليين الذين أسسوا دولة البرازيل . مَن يماثل أكابر الفاتحين من الاسبان الذين أنشئوا مجد اسبانيا فى أمريكا ، اللهم الاّ جماعة « البُولِسْتاس » وهم قوم نتجوا من تناسل البرتقال بالهنود الحمر في مقاطعة سأوبولو ،

البولستاس

اذ كان لهم الفضل الأول فى تعرف مجاهل هذه البلاد . فكانوا يلتفون جماعات حول رئيس منتخب منهم ويتوغلون في المجاهل ، ابتغاء صيد الهنود الحمر واسترقاقهم ، أو بغية العثور على المعادن النفيسة

ضم البرتقال الى اسبانيا

ولما ضمت اسبانيا مملكة البرتقال اليها سنة ١٥٨٠ أصبحت كل المستعمرات الأوربية فى العالم تدين لملك اسبانيا ، حتى أصبح بذلك فليب الثانى (ملك اسبانيا والبرتقال وقتئذ) عظيم العالم فى البر والبحر ؛ ولا غرو ان كان يقال فى ذلك الزمان : « اذا تحركت اسبانيا اهتز لها العالم » . غير أن عظم ضخامة ملكها ، ووهن أساسه وعدم تماسك اطرافه كان نذيراً بقرب حل عقدته وانفراط نظامه . فإن البرتقال ، وان كانت بقيت تحت سلطان اسبانيا الى عام ١٦٤١ ، أخذت مستعمراتها تفلت

مصير المستعمرات البرتقالية

من يد الاسبان والقرنُ السابع عشر فى عنفوانه ؛ فلم يكتف الهولنديون بالانقضاض على أملاكها فى الشرق الأدنى ، بل ولوا وجوههم شطر البرازيل ، فامتلكوا جزءاً عظيماً منها سنة ١٦٣٠ بقى فى أيديهم الى عام ١٦٥٤

ولما استقلت البرتقال وطردت الهولنديين من البرازيل أخذت تمد سلطانها فيها من الجنوب الغربى . وقد حدث بينها و بين اسبانيا بعض مشاكل فى هذه الأنحاء من أجل « خط التقسيم » انتهت باتفاق الطرفين

مناظرو اسبانيا

ولا شك أن عظم أملاك اسبانيا وكثرة ثروتها فى الدنيا الجديدة كان سبباً فى اثارة الحقد فى قلوب مناظريها من دول أوربا ؛ فكان لصوص البحر ومهربو البضائع من الانجليز والهولنديين والفرنسيين يتهافتون على شواطئ الأملاك الاسبانية، لنهب السفن والبلاد وتخريبها . وقد حاول الانجليز أن يؤسسوا لهم مستعمرة فى أمريكا الوسطى من جهة البحر الكاريبى ، مرتكنين فى ذلك على ضعف اسبانيا فى بلادها

بقاء مستعمراتها

نفسها ، فلم ينالوا مأربهم ، وبقى جل الأملاك الاسبانية رغم ذلك كما هى ، بل زادت مساحتها على ما كانت عليه

. وقد بلغت أملاك اسبانيا أعظم مداها سنة ١٧٨٦ ؛ اذ صارت تمتد شرقاً الى

«بُرْتوريكو» ، وغرباً الى كَلِفُرْنِيا الحاليــة ، وشمالاً الى ولاية المِسّورى الحالية ، وجنوباً الى شيلى . وغاية ما فقدته الى ذلك الحين من جزائر الهند الغربية جزيرة «جَميكا» التى نزلت عنها لانجلترة عام ١٦٥٥ ، والجزء الغربى من جزيرة «هِسْبانيولا» (سنت دُمِنيك) الذى استولت عليهِ فرنسا عام ١٦٩٧ . ثم بقيت أملاكها متماسكة حتى عام ١٨١٠ لم يُفقد منها الاّ بقية جزيرة هسبانيولا التى استولت عليهـا فرنسا عام ١٧٩٥ ، وجزيرة تِرِنداد وجزء من هندوراس الانجليزية (الحالية) اللذين استحوذت عليهما انجلترة فى سنة ١٧٩٧ و ١٧٩٨ ، وقطعة لويسيانا التى نزلت اسبانيا عنها لفرنسا عام ١٨٠٢

أعظم مداها

ما نقص من الاملاك الاسبانية

ويجدر بنا الآن بعد ان أوضحنا كيف استولت اسبانيا على هذا الملك الضخم أن نبين كيف سارت فى حكمه ، وما هى حالته الاجتماعية والاقتصادية أيام نفوذها وبسط سلطانها عليه

الحكومة

النظام فى اول عهد الكشف

كانت الحكومة الاسبانية فى الاعوام الاوّل من عهد الكشف فى الدنيا الجديدة تعقد الاتفاقات مع أفراد الأمة الذين يرغبون فى القيام بأى مشروع كشف أو استعمار فى أمريكا ، وكانت تعهد بتنفيذ شروط هذه الاتفاقات الى نائب يقيم فى اسبانيا . فلما تجاوزت حركة الاستعمار جزيرة هسبانيولا الى الجزائر المجاورة ثم الى القارة نفسها رأت الحكومة أن من المحتم عليها سن قوانين وأنظمة جديدة لهذه المستعمرات ، فألفت « مجلس الانديز الملكى الأعلى » الذى تم تنظيمه عام ١٥٤٢ ، فأصبح فى يده كل فروع ادارة المستعمرات . وكان الملك يختار أعضاءه مفضلاً فى ذلك انتخاب الرجال الذين سبق لهم أن دخلوا أمريكا ولهم دراية بأحوالها . ولم يكن نفوذ هذا المجلس قاصراً على الأمور الادارية ، بل كان بمثابة مشرّع عام للمستعمرات ومحكمة استئناف لمحاكم المستعمرات العليا ، فكانت كل قراراته وأحكامه تسرى كالقانون

مجلس الانديز

وفى خلال القرن الثامن عشر عين الملك وزيراً خاصاً للمستعمرات ومنحه شطراً عظيماً من حقوق المجلس الهامة ، فأصبح وسيطاً بين المجلس والملك ، ونتج عن ذلك ان أصبح المجلس وليس فى يده الا السلطة القضائية وتأدية الاعمال العادية

وزير المستعمرات

وكان المجلس من حين الى آخر يرسل مندوبين من قبله الى المستعمرات لتفقد أحوالها وتقديم التقريرات فى ذلك ، فكان بعضهم يقوم بمهمته خير قيام ، وبعضهم كان الاهالى يمقتونه ويتمنون رحيله عاجلاً

قوانين الانديز

وفى عام ١٦٢٠ شعرت اسبانيا باختلال ادارة المستعمرات ، فنظمتها باصدار ما يدعى « بقوانين الانديز » ، وهى تتناول باسهاب الحقوق والواجبات وأنواع المؤاخذات لطوائف العمال وسكان المستعمرات . ومع ما كان بهذه القوانين من عدم التماسك والابهام وقلة ملاءمتها لمعنى العدالة الحديث ، فانها كانت تنم فى الجملة عن روح انسانى واهتمام بمصالح الرعايا الاسبان فى أمريكا ، وهى على علاتها كانت تفوق قوانين أى دولة أوربية أخرى لمستعمراتها فى ذلك العصر ولو نفذت على حقيقتها لكان فيها فلاح المستعمرات الاسبانية

حكومة المستعمرات المحليـة

هذا ما يختص بالحكومة العليا فى اسبانيا . أما فى المستعمرات نفسها فان السلطان العظيم الذى منحته اسبانيا الى « كلمب » فى بادىء الأمر لم يلبث ان قيدته ووضعته فى يد حكام محليين أشركت معهم لجاناً فيما بعد . على ان نظام ادارة البلاد لم يدخل فى طوره الحقيقى الذى سار على مقتضاه فى القرون التالية الا بعد فتح بيرو ، اذ قسمت البلاد الى أقسام سياسية كان أكبرها يدعى « ولاية » .

اهم الولايات

وأول ولاية أسست هى « اسبانيا الجديدة » سنة ١٥٣٤ ، وحاضرتها « المكسيك » ، وتشمل كل أملاك اسبانيا فى امريكا الشمالية وجزائر الهند الغربية وجزائر الفلبين . وفى عام ١٥٤٢ أسست ولاية « بيرو » وحاضرتها « ليما » ، وكانت تشمل كل المستعمرات الاسبانية فى امريكا الجنوبية . ولما توالت هجمات الانجليز وغيرهم على السواحل وازداد تهريب السلع أنشىء فى امريكا الجنوبية سنة ١٧٣٩ ولايتان أخريان سلختا من بيرو ، وهما « غرناطة الجديدة » وحاضرتها « بغوطة » ، وكانت تشمل « كلمبيا » و « فنزويلا » و « اكوادور » ، ثم ولاية « لبلاتا » سنة ١٧٧٦ وقاعدتها « بنوس أيرس » ، وتشمل ما يسمى الآن « الارجنتين » (الجمهورية الفضية) و « بوليفيا » و « برغواى » و « ارغواى » ، وبذلك صارت ولاية بيرو قاصرة على بيرو نفسها . وكانت هذه الولايات مقسمة الى مديريات وكل مديرية الى عدة مراكز

نظام الحكومة فى البرازيل

أما أمة البرتقال فانها لم توفق الى وضع نظام حكومة فى البرازيل بل ولا فى مستعمراتها الاخرى يحاكى ذلك النظام الاسبانى . وقد سارت البرازيل فى مدة حكم الاسبان لها على نظام حكومتهم ، فبقى بعض هذا النظام متبعاً بعد استقلال البرتقال . وكانت البرازيل فى أول الأمر مقسمة الى عدة قطائع يمنحها الملك رجالاً خاصة على الساحل وتمتد الى الداخل . وكان لمالك كل من هذه القطائع السلطة المطلقة على المستعمرين والاهالى على السواء . ثم عين الملك حاكماً عاماً لها وجعل مقر حكمه مدينة « باهية » ، فكان ذلك مبدأ لتكوين قطائع ملكية تابعة للتاج رأساً . وبعد خلع نير الحكم الاسبانى من هذه البلاد أعيدت طريقة الاستبدال بملاك القطائع حكاماً من قبل الملك وبقيت الى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر ، اذ تكامل النظام الجديد، وفى عام ١٧٦٣ عم نفوذ الوالى جميع البلاد وصار مقره مدينة « ريودى جانيرو » . على أن حكام القطائع كانوا يظهرون كثيراً روح الاستقلال بأمرهم عن هذا الرئيس ، كما ان الاهالى أنفسهم كانوا لا يحجمون عن معارضة الحكومة عند ما تتدخل فى شؤونهم المحلية

النظام الاجتماعى

اختلاف السكان الاصليين فى الحضارة

كان بين سكان امريكا الاصليين بون شاسع فى درجة رقيهم ومبلغهم من الحضارة وان لم يبلغ أحد منهم شيئاً من المدنية الحقيقية ، فكان منهم الرعاة الرحل وآكلو الانسان ، ومنهم من كانوا يعيشون على الزراعة وتتألف منهم الجماعات ، ومنهم من وصل الى درجة ليست بالهينة فى سبيل العمران : يدلك على ذلك ماشرحناه آنفاً من مدنية الازاتقة والانكا فى المكسيك وبيرو

الهنود والزنوج

وفى أوائل القرن السادس عشر انضم الى أهالى امريكا (الهنود الحمر) الارقاء السود الذين أتى بهم من افريقية الى جزائر الهند الغربية لزرع الارض والتعدين بدلا من الاهالى ، ولم يمض زمن طويل حتى انتشروا فى القارة نفسها . وكانت الحكومة الاسبانية تسهر على راحة هذين الصنفين من الناس ، فحرمت استعباد الهنود وجعلتهم من رعايا الملك ، وان لم تخولهم جميع الحقوق التى كان يتمتع بها من كان من عنصر اسبانى ، وحتمت على عمال الملك معاملة أهالى البلاد والسود بالحسنى . ولو نفذ ذلك لكانت حال اولئك المستضعفين أسعد كثيراً مما آلت اليه بعد

امتزاج اصناف السكان

ولم يمض زمن طويل على استعمار أمريكا حتى امتزج دم هؤلاء الاصناف الثلاثة من الناس بطريق التصاهر والتزاوج ، فتزوج الاسبان من الهنود الحمر والسود ، وتزوج السود من الهنود ، ومن هذا الخليط تكون سكان الدنيا الجديدة . ومع أن الدم الهندى كان هو الغالب فيها ، كان العنصر الاوربى هو صاحب السيادة

عدد السكان

وقد بلغت عدة المستعمرات الاسبانيــة بأمريكا فى أواخر القرن الثامن عشر ما بين ١٢٠٠٠٠٠٠ و ١٩٠٠٠٠٠٠ قدر العنصر الابيض منه بما بين الثمن والخمسين

الجهات العامرة

وكان السواد الاعظم من هؤلاء السكان خارج المناطق الحارة ، وقد امتاز الاسبان منهم بسكنى الاراضى المرتفعة الا اذا حتمت عليهم الامور التجارية غير ذلك ، لان الجو فى الجهات المرتفعة لطيف صحيح ، وان الهضاب المرتفعة تكون لهم بمثابة معاقل تحميهم شر غارات أعدائهم من الاوربيين ، ولذلك شيدوا معظم مدنهم وقراهم على الروابى المرتفعة التى لا يمكن الوصول اليها من الساحل . فقد كانت مدن « بوتوسى » و « بوليفيا » و «المكسيك» و «جواتمالا» و « ليما » و « بونس ايرس » و «كركاس» و « هافانة » كلها مشهورة بثروتها وحسن بهائها ، وخاصة بوتوسى والمكسيك ، فانهما كانتا أجمل مدينتين فى الدنيا الجديدة

طبقات السكان والشحناء بينهم

وكانت سكان أمريكا الاسبانية اذ ذاك تنقسم الى طبقتين : الاولى منهم تشمل الاسبان الأصليين، والجنس الابيض الذى ولد فى أمريكا ، وغيرهم ممن يغلب عليهم الدم الاسبانى أو يرجع نسبهم الى رؤساء الهنود . والطبقة الثانية تتألف من الخليط الذين قل فيهم الدم الاسبانى ، ثم العبيد السود ودهماء الهنود الحمر . أما غير الاسبان من الاوربيين فلم يكد يوجد منهم أحد فى الاملاك الاسبانية ، لشدة عصبية الاسبان وحبهم الاستئثار بخيرات تلك البلاد ، وخوفهم من أن دخول الأجنبى فيها على ترامى أطرافها وعدم تناسبها مع حجم بلادهم وقوتها ، قد يكون القاضى على نفوذهم فيها

المناصب والحرف

وكان النزلاء من الاسبان (وهم علية القوم) يتمتعون بالمراتب العالية فى الحكومة والكنيسة أما الوظائف الصغيرة فكانت وقفاً على الجنس الابيض الذين ولدوا فى أمريكا ، ومنهم أيضاً السواد الاعظم من المزارعين ومربى الماشية وأصحاب المناجم وأولى الحرف الراقية والتجار . أما غوغاء الناس من الهنود الحمر والعبيد السود وغيرهم فكانوا يشتغلون بالحرف الدنيئة والاعمال الحقيرة

سياسة اسبانيا

وكانت مرجل الحقد تغلى فى قلوب البيض المولودين فى امريكا ، لغطرسة نزلاء الاسبان الجدد وكبريائهم ، لما ينالونه من الامتيازات من حكومة اسبانيا على غيرهم . وكانت السياسة الاسبانية تعمل لبذر بذور الشقاق بين هذين الصنفين من الناس ، عملاً بالمثل القائل « فرّق تسد »

الحالة الاجتماعية فى البرازيل

أما البرازيل فكانت الحالة الاجتماعية فيها تشبه كثيراً حال امريكا الاسبانية . غير ان هنودها الحمر كانوا أقل عدداً وأكثر سذاجة منهم فى سائر أنحاء الدنيا الجديدة . وكان معظمهم يقطن بعيداً عن الساحل ، مما سهل عليهم الاختفاء فى أعماق الغابات والاحراج والفرار أمام من يريد صيدهم ، فضلاً عن انهم لم يكونوا كفئاً للقيام بالعمل الذى تتطلبه جالية البرتقال . ولم تظهر حكومة البرتقال أى اهتمام بهم ، او تتخذ اى تدبيرات فعالة لمنع استرقاقهم ، حتى منتصف القرن الثامن عشر

أما العبيد السود الذين أتى بهم من افريقية فكان عددهم اكثر منه فى المستعمرات الاسبانية . وقد زاد عددهم خاصة على ساحل البرازيل الشرقى ، لملاءمة الجو لهم ، وذلك رغم معاملة المستعمرين لهم بالغلظة

السكان

وتناسل المستعمرون مع أهالى البلاد ومع سودان افريقية ، فكونوا بذلك خليطاً كما حدث فى امريكا الاسبانية . وقد بلغ عدد سكان البرازيل عند ختام القرن الثامن عشر نحو ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة من البيض والخليط والهنود الحمر والسود . وكانت بذور العداء والشحناء نامية أيضاً بين البيض المولودين فى امريكا وبين جالية البرتقال ، فكان لها نفس الاثر الذى كان بين الاسبان والبيض الاقدمين فى امريكا الاسبانية

الحالة الاقتصادية

الحضارة المادية قبل الفتح

لم يستعمل الهنود الحمر ابان كشف امريكا شيئاً من دواب الحمل الا فى بيرو وما جاورها حيث استؤنس «اللاما» ودرب على حمل الاثقال . أما فى غير تلك الاصقاع فكان المتحضرون من القوم بعض التحضر يستخدمون فى ذلك الانسان ولا سيما من استرقوه من أسرى الحرب . على ان الراقى من الهنود فى سبيل العمران بلغ شأواً كبيراً فى مظاهر الحضارة المادية ، فكانوا يصنعون من الحجارة والطين والخشب والقطن وغيرها كثيراً مما يطلبه الانسان للحاجة أو الزينة فشيدوا الطرق والجسور والقناطر والسدود ، وأقاموا المعابد الضخمة والاهرام والمعاقل والقصور

استخدام الهنود الحمر

ولما استعمرت اسبانيا تلك الانحاء استخدمت الهنود الحمر فى استثمار خيراتها ، لقلة عدد الاسبان من جهة ، ولأنهم كانوا يأنفون العمل من جهة أخرى . وقد أصروا على ذلك وخاصة

عند ما رأوا أن المتمدين من الأهالى له دراية تامة بأنواع الأعمال الجثمانية . ولما رأت الحكومة الاسبانية أن المستعمرين يريدون استعباد الأهالى بعض الشيء عارضت فى ذلك فى بادئ الأمر، ولكنها أحلته فيما بعد على من أبى الخضوع للحكم الاسبانى ، وكان رائدها فى ذلك دخول هؤلاء القوم فى زمرة الدين المسيحى والسير بهم فى طريق التمدين . وقد وضعت الحكومة طرقاً خاصة لتشغيل الأهالى من غير أن يستعبدوا أو يصيبهم أى أذى جثمانى أو خلقى ، ولكن هذه الطرق لم تكن ناجعة تماماً ، لشره الجوالى وقلة نزاهة المشرفين عليهم من عمال الحكومة

أعمال المستعمرين

وكانت الحكومة الاسبانية تطمع فى أن يقوم مستعمروها بسد كل حاجاتهم من البلاد التى نزلوها ، ولذلك طلبت اليهم أن يتزودوا قبل مغادرتهم اسبانيا بكل ما يحتاجون اليه من البذور والحيوان وآلات الزرع وما أشبهها . الا أن أوائل المستعمرين فضلوا أن يكتسبوا أقواتهم بطرق أسهل من ذلك ، فكانوا يدأبون وراء طلب الذهب والفضة والنفيس من الأحجار ، حتى دعاهم الجشع الى سلب الهنود ونبش قبور الموتى ونزع حلى المعابد واجبار الأهلين بالقوة على حفر المناجم

الزراعة والتعدين

وعلى مر الأيام أخذ الجم الغفير من جالية الاسبان يزرعون الأرض ويرعون الماشية ، وفضلا عما جلبوه من أوربا من أنواع الحبوب والفاكهة والخضر ، أخذوا يزرعون حاصلات الدنيا الجديدة ، التى منها الطباق والشاى والذرة والبطاطس والطماطم والكاكاو . وصار التعدين من أهم الأعمال ربحاً ، حتى أصبحت بفضل انتشاره بلاد المكسيك وبيرو وبوليفيا وكلمبيا كنوز العالم . ويكاد يكون فى حكم المستحيل تقدير ماكان يستخرج من هذه الكنوز ، غير أنه من المحقق أنها كانت مقادير ضخمة ، وقد نقص مقدارها نقصاً فاحشاً فى خلال القرن الثامن عشر ، فصارت تعادل نحو ٠٠٠و٠٠٠و٧ جنيه فى العام

الصناعة

أما الصناعات فلم يكن لها شأن يذكر ، لقلة المعدات اللازمة لذلك ، فضلا عن أن الحكومة الاسبانية كانت تعرقل كل تقدم من هذه الوجهة ، كما عرقلت زرع الكروم والزيتون ، خوفاً من منافسة ذلك لمصنوعات بلادها وحاصلاتها من جهة ، وما عسى أن يحدثه ذلك من نقص الضرائب التى كانت تجبيها اسبانيا على السلع التى كان يؤتى بها اليها من الممالك الأوربية الأخرى لشحنها الى أمريكا

موارد الحكومة

وكان من أهم موارد الحكومة الاسبانية المكوس والضرائب التى كانت تجبيها فى أمريكا على المعادن والصادرات والواردات وغيرها ، فقد بلغ مجموع دخل خزانة اسبانيا من أمريكا فى أواخر القرن الثامن عشر نحو ٠٠٠و٠٠٠و١٨ جنيه كان يصرف منها على ادارة المستعمرات نحو أربعة أخماسها

دار التجارة

وكانت الحكومة الاسبانية منذ عام ١٥٠٣ أسست مصلحة للتجارة فى « اشبيلية » أعظم مدينة تجارية فى جنوبى اسبانيا فى ذلك الوقت ، وسمتها « دار التجارة » . وقد تم نظام هذه المصلحة واستعدادها بعد أربعين عاماً من تأسيسها ، فأصبحت واسطة المخابرات بين اسبانيا

ومستعمراتها فى كل ما يتعلق بالتجارة . ومع ان ادارة شؤونها كانت على وجه عام تحت اشراف مجلس الانديز أو وزيرها (وزير الانديز) كان لعمالها الحق فى المفاوضة مع الملك رأساً

مرافقة الاسطول للمتاجر

ولكى تحفظ اسبانيا سفنها التجارية من غارة سفن الأعداء ، وتمنع تهريب البضائع ، وضعت نظاماً يقضى بحراسة الاسطول لمتاجرها أنفذته عام ١٥٦١ . فكانت سفنها التجارية لا تقلع فى السنة الا مرة من اسبانيا وأخرى من أمريكا ، الا اذا أذن الملك بغير ذلك ، وتقلع على دفعتين تحرسها المراكب المسلحة . وكان الاتجار مع المستعمرات محرماً على السفن الأجنبية ، حتى على سفن المستعمرات فيما بينها الا اذا كانت فى رفقة الاسطول الاسبانى وقت وجوده بالمياه الامريكية .

اسطولا الشمال والجنوب

فكان « الاسطول الشمالى » يخرج من اسبانيا قاصداً « فيرا كروز » مشحوناً بالبضائع التى توزع على الجهات المختلفة فى امريكا الشمالية ثم يشحن هناك بالبضائع الى أوربا . أما « الاسطول الجنوبى » فكان يقصد ميناء « بُرتوبلّو » على برزخ « بنما » ، ومن ثم توزع بضائعه على جهات امريكا الجنوبية ثم يشحن بالبضائع الى أوربا

فشل هذا النظام

على ان كل هذه الطرق لم تجد نفعاً لحماية المتاجر الاسبانية ، اذ لم يتسن لسفن اسبانيا الضخمة أن تحمى نفسها من عبث سفن لصوص البحر من الانجليز والهولنديين والفرنسيين ، لما كانت تمتاز به سفن اللصوص من خفة الحركة والسرعة . ولم يعمل عمال الحكومة على مقاومة مهربى البضائع سواء أكانوا أجانب أم من البلاد نفسها ، فان قلة عدد السفن الاسبانية ، وقلة اسفارها ، وماكان يدفع على حراستها ، مع كثرة المكوس التى تجبى على البضائع ، وقصر انزالها على بضعة ثغور : كل ذلك سبب ارتفاع أثمان المتاجر الاوربية ارتفاعاً فاحشاً سهل تهريب البضائع الانجليزية والهولندية بعلم الموظفين من الاسبان ، اذ كانت تباع بأثمان بخسة . وقد ازداد هذا الامر بعد أن أذن لانجلترة عام ١٧١٣ بشحن سفينة بالبضائع الانجليزية كل عام والاتجار بها فى سوق « برتوبلو » ، وباحتكار تجارة الرقيق فى امريكا الاسبانية

تهريب البضائع

بعض الاصلاح

ولم يحل منتصف القرن الثامن عشر حتى أحست الحكومة الاسبانية بشدة الحاجة الى اصلاح نظام تجارتها مع المستعمرات ، ففى عام ١٧٤٨ نبذت النظام المتبع واستعملت سفناً سريعة تقلع من حين الى آخر ، ثم فتحت كثيراً من الموانى الامريكية للتجارة ، وأباحت اتجار بعض المستعمرات مع بعض ، وسرى ذلك الى البرازيل . ورغم هذه الاصلاحات بقيت المواصلات بين المستعمرات واسبانيا بطيئة ، فكانت المراسيم الملكية تستغرق ١٧ شهراً فى وصولها من اسبانيا الى « ليما » مثلاً . كذلك كانت المواصلات بين المستعمرات أنفسها بطيئة ، لوعورة المسالك وسوء حال وسائل النقل

الحالة الاقتصادية فى البرازيل

أما البرازيل فقد تقدمت فيها الزراعة وتربية الماشية تقدماً كبيراً ولا سيما الجهات الجنوبية الشرقية ، فكان يزرع فيها قصب السكر والطباق والقطن وقليل من الارز وغيره ، ولم يجلب البن الى هذه الأنحاء الا عام ١٧٦٠ . وانتشر من الاعمال جمع البندق البرازيلى وقطع خشب

البرازيل الذى هو من أنفس المواد المستعملة فى الصباغة ، ولم يكن للتعدين فى هذه البلاد شأن يذكر الاّ فى خلال القرن الثامن عشر ، اذ لم تكشف مناجمها الا بين سنتى ١٦٨٠ و ١٧٣٠ ومن ذلك الحين صار انتاجها فى جنوبى البرازيل عظيماً جداً . أما الصناعات فكانت فى البرازيل أقل منها فى المستعمرات الاسبانية ، اللهم الاّ صناعة (مشروب) الروم ومستخرجات قصب السكر التى كانت تصدر الى البرتقال ويورد بدلاً منها الدقيق والاقمشة والنبيذ وغيره

وقد بلغ دخل حكومة البرتقال من البرازيل فى القرن الثامن عشر نحو ٢٠٠٠٠٠٠ جنيه فى العام من الضرائب والمكوس وغيرها

عرقلة التجارة فيها

على أن الحكومة البرتقالية أخذت تضع العراقيل العديدة فى سبيل التجارة والصناعة فى البرازيل ، وذلك للرغبة فى تشجيع صناعات البرتقال نفسها وتجارتها ، وحرصاً على فائدة التجار الانجليز الذين صار لهم الشأن الاكبر فى التجارة البرتقالية منذ أوائل القرن الثامن عشر*. فاحتكرت الحكومة من أول الأمر تجارة خشب البرازيل ، ثم قصرت على بعض الافراد والجماعات من البرتقال والاجانب الحق فى الاتجار فى بعض المواد ، وحرمت مبادلة التجارة بين شمالى البرازيل وجنوبيها . هذا الى أنها عرقلت عمل الروم وحرمت كل صناعة النسيج تقريباً . ولم يكن للبرتقال مركز لادارة تجارتها مثل « دار التجارة » فى اسبانيا . أما النظام الذى اتبعه الاسبان وهو مرافقة الاسطول للمتاجر فكان متبعاً عند البرتقال أيضاً لمدة ما ، غير ان الامتيازات التى كانت تمنح للافراد والجماعات جعلته قليل الفائدة

الفصل الثانى

المستعمرات الهولندية

الهولنديون ونقل البضاعة

كان الهولنديون أول من نزل مضمار الاستعمار بعد البرتقال والاسبان ، وبقُوا امة مستعمرة قوية طوال القرن السابع عشر . وبحسب موقع بلادهم أصبحوا أمة بحرية تجارية ؛ فاحتكروا بعد اهتداء البرتقال الى طريق الهند جَلْبَ التجارة الشرقية من أشبونة (لشبونة) الى جميع البلدان الأوربية. فلما ضمت اسبانيا اليها مملكة البرتقال حرم فليب الثانى تجار الهولنديين الاستبضاع من اشبونة تأديباً لهم على ثورانهم (انظر حرب خروج هولندة على الاسبان) . فخاف الهولنديون حرمانهم مصدراً عظيماً

تأثير حرب الاستقلال

* نال الانجليز هذا الامتياز من البرتقال أثناء حرب الوراثة الاسبانية

للثروة ؛ وأخذوا يتطلعون الى خوض البحار الشاسعة والارتحال بأنفسهم الى الشواطئ الهندية والأمريكية ، كما فعل البرتقال والاسبان من قبلهم . فكان لهم من إقدامهم وثباتهم أكبر ناصر فى ذلك ، ولا سيما بعد أن ظهروا على اسبانيا فى حرب استقلالهم

ابتداء تجولهم فى البحار

ولم يكن هذا العمل بالأمر الهين فى بدايته ، لما كان للبرتقال والاسبان من السطوة فى تلك البحار ، بل لم تكن الطريق الى الهند معروفة لغير البرتقال الذين كتموا وصفها وجعلوها سراً خفياً فى أنفسهم . فحاول الهولنديون الوصول الى الصين واليابان من طريق البحار الشمالية ، فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً ، فبقوا ينشدون ضالّتهم الى أن عاد « لِنْشوتِن » الهولندى من الهند ونشر وصفاً لتجارة الهند والملاحة فى المحيط الهندى . فأخذوا من ذلك الحين يتجولون فى هذه البحار ، ولم ينتهِ القرن السادس عشر حتى تم لهم الطواف حول رأس الرجاء الصالح وباشروا بأنفسهم التجارة على الشواطئ الهندية . وسهل عليهم ذلك كسر الانجليز لشوكة الاسبان البحرية فى حرب الأرمادا ؛ مما استتبع جرأة السفن الانجليزية والهولندية على مناوأة تجارة اسبانيا فى البحار . فمن ذلك أن أمير البحر الهولندى « هيمسكيرك » دمَّر أسطولاً اسبانياً عظيماً فى خليج جبل طارق عام ١٦٠٧

لنشوتن

هيمسكيرك

تاسيس الشركات

وقد أخذ الهولنديون منذ ابتداء نهضتهم الجديدة فى الملاحة يؤسسون الشركات التجارية لتسهيل التجارة . فأُسست أول شركة هولندية فى أمستردام عام ١٥٩٤ ، وتبعتها شركات أُخرى أسست فى روتردام وهورن وزيلندة وغيرها . ثم رأت الحكومة الهولندية ان هذه الشركات الصغيرة لا تقوى على نشر التجارة ومزاحمة البرتقال الذين كان بأسهم لايزال شديداً ، فضمتها جميعاً بعضها الى بعض وألّفت منها شركة واحدة سميت « شركة الهند الشرقية الهولندية » عام ١٦٠٢ ؛ فكان ذلك فاتحة عصر جديد للتجارة الأوربية أصبحت فيه الشركات أقوى دعائمها وأمضى سلاح للذود عن حياضها

أهم اسباب ذلك

ومن أهم الأسباب التي دعت الى تأسيس الشركات التجارية الكبرى فى القرن السابع عشر ما يأتي :

أولاً — ان المتاجر كانت فى ذلك الوقت يتهددها خطر لصوص البحار ، فلم يكن بد لحمايتها من حملها فى عدد كبير من السفن تذهب وتجئ معاً ، وبها من الجند والملاحين والعدد الحربية ما يكفى لمكافحة من يعتدى عليها

ثانياً — ان عدم وجود « قناصل » أو سفراء للممالك اذ ذاك فى الجهات التى ينزلها تجارها أحوج الى تكوين جماعة منتظمة تقوم بحفظ كرامة أولئك التجار فى هذه الانحاء ، والدفاع عن حقوقهم ومفاوضة أمراء تلك الجهات ، وابرام المعاهدات التجارية معهم

ثالثاً — عدم مقدرة الأفراد أو البيوتات التجارية الصغيرة على اعداد الأموال الكافية والقيام باعباء الملاحة والتغلب على أخطارها ، لخلو تلك الأزمان من أفراد يملك كل منهم ثروة طائلة مثل التى نراها الآن فى يد أفراد التجار الأمريكيين . وكانت السفن صغيرة رديئة الصنع بطيئة السير . وكان فن الملاحة لايزال فى طفولته ؛ ذلك الى عدم وجود المصارف (البنوك) والوكلاء التجاريين ونحو ذلك مما سهل التجارة فى عصرنا هذا

١٦٠٣ شركة الهند الشرقية الهولندية

ولننظر الآن كيف كان نظام شركة الهند الشرقية الهولندية . وكيف تسنى لها نشر تجارة هولندة وبسط نفوذها فى جهات عديدة وراء البحار

انشاؤها

ألفت الشركة من الجمعيات التجارية الصغيرة التى كانت أنشئت من قبل فى بعض مدن هولندة ، وعهد بادارتها الى مجلس ادارة مشكل من سبعة عشر عضواً تختارهم الحكومة من أعضاء ترشحهم الجمعيات الفرعيــة . فكانت واجبات هذا المجلس النظر فى الشؤون العامة فى ادارة الشركة ، وتحريك خيزرانة العلائق السياسية بينها وبين أمراء البقاع التى تتجر معها وراء البحار ، ثم أبرام المعاهدات التجارية . واقامة المعاقل والحصون لحماية التجارة وادارة جميع شؤون الشركة التجارية بوجه عام . وكان مقر المجلس فى امستردام ، ثم أنشئ له فرع فى « بتاوية » بجزيرة جاوة عام ١٦٠٣ . وبقى لكل من الجمعيات الفرعية نصيب معين من رأس مال الشركة

ادارتها

تنال الأرباح بنسبته فتقسمها على حملة سهامهـا ممن اشتركوا فى تكوين رأس مال الجمعية . ومن ذلك يُعلم أن هذه الشركة كانت فى نظامها بمثابة حكومة نيابية صغيرة ؛ فاذا اضفنا الى ذلك أن الحكومة نفسها كانت تشرف على ادارتها ، وان غرضها الأول لم يكن الاّ توسيع نطاق التجارة الهولندية غيرَ طامعة فى الاستيلاء على تلك الأصقاع بل كانت باذلة كل جهد فى استرضاء أُمرائها ومصادقتهم ، سهل علينا أن نتفهّم كيف تسنى للهولنديين فى زمن وجيز النزول فى كثير من الجهات النائية و بسط نفوذهم التجارى فيها ، بل استعمارها بالطريقة التى امتازوا بها عن غيرهم ، مما مهّد لهم الاستيلاء بعدُ على مستعمرات شاسعة لا تناسب صغر بلادهم وقلة عددهم . وكان أساس هذه الطريقة طلب التجارة دون سواهـا ، فلم يضموا الى ذلك شيئاً من المآرب الدينية التى كانت عند البرتقال والاسبان ؛ أو حب الاستطلاع والاقدام الذى كان من أجلى مظاهر الاستعمار الفرنسى ؛ كما لم يطمحوا الى تكوين مستعمرات تنزح اليها جالية بلادهم حيث يجدون فيهـا موطناً جديداً كما هو شأن الاستعمار عند الانجليز ؛ اللهم الاّ اذا استثنينا جنوبى افريقية الذى لايزال العنصر الهولندى هو السائد فيه الى عصرنا هذا

مزايا نظامها

مميزات الاستعمار الهولندى

بدأ انتشار الهولنديين فى الشرق منذ عام ١٥٩٨ . اذ خرج أمير البحر الهولندى « و يرويك » فى حملة بحرية قهر بها أساطيل البرتقال والاسبان وأسس محطة تجارية للهولنديين فى جزيرة « جاوة » عام ١٥٩٨ . ومن ثم أخـذ الهولنديون ينشرون تجارتهم فى جميع أنحاء جزائر « الملايو » ؛ تارة بطرد البرتقال من هذه الجهات بالقوة ، وطوراً بإبرام المعاهدات التجارية مع الأهالى ، على أن يحتكر الهولنديون التجارة معهم ويُسمح لهم بانشاء المحطات التجارية فى بلادهم جزاء قيامهم بحماية الأهالى من البرتقال الذين كثر ظلمهم واشتد عسفهم وأصبحوا آفة فى هذه البلاد . ومن أهم الجزر التى نزلها الهولنديون « تيمور » (١٦٠٥) و « أمبُوينة » (١٦٠٧) ، وكلتاهما من جزائر « البهار » . وفى سنة ١٦٠٦ حاصروا مدينة « ملَقا » من امهات مراكز

استعمار جاوة

جزائر البهار

تجارة البرتقال فى الشرق ؛ فبددوا شمل الاسطول الاسبانى المدافع عنها فى موقعة فاصلة كانت فاتحة لاشتداد أزرهم فى تلك البحار. ولما اتسع نطاق تجارتهم فيها أنشئوا لهم عاصمة فى جزيرة جاوة تسمى « بتاوية » عام ١٥١٩ ، ومن ثم أخذوا يتمّون فتح الجزيرة ، تارة بالقوة وطوراً بالمعاهدات ، حتى تم استيلاؤهم عليها ؛ فصارت ولا تزال أنفس مستعمراتهم

سومطرة و برنيو

ومن وقت استيلائهم على هذه الجزيرة زاد نشاطهم فى البحار الشرقية ، وأخذت أعمالهم التجارية والاستعمارية فيها صبغة جديدة منتظمة ؛ فلم يلبثوا طويلاً حتى انشئوا لهم محطات تجارية فى جزيرتى «سومَطْرة» و «بُرْنِيُو» بالاتفاق مع أهلهما وصارت لهم فيهما تجارة عظيمة . وأعظم من ذلك أنهم فى عام ١٦٣٦ عقدوا معاهدة مع أمير جزيرة « سَرَنْدِيب » (سيلان) على أن يحتكروا تجارة الجزيرة جزاء حمايتها من البرتقال الذين كانوا يملكون فيها عدة مواقع . فبقيت الشركة تواصل الجد حتى تم لها الاستيلاء على الجزيرة . فبقيت املاكاً لها مدة قرن ونصف كانت فيها أنفس مستعمرة لهم بعد جاوة ، ومنها امتدت تجارتهم الى شواطئ الهند ذاتها ؛ فانشئوا لهم محطات تجارية على شاطئ « مليبار » وشاطئ «الكُرُمَنْدِل» . وفى عام ١٦٤٠ تم استيلاؤهم على مدينة ملقا ؛ فأصبحوا أصحاب السيادة فى مضيق ملقا ، وعظم بذلك شأن تجارتهم مع سيام ، وجزائر « سِلِبِيس » الى أن استولوا على معظم تلك الجزر عام ١٦٦٢

سرنديب

شواطىء الهند

فتح ملقا

التجارة فى الشرق الاقصى

على أن فَوَاق الهولنديين على غيرهم من ممالك أوربا فى التجارة تجلَّى فى الشرق الأقصى اكثر منه فى أى بقعة أخرى من بقاع الأرض . ففى سنة ١٦٢٣ أرسلت الشركة حملة الى جزيرة « فُرموزَة » ، فاستولت عليها وانشأت بها معقلاً ، ولم تلبث أن صارت مركزاً عظيماً للتجارة مع الصين واليابان . وأعظم البضائع التى كانت تُجلب من تلك الجهات الحرير والشاى الذى كان الهولنديون أول من جلبه الى أوربا . وكان البرتقاليون قد سبقوا الهولنديين الى اليابان ؛ ولكنهم لم يستقروا فيها طويلاً ، لغضب اليابان عليهم ؛ فلما قدم اليها الهولنديون استعملوا المهارة والمثابرة حتي احتكروا تجارة

تلك البلاد وبقوا هم الأمة الأوربية الوحيدة التي تتجر معهم أكثر من قرن من الزمان

ولم تلههم تجارتهم الواسعة في الشرق الاقصى عن الاتجار غربي بلاد الهند؛ فاتخذوا لهم محطة تجارية على الخليج الفارسي عند «بَنْدَر عباس»، ومنها اتسعت تجارتهم داخل بلاد فارس حتى منحهم الشاه حرية مطلقة في التجارة ببلاده (١٦٤٥). واتجروا أيضاً مع شواطئ بلاد العرب؛ فنزلوا في «مخا»؛ وكان لهم الفضل في نقل البن منها الى أوربا لأول مرة عام ١٦١٦، (كما نقلوا الشاي من الصين عام ١٦١٠) كما قدمنا

في فارس وبلاد العرب

وقد أدّى نشاط الهولنديين في البحار الشرقية الى كشف الستار عن معلومات هامة جديدة في علم تقويم البلدان؛ فقد قام أحد ملاحيهم «سپلبرْجن» بين عامي ١٦١٤ و ١٦١٥ برحلة شبيهة برحلة «ماجلان» للطواف حول الأرض، وقام «لمير» برحلة أخرى (١٦١٥ – ١٦١٦)؛ فكُشف فيهما جزائر عدة في المحيط الهادي لم تكن تعرف من قبل. ولم تقف رحلاتهم في الجزائر الاوقيانوسيــة مدة الثلاثين سنة الأولى من القرن السابع عشر؛ فقد اهتدوا فيها الى شمالي «غانة الجديدة» وشواطئ استراليا الغربية والجنوبية والشمالية؛ وما زالت الأسماء الهولندية العديدة المطلقة على كثير من بقاع شواطئ القارة شاهداً خالداً بسَبْقهم الى تلك الجهات*. غير انهم لم يوفقوا في رحلاتهم الى كشف الشاطئ الشرقي الجنوبي من القارة الذي هو أخصب بقاعها وأنفسها، وقد كان جدب الجهات التي وصلوا اليها سبباً في عدم استعمارهم لها استعماراً جدياً. ومع ذلك اطلقوا عليها اسم «هولندة الجديدة»، وبقيت معروفة بهذا الاسم الى منتصف القرن التاسع عشر

الطواف حول الارض

الاوقيانوسية

هولندة الجديدة

ومن أعظم ما اهتدى اليه الهولنديون في الأوقيانوسية جزيرة «طَسمانيا» التي كشفها الملاح العظيم «طسمان» عام ١٦٤٢، فبرهن بكشفه إياها على ان استراليا ليست متصلة بالاراضي الشاسعة التي كان يزعم بطليموس الجغرافي وجودها في المحيط

طسمانيا

* من ذلك رأس «ديرك هرتوج» المسمى باسم كاشفه (١٦١٦)، ورأس «ليون» الذي كشف سنة ١٦٢٣، وخليج كربنتاريا الذي كشفه «كربنتر» عام ١٦٢٧

المتجمد الجنوبي . ولهذا المستكشف العظيم يرجع الفضل أيضاً في كشف « زيلندة الجديدة » وجزائر « فيجي » و « الاصدقاء » زيلندة الجديدة

استعمار جنوبي افريقيــة

ولما عظم شأن التجارة الهولندية في المشرق رأت الشركة وجوب انشاء محطة لها في جنوبي افريقية ، للتقليل من عناء تلك الرحلة الطويلة ، والتزود منها بما يلزم من الماء والخضر وغيرهما ، واصطحاب الأدلاء الواقفين على مواضع الخطر في تلك المياه ، ليقودوا السفن حتى تخرج منها . فأنشأت الشركة محطــة عند رأس الرجاء الصالح عام ١٦٥٢ وأوفدت لاستعمارها «ريبيك» ومعه نحو ١٠٠ رجل من الصناع والجند والملاحين ؛ فكان ذلك مبدأ استعمار الهولنديين لجنوبي افريقية . وكان نمو هذه المستعمرة بطيئاً في أول الأمر ، لقلة النزلاء الذين كانوا يفدون عليها من هولندة ، ولنفور قبائل الهوتنتوت من المستعمرين وقلة ميلهم الى العمل ، وقد سرت عدوى كسلهم الى الهولنديين أنفسهم . وبقيت المستعمرة على هذه الحال الى أن عهد بحكمها الى « سيمون فان دِرْستل » (١٦٧٩ – ١٦٩٩) أعظم حكام الرأس في القرن السابع عشر ، فكشف جهات كثيرة على الشاطئ وفي الداخل ، وشجع على الهجرة الى المستعمرة ، وحض النزلاء على الاشتغال بالزراعة ، وآزرهم بكل الوسائل ، وغرس في المستعمرة أنواعاً شتى من الأشجار ، وأدخل فيها كثيراً من المزروعات الجديدة ، فتقدمت الزراعة فيها شيئاً فشيئاً حتى صارت حاصلاتها تفي بجميع حاجات النزلاء ؛ ثم زادت عليها ، فصدرت الحبوب منها الى جزائر الهند منذ عام ١٦٨٤ ، وصدر النبيذ الى سرنديب منذ عام ١٦٨٨

سيمون فان درستل

تقدم المستعمرة

الهيجونوت في جنوبي افريقية

على أن تقدم المستعمرة الحقيقي واتساع رقعتها وازدياد رخائها لم يبلغ أشده الا سنة ١٦٨٧ ، حينما هب كثير من الهيجونوت يفرون من وجه لويس الرابع عشر ويفدون عليها ، فاستوطنوها بأسراتهم ، وجدّوا في فلح الأرض ، ونشروا فيهــا الحرف والصناعات

ولما استعملت الشركة الشدة مع النزلاء ، وضيقت عليهم الخنــاق في أعمالهم

الزراعية ، كره كثير منهم الزراعة وشرعوا يرتحلون الى الداخل طلباً للنزول فى أراض واسعة يعيشون فيها برعى الأغنام والماشية ؛ فكان ذلك ابتداء تكوين الشعب الهولندى لمستعمرات جديدة فى داخل افريقية مستقلة عن مستعمرة الرأس

الارتحال الى الداخل

وبينما كانت شركة الهند الشرقية الهولندية تجدّ فى نشر التجارة وتوسيع نطاق الاستعمار فى جنوبى افريقية والبحار الشرقية ، كانت شركة أخرى هولندية تسعى وراء ذلك الغرض فى البحار الغربية : تلك هى شركة الهند الغربية الهولندية

شركة الهند الغربية

أخذ الهولنديون يتطلعون الى الاتجار مع شواطئ القارة الجديدة الامريكية منذ أواخر القرن السادس عشر. ففى سنة ١٥٩٣ عرج « بارنت إركزن » الهولندى (أثناء رحلة الى بلاد غانة بافريقية) على شواطئ البرازيل مجتازاً المحيط الأطلنطى، فوقف على خيرات هذه الأصقاع ، ومنذ عودته الى هولندة كثرت رحلات الهولنديين الى سقى الأمزون وشواطئ «غويانة». ولما عظم شأن تجارتهم بها أسست «شركة الهند الغربية الهولندية» سنة ١٦٢١ لحمايتها وتقويض أركان تجارة اسبانيا فى تلك البحار. وأول عمل جدي قامت به الشركة أن أرسلت القائد « يعقوب وُلكِنْز » فى أسطول للاستيلاء على «باهية» (سان سَلْوَادور) حاضرة البرازيل؛ فانتزعها من يد الاسبان بعد حرب عنيفة عام ١٦٢٤ . فعز على الاسبان خروج هذا المركز التجارى العظيم من أيديهم ؛ فأعادوا الكرة عليها واسترجعوها سنة ١٦٢٥ . واستمر النزاع بين الطرفين على هذه المدينة الى سنة ١٦٣٩ . اذ قهر الهولنديون الاسبان فى موقعة بحرية عظيمة كانت آخر مشهد ظهرت فيه الأساطيل الاسبانية فى المياه البرازيلية .

الاستيلاء على حاضرة البرازيل

وفى أثناء ذلك كان الهولنديون يوسعون منطقة تجارتهم فى البرازيل ، ولا يفترون عن سلب السفن الاسبانية وحمل غنائمها النفيسة الى هولندة

قهر الاسبان فى البرازيل

ولم يأت عام ١٦٤٤ حتى صار للهولنديين اكثر من نصف البرازيل . ولكن لم يساعدهم الحظ بطول حكمهم فيها؛ فما مضى زمن طويل حتى أخذ النزلاء البرتغاليون يثورون عليهم ؛ وعظمت الثورة بمساعدة حكومة البرتغال ، فأخرجوا الهولنديين من

الهولنديون فى البرازيل

البرازيل جملةً عام ١٦٥٤ ؛ وان لم تعترف هولندة رسمياً بخروجهـا من يدها الاَّ عام ١٦٦١

في جهات أخرى من أمريكا

وأما أعمال الشركة خارج البرازيل فأهمها أنها احتلت في أمريكا عام ١٦٢٣ عدة محطات تجارية على شاطئ « غويانة » وأخرى في جزيرة « منهاتَّان » عند مصب نهر هدسُن . ونمت مستعمرة منهاتَّان حتى صارت تشمل أجزاء من الولايات المعروفة الآن بنيويورك و« كُنـكْتِكَت » و« نيُوجِرسى » و« دِلاوَر » و« بِنْسِلْفانيا » ؛ وكانت عاصمتها تسمى « امستردام الجديدة » ، وهي (مدينة نيويورك الحالية)

حالة الشركة الغربية وأغراضها

ولم تثمر شركة الهند الغربية الهولندية من الوجهـة المالية ؛ لأن التجارة لم تكن غرضها الأول كشأن الشركة الشرقية ، بل كانت غايتها سياسية حربية ، وأعظم مآربها مناوأة البرتقال والاسبان والقضاء على التجارة الاسبانية بأمريكا التي كانت أعظم مورد تستمد منه اسبانيا الأموال الطائلة وتنفقها على حروب استقلال هولندة . وذلك ما اضطر الشركة الى انفاق مبالغ عظيمة في بناء الأساطيل وتشييد الحصون والمعسكرات ، مما لم تقو أرباحها على القيام بعبئه . وقد رأينا كيف تسنى لها نيل هذا الغرض ؛ فان فوزها على الاسبان في المياه البرازيلية كان فاتحة لهدم كيان التجارة الاسبانية في أمريكا

أسباب اضمحلال الاستعمار الهولندي

بذلك كونت هولندة دولة شاسعة مترامية الأطراف رائجة التجارة . وكان يُظن أن يكون عمرها طويلاً ، لولا أن أسرعت اليهـا عوامل الضعف والاضمحلال . وتلخص أسباب هذا الضعف فيما يأتي : —

اهمال الزراعة والصناعة

لما كانت التجارة أهم غرض يرمي اليه الهولنديون لم يهتموا كثيراً باستثمار الأراضي التي ينزلونها من الزراعة والصناعة اللتين هما من أهم أركان العمران . ثم اداهم

التقتير على العمال

حرصهم على الارباح الباهظة الى التقتير على عمال شركاتهم في الوظائف والجرايات ، فلجئ أولئك الى الاختلاس والسلب ؛ مما أدى الى افلاس تلك الشركات . على ان غلوهم في احتكار أنواع التوابل والأفاويه ، أعظم موارد تجارتهم ، جرّ عليهم نفقات

عظيمة ناقضت غرضهم الذى أساسه الادّخار والتقتير؛ فانهم كانوا يضطرون الى

كثرة نفقات الاحتكار

تنصيب كثير من العمال والحراس، لمنع الاتجار فى هذه الأصناف الا بواسطة الشركات الهولندية. ثم ان قصر تجارتهم على صنف معين وهو الأفاويه، وعدم طرق أبواب تجارية أخرى، جعلها مهددة بالكساد اذا خرجت تجارة ذلك الصنف من أيديهم

هذا الى أنهم أمة صغيرة لا يناسب عددها ضخامة المستعمرات التى حاولت حكمها؛ فكانت نهضتهم فى ذلك بمثابة شعلة متوهجة ما لبثت أن خمدت واستحالت رماداً. ولما اشتد بهم الجشع فى احتكار تجار الأفاويه نسوا مزاياهم الأولى فى معاملة

الظلم

سكان المستعمرات باللين والتودد اليهم؛ فصاروا يستعبدونهم ويحرقون مزارعهم، ابتغاء تقليل المقادير التى تُستثمر من الأفاويه كى تُرفع بذلك أثمانها. ولهذا السبب

الحروب الاوربية

عينه أغضبوا تجار الأمم الأوربية الأخرى، فجر عليهم ذلك حروباً مع فرنسا وانجلترة كان فيها القضاء على شوكتهم الاستعمارية والتجارية

الفصل الثالث

المنافسة بين انجلترة وفرنسا فى الاستعمار

تمهيد

لما دبّ روح الاستكشاف والاستعمار فى الأمتين الانجليزية والفرنسية، واحتلت كل منهما بقاعاً متجاورة فى الدنيا الجديدة، سرى التنافس التجارى والاستعمارى بين

أصل التنافس

جاليتيهم فى تلك الجهات. ثم أخذ هذا التنافس يعظم بمضى الأيام واتساع نطاق أملاك الأمتين، فصارت كل جالية تستمد المعونة من حكومتها لمظاهرتها على الأخرى؛ حتى أصبح تنافس المتجاورين تنافساً استعمارياً دولياً بين حكومتيهما، وخاضت بسببه

ابتداء التنافس

الدولتان حروباً شعواء فى أوربا. وكان أول ظهور التنافس فى شكله الجدّى الجديد

عام ١٦٦٨ ، إثرَ ابرام التحالف الثلاثى بين انجلترة وهولندة والسويد على فرنسا

ومن هذا العام الى زمن سقوط نابليون بونابرت فى سنة ١٨١٥ خاضت الدولتان بسبب ذلك غمار سبع حروب وهى :

حروب التنافس الاستعمارى

(١)	حرب حلف أُجزبرج[1]	من	١٦٨٩	الى	١٦٩٧
(٢)	« الوراثة الاسبانية	«	١٧٠٢	«	١٧١٣
(٣)	« الوراثة النمسوية	«	١٧٣٩	«	١٧٤٨
(٤)	« السنين السبع	«	١٧٥٦	«	١٧٦٣
(٥)	« استقلال أمريكا	«	١٧٧٥	«	١٧٨٣
(٦)	الحرب بين انجلترة وفرنسا أيام الثورة الفرنسية	«	١٧٩٣	«	١٨٠٢
(٧)	« بين انجلترة ونابليون	«	١٨٠٢	«	١٨١٥

ومهما اختلفت الأسباب التى نشبت من أجلها هذه الحروب[2] فقد كانت الأغراض التى ترمى اليها كلتاهما فى جميعها سبق احداهما الأخرى فى الاستعمار واحراز السيادة البحرية

ويجدر بنا قبل الكلام فى المنافسة الاستعمارية بين الدولتين ان نأتى بشىء من تاريخ تكوين مستعمرات كل منهما فنقول :

١ — « المستعمرات الانجليزية »

ا – اغراض الاستعمار الانجليزى

مميزات الاستعمار الانجليزى

يختلف الاستعمار الانجليزى عن غيره من الاستعمار البرتقالى والاسبانى والهولندى بأن أغراضه الأساسيـة كانت مقصورة على أمرين جوهريين : أولهما اقتصادى والآخر دينى

(١) وقد يسمى حرب « التحالف الاعظم » ، وان كان المشهور ان « التحالف الاعظم » هو الذى عقد سنة ١٧٠١ عند ابتداء حرب الوراثة الاسبانية

(٢) يراجع كل من خمس الحروب الاولى فى مكانه بهذا الكتاب . أما الحربان الاخيرتان فمن مشتملات الجزء الثانى من تاريخ أوربا الحديثة

الحالة الاقتصادية تؤدى الاستعمار

فنشأ الغرض الأول عن الاضطراب الذى حدث فى الحالة الاقتصادية والصناعية بانجلترة فى عهد الملكة اليصابات ، اذ أخذ كبار الملاّك يحوّلون أراضيهم الشاسعة من مزارع الى مراع . وكانت انجلترة قبل هذا الانقلاب مملكة زراعيــة يشتغل ثلثا سكانها بفلح الأرض ، ولم تنتشر المصانع لدرجة تؤذن باستخدام العدد العظيم من السكان الذى أصبح عاطلاً بسبب النظام الجديد . وزاد بؤس القوم أن كبار الملاك لما شرعوا فى تخصيص أرضهم بالمراعى أخذوا يحوطونها بالأسوجة ، فأدخلوا فيها كثيراً من المراعى التى كان يرتع فيها جماهير الفقراء برعى أغنامهم . ثم ان كشف المقادير الوافرة من الذهب والفضة فى أمريكا نقص قيمة هذين المعدنين ، فحدث اضطراب كبير فى الحالة الاقتصادية . فضلاً عن أن اقفال الأديرة فى انجلترة وانتزاع أملاك الكنيسة منها حرم الطبقة الفقيرة من مساعدة كبرى . وقد حاولت الحكومة تلافى هذه الآفات التى تفشى داؤها فى جسم السواد الأعظم من الأمة ، فأجرت شؤوناً عديدة ، وأصدرت قوانين شتى لمساعدة الفقراء والمعوزين ؛ فما أجدى ذلك نفعاً ، ولم يجد الناس أمامهم باباً لتفريج كربتهم وتخفيف ويلاتهم سوى المهاجرة

تأثير نظام الاسوجة

الاضطهاد الدينى

أما السبب الثانى الذى دعا الانجليز الى الاستعمار فهو الاضطهاد الدينى الذى لحق الناس فى عصر اليصابات وجمس الأول : اضطهد فى عهد الأولى الكاثوليك من الانجليز ، واضطهد فى عهــد الثانى طائفة « البيورتان » البروتستنتية . فلجأ المضطهدون الى المهاجرة ، ابتغاء الحرية فى عبادتهم

منافسة الاسبان

ثم انضم الى هذين السببين الجوهريين سبب ثالث سياسى هو السعى وراء منافسة الاسبان أشد أعداء الانجليز فى ذلك الوقت ، فجدّ الانجليز فى تكوين مستعمرات لهم فى شمالى أمريكا يناهضون بها الاسبان فى المكسيك و « بيرو » اللتين كانت ينابيع ثروتهما وأكبر عون لاسبانيا على محاربة انجلترة

ثبات الاستعمار الانجليزى

فيعلم مما تقدم أن الاستعمار الانجليزى نشأ فى مبدئه عن رغبة فى طلب مورد ثابت للرزق كان من المحتم على المستعمرين منهم أن يعملوا على انمائه واصلاحه ؛ فلم يكن شأنهم استنفاد موارد تلك البلاد الجديدة كما كان شأن الاسبان بجشعهم فى طلب الذهب والفضة من مستعمراتهم

ب — المستعمرات الانجليزية فى أمريكا

رحلة جون كبت

يبتدئ تاريخ إقلاع الانجليز الى ما وراء البحار إثر كشف خرستوف كلمب للدنيا الجديدة، اذ خرج « جون كَبُت » من انجلترة مع ولده سنة ١٤٩٦ فى سفرة بالبحار الشمالية الغربية يبغون الوصول الى أرض يعتقدون وجودها فى المنطقة الشمالية؛ فكشفوا « نُيوفَوُنْدلَنْدة » . فلما عادوا الى انجلترة لم تقتنع الأمة الانجليزية بوجود ثمرة من الاتجار مع أهل تلك الجهات ، فنقضت عزمها ، وخمدت فكرة الاستعمار الانجليزى نحو قرن من الزمان؛ ثم ظهرت بعوامل جديدة وهى التى ذكرناها آنفا

السير همفرى جلبرت

ويبتدئ الاستعمار الانجليزى الحقيقى بعام ١٥٨٣ ، اذ خرج « السير هَمْفرى جِلبَرْت » ومعه ٢٦٣ من المهاجرين ليستعمر بهم نيوفوندلندة . فلم يفلحوا فى استعمارهم وغرق همفرى فى عودته الى انجلترة . فخلفه أخوه « السير وُلتَر رالى »؛ فلم يحاول العودة الى استعمار « نيوفوندلندة » بل نزل بمن معه فى « فرْجينيا » سنة ١٦٠٧ ، فكان ذلك فاتحة الاستعمار الانجليزى ومبدأ الامبراطورية البرطانية وراء البحار .

فرجينيا مبدأ الامبراطورية البرطانية

وكان السير ولتررالى قد نال عهداً من الملك بأن يكون هو المالك لجميع الأرض التى يستعمرها مع الاعتراف بالسيادة للحكومة البرطانية؛ فأنفق عليها من ماله الخاص نحو ٤٠،٠٠٠ جنيه ، فى اصلاحها واعداد ما يلزم لها من مرافق العمران . فلما غضب عليه الملك سنة ١٦٠٦ نزع منه فرجينيا وعهد باستعمارها الى « شركة لندن التجارية »



السير وُلتر رالى

شركتا لندن وبلمث

وأصل هذه الشركة انه أُسست بانجلترة عام ١٦٠٦ شركتان تجاريتان باذن من الحكومة سميتا « شركة لندن » و « شركة بِلِمَث » ؛ واتفقتا معاً أن يقتسما الشاطئ الأمريكى من « نوفاسكوشيا » الى فلوريدا ، على أن تستعمر الأولى الجزء الجنوبى وتستعمر الثانية الجزء الشمالى . غير ان ذلك لم يدم طويلاً ؛ اذ فصلت بين منطقتيهما دولتان أجنبيتان : فاستعمر الهولنديون حوض نهر هَدسُن منذ سنة ١٦٠٩ (هولندة الجديدة) ، واستعمرت السويد منـذ عام ١٦٣٦ حوض نهر دلاوَر (السويد الجديدة) . ولم تبقَ مستعمرة السويد فى يدها زمناً طويلاً ، فان الهولنديين استولوا عليها عام ١٦٥٥

الغاء شركة لندن

وقد بقيت شركة لندن تدير شؤون فرجينيا الى أن أُسندت الى الحكومة ادارة هذه المستعمرة ، وصارت « مستعمرة للتاج » عام ١٦٢١ ، اذ حُلّت الشركة

أما شركة بلمث فلم تصب فلاحاً عظيماً أول أمرها ، وبقى استعمارها بطيئاً الى أن هاجر البيورتان من انجلترة إثر اضطهادهم فى عباداتهم ، وأخذوا يفدون على الأراضى التى فى منطقة هذه الشركة عام ١٦٢٠ * . فنتج من نزولهم هذه الجهات خمس مستعمرات هى : « مسّاشُسِت » و « كُنِّـكتِكَت » وجزيرة « رود » و « مين » و « هَمشَيَر الجديدة » . وعُرفت جميعها « بانجلترة الجديدة »

تقدم شركة بلمث

انجلترة الجديدة

ومن ذلك العهد اشتد أزر الاستعمار الانجليزى فى هذه الجهات . ففى سنة ١٦٣٢ استعمر اللورد بلطيمور بإذن من الملك قطيعة « ماريلند » ، وحصل على عهد منه بأن تكون الأراضى التى يكشفها ملكاً له ؛ فأنفق على اصلاحها نحو أربعين ألف جنيه ، وجعلها مقراً المضطهدين من اخوانه الكاثوليك

ماريلند

كارولينا

وفى عام ١٦٦٥ استعمر جماعة من كبار الانجليز قطيعة « كارُولينا » بعد أن حصلوا من الملك على ترخيص شبيه بما منحه لمستعمرى « ماريلند »

وفى هذه الأثناء أحس الانجليز بالضرر الذى يلحق المستعمرات الانجليزية من

* كان عدد المهاجرين فى الهجرة الاولى ١٠٠ نفس سافروا من ثغر بلمث على ظهر السفينة ميفلاور من سفن شركة بلمث التجارية

وجود الأملاك الهولندية حاجزاً بينها . فأرسلت الحكومة الانجليزية عام ١٦٦٤ حملة للاستيلاء على هذه الجهة ، على الرغم من تهادن الدولتين فى ذلك الوقت ؛ فانتقلت هولندة الجديدة والسويد الجديدة الى يد الانجليز فى ذلك العام ، واتصلت المستعمرات الانجليزية بعضها ببعض

انتزاع املاك هولندة

وفى سنة ١٦٨١ وهب الملك شارل الثانى « السويد الجديدة » الى « وليم بن » الشهير عوضاً عن دين له على الملك وقدره ١٦٠٠٠ جنيه . فبذل « وليم بن » فى تعمير هذه المستعمرة كل جهد وأنفق عليها أموالاً طائلة أوقعته فى أشد الإفلاس . واطلاق اسم « بنسلفانيا » على هذه الجهات الى الآن دليل خالد على ما كان له من الفضل عليها

بنسلفانيا

وفى عام ١٧٣٢ أراد « جورج الثانى » أن ينشئ سداً منيعاً تأمن به المستعمرات الانجليزية شر غارات الاسبان من فلوريدا . فعهد بذلك الى شركة أنشأت مستعمرة « جورجية » وقصرت أهم أعمالها فيها على الشؤون الحربية

جورجية

وقد ساعد على اتساع نطاق المستعمرات الانجليزية بأمريكا وتهيئة أسباب عمرانها عوامل كثيرة أهمها :

(١) اتباع المستعمرين للمبادئ الدستورية فى حكم مستعمراتهم وعدم تدخل الحكومة الانجليزية فى شؤونهم الخاصة ؛ مما بعث فيهم نفوساً راقية وهمماً عظيمة

(٢) عدم تقييد المستعمرين بملازمة منطقة معينة ، بل تُركت لهم الحرية فى التوغل فى البلاد والانتشار بين الأهلين الأصليين من الهنود ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . فاتسعت بذلك رقعة المستعمرات الانجليزية اتساعاً عظيماً ؛ فكان المستعمرون كلما ضاقت بهم منطقة ، أو أجدبت أرضها لفرط استغلالها ، تغلغلوا فى البلاد طلباً لما هو أوسع مجالاً وأكثر خِصْباً . يضاف الى ذلك ما اشترطتهُ الحكومة الانجليزية على كبار الملاَّك الذين أقطعتهم تلك الانحاء عند شروعهم فى استعمارها من أن يَفْلَحوا فى زمن معيّن قدراً معلوماً منها ، بحيث إن نقص عن حده خرجت الأرض من أيديهم ؛ فكان فى ذلك أكبر دافع الى تعمير هذه المستعمرات

اسباب تقدم المستعمرات الانجليزية .

(٣) لم تفرض الحكومة الانجليزية على هذه المستعمرات شيئاً من الضرائب ، وإنما كانت تجتزئ عن ذلك في بداية الأمر بما فرضته على الشركات الانجليزية التى كانت تتجر مع تلك الجهات

(٤) كثرة المهاجرة من انجلترة الى هذه المستعمرات لأسباب دينية واقتصادية ومساعدة هذه الأسباب على جعل السواد الأعظم من المستعمرين من طبقات سامية الغرض ذات عزيمة على العمارة صادقة : فثبت قدم الاستعمار في تلك الجهات وساعد على تضاعف عدد سكانها

بعض مواضع نقص

فمما تقدم يُرى أن جميع الأحوال ساعدت على نمو المستعمرات الانجليزية بامريكا فوق أساس مكين ، مع إنبات نسل نبيل توافرت لديه أسباب الحضارة والعمران . وفى الحق لم يلوث تاريخ استعمار هذه الجهات الاَّ ثلاثة امور، لولاها لكان أمجد تاريخ شعوب الأرض . وأول هذه الأمور أن المستعمرين لمَّا شعروا بقلة عددهم وعدم كفايتهم لاستغلال هذه الأراضى الشاسعة . جلبوا اليها من انجلترة الكثير من المذنبين السياسيين والمجرمين ممن اكتظت بهم السجون ؛ فكان لذلك اضرار سياسية وخُلقية عظيمة . ولهذا السبب عينه أخذوا يجلبون العــدد الوفير من العبيد الذين كانوا يُقتنصون من افريقية ويساقون زمراً الى تلك الجهات ، حتى غصت بهم «فرجينيا» وما جاورها من الولايات الجنوبية . وقد زادت تجارة الرقيق فى هذه الأنحاء زيادة فاحشة إثر معاهدة أترخت عام ١٧١٣ ، إذ خُوِّلت انجلترةُ الاستئثار بجلب الرقيق الى أمريكا . وفضلاً عما لحق مستعمرى أمريكا من العار لإساءتهم فى معاملة هؤلاء الأرقاء وتسخيرهم كالحيوان ، قد أوجد انتشارهم بأمريكا وتناسلهم بها مشاكل داخلية كبيرة كانت ولا تزال سبباً فى اقلاق بال الأمريكيين ، والأمر الثالث اضطهاد المستعمرين للهنود الحمر سكان البلاد الأصليين ، وافراطهم فى ذلك حتى أبادوا معظمهم وألجئوا ما بقى منهم أن يفروا الى الفلوات القاصية والأقطار السحيقة . وكان الفريقان على وئام عند ما كان المستعمرون مستضعفين فى الأرض ، فلما أنسوا من أنفسهم القوة فتكوا بهم وأبادوهم ، بحجة أنهم أجناس بربرية ليسوا أهلاً للتمدين والحضارة . وكان ابتداء فتكهم بهم عام ١٦٢٢ عند ما نشبت الحرب بين الفريقين

حـ - المستعمرات الانجليزية فى الهند

مناوأة الانجليز لاسبانيا

كانت البرتقال هى الأمة الأوربية الفذة التى تتمتع بتجارة الهند والبحار الشرقية حتى ورثها الاسبان فى هذه التجارة عام ١٥٨٠ . ومن ذلك الحين أخذت انجلترة توجه أنظارها الى الاتجار فى هذه الأنحاء وتثبيت قدمها فيها ، مدفوعة بعاملين جوهريين : أولهما سياسى ، وهو العمل على كسر شوكة اسبانيا ، والآخر تجارى ، وهو حرمان الاسبان من احتكار التجارة الهندية العظيمة الأرباح ، وتحويل جانب منها الى أيدى الانجليز

وقد كان اضعاف الانجليز لقوة اسبانيا البحرية فى حرب «الارمادا» عام ١٥٨٨ أعظم مساعد على انفاذ هذا العزم . ففى عام ١٥٩١ أقلعت حملة بحرية الى الهند لأول مرة ، فلم تفز بمأربها وحاقت بها المصائب . فلم يثن ذلك من عزم الانجليز ، وأنشئوا عام ١٦٠٠ شركة لهذا الغرض تدعى « شركة الهند الشرقية الانجليزية »

شركة الهند الشرقية ومنافسة الهولنديين لها

فكان تأسيس هذه الشركة سابقًا لتأسيس نظيرتها الهولندية ؛ ولكن الأخيرة كانت أكثر منها ثروة وأشد بأسًا ، فصارت أكبر عائق لنمو الشركة الانجليزية

المحطات الانجليزية الاولى

على أن الانجليز أخذوا يعملون على تقوية شوكتهم وخطبة ود أمراء الهند ، حتى تم لهم فى عام ١٦١٢ انشاء محطة تجارية فى « سوراط » ؛ ولم تأت سنة ١٦١٦ حتى صار لهم بالهند أربع محطات تجارية وهى : « برهمابور » و « اجمير » و « اغرا » و « سوراط »

الانجليز والهولنديون

وكان لايزال للبرتقال تجارة عظيمة فى الهند ؛ فأخذوا يدسون للانجليز الدسائس عند أمرائها ، ويعملون على مناوأة تجارتهم ما استطاعوا . على أن ذلك لم يشغل بال الانجليز كثيراً ، لعلمهم أن البرتقال أمة بلغت الشيخوخة وأن مناوأتها للانجليز ليست الاّ زفرات الموت ؛ فأعملوا عزمهم فى مشاكسة الهولنديين الذين كان بأسهم يشتد فى هذه الجهات يومًا بعد يوم . فجاءوا لهم من طريق المصادقة ، واتفق الفريقان عام ١٦١٩ على عدم تعرض أحدهما للآخر فى تجارة الهند والبحار الشرقية . ولكن الهولنديين لم يلبثوا أن تخوفوا من منافسة الانجليز ؛ فقتلوا اثنى عشر من تجارهم فى

مذبحة امبوينا

جزيرة « أمبوينا » عام ١٦٢٢؛ فكانت «مذبحة أمبوينا» هذه فاتحة عداء وتنافس تجارى طويل بين الانجليز والهولنديين

تقدم الانجليز

فأخذ الانجليز يعملون بجد لتثبيت أقدامهم فى الهند ، وتألبوا مع البرتغال على الهولنديين ، وسعوا لدى الحاكم المغولى الأكبر حتى أذن لهم عام ١٦٣٢ بانشاء محطات فى الصين وكوشان شين و « برنيو » و « جاوة » و « سومطرة » . وفى عام ١٦٣٣ حصلت الشركة على ترخيص فى انشاء محطات تجارية على ساحل بنغالة، ومن ذلك الحين اهتمت الشركة ببناء المعاقل على ساحل الهند لحماية تجارتها من الهولنديين، فكان أول حصن أقامته فى الهند هو حصن «سنت جورج» (مدراس) سنة ١٦٣٩، فكان النواة التى نبتت منها الامبراطورية الانجليزية فى الهند . وراجت تجارة الشركة فى ذلك الوقت ، فربحت عام ١٦٤٠ ما يراوح بين ١٠٠ و ٢٠٠٪

استمرار منافسة الهولنديين لهم

على أن كل ذلك لم يحفظها بعدُ من منافسة الهولنديين . فبعد ان كان جل تجارة هؤلاء مقصوراً على بحار الشرق الأقصى ، شرعوا منذ قدوم الانجليز الى الهند ينشؤون المحطات التجارية العديدة على سواحل الهند نفسها ؛ وكان أمراء الهند يؤازرونهم فى ذلك، كى يكون بأس الأجانب فى بلادهم بينهم شديداً، ففى عام ١٦١٧ سُمح لهم بالاتجار فى سوراط ، ولم يأت عام ١٦٣٤ حتى كانت قوتهم فى الهند لا تقل عن قوة الانجليز

ضعف الشركة الانجليزية

ثم استفحلت منافسة الهولنديين للشركة حتى أخذت تدخل فى أزمة شديدة ، وكادت تقع فى هوة الافلاس عام ١٦٥٠ . وزادت مصائبها حينما قبض « كرُمْوِل » على زمام الأمور فى انجلترة ، فانهُ أصدر أمراً عام ١٦٥٥ بمنع احتكار الشركة للتجارة الهندية وتيسير سبيل الاتجار لجميع الرعايا الانجليز على السواء . فضعف بذلك شأن الشركة ، ولم يعد فى مقدورها مواصلة الخطة العظيمة التى كانت تعمل لإنفاذها

تقدمها من جديد

ولكن لحسن حظها لم يدم هذا العهد طويلاً ؛ ولما تولى شارل الثانى نالت حظوة لديه ؛ فأعاد لها حقوقها ، ووسع نفوذها ، حتى جعل لها الحق فى اعلان الحرب وشن الغارة على من يقف فى طريق مصلحتها . فكان ذلك فاتحة لطور تقدم عظيم استمر من ١٦٦٢ الى ١٦٨٩

عظم ارباحها

وعظمت أرباح الشركة الى درجة جعلت الحكومة تطمع فيها ، فزادت فى الضرائب المفروضة عليها زيادة كبيرة . وكثرت نفقات الشركة فى انشاء المعاقل والمعسكرات التى أصبحت ضرورية لصد غارات المغول وفى حراسة متاجرها من لصوص البحر الفرنسيين الذين بدءوا يناوئونها . فبقيت تضمحل يوماً بعد يوم ، الى أن أصابتها ضربة عظيمة عام ١٦٩٨ ، اذ سمحت الحكومة الانجليزية بانشاء شركة جديدة للتجارة فى الشرق تسمى « الشركة الانجليزية » . فاضطرت شركة الهند الشرقية الى توقيف تجارتها نحو ثلاث سنين . ثم انضمت الشركتان عام ١٧٠٢ ، لما جرّ تنافسهما عليهما من الخراب ؛ وسميت الشركة الجديدة باسم « الشركة المتحدة لتجار الهند والبحار الشرقية » . فوُضعت بذلك التجارة الانجليزية فى الهند على أساس متين ، وأيد نجاحها ابتداء تدهور الشركة الهولندية

٢ — * المستعمرات الفرنسية *

رحلة فرازانو بأمريكا

بدأ قدوم الفرنسيين الى أمريكا عام ١٥٢٣ اذ أرسل « فرَنسوا الأول » ملك فرنسا « فِرّازانو » لكشف طريق الى الهند من البحار الشمالية الغربية ؛ فكشف جميع الشاطئ الأمريكى من « نيوفوُندلندة » الى فلوريدا . وفى عام ١٥٣٤ خرج فرنسى آخر لمواصلة هذا الكشف يدعى « جاك كَرْتييه » ؛ فوصل الى مصب نهر « سان لوران » ؛ وفى سنة ١٥٣٥ ركب النهر الى موقع مدينة « كِويبك » الحالية ، ثم سار بازاء النهر يكشفهُ حتى بلغ موقع مدينة « مُنْتريال » . عند ذلك سرى روح الاستعمار قليلاً فى نفوس الفرنسيين ؛ فخرج أحد أشرافهم « دِروبرفال » مع كَرْتييه الى كندا لاستعمارها عام ١٥٤٢ ؛ فلم يفلح ، وتأخر الاستعمار الفرنسى خمسين عاماً

رحلة جاك كرتييه

ابتداء الاستعمار

شمبلين ينشىء اكاديا

ويبتدئ تاريخ الاستعمار الفرنسى الحقيقى عام ١٦٠٤ ، اذا أنشأ « شَمْبلين » أول مستعمرة فرنسية فى « أكاديا » وهى المسماة الآن «نُوفاسكوشيا» . وفى سنة ١٦٠٨ أسس شمبلين مستعمرة فرنسية أخرى فى « كويبك » ؛ واهتم بشأنها ، فأحضر اليها المبشرين الدينيين عام ١٦١٥ ، وأنشأ شركة تجارية لتجارة سان لوران . ثم

حالة اكاديا

اهتم الكردنال ريشليو بشأن هذه المستعمرة ؛ فأسس شركة عظيمة تولت ادارتها عام ١٦٣٧ ، ولكنهُ ما لبث ان شغلته مكافحة الهيجونوت عن الاهتمام بشأنها . ومن سوء حظ هذه المستعمرة أنه غالى فى غضبه وسخطه على الهيجونوت ، فحرمهم النزول بكندا ، فحُرمت المستعمرات الفرنسية بهذه الجهات الفوائد الجليلة التى كانت تعود عليها لو نزلتها هذه الطائفة التى عُرفت بجدّها ومهارتها فى الفنون والصناعات

اليسوعيون فى اكاديا

وكادت المستعمرات الفرنسية تُقْصَر فى أول أمرها على طائفة اليسوعيين الذين دخلوها عام ١٦٢٥ ، فأخذوا يتوغلون فيها ابتغاء نشر النصرانية . ولكن مع ما لهذه الطائفة من الشجاعة والجلد ، لم تتوافر فيها الصفات اللازمة للاستعمار . لذلك بقى نموّ كندا بطيئاً الى عام ١٦٦٣ ، إذ نزلت الشركة عنها للحكومة . وفى مائة السنة التالية التى بقيت فيها كندا بيد الفرنسيين (من عام ١٦٦٣ الى أن استولى عليها الانجليز عام ١٧٦٣) اهتمت الحكومة اهتماماً كبيراً بنموها وتوسيع نطاقها

كلبير يؤسس الشركة الغربية

ففى عام ١٦٦٤ أسس « كُلْبير » شركة تسمى « الشركة الغربية » ومنحها احتكار تجارة كندا ؛ ولكن ذلك لم يعد بكبير نفع ، لعدم تشجيع الحكومة الفرنسية على الارتحال اليها ، ولضعف المستعمرين عن التغلب على القبائل الهندية . وبقيت الحال كذلك الى أن عهد بحكم كندا الى رجل من أقدر الفرنسيين حزماً وادارة هو « الكُنْت فرُنْتِناك »

فرنتناك حاكم كندا

ولى « فرنتناك » حكم كندا من ١٦٧٢ الى ١٦٨٢ ومن ١٦٨٩ الى ١٦٩٨ ، فكان كل عهده مصروفاً فى توطيد سلطان الفرنسيين ومقاومة اعتداء القبائل . وفى عام ١٦٧٣ أنشأ «حصن فرنتناك» وراء موضع منتريال ، فامتدت بذلك المستعمرات الفرنسية من المحيط الى البحيرات العظمى

لاسال فى حوض المسسيبى

وفى عام ١٦٨٢ حدث أمر ذو بال فى تاريخ أمريكا الشمالية ، وهو أن المستكشف الفرنسى « لاسال » اهتدى الى نهر المسسيبى ووصل فى سيره الى خليج المكسيك ؛ فضمّ بذلك مساحة جديدة الى الأملاك الفرنسية ، وهى جميع سقى نهر المسسيبى ، وسمى هــذه البلاد « لويسيانا » نسبة الى لويس الرابع عشر . وبعد قليل شرع

الفرنسيون فى استعمارها وأسسوا بها مدينة « أُرليان الجديدة » سنة ١٧١٨

مستعمرة لويسيانا

وقد كان اهتمام الفرنسيين بلويسيانا ، وشدة سعيهم لوصلها بكندا بسلسلة قلاع، مبدأً للشحناء العظيمة التى دارت بينهم وبين الانجليز فى القرن الثامن عشر

الفرنسيون فى الهند

أما المستعمرات الفرنسية بالهند فقد جاء انشاؤها متأخراً ، وتكاد أخبار تكوينها تنطبق على تاريخ التنافس بين انجلترة وفرنسا فى الهند ، ولذلك آثرنا ذكرها فى ذلك المكان

٣ — ﴿ التنافس بين انجلترة وفرنسا فى أمريكا ﴾

التنافس محتم

ظهر التنافس الاستعمارى بين انجلترة وفرنسا فى أمريكا ظهوراً جلياً فى القرن الثامن عشر ، وخصوصاً بعد معاهدة « أُترخت » عام ١٧١٣ . على أننا اذا تتبعنا فيما سبق تاريخ استعمار الدولتين فى هذه الجهات، علمنا أنه لم يكن بد من وقوع التنافس بينهما منذ أوائل القرن السابع عشر. فقد كان استعمار الفرنسيين لأكاديا عام ١٦٠٤، واستعمارهم لكويبك عام ١٦٠٨ . وفى الفترة التى بين السنتين استعمر الانجليز فرجينيا سنة ١٦٠٧؛ فلم يكن مناص من التحام الدولتين فى تزاحمهما على استعمار هذه الجهات

ابتداء العداء

بدأ هذا التنافس سنة ١٦١٣ اذ هجم الانجليز على « بُرت رويال » فى أكاديا، بدعوى أن كل هذا الشاطئ جزء من فرجينيا . فأحرقوا بُرت رويال ، وبقيت المستعمرة خالية الى سنة ١٦٢١. وفى هذه السنة نفسها نشبت الحرب فى أوربا بين فرنسا وانجلترة (فى حصار لاروشل) ، فظهر صداها فى أمريكا ، اذ عمل الانجليز على اخراج الفرنسيين من شمالى أمريكا ، فاستولوا على كويبك سنة ١٦٢٩. ولكنها أعيدت لهم عام ١٦٣٢ . ثم وقف هجوم الانجليز بسبب حروبهم الأهلية

الانجليز ينتزعون الاملاك الهولندية

وفى عام ١٦٦٤ دخلت المستعمرات الانجليزية فى أمريكا فى دور جديد ، اذ انتزع الانجليز من هولندة « نيو أمستردام » وسموها « نيو يورك » ؛ فكان لذلك أكبر أثر فى استعمارهم ؛ فان حلولهم محل الهولنديين فى مصادقة قبائل « الإِيرُكواز »

تأثير ذلك — أشد أعداء الفرنسيين سهل لهم بغيتهم تسهيلاً عظيماً ، ثم ان استيلاءهم على نهر هدسن فتح لهم الطريق الى سان لوران وكندا الفرنسية

وبقى نمو الاستعمار الانجليزى على الرغم من ذلك بطيئاً الى أن حدث الانقلاب الانجليزى فى سنة ١٦٨٨ ودخلت انجلترة فى الحرب الأوربية ضد فرنسا . فرنّ صدى الحرب فى كندا . وكانت قبائل الايركواز قد أغارت على كندا الفرنسية

مذبحة لاشين — عام ١٦٨٩ وذبحوا كثيراً من نزلائها (مذبحة لاشين) ؛ فظن الفرنسيون ان ذلك حدث بتحريض من الانجليز. فغزا «فرنتناك» المستعمرات الانجليزية ثلاث غزوات مظفرة استولى فيها على كثير من قلاعهم ، وقتل وأسر منهم خلقاً كثيراً . فأوجد ذلك فى المستعمرات الانجليزية روح الوحدة والتضافر ؛ فعقدت لذلك مجمعاً فى

مجمع البنى — « ألبَنى » سنة ١٦٩٠ وقررت مهاجمة الفرنسيين براً وبحراً ؛ فلم تفلح ، وبقيت المناوشات بين الفريقين الى أن عقد صلح « رِزويك » عام ١٦٩٧

النزاع بعد صلح رزويك — وبنشوب حرب الوراثة الاسبانية تجددت المنازعات بين الانجليز والفرنسيين فى أمريكا ؛ فأعدّ نزلاء الانجليز بمساعدة الحكومة الانجليزية حملة عظيمة استولوا

فتح اكاديا (نوفاسكوشيا) — بها على « اكاديا »، فسماها الانجليز « نوفاسكوشيا » وبقيت فى أيديهم الى اليوم (الاّ فترات قصيرة أثناء الحرب) . وفى أثناء هـذه المشاحنات اشتد النزاع بين الانجليز والفرنسيين فى جهة أُخرى من شمالي أمريكا . وذلك أن «هنرى هدسُن» الانجليزى أقلع الى الاصقاع القطبية الشماليـة عام ١٦١٠ ، طلباً لكشف الطريق

منطقة هدسن — الشمالية الغربية الى الهند ، فوصل الى مجاز « هدسُن » و« خليج هدسُن». ولكن ذلك لم يعقبه استعمار ، وبقيت الحال كذلك الى سنة ١٦٧٠ اذ أُسست شركة انجليزية تدعى «شركة خليج هدسن»؛ فأنشأت القلاع فى هذه الجهات ، وشرعت فى استعمارها . فأخذ الفرنسيون يهاجمونها بحجة أنهم سبقوا الانجليز اليها ؛ فاستولوا على معظمها ، غير أن الانجليز عادوا واسترجعوها عام ١٦٩٢

معاهدة اترخت — ثم جاءت معاهدة أترخت فى عام ١٧١٣ فاصلة فى أمر كندا ؛ فاعتُرف فيها للانجليز بتملك « أكاديا » و«نيوفوندلَندة» واقليم «خليج هدسن» ، وبقى بأيدى

الفرنسيين « لويسيانا » وحوض « سان لوران » وجزيرة « رأس برِطون » عند مصب هذا النهر . ومن ذلك الحين أقام الفرنسيون على هذه الجزيرة حصن « لويسبرج » العظيم ، فصار مفتاحاً لحوض هـذا النهر ، وعليه كان مدار النزاع بين الانجليز والفرنسيين فى أمريكا فى نصف القرن الواقع بين « معاهدة أُترخت » سنة ١٧١٣ وصلح « باريس » عام ١٧٦٣

فترة سلام

وبقيت انجلترة بعـد معاهدة اترخت مهادنة لفرنسا مدة ثلاثين عاماً تقريباً (١٧١٣–١٧٤٢) لم تشتبك فيها الدولتان فى حرب علنية ، على الرغم من تنافسهما فى المستعمرات ، ووجود النزاع فى ذلك بين جاليتيهما . ومفتاح هذه المهادنة الطويلة موت لويس الرابع عشر عام ١٧١٥ ؛ فبه وقف اعتداء فرنسا على انجلترة . ثم قويت أركان السلم بتقلد « وُلبول » رياسة الوزارة الانجليزية من سنة ١٧٢١ الى سنة ١٧٤٢ ؛ فان هذا الوزير رأى انجلترة قد أنهكتها الحروب الكثيرة وان سلامتها فى ملازمة السلم مدة طويلة ، تُجدّد فيها مواردها وتقوّى تجارتها

سياسة ولبول

بقاء اسباب النزاع

على أن المنافسة الاستعمارية بين فرنسا وانجلترة فى أمريكا كانت قد وصلت الى درجة يستحيل معها دوام السلم بين الدولتين أمداً طويلاً ؛ فكان الانجليز من جهة يطمحون الى الاستيلاء على « جزيرة رأس برطون » ، التى أصبحت بحصنها المنيع المفتاح لحوض نهر سان لوران ؛ ومن جهة أخرى كان الفرنسيون يحقدون على الانجليز لانتزاعهم « نوفاسكوشيا » من أيديهم ، فأبقوا فيها جاليتهم وأخذوا يحرّضونهم على دس الدسائس للانجليز والنكاية بهم

استعداد الفريقين

وكانت الدولتان تشعران بوقوع الحرب بينهما لا محالة فى تلك البقاع ؛ فأخذ كل فريق ينشئ الحصون والمعاقل على تخوم أملاكه . فشيد الانجليز عام ١٧٢٢ حصن « أزوِيجو » على الشاطئ الجنوبى من بحيرة أُنتاريو . فأجابهم الفرنسيون بتشييد حصن « تورُنتُو » أمام حصن أزويجو على الضفة المقابلة له من البحيرة ، وأنشئوا كذلك حصن « سنت فردريك » على بحيرة شَمبلين

كل هذه الحوادث والأسباب كانت تشير الى وقوع الحرب بين الدولتين؛ ولكن

«وُلبول» كان ممسكاً بأذيال انجلترة : يمنعها من خوض غمار أى حرب مهما كانت الأسباب الداعية اليها . وفى عام ١٧٣٩ عقدت اسبانيا وفرنسا تحالفًا بينهما برابطة انتساب الاسرة المالكة فى كل منهما الى اسرة « بُربون » ؛ فشعر الانجليز بما فى ذلك من الخطر على مصالحهم ، خصوصاً ان المنافسة التجارية كانت قائمة على قدم وساق بين انجلترة واسبانيا فى بحار أمريكا الجنوبية . ثم وقعت الحادثة الشهيرة المعروفة بحادثة « أُذُن جِنـكِن » ، وهى ما رواه أحد قوّاد البحر الانجليز المسمى « جنكن » من أن الاسبان قطعوا أذنه غضباً من منافسة الانجليز لهم فى التجارة . فأثار ذلك خواطر الأمة الانجليزية ؛ وهبّوا يندّدون بسياسة « وُلبول » ، ويقولون ان جُبنه سيفضى بانجلترة الى الهلاك ويصمها بالعار والشنار . فتخلى عن رياسة الوزارة عام ١٧٤٢ وخاضت انجلترة غمار « حرب الوراثة النمسوية » التى زخرت بحارها فى أوربا من سنة ١٧٤٠ الى سنة ١٧٤٨

حادثة أذن جنكن

سقوط وزارة ولبول

حرب الوراثة النمسوية

وظهر صدى هذه الحروب فى أمريكا ، بأن بدأ الفرنسيون بمهاجمة المستعمرات الانجليزية وكادوا يستولون على نوفاسكوشيا ؛ ولكن اشتغال فرنسا بالحرب فى أوربا ونشوب الفتنة فى لويسبُرج حالا دون استفحال خطرهم ؛ وهبّت جالية الانجليز بزعامة ولاية «مسّاشُستِ» يدفعون غارتهم ويغزونهم فى عقر دارهم ؛ فهجموا على لويسبرج واستولوا عليها بعد أن حاصروها سبعة وأربعين يومًا . وكان فى نية جالية الانجليز أن يجعلوا استيلاءهم على لويسبرج مفتاحاً للاغارة على كويبك ثم يطردوا الفرنسيين من كندا جملة . ولم يكن كل ذلك ليتم من غير معونة الحكومة الانجليزية ؛ ولكن الحكومة كان يرأسها فى ذلك الوقت «دوق نيُوكاسِل» الذى تُعتبر وزارته أضعف وزارة ظهرت فى تاريخ انجلترة ؛ فلم تنتهز فرصة ضعف الفرنسيين ، وبدا منها من التوانى والارتباك ما مكّن فرنسا من ارسال أسطول كبير لحماية مستعمراتها فى أمريكا سنة ١٧٤٦. ومن حسن جد الانجليز ان عبثت العواصف بهذا الاسطول ؛ وأرسلت فرنسا اسطولاً آخر فى العام المقبل، فقهره الانجليز بالقرب من رأس فِنِستير . ثم حُصرت الحرب فى مناوشات وغارات ضعيفة من الفريقين ، الى أن تمّ الصلح بين الدولتين

الانجليز يأخذون لويسبرج

تقصير الحكومة الانجليزية

صلح اكس لاشبل

فى معاهدة « إكس لاشبل » عام ١٧٤٨، و بهِ عادت الحال فى أمريكا الى ما كانت عليه؛ فردت انجلترة (رغم أنف جاليتها) « لويسبرج » الى الفرنسيين، فى مقابل نزولهم لها عن « مدراس » فى الهند. وقوّى الانجليز بعد ذلك مركزهم فى نوفاسكوشيا بتأسيس مستعمرة حربية قوية فى « نيوهَلِفَكس »

و بقيت انجلترة وفرنسا منذ معاهدة « اكس لاشبل » فى حالة سلم فى الظاهر، الى أن نشبت « حرب السنين السبع » عام ١٧٥٦؛ ولكن المنافسة بينهما فى الاستعمار بقيت متواصلة شديدة بدرجة تفوق شدتها فى الفترة التى بين « معاهدة اترخت » ونشوب « حرب الوراثة النمسوية »

المنافسة على حوض الاهيو

وأساس المنافسة فى هذه الدفعة سقى نهر « الاهيُو »، وهو الذى يشمل الأراضى التى كانت تفصل بين أملاك الفرنسيين فى « كندا » و « لويسيانا ». وكان غرض الفرنسيين انشاء سلسلة قلاع فى سقى النهر تصل بين أملاكهم فى الشمال والجنوب؛ فيضيقون بذلك الخناق على الانجليز من الغرب فيصبحون محصورين بين « جبال أليّجانى » والمحيط. وجدّوا فى ذلك، فلم يحل عام ١٧٥٥ الاّ وقد تمّ لهم انشاء تلك القلاع. وأخذوا أيضاً يكيدون للانجليز فى نوفاسكوشيا، بتحريض جالية الفرنسيين على الكيد لهم

مقصد الفرنسيين

فيقظت جالية الانجليز لهذا الخطر، وقامت المستعمرات الشمالية بشن الغارة على الفرنسيين؛ ولكنها لم تأت بعمل يُذكر، لتقاعد المستعمرات الجنوبية عن نصرتها؛ وكل ما قامت بهِ الحكومة الانجليزية من المعونة أثناء ذلك أن أشارت على جواليها بعقد مؤتمر عام تتفق فيهِ جميع المستعمرات على ما يجب عمله لصد غارات الفرنسيين. فعُقد مؤتمر فى « ألبنى » عام ١٧٥٤ وفد اليهِ أعضاء من سبع مستعمرات انجليزية؛ فقرروا وجوب شن غارة عامة على الفرنسيين، وطلبوا المعونة من الحكومة الانجليزية

حملة بردك

فأرسلت الحكومة حملة صغيرة بقيادة « برَدُك »، فهجمت الحملة على القلاع الفرنسية التى هى موضوع الخطر، ولكنها لم تفلح الاّ فى جهة « نوفاسكوشيا » حيث أُجلى الفرنسيون عنها جلاءً تامّاً (وكانوا قد عادوا الى احتلالها). أمّا فيما عدا ذلك

هدنة كاذبة

فبقى الفرنسيون أصحاب السيادة من لويسيانا الى سان لوران

كل ذلك كان يجرى وفرنسا وانجلترة لا تزالان فى مهادنة ، وما ذلك الاَّ لقلة دراية دوق نيوكاسل وخوفه من الخيبة لو أعلن الحرب ، بَيْنا الفرنسيون مستمسكون بالاستعداد النشيط ، ففى عام ١٧٥٥ أرسلوا الى أمريكا أسطولاً عظيماً و ٣٠٠٠ مقاتل ومعهم حاكم جديد (دِفودراى) رأوه خير كفءٍ لتدبير الشؤون الفرنسية فى المعمعة المقبلة . فبدلاً من أن يعلن نيوكاسل الحرب على فرنسا ، فيحمل على قوتها فى المستعمرات حملة منظمــة قوية ، اكتفى بارسال أسطول انجليزى الى المياه الأمريكية ، ليعترض الأسطول الفرنسى اذا حاول دخول سان لوران . فاشتبك الأسطولان فى ملحمة غير فاصلة فقد فيها الفرنسيون سفينتين ، ولكن أسطولهم لم يُمنع من الوصول الى مقصده . وأرسل الانجليز أسطولاً آخر بقيادة أمير البحر « هوك » للقبض على كل سفينة فرنسية يعثر عليها بين « أُوشَنْت » و« رأس فنستير» واستمر الانجليز فى مناوأة الفرنسيين بهذه الطريقة ، فلم يكمل العام الاَّ وقد استولوا على ثلثمائة من سفنهم ، وأخذوا منهم نحو ٦٠٠٠ أسير حملوهم الى انجلترة . ومع ذلك لم تعلن الحرب بين الدولتين !

نكبات الانجليز

على أن الفرنسيين كانوا خلال ذلك يتأهبون لمناوأة الانجليز فى موقعة فاصلة . فلما كملت عدتهم تظاهروا بالعزم على غزو انجلترة ؛ فخدعت حيلتهم الانجليز وسحبوا أسطولهم من البحر الأبيض المتوسط لحماية جزرهم . فانتهز الفرنسيون الفرصة ، وانقضوا على جزيرة « منورقة » فاستولوا عليها عام ١٧٥٦

وفى هذا العام ذاته لحقت الانجليز المصائب بالهند من جراء كيد الفرنسيين لهم ، فعلاَ ضجيج الأمة الانجليزية بالاعتراض على قادة سياستهم ، وأصروا على اعلان الحرب على الفرنسيين ، فاضطر « دوق نيوكاسل » الى الاستقالة . فتولى الشؤون الوزير العظيم « بِت » ، فتم لإنجلترة بفضل سياسته وبعد نظره الخروج من هذه الأزمة سالمة وبلوغها درجة من الرقى لم تنلها من قبل

فضل وزارة بِت

وفى هذه الأثناء كانت فرنسا دخلت فى حرب أوربية عظيمة ، وهى حرب السنين

السبع . وكان الواجب عليها لو أرادت الاحتفاظ بمستعمراتها أن تقصر همها على الدفاع عنها ؛ ولكن سعيها وراء إعظام مكانتها فى أوربا شتت قواها بين أوربا والمستعمرات، فخسرت القضية من الوجهتين. وذلك أن «بِت» انتهز فرصة دخولها الحرب الأوربية ، فانضم الى جانب بروسيا عدوتها فى تلك الحرب ، ولكنهُ لم يُشغل فيها إلاّ جزءًا يسيراً من قوة انجلترة ؛ واكتفى بمساعدة فردريك الأكبر بالمال وجيش صغير ، مع العمل على قهر الأسطول الفرنسى واحراز السيادة البحرية ، وهيّأ جل قوة انجلترة للاستيلاء على المستعمرات الفرنسية . ومن الكلمات التى أثرت عنهُ فى شرح هذه السياسة : «لا يكون الفصل فى أمر أمريكا الاّ فى الميادين الألمانية» ؛ يعنى بذلك أن مؤازرة انجلترة لأعداء فرنسا ، حتى تُنهك قواها فى الحروب الأوربية، يمكّن انجلترة من انتزاع مستعمراتها

حرب السنين السبع

خرق فرنسا

سياسة بت

وعندئذٍ أعملت انجلترة كل جهدها على الاستيلاء على شمالى أمريكا والهند . ونبدأ بالكلام فى الحرب بأمريكا فنقول :

غزو كندا

بدأ « بِت » مهاجمة الفرنسيين فى كندا ، فعاق نجاحه فى أول الأمر قلة كفاءة القواد الذين نشئوا فى عهد دوق نيوكاسل . من ذلك أنهُ أرسل فى صيف سنة ١٧٥٧ أسطولاً مؤلفًا من ١٥ سفينة و ١٢٠٠٠ مقاتل بقيادة « إرل لودون » ؛ فتمكن الفرنسيون من صد هذه الحملة وانحاز لودون الى نيويورك خائبًا.



بت (لورد شاتام)

فضجت الأمة الانجليزية ، وأصر « بت » على ارسال قوة عظيمة الى كندا تحت إمرة قواد أكفاء من الطراز الجديد، وأن يُبْعد قواد الارسطقراطية ، لخمولهم وقلة كفاءتهم . ورأى أن يهاجم الفرنسيين من ثلاث جهات : فدبّر حملة للهجوم على « لويسبرج » برّاً وبحراً بقيادة « أمْهرست » و « وُلْف » ، وأخرى للهجوم على كندا من الجنوب بطريق بحيرة شمبلين ، والثالثة لقطع طريق الرجعة على الفرنسيين بالاستيلاء على قلعه « ديكوزْن » . فأفلحت الأولى بفضل مقدرة امهرست وولف وحسن تعاون الجيش والأسطول ، واستولت على لويسبرج مفتاح كندا الفرنسية . أما الثانية فخابت ؛ وكان قائدها من الطراز القديم ؛ أُرغم « بت » على اختياره . وأما الثالثة فنجحت في مهمتها ؛ واستولت على قلعـة ديكوزن التي سُميت بعدُ « قلعة بت » تذكاراً لهذا الرجل العظيم

بت يدبر الحروب بنفسه

فتح لويسبرج

قلعة بت

ولم تستطع فرنسا ارسال مدد الى كندا ، لاشتغالها بالحروب الأوربية؛ فانتهز بت الفرصة أيضاً، وبادر باعداد الأهَب للاستيلاء على كندا وطرْد الفرنسيين من أمريكا جملة . ففي عام ١٧٥٩ خرجت حملة بقيادة « سُنْدَرْز » و « وُلْف » للهجوم على كويبك من طريق نهر سان لوران ؛ وفي الوقت نفسه خرجت حملة بقيادة امهرست من الجنوب وُجهتها « منتريال » ، ومنها تعطف على كويبك

الهجوم على كويبك

ولم يكن الاستيلاء على كويبك بالأمر الهيِّن ؛ فقد كانت القوة الانجليزية المهاجمة لا تتجاوز ٩٠٠٠ مقاتل؛ والحامية الفرنسية لا تقل عن ١٥٠٠٠ يقودهم « مُنْتِكَلْم » وكان من أعظم قواد الفرنسيين حذقاً وخبرة ؛ وفضلاً عن ذلك كان موقع كويبك الطبيعي غاية في المناعة : تحميها جبال « أبرَهام » التي تشرف على نهر سان لوران بانحدار عظيم . فحاصر ولف المدينة من جهة النهر وأطلق عليها القذائف ؛ فلم ينل منها وطراً . وكان فصل الشتاء قد أقبل ، ولم يصل « امهرست » لمعونة ولف ؛ وكانت كل الأحوال تنبئ برجوع وُلف عنها خائباً . ولكن ولف كان حديد العزيمة شديد الجرأة ؛ فرأى أن يقدم على تسلق جبال « ابرهام » ، حتى يرغم منتكلم على منازلته في موقعة فاصلة . وصمم على القيام بذلك في غَبَش الظلام ؛ فضال منتكلم باطلاق

ولف ومنتكلم

مناعة كويبك

جرأة ولف

فوزه

المدافع على شرقى المدينة ، وسار هو فى النهر بجزء من الجيش تحملهم قوارب كُسيت مجاذيفها ، كى لاتحدث صوتًا . فرسوا عنـد نقطة غربى المدينة ، وتسلقوا الجبال على وعورتها وشدة انحدارها من غير أن يحس بهم الفرنسيون . وفى الصباح وقف ولف بجيشه (٤٠٠٠ مقاتل) فى ميدان ابرهام ، وتأهب لمنازلة العدو ، فأسرع منتكلم الى لقائه ؛ فلم يكن الاّ بضع دقائق حتى دارت الدائرة على الفرنسيين . ومات ولف

موت ولف ومنتكلم

بقذيفة أصابته وهو فى ساعة النصر ؛ وجرح منتكلم أيضًا جرحًا بليغًا مات على إثره فى اليوم التالى . وخلف ولف القائدُ « تَوُنْزهِنْد » ، فاستولى على كويبك



وُلف

وفى أواخر العام انتصر أمير البحر « هوك » على الفرنسيين عنـد « خليج كوِيبرون » انتصاراً مبينًا يُعتـبر أعظم الانتصارات البحرية فى هذه الحرب ؛ وبهِ تمت لانجلترة السيادة فى البحار ، فلم يقو الفرنسيون بعدُ على ارسال المدد الى كندا ، وفشلت كل مجهوداتهم فى استرجاع كويبك . أما امهرست فانه استولى على منتريال عام ١٧٦٠ ، وبذلك تم انتزاع كندا من الفرنسيين

انتزاع كندا من الفرنسيين

٤ — الانجليز والفرنسيون فى لهند

ضعف الفرنسيين فى المبدا

كانت انجلترة وفرنسا تتسابقان الى سيادة الهند فى الوقت الذى كانتا تتباريان فيهِ فى كندا . وكان الفرنسيون قد بدءوا اتجارهم مع الهند وقت أن بدأت هولندة وانجلترة . ولـكن الشركات التجارية التى أنشئوها لهـذا الغرض أخفقت فى أول

ابتداء قوتهم

الأمر؛ ولم ترسخ قدمهم فى تلك البلاد الآ منذ عام ١٦٦٤، اذ أسس « كلبير » شركة على نمط شركة الهند الهولندية تسمى « شركة الهند الشرقية الفرنسية » ، ومن ذلك الحين ابتدأت منافستهم الحقيقية لهولندة ثم انجلترة فى تلك البلاد . وقد سبق التحامُهم بالهولنديين اشتباكهم مع الانجليز ؛ اذ كان الهولنديون فى ذلك الوقت يدّعون لانفسهم حق احتكار المتاجر الشرقية ، وكانوا يعرقلون مساعى الفرنسيين كلما حاولوا النزول فى نقطة من سواحل الهند . فأعلن لويس الرابع عشر عليهم الحرب عام ١٦٧٤ ، واستولى الفرنسيون فى ذلك العام على « بُنْدِشيرى » التى صارت فيما بعد عاصمة أملاكهم فى المشرق . وفى خلال « حرب حلف أجزبرج » خرّب الهولنديون كل المستعمرات الفرنسية ، واستولوا على بندشيرى عام ١٦٩٣ ، ولكن لما تم الصلح بينهما فى معاهدة « رزويك » عام ١٦٩٧ استرجعت فرنسا هذا المعقل . وفى عام ١٧١٥ استولى الفرنسيون على جزيرة « موريس » التى أخلاها الهولنديون ، ومن ذلك الحين أفل نجم الهولنديين ، وانفرد الانجليز بمنافسة الفرنسيين فى المشرق

أخذ بندشيرى من الهولنديين

اصلاح المستعمرات الفرنسية

وفى الفترة التى ساد فيها السلام فى اوربا من ١٧١٣ الى ١٧٤٠ كانت فرنسا تصلح من شؤون مستعمراتها فى الهند وتوسع فى نطاقها ؛ فحصنت بندشيرى ؛ واستولت على أربع محطات أُخر ، وفتحت باب الاتجار مع الصين

أما الانجليز فكان فى يدهم فى ذلك الوقت « بمباى » على الساحل الغربى ، و « كَلْكتا » (التى أسسوها سنة ١٦٨٦) و « مدراس » وحصن « سنت دافيد » (القديس داوُد) وغيرها على الساحل الشرقى . وكانت فرنسا تمتاز عن الانجليز بتملكها جزيرتى « فرنسا » و « بربون » فى المحيط الهندى

تغير مقصد الاوربيين بعد موت اورنجزيب

وقد ابتدأ مركز الانجليز والفرنسيين فى الهند يتشكل بشكل جديد بعد موت « أورَنجزيب » عظيم المغول والمسيطر العام على الهند سنة ١٧٠٧ ؛ فمن بعده انحلت عرا هذا الملك الضخم . وقد كان غرض الانجليز والفرنسيين الى هذا العهد تجاريًّا محضاً ، ولم يطمحوا فى استعمار البلاد استعماراً حقيقيًّا ، لامتداد سلطان « خان المغول » وقوة بطشه فى خلال القرن السابع عشر . فلما مات « أورَنجزيب » لم يقم من بعده من يحفظ كيان البلاد ، ففشت فيها الفوضى وانقسم أُمراؤها على أنفسهم . فكان

المستعمرون الفرنسيون فى الهند

الفرنسيون أول من انتهز فرصة هذه الفوضى ، وعمل على اعلاء مجد فرنسا فى هذه البلاد وجعلها تدين لسلطان بلادهم . وقد عمل على تنفيذ هذه السياسة بعزم وحزم ونجاح ثلاثة وهم : « دوماس » و « دُبليه » و « لابُردِنيه »

دوماس

نُصّب دوماس حاكماً عاماً للمستعمرات الفرنسية فى هذه الجهات من سنة ١٧٣٥ الى ١٧٤١؛ فكان أول من حصن المحطات الفرنسية تحصيناً لم تقو على مقاومته الهنود وأول من تدخل فى الحروب التى كان بعض الأمراء يشنها على بعض . فامتد سلطان فرنسا فى مدته على كل اقليم « الكَرنات » بجنوبى الهند . وفى مدته غزا أحد الأمراء الهنود الكَرْنات بنحو ٥٠٠٠٠ مقاتل وحاصر بندشيرى، وكانت اذ ذاك حصينة جداً؛ فساق عليه دوماس جيشاً يبلغ ٧٢٠٠ بعضه من الفرنسيين ومعظمه من الهنود الذين دربهم على أنظمة الحروب الأوربية ، وكان ذلك أول جيش من الهنود دُرب على تلك الطريقة . فاضطر الأمير الى فك الحصار عن البلد والجلاء عن الكرنات جملة ؛ وبذلك صار نفوذ الفرنسيين فى جنوبى الهند يعدّ خطراً عظيماً على المستعمرات الانجليزية

دبليه

ولما قبض « دُبليه » على زمام الأمور فى هذه الجهات عام ١٧٤٢ نسج على منوال سلفه بل فاقه فى انتصاراته الباهرة ؛ والى زوجته « جين » يعزى جل نجاحه ، لأنها تربت فى هذه البلاد فعرفت لغاتها ووقفت على كثير من طباع أمرائها (وفى هذا الحين ظهر لابُردنيه مناظرُه فى المستقبل الذى عين حاكماً على جزيرة موريس عام ١٧٣٥ ، فنظم فيها جيشاً وأعد أسطولاً لما كان يتوقعه من الشحناء فى المستقبل على السيادة فى الهند)

وفى العام الذى نُصب فيه دبليه حاكماً خاضت أوربا غمار حرب الوراثة النمسوية . وكانت المستعمرات الانجليزية يتهددها الخطر ، لما كان يظهره حكام فرنسا فى هذه الجهات من النشاط والطمع فى مد سلطان بلادهم

استعداد دبليه

ولما علم دبليه بقرب نشوب الحرب فى أوربا أخذ يستعد لها بتدريب الجيوش وبناء السفن ليدافع عن المستعمرات الهندية ؛ ولكن الحكومة أمرتهُ بتوقيف بناء السفن وغيره من الأعمال ، لحاجتها الى المال ، وأمرتهُ أن يفاوض أولى الأمر فى الهند من

الانجليز لحفظ السلام بينهم فى تلك البلاد . وفى هذا الحين كانت انجلترة قد أرسلت اسطولاً لقطع التجارة الفرنسية بين الهند والصين، فظهر الاسطول الانجليزى عام ١٧٤٥ أمام بندشيرى لمساعدة حاكم مدراس فى الهجوم عليها . ولكن دبليه كان قد اكتسب مصافاة «نُوّاب» الكرنات (حاكمها) ؛ فقام النواب يفتح مدراس ، فاضطر الانجليز الى الاحجام عن عزمهم . وفى العام التالى ظهر « لابردنيه » بأسطول عظيم فى المياه الهندية ؛ فاضطر الأسطول الانجليزى الى الانزواء فى مياه «سرنديب» . وفى خلال تلك الأزمة العصيبة حدث نزاع بين دبليه ولابردنيه ؛ فان لابردنيه كان قد استولى على مدراس بعد أن هاجمها براً وبحراً ، ثم أعادها للانجليز لأن حاكمها فداها بنحو ٤٠٠٠٠٠ جنيه ؛ فحنق عليه دبليه ، لافتياته على حقوقه ، وأبلغ أمره الى الحكومة الفرنسية ، فاستدعته وزجته فى أعماق السجون ، فمات كمداً بعد ثلاث سنوات .

لابردنيه

وبعد خروجه من الهند نقض دبليه اتفاق لابردنيه مع حاكم مدراس ، فاسترجعها وأجلى نزلاء الانجليز عنها عام ١٧٤٧ . وفى هذه السنة انتصر الانجليز على الفرنسيين فى المياه الاوربية انتصاراً مبيناً كان فيه القضاء على ما بقى من قوة أسطولهم ، وتمت لانجلترة سيادة البحار . فأرسل الانجليز الى الهند أكبر أسطول ظهر لذلك العهد فى المياه الشرقية يقوده « بُسكاوِن » ؛ فهاجم بندشيرى براً وبحراً سنة ١٧٤٨ ؛ ولكن دبليه دافع عنها دفاعاً مجيداً . ثم وقفت الحرب إثر صلح « إكس لاشَپل » ، وبهِ رُدّت مدراس الى الانجليز مقابل نزولهم عن « لويسبرج » فى أمريكا كما تقدم

اضمحلال قوة فرنسا البحرية

ومن يومئذ قلت مناوأة الفرنسيين للانجليز فى الهند، لضعف قوتهم البحرية وازدياد هذه القوة عند نظرائهم الانجليز؛ فلم يعد دبليه يجرُؤ على منازلة الانجليز وجهاً لوجه؛ وأخذ يستمين فى توطيد السيادة الفرنسية فى الهند باتّباع تلك السياسة التى جعلته فى مصاف كبار المستعمرين ، وهى الاستفادة من المشاحّات التى كانت تقع بين أمراء الهنود فى تأييد سلطان دولته . فلما مات والى « الدِكّان » عام ١٧٤٨ تنازع على الملك بعده « مظفّر جَنْك » و « ناصر جنْك » ، وقام فى الكرنات تنازع آخر على عرش « نوابها » . فعزم دبليه على نصرة أحد المتنازعين فى كلا الاقليمين ؛ فاختار

سياسة دبليه فى الهند

للدكّان «مظفر جنك» ، فتم له الأمر بمساعدة الفرنسيين ؛ واختار «شَندَا صاحب» لعرش الكرنات فتم له الأمر بمعونتهم أيضاً ؛ وبذلك صار دبليه صاحب الكلمة فى جميع جنوبى الهند (١٧٥١) ولُقّب بلقب « نواب » ، وصار يعد من كبار أمراء الهند ، وكان الانجليز ينظرون الى كل ذلك وجلين ؛ ولكنهم لم يستطيعوا القيام بأى عمل لتوقيف التقدم الفرنسى، إذ لم يكن لديهم لهذا العهد من الرجال من يقدر على مناهضة دبليه ، فلما قُيّض لهم «كِلَيف» كان ذلك فاتحة سعودهم وابتداء أفول نجم الفرنسيين فى الهند

عظيم نفوذ دبليه

وذلك أن دبليه بعد أن صار صاحب الكلمة فى جنوبى الهند سار لمحاصرة « تِرِشْنُبلى » التى كانت فى أيدى الانجليز ، وكان قد التجأ اليها ابن نواب الكرنات المعزول . وكان كليف اذ ذاك شاباً صغيراً فى خدمة شركة الهند الانجليزية . فلما رأى ترشنبلى مهددة بالسقوط فى يد دبليه وحليفه « شندا صاحب » بادر الى مقابلة حاكم « سَنت دافيد » ، وعرض عليهِ رأيه فى انقاذها ؛ وهو أن ينقضّ الانجليز على «أرَكوت » عاصمة الكرنات ، فيسهل عليهم أخذها لاشتغال أميرها شندا صاحب بحصار ترشنبلى، وتخف الوطأة عن هذه أيضاً ، إذ يُضطر شندا صاحب الى الاسراع لانقاذ حاضرته . فأعجب الحاكم بهذه الفكرة ، وناط بكليف القيام بهذه المهمة . وقد حصل ما ظن ؛ فاستولى كليف على أركوت من غير عناء . وجاء شندا صاحب بجيشه لاسترجاعها ؛ وكان كليف قد اتخذ عدته للاحتفاظ بها ، فبقى يدافع عنها حتى وصلتهُ النجدة من مدراس . فلما رأى شندا صاحب هذا المدد استولى عليه الفزع ولاذ بالفرار . وبذلك كان كليف سبباً فى الاستيلاء على اركوت وتخليص ترشنبلى

حصار ترشنبلى

أول ظهور كليف

تخليص ترشنبلى وفتح أركوت

وبعد ذلك سافر كليف الى انجلترة حيث احتفلت به الشركة ورفعت من مرتبته . أما دبليه فكان نصيبه خلاف ذلك ؛ فان الشركة الفرنسية لم تهتم بسياسته ومراميه البعيدة فى الهند ، بل أخذت عليه كثرة ما كان يحمّلها من النفقات ، فاستدعتهُ الى فرنسا عام ١٧٥٤ . وبمغادرته الهند أخذ نفوذ الفرنسيين يتدهور فيها؛ فلم يمض يومان على خروجه منها حتى اتفق خلفه مع الحاكم الانجليزى على نبذ سياسة دبليه وعدم

دبليه يغادر الهند

تدخّل الانجليز أو الفرنسيين فى سياسة الهند الداخلية ، وأن يردّ الى أمرائها جميع ما فُتح منها أثناء الحرب ؛ فنزلت بذلك فرنسا عن تلك الدولة العظيمة التى شيدها لها « دبليه » و « لابُرْدِنيه »

كليف حاكم سنت دافيد

أما كليف فانهُ عاد الى الهند عام ١٧٥٦ بمنصب حاكم سنت دافيد . وفى اليوم الذى وصل فيه الى مدراس كان «سراج الدولة» (نواب بنغالة) قد استولى على كلكتة ؛ وبعد استيلائه عليها زج ١٤٦ من حاميتها فى حجرة صغيرة خالية من المنافذ ، لا تتجاوز مساحتها ستة أمتار فى مثلها ، وحجزهم فيها ليلة بأكملها فى حمارّة الصيف ؛ فلما أصبح الصباح لم



كلَيف

يبق منهم حياً الاَّ ثلاثة وعشرون رجلاً . وقد عُرفت هذه الحجرة فى التاريخ «بجحر كلكتة الأسود» . فلما سمع كليف بذلك أسرع الى ملاقاة النواب فى كلكتة ؛ فهزم جيوشه واضطره الى تسليم المدينة الى الانجليز

جحر كلكتة الاسود

فتح شندرناجور

ثم وجه نظره الى «شَنْدَر ناجور» ؛ وكانت بها حامية قوية من الفرنسيين يعاونها سراج الدولة ، فاستولى عليها كليف بعد جهاد

واقعة بلاسى وتأثيرها

أما نواب بنغالة فانهُ على الرغم من مهادنته للانجليز، نقض عهده وطلب الى الفرنسيين أن يساعدوه على طرد الانجليز من بنغالة. فنازله كليف فى واقعة « بلاسى » الشهيرة فى ٢٣ يونيه سنة ١٧٥٧ التى كانت هى الفاصلة فى أمر بنغالة ، بل فى أمر الهند جملة . وكان جيش كليف مؤلفاً من ٩٠٠ انجليزى ونحو ٢٠٠٠ من الهنود المدربين على نظام الحروب الأوربية. أما جيش سراج الدولة فكان يبلغ نحو ٦٠٠٠٠

مقاتل. فهزمه كايف هزيمة منكرة، ونصب مكانه نوابا آخر من الموالين للانجليز. وبسط الانجليز في إثر ذلك حمايتهم على بنغالة

بسط الحماية الانجليزية على بنغاله

وعند ذلك عاد الفرنسيون يهتمون بأمر الهند اهتماما جديداً؛ فأرسلوا لذلك قائداً عظيماً يدعى «لَلِي» عام ١٧٥٨. فبالرغم من اضطراب الأحوال في بندشيرى وغيرها من الأملاك الفرنسية، تمكن من الاستيلاء على قلعة سنت دافيد وهدّم حصونها. ثم شرع في الهجوم على مدراس؛ ولكن ظهور الأسطول الانجليزى أمام هذه المدينة بقيادة أمير البحر «بوكُك» في فبراير سنة ١٧٥٩ اضطره أن يرجع الى بندشيرى. وفي العام نفسه هزمه الانجليز هزيمة منكرة عند «وَنْدِواش»؛ فكانت هي الفاصلة في أمر مدراس، كما كانت موقعة بلاسى الفاصلة في أمر بنغالة. وبعد ذلك أخذ الانجليز ينتزعون المعاقل الفرنسية في الكرنات واحداً بعد الآخر، حتى استولوا على بندشيرى نفسها في أوائل عام ١٧٦١؛ وبذلك خُضدت شوكة الفرنسيين في الهند جملة. وفي هذا العام عُقد «صُلح باريس» فرُدّ فيه للفرنسيين بندشيرى والأملاك الفرنسية الأخرى بعد أن اشتُرط عليهم أن لا يبقوا بالهند قوة حربية

مجهود الفرنسيين

واقعة وندواش وتأثيرها

صلح باريس

٥ — ﴿ حرب استقلال أمريكا ﴾

كانت أملاك انجلترة بين حدود كندا والمكسيك عند اندلاع لهيب حرب الاستقلال تشمل ثلاث عشرة ولاية مقسمة الى عدة مجموعات مختلفة: أولها «انجلترة الجديدة» وتشمل نيوهمْشير ومَسّاشُست وكنكتكت وجزيرة رود، وقد استوطن هذه الولايات المهاجرون من الانجليز البيورتان، والثانية تشمل نيويُورك ونيوجَرسى، وبنسلفانيا ومارْيلند، وهذه الأربع قد فتحت في عهد شارل الثانى أثناء حربه مع هولندة، والثالثة تشمل فِرْجينيا (أقدم المستعمرات الانجليزية) وكارولينا الشمالية والجنوبية وجورجية وفلوريدا، وكلها في الجنوب

الاملاك الانجليزية قبيل الحرب

وجميع هذه المستعمرات كانت تتمتع بنصيب وافر من الحكم الذاتى، فكان لكل

حكومة المستعمرات

مجلسُ نُواب يتألف من مجلسين : مجلس الأمة ، وتنتخب أعضاءه الأهالى ؛ ثم المجلس الأعلى ، وأعضاؤه تارة يعينهم الوالى وطوراً ينتخبون . وكانت القوة التنفيذية في يد الوالى ومجلسهُ الخاص . وفى هذا العهد كانت عدة هذه المستعمرات تتراوح بين ٢٠٠٠٠٠٠ و ٢٠٥٠٠٠٠ . ومع عظم ما منحته انجلترة لهؤلاء المستعمرين من الحكم الذاتى ، ضيقت عليهم الخناق فى أمر التجارة ، اذ قيدتها بقيود ثقيلة فى « منشورات ملاَحتها » ؛ فكانت هــذه المنشورات تحتم على كل المستعمرات أن تشترى معظم حاجاتها من انجلترة ، وأن لا تصدر معظم سلعها لغير انجلترة . وقد خضعت المستعمرات فى أول الأمر لهذه القيود ، ثم أخذت فيما بعد تتذمر منها ؛ ونتج عنها ان انتشرت طريقة تهريب البضائع فى الاتجــار مع البلاد الأخرى . وقد تغاضت انجلترة عن تنفيذ هذه المنشورات بالدقة ، ولذلك لم تثر الأهالى

استياء المستعمرات من منشورات الملاحة

اسباب الحرب

على ان نشوب الثورة الأمريكية وقيام أهلها على انجلترة يرجع الى أسباب عامة وأخرى خاصة تلخص فيما يأتى :

١ — خروج الفرنسيين من كندا

وذلك أنه بعد حرب السنين السبع التى انتهت باخراج الفرنسيين من كندا واستيلاء الانجليز عليهــا أمل الأمريكيون نيل الاستقلال الذى طالما كانت تتوق اليه نفوسهم. فانهم ما كانوا ليحجموا عن طلبه الاَّ خوفاً من الفرنسيين جيرانهم؛ فلما أُخرجوا من كندا زالت تلك العقبة الكؤود من أمامهم فأصبحوا فى غنى عن حماية انجلترة لهم . ولقد تنبأ « فِرجِن » وزير خارجية فرنسا بأن انجلترة ستعض بنانها أسفاً وحسرة على اخراج الفرنسيين من كندا ، وانها ستطالب الى الأمريكيين نصيبهم من النفقات الحربية التى بذلتها لأجلهم فيأبون ويحسون عدم احتياجهم اليها ؛ فيتطلعون الى خلع نيرها والتمتع بالاستقلال التام ضالتهم المنشودة . وقــد دلت الحوادث على صدق هذه النبوة . هذا الى أن الحكومة الانجليزية بعد أن نفضت عنها غبار حرب السنين السبع أخذت تمنع تهريب البضائع من أمريكا ، فجهزت لهذا الغرض أسطولاً أرسلته الى المياه الأمريكية ؛ فكان لذلك أسوأ أثر فى كساد التجارة الامريكية . فأثار ذلك الرأى العام وأخذ الأمريكيون يتأهبون للمقاومة

٢ — مضايقة التجار الامريكيين

قانون الدمغة

وأول عمل عدائى أثار عواطف البلاد حقيقة حدث فى عام ١٧٦٥ . وذلك أن الملك جورج الثالث أغضب بت السياسى الانجليزى العظيم ، فاعتزل شؤون الحكومة ، وخلفهُ جِرِنْفِل ، رئيساً لها . فأصدر قانوناً يدعى «قانون الدمغة» حتّم على المستعمرين الأمريكيين كتابة كل اتفاقاتهم ووثائقهم على أوراق مدموغة ترسل اليهم من انجلترة بثمن محدود . وكان الغرض من هذا القانون جمع المال لانفاقه فى شؤون الدفاع عن المستعمرات . ولا شك أن هذه الضريبة كانت وجيهة لازمة الذود عن حوض الدولة البرطانية التى كانت الولايات جزءًا منها ، ولكنها فُرضت على القوم من غير موافقتهم إذ لم يكن فى مجلس النواب الانجليزى الذى سنّها من يمثّلهم ، فعُدت تدخلاً فى حرية الشعب الانجليزى التى ورثها من قديم . لذلك ثارت عواطف معظم القوم وصمموا على منع التجارة مع انجلترة أو تلغى هذا القانون

مساعى بت وبرك فى اطفاء الفتنة

فقيّض الله للأمة الانجليزية إذ ذاك رجلين عظيمين انشلاها من تلك الحمأة وهما « بِرْك » الخطيب المصقع والكاتب السياسى العظيم ، وبت قائد سياسة البلاد وكان حينئذ من أعضاء مجلس النواب . فاحتجا على القانون وأعلن بت أن المستعمرين لهم الحق فى مناوأته ، فأُلغى فى عام ١٧٦٦ ، وهو العام الذى ولى فيهِ بت رآسة الوزارة (وانضم الى مجلس اللوردات فصار يسمى إرْل شاتام) . ولكن لسوء حظ البلاد أخذ نفوذه يضؤل بقلة ثقة الشعب به ، لتركه مجلس الأمة وتربعه فى كرسى رآسة الوزارة ، فضلاً عن أن المرض كان كثيراً ما يحول بينهُ وبين الحضور فى المجلس وبالعكس أخذ نفوذ أعدائه يعظم وقوتهم تزداد

تمادى الحكومة الانجليزية

وبقيت الحال فى أمريكا لا تبشر بحسن المستقبل ، لاستمرار الحكومة على اغضاب أهل تلك البلاد ؛ فقد أصدرت أثناء مرض بت قانوناً يفرض ضريبة على الواردات من الشاى والزجاج والورق الى أمريكا . فعارض أهل المستعمرات هذه الضريبة ورفضوها بتاتاً . ولسوء الحظ كان قد التف حول الملك حزب غرضه اخضاع المستعمرات مهما كلف الأمة ذلك ؛ وكان على رأس هذا الحزب « اللورد نورث » ، فلما وصل خبر هذه الضريبة الجديدة الى أمريكا اتقد الأهالى غيظاً وغلت مراجلهم

وزارة اللورد نورث

استفحال الثورة — وخاصة عند ما علموا بتقليد « نورث » رآسة الوزارة عام ١٧٧٠ . وهاج الناس فى بُسْطن من جراء أعمال الحكومة العدائيـة ضدهم ، فأطلق عليهم الجنود النار وقتلوا ثلاثة من الثائرين . وفى هذه الأثناء انضمت الى الولايات الجنوبية الثائرة على انجلترة ولاية فرجينيا مسقط رأس وَشِنْطون الذى صار له بعدُ أكبر شأن فى هذه الحركة ومن ذلك العهد أخذ نجم انجلترة يأفل فى هذه البلاد ، وصارت الحالة تزداد عليها تعقداً . فجاءتها الأخبار من بسطن عام ١٧٧٣ ان بعض الأهالى تزيوا بزى الهنود الحمر وانقضّوا على سفينة قادمة من الهند تحمل شاياً وألقوا بما فيها فى عرض البحر ؛

حادثة بسطن

ثم تلا ذلك انعقاد مؤتمر «فِلادِلفيا» : تألف من جميع الولايات ، وأخذ يسن القوانين لتجنيد الجنود لمناوأة الحكومة الانجليزية . وقـد حاول اللورد شاتام (بت) عبثاً تدارك هذا الخطر باقناع الملك والمجلس بوجوب تلافى الأمر بالنزول للمستعمرين عن مطالبهم ، فلم يعبأ الملك واللورد نورث بمقاله واسترسلا فى طريقهما

مؤتمر فلادلفيا

ابتداء الحرب

استعرت نار الحرب فى عام ١٧٧٥ ، فدارت الدائرة على الانجليز فى أول ملحمة التحموا فيها مع الأمريكيين عند «لِكْسِنْجتون» من أعمال ولاية مساسشت . ومما هو جدير بالذكر هنا أن أهالى كندا لم ينضموا الى الثلاث عشرة ولاية فى عصيانهم ؛ ذلك لأن الحكومة الانجليزية لم تعمل على مضايقتهم كما فعلت مع الولايات الأخرى بل تساهلت معهم ، ولذلك حافظوا على ولائهم لها طول أمد الحرب

واقعة لكسنجتون

وشنطون

ولم يلبث المستعمرون أن كوّنوا لهم جيشاً تحت إمرة وشنطون . وكان هذا القائد العظيم ممن انتظموا فى حرب السنين السبع ، فأظهر اقداماً وشجاعة نادرة . وقد كان ، فضلاً عن مهارته فى تنظيم الجيوش وتدريبها ، متصفاً بكل الصفات التى تجب فى كل من يرأس مثل هذه الحركة العظيمة ، كالاخلاص فى خدمـة الوطن والصبر والحلم مع سداد الرأى ومضاء العزيمة ، مما جعل قلوب القوم تلتفّ حوله وبعضها حول بعض . تلاقى هذا القائد بالجنود الانجليزية عند « بَنْكَرْ زهِل » القريبة من مدينة بسطن ، فدارت عليه الدائرة ولكن بعد أن حمل أعداءه خسائر فادحة . ومن هذا الوقت عمّت نار الثورة كل أنحاء البلاد

واقعة بنكرزهل

وفى عام ١٧٧٥ أخذ الامريكيون يغزون كندا، ولكنهم رُدوا على أعقابهم بفضل مهارة القائد العظيم «جاى كَرلتون» وولاء السكان. على أن النصر كان حليف الامريكيين فى جهة أُخرى، اذ حاصر وشنطون مدينة بسطن فى نفس هذا العام واستولى عليها

صد الامريكيين عن كندا

استيلاؤهم على بسطن

وفى ٤ يوليه عام ١٧٧٦ انعقد مؤتمر فلادِلفيا للمرة الثالثة وقرر «اعلان الاستقلال» الشهير؛ فأظهر فيه أن المستعمرات الثلاث عشرة أصبحت من ذلك اليوم أُمة مستقلة واتخذت لنفسها لقب «الولايات المتحدة الامريكية» واستمرت الحرب سجالاً حتى عام ١٧٧٧ الذى هُزمت فيه الانجليز هزيمة منكرة عنـد «سَراتوجا» من أعمال نيويورك، إذ أجبر وشنطون القائد الانجليزى «برِجُوينِ» أن يسلم جيشاً يبلغ ٣,٥٠٠ جندى (١٧ اكتوبر سنة ١٧٧٧). ولما وصل خبر هذه الهزيمة الى انجلترة ابتدأت الآراء تتضارب فى أمر استمرار الحرب أو ماذا تكون شروط الصلح. وكان اللورد شاتام لايزال فى جانب ارضاء الامريكيين، وحضَّ المجلس على الموافقة على منحهم كل مطالبهم الاَّ الاستقلال. ولكن الملك تمادى فى غيّه هو ورئيس وزرائه (اللورد نورث)، فأضاعا بذلك فرصة جميلة. وزاد طالع الانجليز نحساً موت شاتام (مايو ١٧٧٨)، وقد كانت آخر خطبة له فى المجلس فى صالح الأمريكيين؛ وخارت عزيمته أثناء الخطبة، فحُمل من المجلس ولم يعد اليه

اعلان الاستقلال

واقعة سراتوجا

تمادى اللورد نورث

وفاة بت

وفى هذا الوقت الحرج أيضاً انضمت فرنسا الى الأمريكيين وأعلنت الحرب على انجلترة. وكانت طالما تحيَّنت الفرصة لتثأر لنفسها من انجلترة ولتسترد مستعمراتها فى هذه الجهات، فأمدت الأمريكيين طول الحرب بالمال والذخيرة سرّاً، حتى كانت نكبة «سراتوجا»، فأبرمت بعدها معاهدة مع الأمريكيين (فبراير سنة ١٧٧٨) فأصطلت نار الحرب معهم

دخول فرنسا الحرب

ولما رأى اللورد نورث حرج الحال حاول ارضاء الأمريكيين باعطائهم كل ما طلبوا الاَّ الاستقلال. فلم يعبأ الأمريكيون باقتراحه، اذ لم يكن غرضهم وقتئذٍ دفع مظالمهم بل نيل الاستقلال التام، ولا سيما بعد أن قوى ساعدهم واشتد أزرهم بانضمام فرنسا اليهم. ومن ذلك الحين لم تصبح الحرب مقصورة على مسألة استقلال أمريكا بل

مسعى اللورد نورث

صارت أيضاً حرب مناهضة على السيادة البحرية والاستعمارية بين انجلترة وفرنسا

الثورة فى ارلندة ولندن

وقد زاد الطين بلة قيامُ الثورة على الانجليز فى ارلندة ووعد الفرنسيس لهم بالمساعدة هذا الى حدوث فتنة دينية فى كبدلندن (سنة ١٧٨٠) بزعامة «اللورد جورج غردوُن» لخلاف قام بين رجال المذهبين البروتستنتى والكاتوليكى

دخول اسبانيا الحرب

على أن مصائب انجلترة لم تقف عند هذا الحد ، اذ اشتركت اسبانيا أيضاً فى الحرب آملة أن تنتهز هذه الفرصة لاسترداد جبل طارق وجزيرة منورقة ، فجاء ذلك ضغثاً على ابالة

دخول هولندة

وفى آخر هذا العام ظهر لانجلترة أن الهولنديين يمدون الأمريكيين بالمئونة والذخيرة ويرسلون المعدات الى فرنسا واسبانيا ، ويسمحون لسفن التلصص الامريكية ببيع غنائمها فى الثغور الهولندية ، كما تبيَّن لها أيضاً فى أواخر عام ١٧٨٠ أن هولندة تنوى ابرام معاهدة مع أمريكا. فلم ترَ انجلترة أمام هذه الحوادث بدًّا من اعلان الحرب عليها

حرج مركز انجلترة

ظهر أثر كل هذه العوامل الجديدة فى سير الحرب ، ولا سيما أن أسطول انجلترة كان غير كاف لحماية شواطئها وبسط نفوذه على البحار فى آن واحد ، ومع أنهُ ظهر على الأسطول الفرنسى فى عدَّة مواقع ، كانت قلة السفن الانجليزية على الشواطئ الأمريكية من اكبر الأمور التى أقلقت بال انجلترة ومكنت الأسطول الفرنسى من نقل الجنود الى أمريكا وحمايتها

بعض انتصارات للانجليز

على أن سير الحرب عام ١٧٨٠ كان فى مصلحة انجلترة قليلاً ؛ فاستولى اللورد «كُرْنوُلِس» على مدينة شارلستوُن ، وبذلك تحول ميدان القتال الى ولاية كارولينا ، وانتصر «رُدنى» أمير البحر الانجليزى فى عدة مواقع على الفرنسيين والاسبان ، فقهر الاسطول الاسبانى على مسافة من رأس «سنت فنِسنت» ، وكانت نتيجة هذا النصر أن خفّت الوطأة وقتاً ما على جبل طارق الذى كان يحاصره الاسبان ، وخلاص منورقة من أيديهم أيضاً . وولى «ردنى» بعد ذلك وجهه شطر جزائر الهند الغربية التى كانت فى قبضة الهولنديين ، فانتزعها من أيديهم عام ١٧٨١ وغنم منهم سفناً تجارية كثيرة ، فكان ذلك العامل الأخير فى افلاس شركة الهند الشرقية الهولندية

حصار جبل طارق

حياد الشمال المسلح

وفى أثناء ذلك ظهر لانجلترة أعداء جدد ، بتألب ممالك الشمال البحرية بزعامة الروسيا (١٧٨٠) تحت اسم « حياد الشمال المسلّح » ، وقامت تعارض انجلترة فيما ادعته لنفسها من الحق فى تفتيش سفن المحايدين . وتمسكَ الاحلاف بحقهم فى الاتجار مع الممالك المحاربة ؛ فكان ذلك ضربة قاضية على انجلترة ، اذ صُدت عن منع تجارة المحايدين مع أعدائها ، وبذلك خسرت سيادتها فى البحار ؛ مما أفضى الى كسرها النهائى فى أمريكا . فلم يمض طويل حتى سلم القائد «كرنوُلس» جيشه الذى كان يربو على ٤٠٠٠ مقاتل (١٩ أكتوبر سنة ١٧٨١) ، فكانت هذه الهزيمة خاتمة الحرب الامريكية . ولما بلغ خبر هذه النكبة مسامع الحكومة الانجليزية اعتزل اللورد نورث منصب رآسة الوزارة وخلفه « رُكِنْجهام » . فأخذ يسعى فى انهاء الحرب ، ولا سيما أن الفرنسيين كانوا قد استولوا فى البحار على منورقة وجل جزائر الهند الغربية ، وظنت فرنسا أن الساعة قد حانت للقضاء على المستعمرات الانجليزية ، فأرسلت « دِجراس » على رأس أسطول فرنسى للاشتراك مع الأسطول الاسبانى فى جزائر الهند الغربية ، وتملك جميكة . هذا الى أن الاسبان أعادوا الكرة لحصار جبل طارق مرة أخرى ؛ فأخذ يدافع عنه القائد العظيم «السير جورج إليِت» دفاعًا مجيداً خلّد اسمه بين أبطال انجلترة . وكانت الحرب ناشبة أظفارها فى الهند أيضاً

كرنولس يسلم جيشه

الدفاع عن جبل طارق

الاسطول يحسن حال انجلترة

فلم يكن فى مقدور انجلترة القيام بشىء ازاء كل ذلك الاّ اعداد أسطولها والدفاع به ما استطاعت الى ذلك سبيلاً . فجهزت أسطولاً يحمل نحو ٩٠٠٠٠ بحرى وعهدت الى « ردنى » حماية « جميكة » . فتمكن ردنى فى ابريل ١٧٨٢ من تحطيم أسطول فرنسى عظيم فى موقعة فاصلة قرب جزيرة دُمنيك بفضل مهارته وقوة ابتداعه فى الفنون الحربية البحرية . وفى أثناء ذلك فاز القائد « هو » فى فضّ الحصار عن جبل طارق الذى دافع عنهُ السير جورج إليت خير دفاع . أما فى الهند فان «السير ادورد هيوز » تمكن من طرد الأسطول الفرنسى وتخليص مدينة مدراس

الصلح

كل هذه الانتصارات جعلت الفرنسيين يخففون من شروطهم فى أمر الصلح ، فقبلوا الشروط التى كانوا قد سخروا منها عند ما عرضتها عليهم انجلترة من قبل . وفى

معاهدة فرساى ٢٠ يناير سنة ١٧٨٣ تم الصلح بابرام « معاهدة ِفرْسَاى » وأهم شروطها هى :

(١) اعترفت انجلترة باستقلال الولايات المتحدة واتفقت معها على الحدود وعلى توثيق العلائق التجارية بينهما

(٢) نزلت انجلترة لفرنسا عن جزيرتى « سَنت بِيير » و « مِكاون » اللتين فى نهر سان لوران ، وعن السنغال وجورى فى غربى افريقية ، ونزلت لها أيضاً عن جزيرة « تُوباجو » فى جزائر الهند الغربية . وفيما عدا ذلك بقى كل شىء فى هذه الجهات كما كان عليه قبل نشوب الحرب

(٣) أما فى الهند فان فرنسا استرجعت كل محطاتها التجارية التى كانت فى قبضتها عام ١٧٦٣ على شرط أن لا تحميها بجند

(٤) استولت اسبانيا على جزيرة منورقة وفلوريدة ، وأخذت انجلترة فى مقابلهما جزائر البهاما وخُولت حقَّ قطع الأخشاب من هُندراس

(٥) واتفقت هولندة على تبادل ما فتحتهُ من أملاك الانجليز أثناء الحرب بما استولوا عليه من أملاكها عدا نجاباتام فى الهند ، فان الانجليز أبقوها فى يدهم

تاثير الحرب وقد كانت لهذه الحرب آثار عظيمة فى الممالك الأوربية : فكانت وخيمة العاقبة فى غربى أوربا ، وحسنة النتيجة فى شرقيها . فخرجت انجلترة منها وقد نقصت سطوتها فى انجلترة وانكمشت دولتها وراء البحار ، حتى ظنت أوربا أن نجمها قد أفل وأنها دخلت فى طور الاضمحلال . ولكنها تعلمت من ذلك درساً نافعاً ، وهو وجوب تعديل سياستها الاستعمارية مع الشعوب الانجليزية الأصل ونحوها ، ممن لا يمكن حكمهم بسياسة القهر فى هولندة والاستبداد . أما هولندة فكانت الحرب ضربة قاضية على قوتها التى كانت أمارات الضعف قد ظهرت عليها من قبل ؛ فان ما أبداه وليم الخامس رئيس جمهوريتها من التزعزع والضعف جرّأ عليه الحزب « الوطنى » ، وأدى الى اضطراب أحوال هولندة ، فكُشف الستار لأوربا عن ضعفها . وأما اسبانيا ، وان كانت فازت بشىء فى اسبانيا من مآربها ، فقد عملت على حتفها بظلفها ، اذ لم تلبث مستعمراتها أن حذت معها حذو الولايات المتحدة مع انجلترة . ولم يقلّ عن ذلك ما أصاب فرنسا من جراء هذه

الحروب ؛ فانها وان كانت قد ثأرت لنفسها من انجلترة، جرّت على خزائنها الافلاس وأشعلت فى الشعب نار التلهف الى المبادئ الدستورية والحكومة الجمهورية ، فكان ذلك من أكبر ممهدات الثورة الفرنسية . فى فرنسا

على أن تأثير الحرب فى شرق أوربا كان على العكس من ذلك ؛ فان الروسيا والنمسا طالما تطلعتا الى الاتحاد على اقتسام الأملاك العثمانية بأوربا . فلما أمنت الروسيا من تدخل انجلترة وفرنسا فى الأمر ، لاشتغالها فى الحرب ، أخذت تستعد لضم القرم اليها ، واتفقت مع النمسا على ذلك . وذلك من أهم الأسباب التى دعت « فرجن » وزير خارجية فرنسا الى التساهل مع انجلترة فى صلح « فرساى » ، كى تكسب مودتها ومناصرتها على اخماد مطامع الروسيا فى أملاك آل عثمان فى شرق أوربا

٦ — الهند بعد عام ١٧٦٣

لما شبت حرب استقلال أمريكا وجدت فرنسا مجالاً فسيحًا وفرصة سانحة للانتقام من انجلترة أشد أعدائها ، واسترجاع ما فقدته فى الهند أثناء حرب السنين السبع . فشقت غبار الحرب فى جانب الأمريكيين سنة ١٧٧٨ ، وكان ذلك سببًا فى تجدد الحرب فى الهند بين الانجليز والفرنسيين . وقد ساعد فرنسا على عدوها ازدياد قوة أسطولها زيادة عظيمة عما كان عليه خلال حرب السنين السبع ؛ وقيام بعض أمراء الهند المستقلّين على الانجليز ، مثل قبائل المهراتا فى أواسط الهند وحيدر على صاحب ميسور . فاشتدت الأزمة على الانجليز ولا سيما بين عامى ١٧٧٨ و ١٧٨٣ ، اذ سنحت الفرص لفرنسا وخلا لها الجو لتجمع كل قواها لمهاجمة المستعمرات الانجليزية فى الهند الحرب الامريكية تضعف الانجليز فى الهند

ولكن الحظ ساعد الانجليز بأن اسندوا الأمور فى الهند الى رجل قوى الشكيمة ماضى العزيمة ، له يرجع الفضل الأكبر فى حفظ ملك الدولة الانجليزية فى الهند بل الزيادة عليه فى تلك الأوقات العصيبة : ذلك الرجل هو « وَرِن هيستنِنجز » . ولكى نفهم مقدار عظم خطر الفرنسيين على الانجليز فى الهند يجدر بنا أن نتتبع سير الأحوال فيها منذ عام ١٧٦٣ فنقول هيستنجز يحفظ كيان الدولة

التفصيل

خلو الجو لعمال الشركة الانجليزية

لم تصادف انجلترة نجاحاً فى بداية حكمها الهند . وذلك أنه لما قل نفوذ الفرنسيين فيها منذ سنة ١٧٦٣ اضطربت أحوالهـا اضطراباً عظيماً ؛ فأخذت شركة الهند الشرقية تسعى فى جمع المال من هذه البلاد لاثراء مساهميها ، وأخذ عمال الشركة أنفسهم يجمعون الأموال الطائلة بطريق الاتجار لأنفسهم وبالرشوة

شدة العسف

وكاد يتمثل فى تلك الفترة فى الهند ما كان يقع من الاسبان فى مستعمراتهم من القسوة والعسف والاضطهاد ؛ فنبذ عمال الشركة كل سلطـة هناك فى سبيل جمع المال ، وأصبحوا لا يخشون بأس أية قوة حتى الحكومة الانجليزية نفسها

ارسال كليف لاصلاح الحال

ولما شعرت الحكومة الانجليزية بسوء الحال أرادت أن تقضى على هذه الفوضى ، فأرسلت « كليف » ثانية الى الهند عام ١٧٦٥ خاصة لاصلاح شؤون هذه البلاد . فلما حط رحله فيها وجد أن حالة البلاد غاية فى الارتباك وسوء الحال ، وان كل فرد من رجال الحكومة من الحاكم العام الى الكاتب الصغير يتجر لنفسه ، وأن العمال الملكيين محتكرون للتجارة ولاهمّ لهم الا تكديس القناطير المقنطرة ، فى حين كانت أرباح مديرى الشركة فى انجلترة آخذة فى التناقص حتى أصبحت الشركة على

اصلاحات كليف

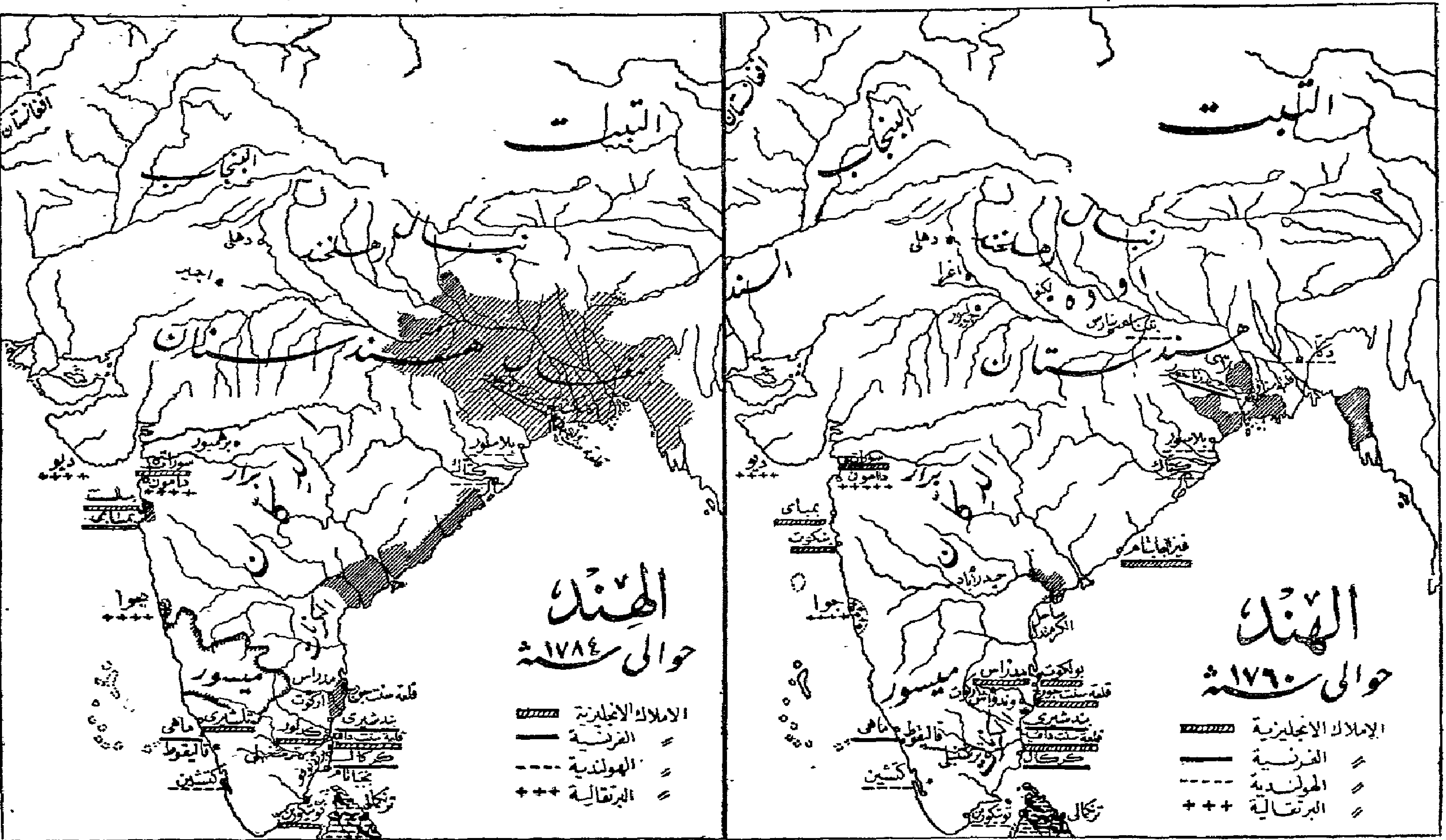
حافة الافلاس . فمكث كليف فى الهند عاماً ونصفاً قام فى خلالها بجملة اصلاحات رغم ما كان يعترضه أثناء تنفيذها من المقاومة الشديدة من عمال الشركة وجندها . فحرّم الاتجار بغير الطرق القانونية ، وقضى على عهد الهدايا والرشوة ، ورفع رواتب عمال الشركة ، ونظم الجيش وشدد فى اتباع قوانينـه ، وحسّن العلاقات بين الشركة وأمراء الهنود

سوء الحال بعد مغادرته الهند

ولكن لم يكد كليف يغادر الهند سنة ١٧٦٧ لاعتلال صحتـه حتى اختل حال الشركة ثانية وساءت ادارتها ورجعت الى سيرتها الأولى من الغش والرشوة ، وبقيت كذلك طول خمسة الأعوام التالية . وفى هذه المدة قام لمناوأة الانجليز فى جنوبى الهند «حيدر على» حاكم ميسور وأعظم قائد حربى ظهر بين الهنود الى ذلك العهد . فقد كان

حيدر على يناوئ الانجليز

بقيادته جيش عظيم من الفرسان المدربين تمكن به من مناوأة الانجليز وتحميلهم خسائر كبيرة . فظهر فجأة يؤازره « النظام » صاحب حيدر أباد أمام مدينة مدراس سنة ١٧٦٩ ،


الهند
حوالى سنة ١٧٦٠
الإملاك الإنجليزية
الفرنسية
الهولندية
البرتغالية
التبت
البنجاب
هندستان
ميسور
مدراس
بمباى
جوا
دهلى
الهند
حوالى سنة ١٧٨٤
الاملاك الانجليزية
الفرنسية
الهولندية
البرتغالية
التبت
البنجاب
هندستان
ميسور
مدراس
جوا
دهلى

ارتباك الأمر

وكانت حاميتها قد سحبت منها ؛ فلم تر الشركة بدًا من مهادنته بالشروط التى يمليها هو. ولما وصلت أخبار هذه الكارثة الى انجلترة انحطت قيمة سهام الشركة. وزاد الأمر ارتباكاً حدوث مجاعة فى بنغالة عام ١٧٧٠ ؛ مما سبب ازدياد نقص دخل الشركة وشدة حالها

لجنة لفحص شؤون الهند

ولما رأت الحكومة الانجليزية ما آل اليه أمر الشركة من سوء الادارة ، وما هى فيه من الضيق المالى ، أخذت تهتم بأمورها فعينت لجنة خاصة من قبل مجلس النواب لفحص حالة تلك البلاد فحصاً وافياً أسفر عن حقائق مخزية ؛ اذ اتضح أنه فى تسعة أعوام رشا أمراء الهند وأهلها عمال الشركة بما يربو على ٢٫٢٥٠٫٠٠٠ جنيه

قانون اللورد نورث

وشرع اللورد نورث (رئيس الوزراء اذ ذاك) يعمل على اصلاح هذه الشؤون ؛ فأصدر قانوناً سنة ١٧٧٣ يقضى باقراض الشركة مبلغاً قدره ١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، فى مقابل أن تصبح الشركة خاضعة لاشراف الحكومة عليها فى كل أمورها ، وان يسن نظام جديد لحكم الهند ، بأن يصير حاكم بنغالة الحاكم العام للهند الانجليزية ، ويكون مؤاخذاً عن كل شؤون ادارة البلاد ، ويساعده فى ذلك مجلس مؤلف من أربعة أعضاء . ويكون لمجلس ادارة الشركة الحق فى انتخاب الحاكم العام وأعضاء مجلسه بموافقة الملك . أما القضاء فتدير شؤونه فى جميع البلاد محكمة عليا بكلكتة تتألف من رئيس قضاة وثلاثة قضاة آخرين ، وأن تُعرض جميع الاقتراحات الخاصة بالأمور الحربية والملكية على الملك حتماً قبل العمل بها

محاكمة كليف

وحدث أثناء مناقشات مجلس النواب فى الشؤون الهندية أن عزى الى كليف جريمة الاشتراك فى الارتشاء أثناء اقامته بالهند . فدافع عن نفسه ، ولكن دلت الاحوال أنه ارتشى بمبالغ طائلة من عدة أمراء فى اوقات مختلفة ، فقرر المجلس إجرامه رسمياً ، الا أنه بالنسبة لما قام به لبلاده من الخدمات الجليلة محى هذا الحكم باضافة هذه الجملة الى القرار وهى : « ان اللورد كليف رغم ما ارتكبه من جريمة الرشوة قام لبلاده بخدمات جليلة تخلد له حسن الاحدوثة » . ولم يعش كليف طويلاً بعد هذه المحاكمة ، اذ انتحر سنة ١٧٧٤

حكم ورن هيستنجز

وكان أول حاكم عام نصب فى الهند على مقتضى النظام الجديد هو «وَرِن هيستنجز» سنة ١٧٧٨ ، وقد كان حاكمًا لبنغالة منذ سنة ١٧٧٢. فلما قبض على مقاليد الأمور كانت تحيط به مصاعب جمة ؛ فكان أعضاء مجلس ادارة الشركة بلندن لا همّ لهم الا نيل الأرباح الطائلة من غير أن يتبصروا فيما ينجم عن ذلك من فرض الضرائب الفادحة والجور على الأهلين ؛ وكان مجلسه الخاص حجر عثرة فى كل خططه السياسية ؛ فى حين ان أمة المهراتا (فى أواسط الهند) وحيدر على (فى جنوبيها) قاما يناصبان الانجليز العداء ؛ وكانت الطامة الكبرى عند ما أخذ الفرنسيون يدسون الدسائس على الانجليز بعد عام ١٧٧٨ ؛ مما زعزع أركان مجد الدولة البرطانية فى هذه الأصقاع. ولذلك ربما يُغتفر لهيستنجز أمام كل هذه المصاعب أن يحيد عن طريق العدل ويتبع فى بعض الأحيان خططًا وطرقًا قاسية لانفاذ مهمته

المصاعب فى طريقه

١ — مجلس ادارة الشركة

كان أعضاء مجلس ادارة الشركة العاملَ الأكبر فى كل المصاعب التى اعترضت هيستنجز فى بادئ أمره ؛ فان كثرة الحاحهم فى طلب المال جعلته يقدم على ارتكاب أول أغلاطه . وذلك أنهُ حينما كان عاملاً على بنغالة أغواه نواب «أود» أن يساعده بجيش انجليزى على كسر شوكة قبيلة « روهلا* » التى فى الشمال الغربى من أود ويعطيه على ذلك مبلغًا وفيرًا من المال ! مع أن هذه القبيلة (روهلا) رغم ما فطر عليهِ رجالها من الشجاعة وحب النزال كانوا على صفاء وتواد مع الانجليز . وبالفعل تم اخضاعها على يد النواب والعساكر الانجليز عام ١٧٧٤ بعد أن ارتُكب فيها أكبر الفظائع. ولا شك أن ايجار الجنود الانجليزية لأمير وطنى بهذه الصفة ليفتك بأمة موالية للانجليز من أكبر الأغلاط السياسية ؛ وقد وقع كل اللوم فيها على هيستنجز ، وان كان رجال مجلس الادارة فى الحقيقة هم الجناة

٢ — مجلسه الخاص

على أن متاعبه لم تقف عند هذا الحد ، بل كان مجلسه الخاص أيضًا مصدر عراقيل شتى ، اذ أن أعضاءه لم يكونوا عالمين حق العلم بالشؤون الهندية ؛ فانهم رغم تأنيبهم له على حرب الروهلا أخذوا على عاتقهم أن يعوقوا مساعيه كلما وجدوا الى ذلك

* وهى قبيلة اسلامية تنتمى الى أصل افغانى كانت خاضعة لامير مسلم يدعى حافظ رحمت خان

سبيلاً. وقد سنحت لهم الفرصة للضرب على يد هيستنجز فى مسألة «نَنْدا كومار». وذلك أن رضا خان وزير مالية الهند عُزل من منصبه من جراء اتهام نندا كومار له بالرشوة، وكان غرضه أن يخلفهُ فى هذا المنصب. فلم يمكّنه هيستنجز من ذلك، فحقد عليهِ وأضمر له الشر؛ فاتهمه بالرشوة أمام المجلس، فلم يأل المجلس جهداً فى الأخذ بناصره وابتدأ يحقق مع هيستنجز. الاّ أنهُ حدثَ فى الوقت نفسه أن اتهم نندا كومار بالغش أمام المحكمة العليا، فأثبتت اجرامه وحكم عليه رئيس القضاة بالاعدام شنقاً

٣ ـ اعلان فرنسا الحرب

وقد ظهر فى هذا الوقت خطر آخر عظيم يتهدد الانجليز فى الهند، وذلك لمّا أعلنت فرنسا عليهم الحرب عام ١٧٧٨. وكانت أمة المهراتا فى ذلك الوقت بنوا لأنفسهم ملكاً عظيماً فى أواسط الهند وأصبح لهم كل النفوذ على خان المغول؛ فرأى هيستنجز بعد أن أصبح صاحب الكلمة العليا فى المجلس ضرورة خوض غمار حرب معهم. وفى الوقت نفسه أغار على كل المستعمرات الفرنسية فى الهند وفيها بندشيرى.

الحرب مع المهراتا

فأسفرت حروبه مع أمة المهراتا عن هزيمتهم والاستيلاء على «جواليور» التى كانت تعتبر أمنع معاقلهم

حيدر على يغزو الكرنات

وحدث فى أثناء الحرب معهم أن وصلت الأخبار سنة ١٧٨٠ ان حيدر على غزا الكرنات وأغار على مدراس معوّلاً على وصول مدد فرنسى له، ليغتنم فرصة ارتباك انجلترة فى أمريكا. فلم ير هيستنجز بداً من البت بسرعة فى الطريقة التى يسلكها أمام

حسن تصرف هيستنجز

هذه القوى. فخلص نفسه من المهراتا بعقد صلح معهم سنة ١٧٨٢، وسير كل ما لديه من الجند الى مدراس. فانتصر جيشه انتصاراً باهراً بقيادة «السيرأيْرْكوت» على حيدر على والفرنسيين عند «برتونوفو» وأنقذ مدراس. وفى أثناء اشتباك القتال مات حيدر على، فخلفه ابنه «تبُّو» فواصل الحرب. ثم انضم الهولنديون الى الفرنسيين على الانجليز؛ فلم يجنوا من ذلك الاّ ضياع «نجباتام» و«ترنكومالى» من أيديهم

الحرب فى البحار

ثم بقيت المناوشات دائرة بين الانجليز والفرنسيين ولاسيما فى البحار الشرقية حتى عُقد صلح «فرساى». فأصبح بذلك «تبو» أعزل من مساعدة الفرنسيين له، فلم يرَ بداً من مهادنة الانجليز

فوز انجلترة بالهند

بهذا سلمت دولة الانجليز فى الهند ووُطدت دعائمها فى الوقت الذى كانت فيه الأخطار تتهدد انجلترة من كل جانب ، وما ذلك الاّ بقوة هيستنجز ومضاء عزمه

اغلاط هيستنجز

غير أنهُ أثناء الحرب كان يُضطر لاتباع طرق شديدة فى جمع المال الكثير الذى كانت تحتم عليه انفاقه هذه الحروب . فطالب من « راجا بنارِس » (وكان من اتباع الانجليز) مالاً ورجالاً . فلما شكا هذا من كثرة ما يطلب منه عزله هيستنجز وولى آخر مكانه . وقد اتبع هيستنجز مثل هذه الطريقة فى « أود » ؛ فانه اغتصب من أم « االنوب » وجدّته نحو ألف ألف من الجنيهات بعد أن حاصرهما فى قصرهما ، بدون سبب غير أنهما تملكان هذا المال

سخط الامة الانجليزية عليه

وقد برر هيستنجز أعماله هذه بدعوى أن سلامة الأملاك الانجليزية كانت فى خطر ولا بدّ له من المال لمقاومة الفرنسيين وحيدر على . ولكن الرأى العام فى انجلترة لم يعد أعماله الاّ مثالاً آخر من أمثلة السلب والنهب التى شوهت اسم الشركة وأساءت سمعتها ؛ فصدر الأمر من مجلس النواب بتحقيق الأمر عام ١٧٨١؛ فانتهى التحقيق باصدار قرار بالسخط على حكومة الشركة وباسترجاع هيستنجز. فلم يوافق على ذلك أعضاء مجلس الشركة ؛ ثم عَرض بعد ذلك « فكس » على مجلس النواب مشروع قانون للهند سنة ١٧٨٣ ، فلم يوافق عليه . ولم يمض طويل زمن حتى نُصب « بِت الأصغر »* رئيساً للوزارة الانجليزية ، وكان من أول أعماله اصدار قانونه الجديد لبلاد الهند سنة ١٧٨٤ . وقد جعل فيه للحكومة الانجليزية نفوذاً عظيماً على شركة الهند الشرقية . فاصبحت كل الأمور السياسية وجل الشؤون الادارية الهامة تحت مراقبة ادارة خاصة بانجلترة مكونة من أربعة من أعضاء مجلس الملك الخاص ، ويرأسها وزير من وزراء الحكومة الانجليزية مؤاخذ أمام مجلس النواب عن كل أعماله أسوة بغيره من الوزراء . وعيُن لمساعدة هذه الادارة لجنة سرية مؤلفة من ثلاثة من مديرى الشركة ، لتمدها بالمعلومات التفصيلية عن الهند

قانون سنة ١٧٨٤ لاصلاح الهند

* ابن بت لورد شاتام

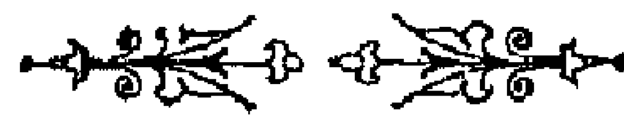
أما فى الهند نفسها فكانت مقاليد الأمور بيد الحاكم العام ومجلس مؤلف من ثلاثة أعضاء ، وأصبح حاكما مدراس وبمباى تحت اشراف حاكم بنغالة فى كل الأمور السياسية والحربية والمالية

محاكمة هيستنجز

وفى عام ١٧٨٥ عاد هيستنجز الى انجلترة فقابلتهُ الأمة فى بادئ الأمر بالترحاب، اذ كان كل فرد يقدر ما قام به نحو أمته من الخدمات الجليلة ، ولكن ما لبث أن انبرى له بعض رجال الانجليز وبخاصة الكاتب الكبير والخطيب المصقع «برِك» : دفعهُ بغضه للاضطهاد والظلم الى تصديق التقريرات المبالغ فيها عن سيرة هيستنجز فى الهند . فعدد كل مساوئهِ وجرائمه أمام مجلس النواب ؛ وساعد برك فى ذلك « بِتْ » نفسه . فدافع هيستنجز عن نفسه ، وظلت محاكمته من عام ١٧٨٨ الى عام ١٧٩٥ ؛ وأسفرت النتيجة طبعًا عن براءتهِ التامة . وقد فاه أثناء الدفاع عن

النتيجة

نفسه بجملة خالدة تضمنت كل نتائج أعماله فى الهند ، اذ قال : « ان ما استولت عليه شجاعة غيرى زدتُ فيه ووطّدتُ أركانه »



فهرست

الباب الأول — النهضة والإصلاح الدينى فى أوربا

الباب الثانى — تاريخ أوربا الى نهاية عهد الإصلاح الدينى

الباب الثالث — أوربا بعد عهد الإصلاح الدينى

الباب الرابع — المنافسة الاستعمارية

